الجامعة الأردنية
كلية الآداب
قسم اللغة العربية
وآدابها
الدراسات العليا

رسالة ماجستير

بعنوان

"نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية"

إعداد
محمود فايز إبراهيم السرطاوي
١٩٨٦ - ١٩٨٧

إشراف
الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

(قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب في الجامعة الأردنية)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا.

(الأَحْزاب : ٢٣)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــــداء

إلى روح نور الدين الشهيـــــد ،

وأرواح شهداء الأمة الإسلامية ،

الذين ضحّوا من أجل أن تبقى راية الإسلام خفّاقـــــة ،

وصـوت القـــرآن مسموعـــــًا ،

وإلى والديَّ الحبيبيـــن ، ثمرة من ثمار غرسهما ،

وإخوتـــي الأعـــزاء ،

وإلى زوجتي العزيزة وأبنائي رياحـين حياتـي ...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكـــــر وتقديـــــر

ما شرح صدري وأدخل السرور إلى قلبي أن يناقـــش هذا البحث ثلاثة من خيرة الأساتذة الفيورين على التـــراث الإسلامـــي .

فأتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان إلى أستاذي الفاضل الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي ، إذ لولاه لما رأى هذا البحـث النـور .

كما يسعدني أن أقدر لأستاذي الجليل الدكتور محمـــود إبراهيم فضله العظيم في نصيحته لي للكتابة في هذا الموضـوع منذ البداية ، ومن ثم قراءة البحث وإبداء الآراء وتوجيـــــه الملاحظات التي أفدت منها كثيرا ، وأشكر له أخيرًا ، تفضّلـــه بالموافقة على مناقشة البحث .

وأتقـــــــــــدّم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الكريم الدكتور نصرت عبدالرحمن ، إذ وافق على مناقشة البحـــــــث ، وتزويدي من غزير علمه ، وتصويب ما وقعت فيه من أخطاء .

كما أقدم شكري إلى أخي الشيخ صالح أحمد البوريـــي الذي يرجع الفضل إليه في طباعة هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ،

لقد عانت الأمة الإسلامية في القرن الخامس الهجري من التفكك والانحلال ، وكانت محتاجة إلى من يوحد كلمتها .

وكان نور الدين من أبرز أبطال الحروب الصليبية ، وكان بروزه نقطة تحول في تاريخ تلك الحروب ،لأن الأساس الذي وضعه نور الدين هو الذي مكن لصلاح الدين في أرض الشام ومصر .

وشخصية نور الدين من الشخصيات الفذّة ،وهي شخصية محورية في فترة الصراع بين المسلمين والصليبيين ، فقد استطاع أن يبني الجبهة الداخلية ، واستطاع توحيد الشام ومصر ، وحقق انتصارات في معارك عديدة .

وقد لاحظت أن لنور الدين أثرًا في الحركة الفكرية والأدبية لا يقل عن الحركة الجهادية ، كما لاحظت وقوف الأدباء إلى جانبه في المعركة ضدّ العدوّ .

وقد أعجبت بشخصية هذا البطل المسلم ، الذي استطاع أن يجعل من المسلمين قوة غيرت مجريات الأمور لصالح المسلمين ، مما دعاني إلى هذه الدراسة .

وقد كان لقسم اللغة العربية الفضل في طرح مساقات تبحث في أدب مصر والشام ،وفي أثناء دراستي لفت انتباهي شخصية نور الدين القيادية ، وإعجاب الأدباء والمؤرخين به ، لذا وجدت في نفسي الرغبة في البحث في جوانب شخصية هذا البطل ، لاسيّما بعد نصيحة أستاذي الدكتور محمود إبراهيم ، فكانت هذه الدراسة بعنوان :

" نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية "

ومن دواعي هذه الدراسة ، تعرُّفُ التاريخ الفكري والسياسي لفترة من فترات الحكم الإسلامي ، وهي فترة خصبة نظرًا للصراع المرير بين المسلمين والصليبيين ، ولم ينلها إلاّ القليل من الدراسة .

وتعرُّفُ الدّور الذي اضطلع به الأدب لأهميته في حمل هموم الأمة والتعبير عنها ، وفي التحريض على الجهاد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد رأيت أن دور نور الدين لا يقل عن دور صلاح الدين في الدفاع عن الأرض الإسلامية ، وقد ذاع صيت صلاح الدين ولم يذكر فضل نور الدين إلاّ قليلاً .

وما قوّى الرغبة في نفسي هذا التشابه بين الأوضاع القاسية التي مرت بها أمتنا والأوضاع التي تمرّ بها حاليًا ، وكأنّ التاريخ يعيد نفسه ، فكان من مسوغات هذه الدراسة الاستفادة من هموم الماضي .

* * *

وقد نشرت بعض الكتب الحديثة التي تبحث في حياة نور الدين ومنها : كتاب " نور الدين والصليبيون " لحسن حبشي ،وكتاب " نور الدين محمود " لحسين مؤنس ، وكتاب " نور الدين محمود ، الرجل والتجربة " لعماد الدين خليل ، وكتاب " نور الدين " لاليسيف ، وهو باللغة الفرنسية ، وقد تناولت هذه المؤلفات نور الدين من الوجهة التاريخية .

إضافة إلى إشارات مبعثرة في بعض الدراسات الحديثة ومنها : أدب الحروب الصليبية للدكتور عبداللطيف حمزة ، وأدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) للدكتور عمر موسى باشا ، والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد أحمد بدوي ، وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود إبراهيم ، والشعر الشامي في مواجهة الصليبيين (رسالة دكتوراة) إعداد محمود عبدالله ، وصورة الصليبيين في الأدب العربي (رسالة ماجستير) إعداد عبد القادر أبو شريفة ، وفلسطين في أدب القرن السادس الهجري (رسالة ماجستير) إعداد فاطمة السعدي ، والقدسيات في شعر الحروب الصليبية (رسالة ماجستير) إعداد ناجي عبدالجبار ، ومعارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية (رسالة ماجستير) إعداد هادي نهر .

وقد اطّلعت على هذه الدراسات وأفدت منها ،ولكنني لم أتمكن من الاطلاع على رسالة ماجستير علمت بها ، وهي بعنوان " الأدب في ظلّ الدولة الزنكية "، إعداد عبدالوهاب محمد علي العدواني ، ومشار إليها بأنها "أُكملت ولم تناقش"، الآداب - بغداد ، وقد بحثت عن الرسالة في جامعة بغداد بواسطة أحد العاملين في السفارة العراقية ، ولكن العاملين في الجامعة أخبروه بأن الرسالة غير موجودة في الجامعة ، وأنهم لا يعرفون عنوان كاتبها . وهذا يعني أن دراسة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدبية علمية متخصصة مستقلة حول " نور الدين " لم تعد بعد ، فيما وصل إليه علمي ، وأحاط به اطّلاعي .

ولذا رأيت أن من واجبي أن أنهض بهذه المهمة ، وأقدّم هذا الجهد المتواضع .

* * *

وبعد جمع المادة الشعرية والنثرية من مصادرها الأساسية قمت بدراستها وتحليلها ثم تصنيفها بحيث تشكل الإطار الكلي لموضوع " نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية " .

وقد كانت النصوص التي تدور حول شخصية نور الدين متشابهة إلى حدّ كبير في مضامينها ولذا فقد وجدت صعوبة وشقة في التفصيل والتقسيم وتيسير المادة بسبب تداخل الشواهد .

وأشير إلى أنني وجدت مادة شعرية غزيرة للدراسة ، أما المادة النثرية فهي قليلة إذا ما قيست بالشعر حيث أنّني عثرت على بعض الرسائل ولم أتمكن من العثور على خطبة من الخطب في عهد نور الدين ، مع أن الأحداث والظروف مواتية لازدهار هذا الفن النثري ، وربّما فقدت هذه الخطب مع ما فقد من تراث هذه الفترة ، حين اعترى البلاد الإسلامية إعصار الأقوام الغازية من صليبيين ومغول .

وقد تجاوزت الحدود الاقليمية في ذكر أدباء نور الدين ، فاعتبرت شاعر نور الدين وكاتبه من مدحه أو كتب له أو كتب إليه أو وصف معاركه وأشاد بقادته وجيوشه أو رثاه أو صوّر سياسته أو تحدّث عن الفراغ السياسي الذي نشأ بعد وفاته بقليل ، وكلّ ذلك ضمن الإطار الزمني للدراسة ، واستثنيت من الدراسة الأدباء الذين عاصروا نور الدين ولكنهم لم يتصلوا به من قريب أو بعيد .

وكنت أتكيء على الروايات والأحداث التاريخية في المواضع التي تتطلب ذلك ، إذ إنها مادة ساندة للمادة الأدبية ، وكما هو معروف فإنّ التاريخ الأدبي لا ينفصل عن التاريخ العام .

* * *

وقد بنيت هذا البحث على تمهيد وأربعة أبواب وخاتمة ، فخصّصت التمهيد لدراسة الحياة الأدبية والفكرية في عهد نور الدين بشكل موجز ، وبيّنت فيه دور نور الدين في تنشيطها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعرضت في الباب الأول سيرة نور الدين مستقاة من الأدب في ضوء التاريخ ، فتحدثت في الفصل الأول عن حياته ، وفي الفصل الثاني عن صفاته .

أما الباب الثاني فقد تحدثت فيه عن نور الدين في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية ، فتناولت في الفصل الأول الحديث عن نور الدين الحاكم المسلم ، وفيه ثلاثة مباحث : الأول -: الإداري ،والثاني : السياسي ، والثالث : العسكري .

وبيّنت في الفصل الثاني صورة نور الدين البطل المسلم ، وفيه ثلاثة مباحث أيضا ،الأول : المجاهد ، ويشتمل على : جهاد نور الدين ضد العدو ، وسعيه لاسترداد المقدسات والأرض المحتلة ، والثاني : الساعي للوحدة الإسلامية ، والثالث : المقتدي بالسلف الصالح .

وأما الباب الثالث فقد تحدثت فيه عن نور الدين والأدباء ، وكشفت عن العلاقة القوية التي تربطه بهم ، فتحدثت عن علاقته بالشعراء أولاً ثم بالكتاب بعد ذلك ، واتبعت التسلسل الزمني لاتصال الأديب بنور الدين ، إضافة إلى مدى قوة العلاقة التي تربط بينهما . ثم فصّلت الحديث في بعض العلاقات التي تبيّن مدى اهتمام نور الدين بالأدباء ،ورأيت أن أخصّ هذا الباب بتعريفات بالأدباء في الحواشي .

واشتمل الباب الرابع على دراسة فنّية ، فقد تحدثت في الفصل الأول عن سمات الشعر وفي الفصل الثاني عن سمات النثر .

وأما الخاتمة : فقد أجملت فيها أهم النتائج التي تمخّض عنها البحث ، ثم أتبعتها بفهارس : للأعلام ،والبلدان ، والمصادر والمراجع .

* * *

وقد اعتمدت في هذا البحث على عدد من دواوين الشعراء ، والمصادر الأدبية والتاريخية ، والمراجع الحديثة ، وسأعرض لأهم مصادر الدراسة ، ويجد القارئ عددًا كبيرًا منها في ثَبَت المصادر والمراجع في نهاية البحث .

دواوين الشعراء :

استعرضت مجموعة الدواوين المطبوعة لشعراء نور الدين وهي :

ديوان ابن منير الطرابلسي (٥٤٨)هـ : فيه الكثير من القصائد الشعرية التي تمجّد نور الدين وتصف معاركه ، وقد جمع الدكتور عمر عبد السلام تدمري هذه القصائد وخرّج معظم أبياتها من الخريدة والروضتين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ديوان طلائع بن رزّيك (٥٥٦) هـ : وفيه رسائل شعرية بعث بها إلى أسامة بن منقذ ، وقد مدح فيها نور الدين وحرضه على الجهاد ، وفي الديوان قصائد تصف غزوات ابن رزيك ضد الصليبيين ، وقصائد تسجل بعض الأحداث السياسية آنذاك .

ديوان عرقلة الكلبي (٥٦٧) هـ : لم أعثر فيه على شعر في نور الدين سوى بضعة أبيات قالها الشاعر في مدرسة أنشأها نور الدين ، وفي الديوان قصائد في مدح اثنين من أبرز قادة نور الدين وهما : أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وقد حرضهما الشاعر على احتلال مصر .

ديوان ابن الدهّان الموصلي (٥٨١) هـ : فيه قصيدة واحدة قالها الشاعر في نور الدين سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ،ولم أعثر على غيرها ، وجلّ قصائده في مدح صلاح الدين وبعض الأمراء ، ومدائح في الوزير المصري طلائع ابن رزيك .

ديوان أسامة بن منقذ (٥٨٤) هـ : ضمّ هذا الديوان أغلب شعر أسامة ابن منقذ ، وقد رتّب الشاعر انتاجه حسب أغراض الشعر ، وقد ضم الديوان قصائد في الحماسة ووصف بطولة نور الدين ومعاركه ، ومنها : الرسائل الشعرية التي ردّ بها أسامة على رسائل طلائع بن رزيك .

ديوان عماد الدين الأصفهاني (٥٩٧) هـ : وفيه كثير من القصائد التي قالها العماد في مدح نور الدين أو وصف معاركه أو تهنئته أو رثائه ، وقد جمع الدكتور ناظم رشيد هذه القصائد ، وخرّج معظم أبياتها من الخريدة والروضتين .

أما المصادر الأدبية والتاريخية "فقد رتبتها حسب سنوات الوفاة لمؤلفيها" .

يأتي في طليعة المؤلفات التاريخية " ذيل تاريخ دمشق "، لأبي يعلى حمزة بن القلانسي (٥٥٥) هـ : وهو كتاب تاريخي قسّم لمعاصرة مؤلفه الحوادث التي تحدث عنها ،وعن هذا الكتاب ينقل أغلب المؤرخين كأبي شامة وابن العديم وابن تغري بردي وغيرهم ، ونصيب الشعر في الكتاب قليل حيث انه يورد بعض الأبيات ، ومعظمها في رثاء من يترجم لهم .

أما كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ (٥٨٤) هـ ، فهو من كتب السيرة الذاتية ، وهو عبارة عن مذكرات وملاحظات كتبها المؤلف في شيخوخته ، وفيه إشارات عن علاقة المؤلف بنور الدين ومصاحبته له ، ويعطينا الكتاب صورة واضحة عن علاقة المسلمين بالصليبيين ، وفيه تسجيل لبعض

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحوادث التي كانت تحدث للكاتب في حياته ، وهو يكتب مادته بكل موضوعية ودقة ، وهذه المادة تكتسب أهميتها وقيمتها من أنها وليدة المشاهدة والسماع ، وللكتاب قيم : تاريخية واجتماعية وسياسية .

ومن أبرز مصادر الأدب في فترة الدراسة كتاب " خريدة القصر وجريدة العصر " لعماد الدين الأصفهاني (٥٩٧)هـ : وهو خير كتب العماد وأشهرها ، ترجم فيه لشعراء عصره فيما بين سنة خمسمائة وسنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وكان العماد أقرب إلى أن يختار منه إلى أن يجمع ، وهو إما أن يكون مشاهداً لما يتحدث عنه أو ناقلاً عن ديوان أو متصلاً بالبعض اتصالاً مباشراً أو مراسلاً للبعض الآخر ، وبذلك تكتسب مادة الكتاب عنصري المعاصرة والصدق ، وتعود أهمية الكتاب أيضا إلى وجود أشعار لعدد من الشعراء ليس لهم دواوين مطبوعة أو ليس لهم دواوين . والكتاب في عدة مجلدات ، ومقسم على بيئات مختلفة وقد أفدت في دراستي من أقسام ثلاثة هي : قسم الشام ، وقسم مصر ، وقسم العراق .

أما "معجم الأدباء" لياقوت الحموي (٦٢٦)هـ ، فهو من أهم كتب التراجم التي تزوّدنا بمعلومات قيّمة عن الأدباء ، ويضاف إلى ذلك ما تزودنا به من روايات تاريخية ونصوص أدبية .

ومن المصادر التاريخية المهمة كتابان لابن الأثير (٦٣١)هـ ، أولهما : " الكامل في التاريخ " ، وثانيهما : " التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية .

والكامل من كتب التاريخ العامة ، وفيه تاريخ للحوادث ، وكان ابن الأثير يورد بعض الأبيات الشعرية المبتسرة كشاهد لما يسوقه من أخبار .

أما كتاب " الباهر " ، فقد أرّخ فيه ابن الأثير للدولة الزنكية ، وأعطانا معلومات قيّمة عن حياة نور الدين العامة والخاصة ، وقد أبدع المؤرخ في وصف المعارك التي خاضها نور الدين ، وأورد لنا كثيراً من الأشعار التي تشيد بنور الدين .

ولأبي شامة المقدسي (٦٦٥) هـ كتابان من أهم مصادر الأدب والتاريخ في عصر الحروب الصليبية ، أولهما : كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " ، وثانيهما : "الذيل على الروضتين" ، وكتاب الروضتين يمثل النبع الأساسي لهذه الدراسة ، فهو يكتسب أهمية بالغة لكون أبي شامة من معاصري الفترة التي يؤرخ لها ، ومن كونه من مواطني بلاد الشام ، وهي مسرح الأحداث والمعارك التي خاضها نور الدين ، وقد كتب عن نور الدين ودولته ، وسجل الأحداث التي حدثت في عصره ، وحفظ كثيراً من الأشعار والمراسلات والكتب التي مجّدت نور الدين وواكبت معاركه ، وتتضح أهمية الكتاب من حيث أنه يتشكل من مجموعة المصادر القيّمة التي تعطي صورة واضحة عن فترة حكم كل من نور الدين وصلاح الدين ، وأكثر أصحاب هذه المصادر عاصر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأحداث التي سجلها ، ومن هؤلاء : ابن القلانسي ، وابن عساكر وابن الأثير ،وابن شداد ، والعماد الأصفهاني وغيرهم .

وقيمة الكتاب تبدو أيضا ، من النهج التأليفي الذي تميّز به أبو شامة عمّن سبقه من المؤرخين ، ذلك أنه راوح بين التاريخ والأدب ، وجعل الشعر سنداً للتاريخ ، وحفظ لنا الكتاب مادة أدبية وتاريخية قيّمة استقاها المؤلف من مصادرَ هي الآن في عداد المفقودة .

أما " الذيل على الروضتين " ، فهو كتاب تراجم لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين ، إلى سنة وفاة المؤلّف ، وفيه بعض النماذج الأدبية .

ومن كتب التراجم المهمة الأخرى ، التي لا يستغني عنها الباحث في هذه الفترة ، كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان (٦٨١)هـ ، وفيه اضافة إلى التراجم مادة أدبية واخبارية تغني البحث .

أما كتاب ابن واصل " (٦٩٧)هـ "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" ، فقد استهله المؤلف بالحديث عن صراع الزنكيين مع الصليبيين ، وانتهى الجزء الأول منه بوفاة نور الدين ، وقد أورد المؤلف بعض الأشعار المبتسرة ، والكتب والمراسلات السياسية .

وقد أفدت من بعض المصادر الموسوعية ومن أهمها : " نهاية الأرب " للنويري (٧٣٣)هـ ، " وصبح الأعشى في صناعة الانشاء" للقلقشندي (٨٢١) هـ ، وقد حفظت لنا هذه المصادر كثيرا من النصوص الأدبية وفيها أحكام نقدية ، إضافة إلى تفسيرها بعض المصطلحات المتداولة في تلك الفترة وتزويدنا بالأخبار وتراجم الأعلام .

وأما كتاب " الكواكب الدرية في السيرة النورية " ، لبدر الدين بن قاضي شهبة (٨٧٤)هـ ، فهو سرد تاريخي لسيرة نور الدين فقد تحدث المؤلف عن صفات نور الدين وفتوحاته وبعض الحوادث في زمانه ، وفيه نبذة مختصرة مما مدح به من أشعار ، وقد أعتمد في كتابه على من سبقه من المؤرخين .

* ** *

وبعد ، فإني آمل أن تضيف هذه الدراسة جديداً إلى ما سبق من بحوث ودراسات ، ولفت انتباه الباحثين إلى أهمية دراسة بعض الشخصيات التي برزت في تلك الفترة من الفترات التي مر بها أدبنا العربي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي نهاية هذه الكلمة أورد ما قاله كاتب نور الدين وشاعره العماد الأصفهاني : " إنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلّا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر " .

ولا يفوتني أن أقدّم شكري العميق لأستاذي الفاضل الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، راعي هذا البحث ، لما أولاني من رعايته وما وهبني من علمه ووقته ، وما أسدى إلي من إرشادات نافعة وتوجيهات قيّمة ، كان لها الفضل الكبير في إخراج هذا البحث على صورته الحالية .

فإليه أقدّم امتناني وعرفاني ، داعيًا الله أن يجزيه عني وعن العلم خير جزاء .

وما توفيقي إلّا باللّه .

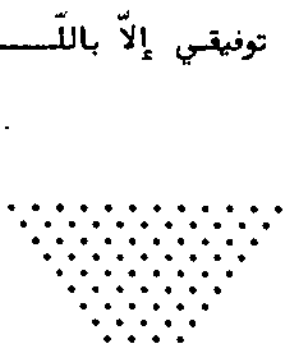

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

(تمهيـــد)

الحياة الأدبية والفكرية في عهد نور الديـــــن

نشطت الحياة الأدبية والفكرية في عهد نور الدين ، وذلك لاهتمامه بالعلم والعلماء ،إلى جانب جهاده ومقارعته للصليبيين . وقد عمل على نشر العلوم المختلفة في دولته ، وكان يميل بشكل خاص إلى العلوم الدينيـــة ، " فقد كان عارفًا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفه ،ليس عنده فيه تعصـب بل الإنصـاف سجيّته في كلّ شيء "(١) .

وسمع نور الدين الحديث ،وأسمعه ، طلبًا للأجر(٢) . وذكـــر أبو شامة أنّ نور الدين حدّث بحلبَ ودمشقَ عن جماعة من العلماء ،أجازوا له (٣) .

وجمع نور الدين الحديث ،حرصًا منه على فعل الخير في نشر السنـــة ، بالأداء والتحديث (٤) .

وقد كـان نور الدين " حسن الخط ،كثير المطالعة للكتب الدينيـــة ، متبعا للآثار النبوية ،عاكفًا على تلاوة القرآن "(٥) .

وكمـا يبدو فإن نور الدين كان يتكلم العربية كما يتكلمها أهل عصره فـي الموصل وحلب ،فإذا كتبها ،كتب بأسلوب بسيط(٦) .

ويظهر لنا اهتمامه بالحياة الأدبية والفكرية ،من خلال استعراضنـــا لإنجازاته في هذا المجال .

---

(١) الباهر/ ١٦٥ ،والكامل ١١/ ٤٠٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٤ ، والمختصـر في أخبار البشر ٢/ ٧٥ .

(٢) المصادر نفسهـــا . (٣) كتاب الروضتين ١/ ٢٩ - ٣٠ .

(٤) الكواكب الدرية / ٥٧ .

(٥) كتاب الروضتين ١/ ١٠ ،والبداية والنهاية ١٢/ ٢٧٨ ،والدارس في تاريخ المدارس ١/ ٦٠٨ .

(٦) ومن أمثلة كتابتـــه : ما كتبه على رأس رقعة ،كتبها له خالد بـــن القيسراني ، تتضمن صورة ما يدعى له به على المنابر ، كتب ما نصّه : " مقصودي ألاّ يكذب على المنبر ،أنا بخلاف كلّ ما يقال . أفرح بما لا أعمل ،قلة عقـــل =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد استقطب نور الدين بعض العلماء والأدباء من المشرق والمغرب ، وتعهّدهم بالرعاية والتشجيع ،ومن هؤلاء العلماء : برهان الدين أبو الحسن علي بن الحسن البلخيّ الحنفي (١) ،وهو ممن استدعاهم نور الدين للتدريس في حلب ،" وكان يحضر مجلسه بجامع دمشق ، وكان برهان الدين يخاطب نورالدين بـ (محمود) ،وكان نور الدين يقول : إنّ البلخي إذا قال : يا محمود ، قامت كلّ شعرة في جسدي ، هيبةً له ، ويرقّ قلبي "(٢) .

ووفد من خراسان القطب النيسابوري الشافعي (٣) ،فسر به نور الدين ، وأنزله بحلب ،ثم أطلعه إلى دمشق ،ودرس بها (٤) .

ومن فقهاء الشافعيّة أيضًا ، خطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل ابن عبد الحارثي الدمشقي ،وقد أخذ عنه ابن عساكر ، وقال : كان سديد الفتوى واسع الحفظ ، ثبتًا في الرواية (٥) . ووفد من أصبهان الفقيه عبد المؤمن بن شوروه (٦) .

ومن قدم من الأندلس الشيخ شعيب ، الفقيه الأندلسي الذي ولاّه نور الدين مدرسة ،وسميت الشعيبية باسمه (٧) .

= عظيم ،الذي كتبت جيد هو ،اكتب به نسخًا حتى نسيّره الى جميع البلاد" . (انظر النص في كتاب الروضتين ١/ ٣٠) .

(١) برهان الدين البلخيّ : رئيس الحنفية ،كان ورعًا تقيًا ،ديّنًا عفيفًا متصوفًا وكان متواضعًا ،متودداً إلى الناس ، توفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . (انظر ترجمته في كتاب الروضتين ١/ ٢٢٧ ،وزبدة الحلب٢/ ٢٩٣ - ٢٩٤) .

(٢) عيون التواريخ ١٢/ ٤٧٤ .

(٣) قطب الدين النيسابوري (٥٠٥ - ٥٧٨ هـ) : العلاّمة أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود الطُرَيْثيثيّ الشافعي ،فقيه عصره ، شرع نور الدين في إنشاء مدرسة للشافعية لفضله ،وانتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق ،وكان حسن الأخلاق قليل التصنّع . (انظر ترجمته في : سنا البرق الشامي ١/ ١٣٤ ، وكتاب الروضتين ٢/ ٥٤٥

(٤) كتاب الروضتين ١/ ٢٢ .

(٥) دَرَّس بالغزالية وبالمجاهدية ،وبنى له نور الدين مدرسته التي عند باب الفرج ،فدرَّسَ بها (انظر ترجمته في : العبر في خبر من غبر ٤/ ١٧٧ ، وشذرات الذهب ٤/ ٢٠٥) . (٦) هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصبهاني الحنفي ،ولقبه شوروه (كتاب الروضتين ١/ ٢٧) .

(٧) هو شعيب بن أبي الحسن بن الحسين بن أحمد (أعلام النبلاء ٢/ ٧٦) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن علماء اللغة والنحو الذين قدموا حلب، حجّة الدين أبو جعفر النّحوي اللّغوي، وكان أعلم باللغة من النحو (١).

وكان نور الدين يسمع الحديث من الحافظ المؤرخ أبي القاسم بن عساكر (٢).

واستدعى نور الدين من إحدى نواحي سنجار (٣) الفقيه الشافعي الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون (٤)، وأفاد من كفايته وعلمه (٥).

وكان عمل العلماء لا يقتصر على التدريس ونشر العلم، إذ كان نور الدين يعتمد عليهم، ويثق بهم ويؤمّنهم على عظائم الأمور، ويرسل معهم رسائله، إلى الخليفة العباسي، والخليفة الفاطمي، وإلى قائده صلاح الدين في مصر، ففي سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة رجع شرف الدين بن أبي عصرون من بغداد، وقد أدّى الرسالة بالخطبة العباسية، ومعه توقيع لنور الدين، بدرب هارون وصريفين (٦)، فأراد نور الدين أن ينشئ ببغداد مدرسة على حافّة دجلة، ويقف عليها القريتين، فأدركه أجله، وعاقه القدر عن ذلك (٧).

والسّفارة الأخرى كانت لزين الدين بن نجا الواعظ (٨)، فقد بعثه نور الدين محمود رسولاً إلى بغداد.

---

(١) وهو محمد بن عبدالله بن محمد بن ظَفَر المكيّ الصقليّ، كان صالحًا ورعًا وزاهدًا، وله شعر حسن، وأقام بحماة إلى أن مات بها سنة خمس وستين وخمسمائة (بغية الوعاة ١/ ١٤٢).

(٢) انظر كتاب الروضتين ١/ ٢٧، وانظر ترجمة ابن عساكر في الحديث عن نور الدين والأدباء ب ٣ من هذه الدراسة. (٣) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام (مراصد الاطلاع ٢/ ٧٤٣).

(٤) ابن أبي عصرون: ولد بالموصل سنة ٤٩٢ هـ وتوفي بدمشق سنة ٥٨٥هـ. الإمام شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد بن أبي عصرون. حجة الإسلام مفتي العراق والشام، من أعيان فقهاء عصره، بنى له نور الدين المدارس في منبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق، وفوضه أن يولّيَ التدريس فيها من يشاء وكان نور الدين قد أسند إليه أمور الشرع، وعوّل على فتاويه في الأصل والفرع وتولى قاضي القضاة بدمشق وجميع الممالك الملكية الناصرية بالشام سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بعد وفاة كمال الدين الشهرزوري، وله ثمانون سنة (انظر ترجمته في: الخريدة، قسم الشام ٢/ ٣٥١-٣٥٤، والأعلاق الخطيرة ٩٨-٩٩، وزبدة الحلب ٢/ ٢٩٣-٢٩٤، ووفيات الأعيان ٣/ ٥٣-٥٥.

(٥) وفيات الأعيان ٣/ ٥٣-٥٤. (٦) قريتان من أعمال العراق كانتا قديما لأبيه عماد الدين زنكي (انظر الروضتين ٢/ ٥٩٤، والكواكب الدرية ٢٢٠).

(٧) انظر الروضتين ٢/ ٥٩٤. (٨) اسمه أبو الحسن علي بن إبراهيم الحنبلي، ولد بدمشق سنة ثمانٍ وخمسمائة، ونشأ بها، اشتغل بالتفسير والوعظ، وكانت وفاته بمصر سنة تسع وتسعين وخمسمائة (انظر ترجمته في ذيل الروضتين ٣٤-٣٥ ووفيات الأعيان ٢/ ٥٣٠).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الشيخ عمر المُلاّ (١) ،فقد كان نور الدين من أخصّ محبّيه ،يستشيره في حضوره ، ويكاتبه في مصالح أموره (٢) .

ومن العلماء ورجال السياسة الذين اعتمد عليهم نور الدين كمال الدين الشهرزوري (٣) ، قاضي دمشق ،فقد ولاّه نور الدين القضاء وأمر المساجد والمدارس والأوقاف والحسبة ،والأمور الدينية والشرعية ، وكان صاحب القلم والسيف ،وكانت شحنكية (٤) دمشق إليه (٥) .

وتقديرًا من نور الدين للعلماء ،كان يَوَدُّهم ويزورهم في أماكنهم ،فقد زار الشيخ أبا البيان محمد المعروف بابن الحوراني (٦) ،في رباطه ،ووقف عليه شيئا (٧) .

وأورد ابن الأثير أن نور الدين "كان يكرم العلماء وأهل الدين ،ويعظّمهم ويعطيهم ،ويقوم إليهم ،ويجلسهم معه ،وينبسط معهم ،ولا يردّ لهم قولاً ،ويكاتبهم بخطّ يده" (٨) .

وكان نور الدين يجمع العلماء والفقهاء ،ويشاورهم في مختلف الأمور التي تتعلق بشؤون الدولة ، فقد "حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ،جماعة من الفقهاء ،والأئمة والأعيان ،وسألهم عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفًا عليه ،وقال لهم : ليس يجوز لأحد منكم أن يَعْلَمَ من ذلك شيئًا ، إلاّ ويذكره ... الخ" (٩) .

---

(١) عمر الملاّ : شيخ صالح عابد ،كانت له زاوية يقصد إليها ،في الموصل ،وله في كل سنة دعوة في شهر المولد ،يحضر فيها عنده الطوك والأمراء والعلماء والوزراء ويحتفل بذلك ،وكان نور الدين صاحبه ،ويعتمده في مُهمّاته (انظر البداية والنهاية ١٢/٢٦٣) .

(٢) سنا البرق الشامي ١/٩٨ ،وكتاب الروضتين ٢/٤٨٠ .

(٣) الشهرزوري: نسبة إلى شهرزور ،وهي بلدة بين الموصل وزنجان ،بناها زور بن الضحّاك فقيل شهر زور ،يعني بلد زور (انظر الأنساب ٧/٤١٧) ، وهو كمال الدين محمد بن عبدالله بن القاسم ،قاضي قضاة الشام في الأيام النورية وبعض الصلاحية ، كان إمامًا فاضلاً فقيهًا ،توفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة (انظر ترجمته في : ذيل الروضتين ٣٥ والنجوم الزاهرة ٦/٧٩-٨٠ ،والخريدة قسم الشام ٢/٣٢٣) .

(٤) الشحنكية : أطلقت على رياسة الشرطة ،أو الأمير المشرف على حراسة البلد (النوادر السلطانية /٧٣) .

(٥) النجوم الزاهرة ٦/٧٩-٨٠) . (٦) ابن الحوراني : فقيه زاهد ،كان حسن الطريقة ،مذ نشأ صبيًا ،إلى أن قضى ،وكان متديّنًا ،نقيًا عفيفًا سخيًا،محبًا للعلم والأدب والمطالعة للغة العرب وعند وفاته تأسّف الناس له وأثنوا عليه (انظر : كتاب الروضتين ١/٢٦٠) .

(٧) البداية والنهاية ١٢/٢٣٥ .

(٨) الكامل ١١/٤٠٥ ،وأعلام النبلاء ٢/٧٠-٧١ .

(٩) انظر الخبر ،وبقيّته في الروضتين ١/٤١-٤٢ ،والكواكب الدرّية /٤٧-٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأورد أبو شامة ،أنَّ نور الدين " كان يعظّم العلماء ويوقّرهم ويحترمهم ، ويجمعهم عند البحث والنظر ،فقصدوه من البلاد الشاسعة ،من خراسان وغيرها ، وكان أهل الدين عنده في أعلى محلّ وأعظمه ،وكان أُمراؤه يحسدونهم على ذلك ،وإذا نقلوا عن إنسان عيبًا ،يقول : ومن المعصوم ؟ إنما الكامل من تعدّ ذنوبه"(١) .

ومن مظاهر تكريمه للعلماء أنه كان يحافظ على صِلاتهم ،فعندما كان المسلمون يستعدّون لقتال الصليبيين بعد وقعة (تحت حصن الأكراد) (٢)قال له أصحابه : إنَّ لك في بلادك إدراراتٍ كثيرةً وصلاتٍ عظيمةً للفقهاء والفقراء والصوفية والقرّاء ،فلو استعنت بها الآن لكان أمثل . ففضب من هذا ،وقال : والله إنّي لا أرجو النصر إلّا بأولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ،كيف أقطع صلاتِ قومٍ يقاتلون عنّي، وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ ؟ وأصرفها إلى من يقاتل عني ،إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب ،ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال ،أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ فسكتوا "(٣) .

ولم يقف نور الدين عند هذا الحدّ في تكريم العلماء ،فقد وقف وقفًا على من يعلّم الأيتام الخطّ والقراءة ، وجعل لهم الكسوة والنفقة (٤) . ووقف على المرضى ،وأدرَّ على الضعفاء ،وعلى المجاورين (٥) ، وكان يوفر للعلماء ما يحتاجون إليه من طعام ولباس ودواء وفاكهة (٦) .

ومن أجل ذلك كلّه شهد عهد نور الدين نشاطًا علميًّا ،وتدفّق العلماء على حواضر الدولة ،وبخاصة حلب ودمشق من مختلف البلاد الإسلامية .

---

(١) انظر الروضتين ١/ ٢٢ ،وكان بعض أمراء نور الدين قد حسد قطب الدين النيسابوري ،الفقيه الشافعي ،ـ وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان ، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه ـ فحسده ذلك الأمير ،فنال منه يومًا عند نور الدين . فقال له : يا هذا ،إنْ صحَّ ما تقول ،فله حسنة تغفر كلَّ زلةٍ تذكرها ،وهي العلم والدين ،وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ،ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ،وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ،أفلا أحتمل سيئة هذا إنْ صَحَّتْ ،مع وجود حسنته عليّ ؟ إنّني والله لا أصدّقك فيما تقول ،وإنْ عدت ذكرته أو غيره بسوء لأُدِّبَنَّك ، فكفّ عنه . (كتاب الروضتين ١/ ٢٢) .

(٢) حصن الأكراد : حصن منيع يقع على جبل غربي حمص ،بينها وبين بعلبك سكن فيه قوم من الأكراد فنسب إليهم . (معجم البلدان ٢/ ٢٦٤ وانظر الأعلاق الخطيرة / ١١٥) . (٣) انظر كتاب الروضتين ١/ ٣١٩-٣٢٠) .

(٤) البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٨ .

(٥) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٦٠٨ . (٦) انظر أعلام النبلاء ٢/ ٧١-٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبسياسة نور الدين العلميّة ،وحبّه للعلماء ،استطاع أن يوفّر لدولته قـــادةً من العلماء ، ووجد العلماءُ في ظلّه متنفّساً لعلمهم ورواجًا .

* * *

ونشطت الحياة الأدبية في عهد نور الدين نشاطاً ملحوظاً ،فقد أُعجب الشعراء بشخصيّة نور الدين ،وبما تجسّد فيها من صفات مثاليّة للحاكم المسلم . ومجّـــدوا بطولاته في ميادين القتال ،ووجدوا منه الاهتمام والتشجيع . واعتمد نور الدين فـي إدارة دولته ،وإنشاء كتبه على عددٍ من الكُتّاب الذين تصدّروا دواوينه ،وتولّوا مناصب رفيعة في الدولة ، وكانت لهم مكانة مرموقة عنده .

وسنعرف بأبرز هؤلاء الأدباء ،ونتحدث عن علاقتهم بنور الدين ، في بـاب لاحق من هـذه الدّراســـة .

* * *

أما حركة التأليف والتصنيف ،فقد تقدّمت في عهد نور الدين زَنْكي ،وكان نـــور الدين مشجّعًا للتأليف في مختلف العلوم . ففي العلوم الشرعيّة ،نجد نور الديـــن يطلب من ابن عساكر "أن يجمع له أربعين حديثًا في الجهاد ،تكون واضحة المتـن متصلة الإسناد تحريضًا للمجاهدين"(١) .

وذكر سبط ابـــن الجوزي أنّ جدَّه " صنّف لنور الدين كتاباً سماه (البحـــر النوري) ،فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ ،وغير ذلك . وذكر أنّ نور الديـــن صنف كتاباً في الجهاد ،وهو بدمشق ،ولم يذكر اسم الكتاب "(٢) .

وأشـار النعيمي إلى أن "الفقيه ابن أبي عصرون ،صنّف تصانيف عديدة" (٣) .

وصنّف الفقيه العلّامة القطب النيسابوري كتاباً هو (الهادي في الفقه) (٤) .

---

(١) انظر تاريخ مدينة دمشق ١/ ٣٠ . (٢) مرآة الزمان ٨/ ٣١٣ .

(٣) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤٠١ ،وقد ذكر ابن خلكان بعض هذه التصانيف ومنها : صفوة المذهب من نهاية المطلب ، في سبع مجلدات ،وكتاب (الانتصار) في أربع مجلدات ،وكتاب (المرشد) في مجلدين ،و (الذريعة في معرفـة الشريعة) ،و (التيسير) ،و (ما أخذ النظر) ،و (مختصر في الفرائض) ، و (الإرشاد المغرب في نصرة المذهب) . واستفاد منه الكثيرون . (انظر وفيات الأعيان ٣/ ٥٣ - ٥٥) .

(٤) زبـدة الحلـــب ٢/ ٢٩٣-٢٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممن صنّف في التفسير " محمد بن عبدالله بن محمد بن ظَفَر المكيّ الصقليّ ، الذي أقام بمدرسة ابن أبي عصرون ، وصنّف بها تفسيرًا كبيرًا "(١) .

وفي التاريخ ألّف ابن عساكر (تاريخ مدينة دمشق) ، وذكر ابن عساكر أن نور الدين " تشوّق إلى استنجازه "(٢) .

وألّف ابن القلانسي تاريخًا للحوادث ، انتهى بوفاته سنة خمس وخمسين وخمسمائة (٣) .

ومن ألّف في الأنساب الحافظ أبو سعد السمعاني (٤) صاحب معجم الأنساب .

ومن مؤلفات أسامة بن منقذ في عهد نور الدين مختصر مناقب عمر بن الخطّاب ، وقد ألّفه عام سبعة وستين وخمسمائة (٥) ، وكتاب المنازل والديار الذي ألّفه عام ثمانية وستين وخمسمائة (٦) ، وألّف في العام نفسه كتاب أخبار النساء (٧) .

وألّف العماد الأصفهاني كتاب الخريدة ، وبدأ بجمع موادّه منذ سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من المجاميع والدواوين ومن أفواه الشعراء ، وأتمّ تصنيفه في أوائل سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (٨) ، ولعله صنّف القسم الأكبر منه في عهد نور الدين .

* * *

ولم تقتصر عناية نور الدين على العلوم الشرعية والإنسانية بشكل عام ، بل تعدتها إلى المعارف العلمية والتطبيقية : كالطب ، والهندسة ، وعلم النجوم وغيرها .

---

(١) بغية الوعاة ١/ ١٤٢ . (٢) انظر تاريخ مدينة دمشق ١/ ٢٣ .

(٣) انظر ذيل تاريخ دمشق ، ومعجم الأدباء ١/ ٢٧٨ ، وانظر ترجمة ابن القلانسي في الحديث عن نور الدين والأدباء ، الباب الثالث من هذه الدراسة .

(٤) أبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) ، تاج الإسلام عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي الشافعي ، مُحدّث المشرق ، وصاحب التصانيف الكثيرة ، والفوائد الغزيرة ، والرحلة الواسعة ، عمل معجم شيوخه في عشر مجلدات كبار (انظر الأنساب للسمعاني ، وشذرات الذهب ٤/ ٢٠٥) .

(٥) وهو مختصر كتاب مناقب عمر بن الخطاب لأبي الفرج ابن الجوزي (انظر أسامة بن منقذ : الكاتب الناقد المؤرخ ٢/ ٨٨) .

(٦) انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٢٣٢ ، وأسامة بن منقذ : الكاتب الناقد المؤرخ ٢/ ٣١ ، ومقدمة ديوان أسامة / ٨) .

(٧) أسامة بن منقذ : الكاتب الناقد المؤرخ ٢/ ٣٣ .

(٨) انظر معجم الأدباء ١٩/ ١٩ ، وفيات الأعيان ٥/ ١٥٠ ، ومقدّمة سنا البرق الشامي / ٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد نبغ في هذا المجال عدد من العلماء ،منهم : الطبيب مهذب الدين بن النقّاش(١) ، الذي "خدم بصناعة الطب الملك العادل نور الدين ،وكتب له كثيرًا من المراسلات ،وكان مكينًا عنده ،وخدم في البيمارستان (٢) الذي أنشأه نور الدين بدمشق ،وبقي به سنين" (٣) .

وسكرة الحلبي (٤) ،الذي "كانت له دربة بالعلاج ،وتصرف في المداواة(٥) .

ومن الأطباء الذين اعتمد عليهم نور الدين كثيرًا ،الشيخ ابن أبي الوقار (٦) ، الذي "كان متميّزًا في صناعة الطب ،وقد علّمها وعلمها ،وكان في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين ،ولا يفارقه في السفر والحضر"(٧) .

ومن الحكماء المشهورين ،والأفاضل في الصناعة الطبيّة ،أبو المجد الباهلي (٨) ، الذي جمع الى علمه بالطب ،العلم بالهندسة والنجوم ،وكان يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ،وكان نور الدين يحترمه ،ويعرف مقدار علمه وفضله ، ولمّا أنشأ البيمارستان الكبير ،جعل أمر الطب إليه فيه"(٩) .

ومن المهندسين الأطباء ،" مؤيّد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم ابن عبد الرحمن الحارثي (١٠) ،الذي كان يعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة وشهرته بها ،قبل أن يتحلى بمعرفة صناعة الطب . وأكثر أبواب البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين من نجارته وصنعته"(١١) .

---

(١) ابن النقّاش : هو الشيخ الإمام العالم أبو الحسن علي بن أبي عبد الله عيسى بن هبة الله النقاش ،مولده ومنشؤه ببغداد ،وهو عالم بالعربية والأدب ، ويتكلم الفارسية (انظر ترجمته في عيون الأنباء في طبقات الأطباء / ٦٣٥-٦٣٦) .

(٢) البيمارستان : مركب من بيمار أي مريض ومن ستان أي محلّ ،والمارستان دار المرضى (المشفى) ، انظر معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة/٣٣ ، ١٤٥) .

(٣) عيون الأنباء / ٦٣٦ .

(٤) سكّرة الحلبي / : شيخ من يهود مدينة حلب (عيون الأنباء / ٦٣٧) .

(٥) عيون الأنباء / ٦٣٧ - ٦٣٨ .

(٦) ابن أبي الوقار : الشيخ الأجلّ العالم أبو الفضل اسماعيل بن أبي الوقار أصله من المعرّة ، وأقام بدمشق ،كثير الخير ،محمود الطريقة ، حسن السيرة ،وافر الذكاء ، وله عند نور الدين الحظ الوافر والانعام الكثير (عيون الأنباء / ٦٣٥) .

(٧) المصدر نفسه / ٦٣٥ .

(٨) ابو المجد الباهلي : أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم ،عبيد الله ابن المظفّر بن عبد الله الباهلي ،تميز بصناعة الطب ،وصار من الأكابر من أهلها (عيون الانباء / ٦٢٨) .

(٩) المصدر نفسه / ٦٢٨ .

(١٠) ولد ونشأ بدمشق ،وكان أول أمره نجاراً (عيون الأنباء / ٦٧٠) .

(١١) المصدر نفسه / ٦٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممن كانت لهم معرفة بالساعات وعلم النجوم ،فخر الدين بن الساعاتي (١) ، " وهو الذي عمل الساعات عند باب الجامع بدمشق ،صنعها في أيام الملك العادل نور الدين ،وكان له منه إلانعام الكثير ، والجامكية (٢) والجراية ، لملازمته الساعات ، وبقي كذلك إلى أن توفي " (٣) .

ومن الذين خدموا في البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود ، جمال الدين بن الرحبي ، الذي كان يعالج المرضى ،وبقي به سنين " (٤) .

وبنى نور الدين البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها : " البيمارستان الذي بناه بدمشق ، وقد وقفه على المسلمين كافة من غني وفقير ،والبيمارستان النوري الذي بناه بحلب ، ووقف عليه الأوقاف الكثيرة" (٥) .

* * *

ومن مظاهر الحركة الفكرية والأدبية في عهد نور الدين ،عقد المجالس العلمية ومناقشة المسائل المختلفة ،" فقد كان نور الدين يعقد مجالس العدل ويتولاها بنفسه "(٦) .

و" واظب على عقد مجالس الوعّاظ ،ونصب الكرسي لهم في القلعة ، للإنذار والاتّعاظ ،وفي مقدّمتهم الفقيه قطب الدين النيسابوري " (٧) .

" وكان لأبي عثمان المنتجب بن أبي محمد الواسطي (٨) ،مجلس وعظ وكان يجتمع في مجلس وعظه الألوف من النساس " (٩) .

---

(١) وهو رضوان بن محمد بن علي بن رستم الخراساني الساعاتي ،ولد ونشأ بدمشق ،وكان أبوه محمد من خراسان وانتقل إلى الشام ، وأقام بدمشق إلى أن توفي ، (انظر ،عيون الأنباء / ٦٦١) .

(٢) الجامكية : رواتب خدام الدولة ،وهو مركب من جامة أي قيمة ومن كي وهو أداة النسبة ،انظر معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة / ٤٥ .

(٣) عيون الأنباء / ٦٦١ .

(٤) جمال الدين بن الرحبي : الحكيم ،الطبيب ابن الطبيب ، وكان ديّنًا خيّرًا ،فاضلاً في المعالجة الطبية ،مصليًا ، جيد العقيدة (انظر ذيل الروضتين / ٢٠٧) .

(٥) انظر كتاب الروضتين ١ / ٢١ ، وأعلام النبلاء ٢ / ٧٧ .

(٦) البداية والنهاية ١٢ / ٢٧٨ .

(٧) كتاب الروضتين ١ / ٢٦ - ٢٧ .

(٨) ابو عثمان المنتجب بن أبي محمد البحتري الواسطي ، ورد إربل ،ووعظ بها ،وكان له قبول عظيم ،وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكي بن سنقر إلى الشام ،بسبب الغزاة (انظر ، كتاب الروضتين ١ / ٢٨) .

(٩) البداية والنهاية ١٢ / ٢٨١ - ٢٨٢ .

٣٤٤٨٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يحضر مجالس العماد ، " ويذاكره بمسائل الخلاف في الفروع "(١) ، " وكان العماد يحضر مجالس نور الدين ، ويذكر لديه المسائل في الخلاف "(٢) .

وكانت مجالس نور الدين جادة وهادفة ، تبحث فيها المسائل والأمور المتجددة وكان نور الدين يفيد من هذه المجالس ، فقد ذكر أبو البركات الحسن بن هبة الله (٣) أنه " حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم ، مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث فاستفاد نور الدين أمرًا لم يكن يعرفه " (٤) .

وكان مجلس نور الدين " كما روي في صفة مجلس رسول الله (ص) ، مجلس حلم وحياء ، لا تؤبن فيه الحرم ، وهكذا كان مجلسه ، لا يذكر فيه إلاّ العلم والدين وأحوال الصالحين ، والمشاورة في أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا "(٥) .

وكان يسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه إلاّ محض الشريعة "(٦) .

ونور الدين كان قدوة لخلفه صلاح الدين في اعتنائه بأمور المسلمين ، وعقد المجالس ، ولكن مجلس نور الدين يتميز عن مجلس صلاح الدين ، بأن أموره مضبوطة ، ويستمع فيه للمحدث ، ولا يكثر فيه الاختلاف . فقد " حضر ابن عساكر مجلس صلاح الدين ، وشرع يحدّثه كما كان يحدّث نور الدين ، فلم يتمكن من القول ، لكثرة الاختلاف من المحدثين ، وقلة استماعهم ، فقام وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي ، وتكرر من صلاح الدين طلبه ، وعندما حضر ، عاتبه صلاح الدين لانقطاعه ، فقال له ابن عساكر :

---

(١) معجم الأدباء ١٩/ ١٤ .

(٢) وفيات الأعيان ٥/ ١٤٨ .

(٣) الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله به عبد الله بن الحسن الشافعي ، المعروف بزين الأمناء بن عساكر ، كان شيخاً صالحاً ، كثير الصلاة والذكر (انظر ، ذيل الروضتين/ ١٥٨) .

(٤) وهو أنه مر في أثناء الحديث أن النبي عليه السلام ، خرج متقلداً سيفاً ، فاستفاد نور الدين أمرًا لم يكن يعرفه ، وقال : كان النبي عليه السلام ، يتقلد السيف إذا يشير إلى التعجب من عادة الجند ، إذ هم على خلاف ذلك ، يربطونه بأوساطهم ، قال : فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخرج نور الدين - رحمه الله - من القلعة وهو متقلد السيف ، وجميع عسكره كذلك (انظر ، كتاب الروضتين ١/ ٢٧) .

(٥) كتاب الروضتين ١/ ٢٣ .

(٦) نفسه/ ٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نزّهت نفسي عن مجلسك ،فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة ،لا يستمع إلى قائل ،ولا يرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين ،فكنا كما قيل : كأن على رؤوسنا الطير ،تعلونا الهيبة والوقار ،فإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه : أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم ، إذا حضر الحافظ" (١) .

* * *

ومن مظاهر الحركة الفكرية في عهد نور الدين ،اهتمامه بإنشاء أماكن العبادة : كالخوانق (٢) ، والرّبط (٣) ،والزوايا (٤) .

ويظهر من حديث ابن جبير في رحلته ،أن الرباطات نفسها ،كانت تسمى الخوانق ، وهي أماكن عبادة للصوفية ،وقد وصف هذه الأماكن قائلاً : " وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ،وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة يطرد فيها الماء على أحسن منظر ييصر ، وهذه الطائفة الصوفية ، هم الملوك بهذه البلاد ،لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش ، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان" (٥) .

ومن الخوانق التي أنشأها نور الدين محمود : خانقاه القصر (٦) وخانقاه الطاحون (٧) ، . أما الخانقاه الخاتونية ، فهي منسوبة إلى

---

(١) انظر كتاب الروضتين ١/ ٢٤ .

(٢) الخوانق : جمع خانقاه ،والخانقاه : مكان عبادة الصوفية ، ويتولاها شيخ من مشايخهم . انظر : رحله ابن جبير / ٢٣١ ،وصبح الاعشى ١٢/ ١٠٣ ، وانظر : Dozy,Supp.Dict.Ar.TomeI,P.346

(٣) الرُّبُط : مفردها رباط ،وهو ما يربط به ،والرباط : ملازمة ثغر العدو ، ثم أصبح لزوم الثغر رباطاً ،ثم أطلقت على البيوت الصغيرة التي تبنى خارج المدن للعبادة . (انظر لسان العرب ، مادة : ربط ،وانظر : Dozy,Supp.Dict.Ar.TomeI,P.501 .

(٤) الزوايا : مفردها زاوية ،مكان في البيت يخلو فيه الزاهد للعبادة (خلوة) انظر : Dozy,Supp.Dict.Ar.TomeI,P.615-616 .

(٥) رحلة ابن جبير / ٢٣١ .

(٦) أنشأها نورالدين سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ،وموقعها تحت القلعة ،وسميت بالقصر الذي كان هنالك من بناء شجاع الدين فاتك (انظر اعلام النبلاء ٢/ ٧٧ ، وخطط الشام ٦/ ٤٤) .

(٧) خارج البلد منسوبة للسلطان نورالدين محمود بن زنكي ، بالوادي (الأعلاق الخطيرة / ١٩٢) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتون (١) زوجة نورالدين (٢) . ومن إنشائها أيضًا ،خانقاه الست ،التي بنت إلى جانبها تربة ،دفنت بها ولدها الملك الصالح (٣) .

واهتم نواب نورالدين بإنشاء الخوانق ،فأنشأ مجد الدين بن الدايـة (٤) ، خانقاه بعرصة الفرات (٥) ،وأنشأ أسد الدين شيركوه الخانقاه الأسدية (٦) .

وكان نورالدين يعتني بهذه الأماكن ، وكان للصوفية مكانة كبيرة عنده . فقد "بنى الربط والخوانق في جميع البلاد للصوفية ،ووقف عليها الوقوف الكثيـرة ، وأدرّ عليهم الادرارات الصالحة ، وكان يحضر عنده مشايخهم ، ويقرّبهم ويدنيهم ، ويبسطهم ،ويتواضع لهم" (٧) .

وذكر أبو شامة أنه كان "إذا أقبل إليه أحدهم ،يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعتنقه ،ويجلس معه على سجّادته ،ويقبل عليه بحديثه" (٨) .

وقد كان للخوانق والربط والزوايا ،أثر في الحياة الفكرية والدينية ، والاجتماعية ،فهي أماكن عبادة ،ويجتمع فيها العلماء يتباحثون في شؤون المسلمين .

وهي أماكن تدريس ،فقد "درس قطب الدين النيسابوري بزاوية جامع الغربية ،عند ما قدم دمشق" (٩) .

وقد كان الغرباء الذين يأتون من البلاد الإسلامية المختلفة ،يأوون إلى هذه الأماكن . يقول ابن جبير في رحلته : "ومن مناقب نور الدين - رحمه الله - أنه كان عيّن للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافًا كثيرة ،منها : طاحونتان ، وسبعة بساتين ، وأرض بيضاء ، وحمام ودكانان بالعطارين . وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه ،أن هذا الوقف المغربي يغل إذا كان النظر فيه جيدا خمسمائة دينار في العام" (١٠) .

---

(١) الخاتون : لفظة فارسية ،وهي : المرأة صاحبة الكلام في البيت والمتصرفة فيه ،ومنها خاتون بالتركية والكردية . (انظر : معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة / ٥١) .

(٢) انظر ،الأعلاق الخطيرة / ١٩٢ ، والدارس في تاريخ المدارس ٢/ ١٤٤ ، وخطط الشام ٦/ ١٣٤ .

(٣) خطط الشام ٦/ ١٤٤-١٤٥ .

(٤) مجد الدين أبو بكر بن الداية ،وهو رضيع نور الدين ،وكان أعظم الأمراء منزلة عنده ، وله في إقطاعه حلب وحارم ، وقلعة جعبر ،فلما توفي ردّ نور الدين ما كان له إلى أخيه شمس الدين علي بن الداية ،وكانت وفاته سنة خمس وستين وخمسمائة . (انظر ،الكامل ١١/ ٣٥٩) .

(٥) أعلام النبلاء ٢/ ٨٣ .

(٦) داخل باب الجابية ،بدرب الهاشميين (كتاب الروضتين ٢/ ٤٣٨) .

(٧) انظر ،التاريخ الباهر/ ١٧١ ،والكامل ١١/ ٤٠٤ ،وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٥٣

(٨) كتاب الروضتين ١/ ٢١ - ٢٢ .

(٩) البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٠ .

(١٠) رحلة ابن جبير / ٢٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف ابن جبير الصوفيين المشرفين على أماكن العبادة قائلاً : " وهم على طريقة شريفة ، وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقا . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة ، وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً " (١) .

* * *

ومن المظاهر البارزة للحركة الأدبية والفكرية في عهد نور الدين ، إنشاء المساجد ، التي كانت أماكن علم وعبادة .

وكان نور الدين يقف عليها الأوقاف ويتعهدها ، ويتعهد خطباءها ومدرسيها بالعناية والرعاية .

وكانت تعقد في هذه المساجد الحلقات ، ومن ذلك " حلقة الكوثرية ، وقد وقفها نور الدين على صبيان صغار وأيتام ، يقرأون في كل ليلة بعد العصر ، ثلاث مرات (قل هو الله أحد) ، ويهدون ثوابها للواقف ، ولهم على ذلك مرتّب" (٢) .

وأنشأ نور الدين " المسجد الكبير ، فيه منارة وبركة ، وعلى بابه سقاية ، وله إمام ومؤذن ووقف ، وهو جامع قلعة دمشق " (٣) .

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة ، " أمر نور الدين بعمارة جامع داريا (٤) ، وكان الفرنج قد أحرقوه لمّا استولوا على داريا ، أيام مجير الدين آبق " (٥) .

وعندما سار نور الدين إلى الموصل سنة ست وستين وخمسمائة ، " أمر بعمارة جامعها وتوسعته ، ووقف على تأسيسه بنفسه ، وجعل له خطيباً ، ومدرّساً للفقه ، ووقف على الجامع قرية من قرى الموصل " (٦) .

ولما زار نور الدين الموصل في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، " صلى في الجامع النوري ، وتصدق بمال عظيم ، ورتب فيه الخطيب ، والمؤذنين ، والحصر والبسط ، وغيرها " (٧) .

وفي الجامع الكبير في الموصل ، " المئذنة الحدباء ، التي شيّدها نورالدين وهي خير مثال للزخرفة الآجرية " (٨) .

ومن اهتمامات نور الدين بالمساجد ، أنه كان يصنع المحاريب والمنابر ، ومنها : محراب المصلى الذي يقع في مصلى الجامع النوري بمدينة الموصل ، في منتصف جدار القبلة ، ويعرف بمحراب الشافعية" (٩) والمحراب المنقوش على الخشب

---

(١) رحلة ابن جبير / ٢٣١ .
(٢) انظر الأعلاق الخطيرة / ٨٥ .
(٣) نفسه / ١٢٥ .
(٤) داريا : قرية كبيرة مشهورة ، من قرى غوطة دمشق (انظر معجم البلدان ٢ / ٤٣١) .
(٥) الكواكب الدرية / ١٩٠ ، ومجير الدين آبق : هو مجيرالدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، كان مدبر أموره معين الدين أنر ، أخذ منه نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وانتهى بذلك حكم الأسرة البورية (انظر كتاب الروضتين ١ / ٢٣٥-٢٣٦ ، والكواكب الدرية / ١٢٦) .
(٦) الكامل ١١ / ٣٦٤ والبداية والنهاية ١٢ / ٢٦٣ . (٧) الكواكب الدرّية / ٢١٦ .
(٨) انظر مجلة المورد : م ٥ : ع ٣ / ٨ . (٩) مجلة المورد : م ٢ : ع ١ / ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي يعد من أجمل آثار قلعة حلب .

ومن المنابر العجيبة الصنع ،ما عمله نور الدين محمود في حلب ،برسم المسجد الأقصى ،عمله فنانان من حلب ،وقد عمل من خشب مرصع بالعاج والأبنوس ،وقد وضعه صلاح الدين في محلّه ،عند فتح القدس ،وقد عمل في حلب أيضا ، محراب الجامع الكبير بحماة (١) .

ومن المساجد التي أنشأها نور الدين في دمشق : " مسجد الكشك ،الذي كان دارا فجدده ،وبنى له منارة ،وجعل له إماما ،ومؤذنًا ووقفًا " (٢) ، ومسجد " في دار الحديث التي أنشأها نور الدين ،في محلّة حجر الذهب " (٣) ، ومسجد في المدرسة النورية التي وقفها على المالكية في حجر الذهب " (٤) و " مسجد نور الدين بسوق القمح " (٥) .

وبنى أيضًا ، " بمدينة حماة جامعًا على نهر العاصي ،من أحسن الجوامع وأنزهها ،وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها " (٦) .

وقد وصف ابن جبير جامع حماة الذى على نهر العاصي ،قائلاً : " وعلى شطه الثاني جامع صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقانا تجتلي منها منظرا ترتاح النفس إليه ،وتتقيد الأبصار لديه " (٧) .

وبنى نور الدين جامع الرُّها (٨) ،وجامع منبج (٩) " (١٠) .

وقد كان نور الدين " إذا أتته الهدايا يصرفها في عمارة المساجد المهجورة . وأمر بإحصاء ما في محال دمشق من مساجد هجرت وخربت فأناف على مائة مسجد وموضع يتبرك به ومشهد ، فأمر بعمارة ذلك كله ،وعين له وقوفًا " (١١) .

---

(١) انظر ،خطط الشام ٤/ ١٣٠ .

(٢) انظر الأعلاق الخطيرة /١٠٣ - ١٠٤ .

(٣) الاعلاق الخطيرة/١٢٣ ،ومحلة حجر الذهب : محلة بدمشق (مراصد الاطلاع ١/ ٣٨٣) .

(٤) الأعلاق الخطيرة / ١٢٤ .

(٥) نفسه / ١٢٩ .

(٦) كتاب الروضتين ١/ ٢١ ، والكواكب الدرّية / ٣٦-٣٧ .

(٧) رحلة ابن جبير / ٢٠٧ .

(٨) الرُّها : بضم الراء والمد : مدينة من أرض الجزيرة متصلة بحران ،وهي مدينة رومية قديمة (الروض المعطار /٢٧٣) .

(٩) منبج : بناحية قنسرين ،ومن كورها ،وهي مدينة كبيرة ،وبينها وبين الفرات مرحلة ،وبينها وبين حلب مرحلتان (انظر معجم البلدان ٥/ ٢٠٦ ، والروض المعطار / ٥٤٧) .

(١٠) أعلام النبلاء ٢/ ٤٠ .

(١١) سنا البرق الشامي ١/ ١٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووقف نور الدين بستان الميدان بدمشق ،بعد عمارته وإصلاح ما يحتاج إليه على تطييب عدد من المساجد (١) .

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة "احترق جامع حلب ،فجدده نور الدين" (٢) وكانت الاسماعيلية قد أحرقته ،واحترقت الأسواق التي حوله (٣) .

وكانت هذه المساجد مراكز علمية ودينية ،يجتمع فيها الناس لعبادة الله ، وللتباحث في أمور دينهم ودنياهم ،وتلقى فيها الخطب في المناسبات المختلفة ومنها الدينية والاجتماعية ،ومنها ما هو في التحريض على الجهاد ،وكان المدرسون يعقدون فيها حلقات للدرس في مختلف العلوم ، ولا سيّما علوم الدين واللغة.

وكان يجتمع فيها العلماء للمناقشة في مختلف المسائل العلمية .

* * *

ومن مظاهر الحياة الادبية والفكرية في عهد نور الدين ،انتشار المدارس في مختلف الحواضر الإسلامية . " فقد بنى الكثير من المدارس في جميع بلاد الشام الكبار ،مثل : دمشق ،وحلب ،وحماة ،وحمص ،وبعلبك ،ومنبج والرحبة "(٤) .

وقد بناها للمذاهب المختلفة ،ولا سيما الحنفية والشافعية (٥) . قال أبو شامة : " إن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله ،وفي زمنه صارت مقرًا للعلماء والفقهاء والصوفية "(٦) .

ولم تتوقف سياسة نور الدين في إنشاء المدارس على بلاد الشام ،فقد رأى أن يجمع بين الدين والعلم في مسجده الذي بناه بالموصل ،فبنى فيه مدرسة (٧) ، والتمس أرضًا على شاطئ دجلة ،يبني عليها مدرسة للشافعية ،عن طريق رسوله القاضي كمال الدين بن الشهرزوري ،الذي كان قد بعثه إلى الخليفة العباسي ، وأكرم كمال الدين إكراما لم يكرم به رسول قبله ،وأجيب إلى ما التمسه ،ولكن نورالدين توفي قبل الشروع في بناء المدرسة (٨) .

---

(١) انظر هذه المساجد في الروضتين ١/ ٤١ ،والكواكب الدرية/ ٤٧ .
(٢) البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٨ .
(٣) أعلام النبلاء ٢/ ٨٢ .
(٤) انظر :التاريخ الباهر / ١٧٠ ،ووفيات الأعيان ٥/ ١٨٥ ،وأعلام النبلاء ٢/ ٧٠ والرحبة : رحبةمالك بن طوق ،بناها زمن المأمون ،وتسمى كذلك رحبة الشام (انظر معجم البلدان ٣/ ٣٤ ،ورحلة ابن جبير / ٢٠٠) .
(٥) الكامل ١١/ ٤٠٤ ، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٥٢ .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ٣٤ ،والكواكب الدرية / ٣٥ .
(٧) انظر ،دولة الأتابكة في الموصل / ٣١٦ .
(٨) انظر الكامل ١١/ ٣٩٥ ،وسنا البرق الشامي ١/ ١٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن منطلق الإيمان والشعور بالمسؤولية ،أنشأ نور الدين المدارس في مختلف البلاد الداخلة تحت سلطانه ،وكان يعتقد أنها تشكل مع المساجد قاعدة الدين .

وكان " يوسع النفقة على هذه المدارس ،ويجتهد في اختيار شيوخها ،ويوقف عليها الأوقاف الواسعة" (١) .

وكما سبق في الحديث عن العلماء ،كان نور الدين يشجعهم ويبني لهم المدارس . فقد "بنى لخطيب دمشق أبي البركات الخضر بن شبل بن عبد الحارثي الدمشقي مدرسة ،فدرس بها ،وتعرف بالعمادية لأنّ العماد الكاتب درّس فيها بعده ،فاشتهرت به" (٢) .

" وبنى نور الدين لشرف الدين بن أبي عصرون المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك " (٣) .

" وجدد المدارس للقطب النيسابوري ،ولشعيب بن أبي الحسن الفقيه الأندلسي "(٤) .

" وجدد المدرسة الحلاوية (٥) ،وجعلها مدرسة لتدريس مذهب أبي حنيفة ،ووقف عليها أوقافا ،وكان انتهاء عمارتها سنة أربع واربعين وخمسمائة" (٦) .

واستدعى نور الدين برهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن البلخي وولاّه تدريسها (٧) ، وهي من أشهر المدارس ،وأكثرها طلبة (٨) .

ومن أشهر المدارس التي أنشأها نور الدين أيضًا ،" المدرسة النورية الكبرى ،أنشأها في سنة ثلاث وستين وخمسمائة "(٩) .

وأنشأ في حلب " المدرسة المقدمية ،وابتدأ بعمارتها سنة خمس وأربعين وخمسمائة ،وكملت سنة أربع وستين وخمسمائة وأوقف عليها الأوقاف "(١٠) .

وبنى نور الدين مدرسة بجامع القلعة - وهي المدرسة النورية الحنفية الصغرى -(١١) والمدرسة الصلاحية بالقرب من البيمارستان النوري ،بناها نور الدين محمود ،ونسبت إلى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ،فاتح بيت المقدس " (١٢) .

---

(١) انظر : نور الدين محمود (سيرة مجاهد صادق) / ٣٧٠ - ٣٧١ .
(٢) العبر في خبر من غبر ٤/ ١٧٧ .
(٣) زبدة الحلب ٢/ ٢٩٢ ،والدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤٠١ .
(٤) زبدة الحلب ٢/ ٢٩٢ ،وأعلام النبلاء ٢/ ٧٦ .
(٥) كانت كنيسة عظيمة ،وصارت مسجداً ،وعرف بمسجد الراهبين ،واستمرت على ذلك ،الى أن ملك الملك العادل نور الدين ،فجدد فيها إيوانًا وبيوتًا ، وجعلها مدرسة (انظر نهر الذهب ٢/ ٢٢٠) .
(٦) نفسه ٢/ ٢٢٠ .
(٧) زبدة الحلب ٢/ ٢٩٣ .
(٨) انظر أعلام النبلاء ٢/ ٧٠ .
(٩) الأعلاق الخطيرة /٢٠٣ ،والدارس ١/ ٦٠٦-٦٠٧ .
(١٠) نهر الذهب ٢/ ٧٠ .
(١١) الأعلاق الخطيرة /٢١٨ ، والدارس ١/ ٦٤٨-٦٤٩ .
(١٢) المصدر نفسه / ٢٤٥-٢٤٦ ، والدارس ١/ ٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما المدرسة العادلية الكبيرة ، فأول من أسسها نور الدين محمود بن زنكي ، وقد توفي ولم تتمم ، فاستمرت كذلك ،ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين (١) ، ثم توفي ولم تتم ، فتممها الملك المعظم (٢) .

وقال العرقلة الكلبي (٣) في المدرسة العادلية :

ومدرسةٌ سيدرسُ كل شيءٍ ... وتبقى في حمى علمٍ ونُسكِ
تضوَّعَ ذكرُها شرقًا وغربًا ... بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقولهُ حقٌ وصدقٌ ... بغير كناية وبغير شكِّ
دمشقُ في المدائن بيتُ ملكي ... وهذي في المدارس بيتُ ملكي (٤)

وبعد سنوات ،وصف ابن جبير المدرسة فقال انها : " من أحسن مدارس الدنيا منظرا ،وأنها قصر من القصور الأنيقة ،ويجري الماء في وسطها في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير ، فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر ،فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين " (٥) ويقول ابن جبير : " وبهذه البلدة - يعني دمشق - نحو عشرين مدرسة " (٦) .

* * *

وإلى جانب اهتمامه بالمدارس ، بنى دار الحديث ،ومكاتب الأيتام ليتعلموا القراءة والخط . فقد ذكر أبو شامة ،أن نور الدين "بنى بدمشق دار الحديث ،ووقف عليها ،وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث ، وقوفا كثيرة ، وهو أول من بنى دارًا للحديث فيما علمنا . وبنى أيضا ،في كثير من بلاده مكاتب للأيتام ،وأجرى عليهم ،وعلى معلميهم الجرايات الوافرة" (٧) ، وتولى مشيخة دار الحديث الحافظ ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن عساكر الدمشقي الشافعي ،إمام أهل الحديث في زمانه (٨) ودار الحديث " من الأعمال التي قام بها نور الدين لنشر السنة والقضاء على المذهب الشيعي" (٩) .

---

(١) الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب ،نشأ في خدمة نور الدين محمود بن زنكي مع والده وأخوته ، توفي سنة ٦١٥ هـ . (انظر ذيل الروضتين / ١١١) .

(٢) الملك المعظم : سلطان دمشق الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب ،ملك الشام بعد أبيه من العريش إلى حمص ، توفي سنة ٦٢٥ هـ (انظر ذيل الروضتين / ١٥٢) .

(٣) العرقلة الكلبي : انظر ترجمته في الحديث عن نور الدين والادباء :الباب الثالث من هذه الدراسة .

(٤) انظر ديوان العرقلة/ ٧٠. (٥) انظر رحلة ابن جبير / ٢٣١ .

(٦) نفسه/ ٢٣٠ . (٧) كتاب الروضتين ١:١ / ٢٣ ،والبداية والنهاية ١٢ / ٢٨١ ، والكواكب الدرية / ٣٩ .

(٨) الدارس في تاريخ المدارس ١ / ٩٩-١٠٠ .

(٩) انظر ،تاريخ دمشق (مقدمة التحقيق) ١/ ٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان نور الدين يبني المدارس ،وتدرس فيها المذاهب المختلفة ،وكان لا يتحيز إلى مذهب أو يتعصب له ،فالحنفي والشافعي والحنبلي والمالكي والمتصوفة عنده سواء ، وكان يهدف إلى بناء الدولة على أسس سليمة تستمد نظمها من الشريعة الإسلامية ، وكان يهدف أيضا إلى اظهار السنة ،فقد " أظهر السنة بحلب ،وغير البدعة التي كانت في الأذان ،وقمع الرافضة " (١) .

ونور الدين دأب في إنشاء المدارس ،من أجل أن تنتشر في جميع أنحاء الدولة الإسلامية .

وكان يرمي إلى رفع مستوى المعرفة عند المسلمين ،على أن تكون مقترنة بالإيمان ،وكان يقول للفقهاء : " نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ، ودحض البدع من هذه البلدة ،واظهار الدين " (٢) .

وكان يقول للقاضي كمال الدين الشهرزوري ،عندما يقلده أمراً : " انظر أنت في ذلك ،واحمل أمور الناس على الشريعة " (٣) .

ويدل ذلك على مدى اهتمام نور الدين بالعلم ،وتطبيقه لتعاليم الإسلام.

ولم يقتصر بناء المدارس في عهد نور الدين على نور الدين نفسه ،وانما انتشرت في جميع أنحاء مملكته ،على أيدي الرجال والنساء ،على حد سواء ،فبنى المدارس زوجه ونوابه ،وبعض العلماء الذين استقطبهم .

فقد أنشأت خاتون بنت معين الدين أنر زوجة الشهيد نور الدين محمود ابن زنكي المدرسة الخاتونية بمحلة حجر الذهب ،وتنسب إليها (٤) .

وبنى صلاح الدين بالقاهرة مدرسة للشافعية ،وبنى بالقرب من دار العدل ، مدرسة للمالكية "(٥) .

وبنى أسد الدين شيركوه المدرسة الأسدية في حلب ، والمدرسة الأسدية في ظاهر دمشق (٦) .

ومن نواب نور الدين ،مجد الدين بن الداية ،وتنسب إليه المدرسة المجدية الجوانية ،والمدرسة المجدية البرانية ، وقد أنشأ أيضا داراً للحديث (٧) .

---

(١) انظر : كتاب الروضتين ١/ ١٠ .
(٢) نفسه / ٣٣ .
(٣) نفسه / ٢٧ .
(٤) الأعلاق الخطيرة/ ٢٠٥ ،والدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٠٧ .
(٥) النجوم الزاهرة ٥/ ٣٨٥ ،والكواكب الدرية/ ١٩٤ .
(٦) كتاب الروضتين ٢/ ٤٣٨ .
(٧) انظر أعلام النبلاء ٢/ ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنشأ " فقيه الشام شرف الدين بن أبي عصرون المدرسة العصرونية " (١) ، و " بنى مدرسة بحلب ، وأخرى بدمشق " (٢) .

* * *

أما الحواضر العلمية ، فقد كانت منتشرة في جميع أنحاء الدولة ، وشهدت هذه الحواضر نشاطاً علمياً وأدبياً في عهد نور الدين ، فبنيت فيها المدارس و دور العلم ، والخوانق ، وكانت تشهد مجالس العلم والأدب ، وكان العلماء والأدباء ينتقلون من حاضرة إلى أخرى ينشرون العلم والأدب بتشجيع من نور الدين ونوابه في هذه الحواضر ، ومن أشهرها : دمشق ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، والقاهرة ، والموصل ، وغيرها ، والحديث عنها يطول ولا مجال له هنا .

وكان نور الدين يدرك أن الصراع مع الصليبيين ، هو صراع ديني وحضاري بالاضافة إلى كونه صراعا عسكريا ، ولكي يواجه الصليبيين ، كان عليه أن يعمل في إطارين ، إذ كان في الوقت نفسه عالما تقيا ، وقائدا شجاعا .

وأثر نور الدين في الحركة الأدبية والفكرية ، لا يقل عن أثره في الحركة الجهادية ، ولذا نشطت الحياة الأدبية والفكرية في عهد نور الدين زنكي ، وآتت أُكلها ، والتف حوله العلماء والأدباء ، وأحبهم وأحبوه ، وساهموا معه في إدارة شؤون الدولة .

---

(١) انظر : الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٢) زبدة الحلب ٢/ ٢٩٢ ، والدارس ١/ ٤٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

(البـــاب الأول)

سيـــــرة نـــور الدي ـــــــن :

مستقـاة مـن الأدب فـي ضـوء التاريـــخ

- حياتـــــــــه .
- صفاتـــــــــه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حياتـــــــه

ينحدر نور الدين محمود من أصل تركي ،فجده هو قسيم الدولة آق سُنقُـــر التركي (١) ،وكان "قسيم الدولة من أصحاب السلطان جلال الدولـــــة ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان (٢) وأترابه ،وممن ربي معه في صغره وصحبه ، إلى حين كبره ،فلمّا أفضت السلطنة بعد أبيه إليه ،رعى قسيم الدولة صحبتـه ، وجعله من أعيان أمرائه" (٣) ،واعتمد عليه في مهماته ،وولاّه مدينة حلـــب وأعمالها (٤) . ثم عاد إلى الموصل ،وأقام بها إلى أن قتله الباطنيـــة بجامع الموصل سنة عشرين وخمسمائة ،وتولى ولده عز الدين مسعود موضعـــه ، ثم توفي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة ،وملك بعده عماد الدين زنكي (٥) بـن آق سنقر (٦) ، الذى تولى شحنكية بغداد ،وولي بعدها الموصل وحلب .

وفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة استشهد عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة التركي صاحب الموصل وحلب وغيرها من البلاد الشامية والجزيرة ،وكـان محاصرًا قلعة جعبـــر (٧) .

---

(١) أبو سعيد آق‌سنقر ،الملقب قسيم الدولة ،صاحب الموصل والرّحبـــة وملك النواحي ،وهو من كبراء الدولة السلجوقية ،وله شهرة كبيرة بينهـــم ، كان من أحسن الناس سياسةً لرعيته وحفظاً لهم . (انظر وفيـــات الأعيان ١/ ٢٤٢) .

(٢) أبو الفتح ملكشاه بن ألب‌أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب جلال الدّولة ، مَلَك بلادًا واسعةً ،وخطب له علـــى جميع منابر الإسلام ،سوى بلاد المغرب ،وكان من أحسن الملوك سيـرة ، وكان يلقب بالسلطان العادل (انظر وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٣-٢٨٨) .

(٣) التاريخ الباهر / ٤ .

(٤) كتاب الروضتين ١/ ٥٨-٥٩ .

(٥) زَنكي : تعريب زَنْك وهو الشاطر (انظر معجم الألفـاظ الفارسيـــة المُعَرّبة / ٨١) .

(٦) انظر : وفيات الاعيان ١/ ٢٤٢ .

(٧) انظر : ذيل تاريخ دمشق / ٢٨٤-٢٨٥ ،والكامل ١١/ ١١٠ ،وزبـدة الحلب ٢/ ٢٨١ وتاريخ مختصر الدول / ٢٠٣ ،والبداية والنهايـــة ١٢/ ٢٢١ . وقلعة جعبر : على الفرات ،مقابل صفين ،واسمـهـا دَوْسر ،وتغلّب عليها رجل يعرف بجعبر بن مالك ،فَسُمّيتْ به ، وبينها وبين الفرات مقدار ميل . (انظر : مراصد الاطلاع ٣/ ١١١٨) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد خلّف من الأولاد سيف الدين غازيًا (١) ،وهو الذي ولي بعده ونور الدين محمودًا ، الملك العادل ، وقطب الدين مودودًا (٢) ،وهو أبو الملوك بالموصل ، ونصرة الدين أمير أميران (٣) وبنتًا ، فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والاناث ،ونور الدين من الذكور ،بعد وفاة ابنه الملك الصالح اسماعيل ولم يتجاوز عمره العشرين سنة (٤) ،ولم يبق الملك إلّا في عقب قطب الدين (٥) .

وقد أثنى الأدباء على أصل نور الدين ،وذكروا أباه وجدّه ،ومن هؤلاء أحمد بن منير الطرابُلُسي ،حيث يقول :

صلاةُ الله كلّ دُرورِ (٦) شمسٍ على مثوى أبيكَ من التراب (٧)

---

(١) سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي ،صاحب الموصل ،مرض بها بمرض حادّ ،وتوفي في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ،ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل ،وخلّف ولدًا ذكرًا ،ربّاه عمه نور الدين محمود ، وكان حسن الصورة والشباب ،منطويًا على خير وصلاح ،ويحب العلم وأهله . (انظر ،الكامل ١١/ ١٣٨ ،وذيل تاريخ دمشق /٣٠٦ - ٣٠٧ ، ووفيات الأعيان ٥/ ٤) .

(٢) قطب الدين مودود : تولى السلطنة بالموصل بعد موت أخيه سيف الدين غازي ،وكان حسن السيرة ،وخلف عدة أولاد وأكثرهم ملك البلاد ،توفي بالموصل وكان مرضه حمّى حادّة ،وكانت وفاته في سنة خمس وستين وخمسمائة (انظر الكامل ١١/ ٣٥٥ ،ووفيات الأعيان ٥/ ٣٠٣) .

(٣) نصرة الدين أمير أميران : كان أميرًا شجاعًا مقدامًا عزيزًا على أخيه نور الدين محمود ،وعظم مصابه عليه ، فقد أصابه سهمٌ في عينه على حصار بانياس فمات منه بدمشق ، وكانت وفاته سنة ستين وخمسمائة .
(انظر النجوم الزاهرة ٥/ ٣٦٧ ، العبر ٤/ ١٦٩) .

(٤) الملك الصالح عماد الدين اسماعيل : كان عمره يوم توفي أبوه إحدى عشرة سنة ،قام بالأمر بعد وفاة أبيه ،وانتقل من دمشق إلى حلب ،ودخل قلعتها يوم الجمعة سلخ المحرّم سنة سبعين وخمسمائة ، ولم يُبْقِ عليه صلاح الدين غير حلب ،وكان شابًا دينًا عاقلاً ،وكان حليمًا عفيف البطن والفرج واللسان ملازمًا لأمور الدين ،توفي بحلب سنة سبع وسبعين وخمسمائة .
(انظر وفيات الأعيان ٥/ ١٨٨ ،ودول الإسلام ٢/ ٦٥ ،والمختصر في أخبار البشر ٢ : ٥/ ٨٥) .

(٥) كتاب الروضتين ١/ ١٠٨ - ١٠٩ .

(٦) دورر الشمس : الإضاءة والسطوع (انظر ،لسان العرب ،مادة : درر) .

(٧) ديوان ابن منير /٢٥٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُبرز ابن منير ما تتميّز به أصولُ نور الدين من شجاعةٍ وعزّةٍ وشيمٍ حميدة إذ يقول :

وإنْ لم تكُنْها شمسيَّ الأُصول فإنّك فرعُ الهزبرِ الهَشِمْ (١)
ومن يدّعي في العُلا ما ادّعيتَ وأنت ابنُ مَنْ عزّلمّا احتكمْ
وأُقسمُ ما غاب سيفٌ سَقَتْ مغارسَهُ عينُ هذي الشّيَمْ (٢)

ويذكر ابن منير أيضًا بأن نور الدين ينتمي إلى أصولٍ تحظى بالعلوّ والمجد ،وهي عزيزة سامية جديرة بالثناء ،يقول فيه من إحدى قصائده :

حظيت من المعالي بالمعاني ولاذ الناسُ بَعْدَكَ بالأسامي
عزيز المنتمى عالي المراقي بعيد المرتمى غالي المسامي

ومنها :

وجدُّك جدَّ حتى قال قومٌ على الفَلَك ابتنى عُمُدَ الخيامِ (٣)

كان مولد نور الدين محمود يوم الأحد ،سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب (٤) . وهو الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن عماد الدين ، وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي ، ويلقب زنكي أيضًا بلقب والده قسيم الدولة ، ويقال لنور الدين (ابن القسيم) (٥) ، ويقال له :(الشهيد) ،وقد ورد هذا اللقب في بعض المصادر (٦) .

واختلف في سبب تسميته بالشهيد ،فبعضهم يقول : بسبب موته بعلة الخوانق (٧) ، والآخر يشير إلى أنّ والده زنكي كان يدعى الشهيد لأنه قتل على قلعة جعبر ،فصار يقال لولده محمود نور الدين بن الشهيد ، ولكثرة الاستعمال حذفت كلمة ابن اختصاراً (٨) . ومهما يكن من أمر ، فنور الدين يستحق لقب (الشهيد) ،فطالما قاتل الأعداء ،وجاهد في الله حقّ جهاده ،طلبًا للشهادة .

وأما ألقابه الأخرى التي وردت في المصادر فهي كثيرة ،منها : الأمير ، والأجلّ ،والسيّد الكبير ،والعالم ،والمجاهد ،والمؤيّد ،والمنصور ، والزاهد ، والهمام ،والمظفّر (٩) . . . الخ ، وغلب عليه لقب الملك العادل نور الدين .

---

(١) الهشم : الكاسر (انظر ،لسان العرب ،مادة : هشم) .
(٢) ديوان ابن منير / ٢٥٩ ،وكتاب الروضتين ١ / ٢٣٥ .
(٣) ديوان ابن منير / ٢٦٤ ،وكتاب الروضتين ١ / ٢٥٥-٢٥٦ .
(٤) الباهر / ٢٠ ،وكتاب الروضتين ١ / ٦٩-٧٠ ، وعيون التواريخ ١٢ / ٧٢ ، ووفيات الأعيان ٥ / ١٨٧ .
(٥) كتاب الروضتين ١ / ٩ .
(٦) انظر : النجوم الزاهرة ٥ / ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٦ / ٧١ ،وبدائع الزهور ١ / ٢٤٠ ، والأنس الجليل / ٣١٥ .
(٧) انظر : دول الإسلام ٢ / ٦٠ ،والدارس في تاريخ المدارس ١ / ٦١٥ .
(٨) انظر : أعلام النبلاء ٢ / ٦٦ .
(٩) انظر على سبيل المثال : نهر الذهب ٢ / ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الألقابُ مؤشّراتٌ إلى جوانبَ مهمةٍ لا معةٍ من سيرة حياة نور الدين وتدل على مكانته ومنزلته العظيمة التي يشهد له بها معاصروه. وبسبب تواضعه أمر بإسقاط ألقابه في الدعاء على المنابر (١)

* * *

أما نشأة نور الدين وسيرة حياته قبل أن يتولّى حلب، فلم تزوّدنا المصادر عنها شيئًا سوى إشارات، فقد ذكر أبو شامة أنّ نور الدين "لمّا راهق لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدته على قلعة جعبر" (٢).

وأورد ابن كثير أنّ نور الدين "نشأ في كفالة والده، صاحب حلب والموصل، وغيرهما من البلدان الكثيرة، وتعلّم القرآن والفروسيّة والرّمي" (٣).

ويقول ابن قاضي شهبة بأنه نشأ على الخير والصّلاح، وقراءة القرآن والعبادة، وكان أبوه يقدّمه على بقيّة أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة (٤).

* * *

وتولى نور الدين الأمر في حلب بعد استشهاد والده عماد الدين زنكي، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وذلك بمساعدة بعض الأمراء، وقادة الجيش المخلصين، فقد ذكر ابن الأثير أن نور الدين كان حاضرًا مع والده عندما استشهد على قلعة جعبر، وأنه أخذ خاتمه من يده، وسار إلى حلب فملكها (٥). وكان في خدمته صلاح الدين الياغيسياني (٦) وعساكر الشام (٧). وأورد أبو شامة أن أسد الدين شيركوه "قصد خيمة نور الدين بعد مقتل عماد الدين، وعرض عليه أن يسيّره إلى حلب ويجعلها كرسيّ ملكه، ويجتمع في خدمته عساكر الشام، وقال له: أنا أعلم أنّ الأمر يصير جميعه إليك، لأنّ ملْك الشام بحلب، ومَنْ مَلَك حلب استظهر على بلاد الشرق.

ولمّا دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها وقرّر أمره، فكان نور الدين يرى له ذلك (٨).

ومساعدة كبار الأمراء والقادة لنور الدين على ولاية الأمر بعد والده، تدل على مكانة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين في قلوبهم، وصدق ولائهم للأسرة الزنكية، ودليل على السّيرة الحسنة لعماد الدين وابنه نور الدين، ولو أنّهما لم يحسنا سياسة الناس، وتسيير أمور الدولة، لطلب كلّ أمير الولاية لنفسه، وحدثت فتنة.

* * *

---

(١) انظر الروضتين ١/ ٢٨.
(٢) كتاب الروضتين ١/ ١١٩. (٣) البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٧.
(٤) الكواكب الدريّة / ١٥.
(٥) الكامل ١١/ ١١٢، وكتاب الروضتين ١/ ٢٩-٣٠، والسلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٣٨، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٩.
(٦) الياغيسياني: صاحب حماة وأحد أصحاب زنكي، كان في مقدّمة الجيش النوري لمّا قصد دمشق. (انظر الروضتين ١/ ٢٣٧).
(٧) انظر وفيات الأعيان ٥/ ١٨٤، وزبدة الحلب ٢/ ٢٩٠-٢٩١.
(٨) كتاب الروضتين ١/ ١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونور الدين في بيته كان مثال المسلم الورع التقي ،الذي يعيش حياةً بسيطةً لا يرجو إلا رضى الله ،فقد تزوّج سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، من عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنر(١) ، وقد أورد ابن القلانسي أنّ المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر " تردّدت إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية ،وانعقدت الوُصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين ،وتأكّدت الأمور على ما اقترح كلٌّ منهما ،وكُتب كتابُ العَقْد في دمشق ،بحضور رسل نور الدين ،وشُرع في تحصيل الجهاز ، وبعد ذلك توجّهت الرُّسُلُ إلى حلب وفي صحبتهم ابنة معين الدين"(٢) .

وكان نورُ الدين يفضّل مصالحَ المسلمين العامة على مصالحه الشخصيّة ، فقد ذكر أبو شامة أن " زوجة نور الدين قلّت عليها النّفقة ولم يكْفها ما كان قرّره لها ،فأرسلت إليه تطلب زيادة ،فلما قيل له ذلك ،تنكّر واحمرّ وجهُه ، ثم قال : من أين أعطيها ،أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ،إن كانت تظن أنّ الذي بيدي من الأموال هو لي ، فبئس الظن ،إنّما هي أموال المسلمين ،مُرصَدةٌ لمصالحهم ، ومُعدّة لفتقٍ إن كان من عدوّ الإسلام ،وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها .ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكاً ،وقد وهبتها إياها فلتأخذها ،قال : وكان يُحصَّل منها قدرٌ قليل "(٣) .

وكان نور الدين يأكل من عمل يده : " ينسج تارةً ،ويعمل علّابًا تارةً ،ويلبس الصوف ،ويلازم السجّادة ،والمصحف ،وكان حنفيًا ،ويراعي مذهب الشافعي ومالك ،رضي اللّه عنهم "(٤) .

وكان لتقوى نور الدين أثرٌ في التزام أهل بيته بأمور الدين ، " فكانت زوجته عصمت الدين خاتون بنت معين الدين ،تكثر القيام في الليل ،فنامت ذات ليلة عن وِرْدها ،فأصبحت وهي غضبى ،فسألها نور الدين عن أمرها ، فذكرت نومها الذي فوّت عليها وردها ،فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة (٥) في القلعة وقت السَّحَر ،لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل ، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجرًا جزيلاً ،وجرايةً كثيرة"(٦) .

---

(١) معين الدين أنر بن عبد الله ،كان مدبّر دولة أولاد أستاذه الأتابك طغتكين ،وكان جليل القدر ،عالي الهمّة ،له مدرسة بدمشق ،توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة ،اثر مرض أصابه في الكبد (انظر الروضتين ١/١٦٣ ،ووفيات الأعيان ١/٢٩٧ ، ٥/١٨٤ ،والنجوم الزاهرة ٥/٢٨٦) .

(٢) انظر ذيل الروضتين دمشق /٢٨٨-٢٨٩ ،والروضتين ١/١٢٩ ،والدارس في تاريخ المدارس ١/٦١٤-٦١٥ .

(٣) كتاب الروضتين ١/١٢ . (٤) الدارس ١/٦٠٩ .

(٥) طبلخانة : الطبل المعروف الذي يضرب به ،وهو ذو الوجه الواحد والوجهين . (لسان العرب ، مادة : طبل) .

(٦) البداية والنهاية ١٢/٢٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يتزوج نور الدين غيرَ عصمت الدين خاتون ،وخلّف منها ابنةً واحدةً (١) ، وولدين هما : اسماعيل وأحمد (٢) ،على خلاف ما ذكر حسين مؤنس ، من أن المؤرخين لم يذكروا له من الأبناء إلّا بنتًا وولدًا واحدًا (٣) . وكان الشعراء يشاركون نور الدين في المناسبات المختلفة ، فمن قصيدة لابن منير هنّأه فيها بالمولود أحمد ، يقول :

وجئت بأحمدٍ فملأتَ حمدًا ... موارِدَ كان معدنُها عذابا
تهلّلَ وَجْهُ مُلْكك يوم أهْدَتْ ... قوابلُهُ لك المُلكِ اللبابا
شبيهُكَ لا يغادرُ منك شيئًا ... سَنًا وحَيًا وَبَذْلاً واستلابا
قسيمُ الحمْدِ إلا أنَّ حرفًا ... من اسمك زاد للمعنى منابا
ألا للّه يومٌ فرَّ عَنْهُ ... وركْبٌ نصّ بالبشرى الرّكابا (٤)

* * *

وكانت الصِّلاتُ وثيقةً بين نور الدين وأخوته وهم : سيف الدين غازي وقطب الدين مودود ،ونصرة الدين أمير أميران . ويقول ابن الأثير في حقّهم "إنَّ اللّه سبحانه جمع فيهم من مكارم الأفعال ومحاسنها ،وحسن السّيرة وعمارة البلاد ،والرفق بالرعيّة إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها ، يقول : أظن أنَّ القائل أرادهم بقوله :

هَيْنون لَيْنون أيسارُ بنو يسرٍ ... سُوّاسُ مكرمةٍ أبناءُ أيسار
لا ينطقون على العوراء إن نطقوا ... ولا يمارون إن ماروا بإكبار (٥)

وعندما عبر سيف الدين غازي إلى الشام لينظر في نواحيها ويقرّر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب ،وكان نور الدين قد تأخّر عن لقاء أخيه ، فقال له سيف الدين : لِمَ امتنعت من المجيء إليّ ؟ أكنت تخافني على نفسك ؟ واللّه ما خطر ببالي ما تكره ، فلمن أُريد البلاد ومع من أعيش وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إلي ؟ فاطمأنَّ نور الدين وعاد إلى حلب ، فتجهّز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين ،فأمره سيف الدين بالعَوْد وترك عسكره عنده ،وقال : "لا غرض لي في مقامك عندي ، وإنما غرضي أن يَعْلَمَ الملوكُ والفرنجُ اتفاقَنا ،فمن يريد السوء بنا يكفّ عنّا" (٦) .

وعندما توفي سيف الدين غازي سنة أربع وأربعين وخمسمائة ،حزن عليه

---

(١) زوّجها لابن أخيه قطب الدين ،عماد الدين زنكي الذي كان طوع عمّه نور الدين ،لكثرة مقامه عنده ،ولأنه زوج ابنته (انظر: زبدة الحلب ٢/ ٣٣١) .
(٢) أحمد : ولد سنة سبع وأربعين وخمسمائة بحمص ،ثم توفي بدمشق ، وقبره خلف قبر معاوية . (انظر الروضتين ١/ ٢٢١) .
(٣) انظر : نور الدين محمود (سيرة مجاهد صادق) ٢/ ٤٠٩ .
(٤) كتاب الروضتين ١/ ٢٢١ .
(٥) التاريخ الباهر / ١٥ .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ١٢٢ - ١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نور الدين ،وكان لوفاته صدى في شعر الشعراء ،وعزّوا نور الدين بأخيه ، فواساه ابن منير بهذه الأبيات حيث يقول :

وكان نظيرك غار الزما ... ن من أنْ يرى لك فيه نظيرا
فدتْكَ نفوسٌ بك استوطنتْ ... من الأ من نورًا وقد كنَّ بورا
بقيتَ معزّىً من الهالكين ... تُوقّى الرَّدى وتوفّى الأُجورا
وما نقّصَ الدّهرُ أعدادكم ... إذا شفَّ قطرًا وأبقى بُحُورا
ولو أنصف المجد موتاكُمُ ... لخطّ لهُمْ في السماء القبورا
حياتُك أحْيَتْ رميمَ الرّجاء ... وأمْطت من الجود ظهرًا ظهيرا (١)

وواساه ابن القيسراني بمصابه ،ودعا الله أن يحصّنه بلباس الصبر ، يقول :

ما أطرق الجوُّ حتى أشرق الأُفُقُ ... إنْ أُغمدَ السيفُ فالصمصامُ يأتلقُ
دون الأسى منك نورالدين في حلب ... مُطَّلٌ ينجلي عن وجهه الغسقُ
كُنْتَ الشقيق الشفيق الغيّب حين شوى ... أراق ماء الكرى من جفنك الأرقُ
تلقى الأسى من لباس الصبر في جُنن ... حصينةٍ تحتها الأحشاء تحترقُ
ومدّةُ الأجل المحتوم إنْ خفيتْ ... فإنَّ أيامنا من دونها طُرُقُ (٢)

أما نصرة الدين ، فقد كان يحارب بشجاعة مع أخيه نور الدين ، وعندما فتح نور الدين بانياس(٣) ، وكان معه أخوه نصرة الدين ،جاءه سهم في عينه فأذهبها ، فلما رآه نور الدين ،قال له : " لو كشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى "(٤) ،ومن ذلك نرى مدى إيمان نور الدين بوعد الله وثوابه .

وعندما توفي قطب الدين مودود سنة خمس وستين وخمسمائة ،قصد نور الدين الموصل ،وكان هدفه أن يبطل ما فعله فخر الدين عبد المسيح (٥) ، من عزل عماد الدين زَنْكي بن قطب الدين ،وجعل ولاية العهد لسيف الدين ابن قطب الدين ، وقال نور الدين : "أنا أحقّ بتدبير ملك أولاد أخي"(٦) .

---

(١) ديوان ابن منير / ٢١٩ ،وشعر ابن منير / ١٠٢ -١٠٤ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٦٩ .
(٢) كتاب الروضتين ١ / ١٦٩ .
(٣) بانياس : مدينة قريبة من دمشق ،وهي كورة الجَوْلان (انظر الأعلاق الخطيرة / ١٣٩ ،والروض المعطار ١ / ٧٤) .
(٤) الكواكب الدرية / ١٦٨ .
(٥) من موالي قطب الدين مودود ،ومدبّر مملكته ،والمتحكم فيها . (انظر الكامل ١١ / ٣٥٥ ،والبداية والنهاية ١٢ / ٢٦١) .
(٦) الباهر / ١٤٦ ،والكامل ١١ / ٣٥٥ ،وتاريخ مختصر الدول ٢١٣-٢١٤ ، والنجوم الزاهرة ٥ / ٣٨٣-٣٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان نور الدين يحكم على الرجال ويحسن اختيارهم . لذلك نجد حوله رجالاً اشتهروا بسياستهم ،وإدارة شؤون الدولة ، وكانوا خير عون لنور الدين في مختلف الأمور ،وكانت علاقتهم بنور الدين قائمة على الـــولاء والإخلاص ، وذلك لما كان يتميّز به (١) .

وكان نور الدين لا يفعل فعلاً إلّا إذا كان فيه فائدة تعود على المسلمين " فقد كان بالجزيرة رجل من الصالحين ،كثير العبادة والورع ،شديـــد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله ، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً . فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فكتب إليـــه يقول : " ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية" .

فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول : " والله ما يحطني على اللعب بالكرة اللهو والبطر ،إنّما نحن في ثغر ،والعدوّ قريب منا ،وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب ،ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهـــاراً ، شتاءً وصيفاً ،إذْ لابد من الراحة للجند ،ومتى تركنا الخيل على مرابطهـــا صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب ،ولا معرفة لها بسرعـــة الانعطاف في الكرّ والفرّ في المعركة . فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعـــب ، فيذهب جمامها ،وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله الذي يحثني على اللعب بالكرة" (٢) .

ونور الدين كان يعرف بأن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف ، فكان يهتم بالفروسية ،ومن أهم مظاهرها عند المسلمين زمن الحروب الصليبية لعبـــة الصولج (٣) ، وكان يلعبها نور الدين ومعه كبار قواده ورجال دولتـــــه ، وفيهم أسد الدين شيركوه ،وأخوه نجم الدين أيوب ،وولده صلاح الديـــــن ، وكانوا كلهم يحذقون هذا اللعب ويظهرون فيه من المهارة ما يدعو إلـــــى الإعجاب (٤) .

وكان نور الدين كذلك يمارس رياضة الصيد ،فقد روى أسامة بن منقـــذ في كتاب الاعتبار أنه كان يشهد الصيد مع نور الدين (٥) .

ونور الدين كان ينتقل من بلد إلى آخر ، كي يطلع على أحوال المسلمين إذْ كان دائم السهر على مصالحهم . فبالإضافة إلى دمشق وحلب ،زار مدنـــاً عديدة ،ومنها : حمص وحماة والموصل (٦) ،وغيرها وكان يقيم فيها أياماً .

---

(١) سيأتي ذكر هؤلاء الرجال عند الحديث عن نور الدين الإداري فـــي الباب الثاني من هذه الدراسة .

(٢) الباهر / ١٦٤-١٦٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٢ .

(٣) الصولج والصولجانة : العود المعوج ،تعريب جوكان (انظر : معجم الألفاظ الفارسية / ١٠٩) أو عصا يعطف طرفها ،يضرب بها الكـــرة على الدواب (وانظر : لسان العرب ،مادة : صلج) .

(٤) انظر كتاب الروضتين ١/ ١٨-١٩ ،وأدب الحروب الصليبية/ ٢٣٨ .

(٥) انظر : الاعتبار / ١٩٨ ،وانظر حديث أسامة في ذلك في الحديث عن نور الدين والأدباء في الباب الثالث من هذه الدراسة .

(٦) انظر: سنا البرق الشامي ١/ ٦٧ ، ١٠٥ ، ١٣٠ ،والكواكب الدرية/ ٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعرض نور الدين للمرض في حياته غير ما مرة ، وفي كل مرة يمرض فيها يقلق المسلمون عليه ،وعندما يمن الله عليه بالشفاء يفرح المسلمون فرحًا عظيمًا ، ويكون لهذا الفرح صدى في شعر الشعراء ، فيستبشر الشعراء خيرًا ،ويهنئون نور الدين بشفائه .

ففي مناسبة شفاء نور الدين من إحدى مرضاته هنأه ابن منير ،ودعا له أن يبقى شمسًا ساطعة ونورًا مضيئًا يبدد ظلمات المسلمين ،وعنده شفاء نور الدين صحة ودواء للإسلام وعلة وهلاك لأعداء الإسلام ،ويستخدم في أسلوبه النداء والدعاء ،يقول :

يا شمس لا كسفٌ ولا تكدار ... ولا خلت منْ نورك الأنوارُ
بُرؤُك للإسلام من أدوائه ... بُرءٌ وفي أعدائه بوّارُ (١)

وأما ابن القيسراني فيصور احتجاب نور الدين بسبب مرضه بالهلال الذي يغيب ليالي قليلة ثم يعود ليزيل الظلام ،ومرض نور الدين طيف خيال يأتي ويذهب سريعًا ، ويستخدم في ذلك النداء والنفي ،يقول :

أشرق البَهْوُ (٢) يا جَبين الهلال ... فَحَلاهُ لوجهك المتلالي
عن ليالٍ حجبن عنّا سناها ... إنّما غيبةُ الهلال ليالي
لم يكن ما ألمّ بالجسم شكوى ... فَتُهنّا لوافد الإقبال
لا ولا كان زائرًا من سُقام ... إنّما كان طائفًا من خيال
وَعْكةٌ أقلعتْ وأنتَ صحيحٌ ... ويصحّ النّسيمُ بالإعتلال (٣)

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد فلما اشتد به وخاف منه على نفسه ،استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران ، وأسد الدين شيركوه وأعيان الأمراء والمقدمين وأوصى إليهم ما اقتضاه رأيه واستصوبه (٤) .

واضطربت الأحوال وقلق المسلمون عليه ،واعتدى الفرنج على أرض المسلمين (٥) .

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة قدم الملك العادل نور الدين من حلب إلى دمشق وقد شفي من المرض ، ففرح به المسلمون ، وخرج إلى قتال الفرنج (٦) .

وقد عبّر الأدباء عن فرحتهم وفرحة المسلمين جميعًا بشفاء نور الدين ومنهم ابن القلانسي الذي نظم مقطوعة شعرية في شفاء نور الدين من المرض والبشرى بذلك (٧) .

---

(١) شعر ابن منير / وكتاب الروضتين ١/ ٢٧٧ .
(٢) البهو: البيت المقدّم أمام البيوت (لسان العرب ،مادة : بهو) .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٢٧٨-٢٧٩ .
(٤) انظر ذيل تاريخ دمشق / ٣٤٩ ،والبداية والنهاية ١٢/ ٣٣٦ .
(٥) انظر ذيل تاريخ دمشق / ٣٤٩ .
(٦) انظر المصدر نفسه / ٣٥١ ،والبداية والنهاية ١٢/ ٣٣٨ .
(٧) انظر المقطوعة الشعرية في الحديث عن نور الدين والأدباء في الباب الثالث من هذه الدراسة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة ،مرض نور الدين مرضًا شديدًا ،أرجف بموته بقلعة حلب ، فجمع أخوه أمير أميران بن زنكي جمعًا ،وحصر قلعة حلب ، وكان شيركوه بحمص وهو من أكبر أمراء نور الدين ،فسار إلى دمشق ليستولي عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب ،فأنكر أيوب عليه ذلك ،وحسن له الرجوع إلى حلب ، وقال له : إن كان نور الدين حيًا خدمته ،وإن كان قد مات ،فأنا في دمشق ، فافعل ما تريد . فعاد شيركوه إلى حلب مجدًا ،وجلس نور الدين في شباك يراه الناس ، فلما رأوه تفرقوا عن أخيه أمير أميران ، واستقامت الأحوال (١) ، ولم أجد قصيدة في التهنئة بالشفاء من هذه المرضة .

أما في سنة تسع وستين وخمسمائة ،فكان مرض الوفاة ، وكان ابتداء مرضه أنه ختن ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر ، فهنيء بالعيد والطهور ، قال العماد : واحتفلنا لهذا الأمر وظفت محال دمشق أياما ،وقال : نظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها :

عيدان فطرٌ وطهرُ ... فتحٌ قريبٌ ونصرُ
كلاهما لك فيه ... حقًا هناءٌ وأجرُ
وفيهما بالتهاني ... رسمٌ لنا مستمرُ
طهارةٌ طاب منها ... أصلٌ وفرعٌ وذِكْرُ

وهي قصيدة طويلة (٢) .

واستمر مرض نور الدين ،وأشار عليه الاطباء بالفصد (٣) فامتنع ، وكان مهيبًا فما روجع ،وتوفي بعلة الخوانيق ، يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة (٤) .

ولما دفن نور الدين ،حضر القاضي كمال الدين بن الشهرزوري ، وشمس الدين بن المقدّم (٥) ،وغيرهما من النواب وكبار المسؤولين ،وتحالفوا على أن تكون آراؤهم واحدة وأيديهم متساعدة وأن ابن المقدّم مقدّم العسكر .

وملك بعد نور الدين ابنه الملك الصالح اسماعيل ،وكان عمره إحدى عشرة سنة ، واطاعه الناس بالشام ،وصلاح الدين بمصر ،وخطب له بها ، وضربت السكة باسمه (٦) .

---

(١) نهر الذهب ٣/ ٩٥ ،والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤٩ .
(٢) ديوان العماد /١٧٣ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٦٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٧٧ - ٥٧٩ .
(٣) الفصد : شق العرق ، (لسان العرب ، مادة : فصد) .
(٤) انظر خبر وفاته في : سنا البرق الشامي ١/ ١٥٣-١٥٤ ،والكامل ١١/ ٤٠٢-٤٠٣ ،والباهر / ١٦١ - ١٦٢ ،ورحلة ابن جبير/ ٢٣٢ ،وزبدة الحلب ٢/ ٣٤٠- ٣٤١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٨١-٥٨٢ .
(٥) أحد أمراء نورالدين ،كان أميرًا على سنجار ،اختاره بقية الأمراء وصيًا على الملك الصالح اسماعيل بعد وفاة أبيه (انظر ،سنا البرق الشامي ١/ ١٥٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٧٢) .
(٦) انظر تاريخ مختصر الدول /٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أحدث موت نور الدين فاجعة أصابت المسلمين جميعًا . فقد كان المسلمون يأملون أن يتم فتح بيت المقدس على يديه ،وقد رثاه الأدباء ، وتألموا لفقده ،وكان فقده بلاءً عظيمًا أصاب الإسلام والمسلمين ،فالعماد الأصفهاني قد تأثر لموت نور الدين ورثاه في قصائد عدة ، يقول :

عجبت من الموت كيف اهتدى ... الى مَلِكٍ في سجايا مَلَكْ
وكيف ثوى الفَلَكُ المستدي ... رُ في الأرض والأرض وَسْط الفَلَكْ (١)

وأيام نور الدين التي عاشها تفخر بجوده وفضله ، وقد ملك الدنيا بحسن سيرته ، وعندما توفي ذهب ليملك الآخرة ويتخذها دار إقامة خالدة . يقول العماد :

يا ملكًا أيامه لم تزل ... بفضله فاضلةً فاخرة
غاصت بحار الجود مذ غُيِّبَتْ ... أنمُلُك الفائضة الزاخرة
ملكت دنياك وخلّفتها ... وسرت حتى تملك الآخرة (٢)

ويذكر العماد في رثائه أيضًا ،بأن الظلام قد حل بغياب نور الدين ، وأن الخصب والخير قد زالا وحلّ مكانهما الشرّ والمحل إذْ يقول :

ولمّا غاب نور الدي ... ن عنا أظلم الحقْـلُ
وزال الخصبُ والخيرُ ... وزاد الشرُّ والمحـلُ (٣)

وبعد وفاة نور الدين أنشئت كتب التعازي التي تذكر فضائله ،وتعدد مآثره العظيمة ،وتسجل مواقفه المشرفة في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ،ومنها : كتاب أنشأه العماد الأصفهاني عن الملك الصالح اسماعيل إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ،أوله : "أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر ،وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل ،ندب الشام ،بل الإسلام ،حافظ ثغوره ،وملاحظ أموره ،ومقدام الجهاد ،مقتني فضيلته ،ومؤدي فريضته ، ومحيي سنته ،وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره ،على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره "(٤) .

وأنشأ القاضي الفاضل كتابًا عن الملك الناصر تعزية للملك الصالح بوفاة والده ،أوله : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة "(٥) ، أنزل الله الصبر وضاعف التأييد بحجة التذكر والاستبصار ،وأخلصه بخالصة ذكرى الدار ،وألهمه التأسي بقوله تعالى : (إنّما هذه الدنيا متاع وإنّ الآخرة هي دار القرار) (٦)،وهنأه بالمملكة التي أقعد ذروتها ،وعلا محلها ... الخ "(٧) .

---

(١) ديوان العماد / ٣٢٠ . وكتاب الروضتين ١ / ٥٨١ .
(٢) ديوان العماد / ٢٠٩ وكتاب الروضتين ١ / ٥٨١ .
(٣) ديوان العماد / ٣٣٦ ،والخريدة ،قسم الشام ١ / ٧٠ ،وكتاب الروضتين ١ / ٥٨٨ . (٤) سنا البرق الشامي ١ / ١٥٤-١٥٥ ،وكتاب الروضتين ١ / ٥٨٦ .
(٥) الاحزاب / ٢١ . (٦) غافر / ٣٩ .
(٧) انظر : سنا البرق الشامي ١ / ١٥٦-١٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن كتاب آخر كتبه القاضي الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف إلى بعض الأمراء بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود ،وهو : "كتابنا هذا إلى الأمير ،معزّين بالرُّزء الذي كملت أقسامه وتمت ، ورمت أحداثه القلوب فأعمت ، وطرقت أحاديثه الأسماع فأصمّت ،وأبى أن تعفو كلومه ،وكاد لأجله الأفق تنكسف بدوره ،وتتكدر نجومه ، وثلم جانب الدين لفقد من لولاه لدرست أعلامه ،ولم تدرس علومه ،وفجأه فاستولى على كل قلب وجيبه ،وعلى كل خاطر وجومه ،بانتقال المولى (نور الدين) إلى سكنى دار السلام ،وقدومه على ما أعده الله له من جزاء ذبه عن الإسلام . . .الخ"(١)

وقد صُوّر نور الدين في كتب التعازي بطلاً يعزّ أن يرى الزمان نظيره فهو مجاهد وفاتح ،وذائد عن ثغور المسلمين ،وهو محيي السنّة ،وحافظ للإسلام .

وتضمنت الكتب تبادل التعزية والمواساة بوفاة نور الدين ،والتعاقد على الاخلاص للملك الصالح من بعده وفاءً بحقه .

وبيّنت الكتب ولاء قادة نور الدين لدولته ، وكشفت عن نيتهم للسير على نهجه القويم .

وبيّنت أيضاً فظاعة الفجيعة التي ألمّت بالمسلمين بسبب موته ، فامتلأت الصدور هموماً ،وأصيب الدين لفقده ، وبكاه أهل الإسلام . وقد دعا له الكتاب بأن يدخله الله دار السلام ،جزاءً لذوده عن الإسلام .

وكانت حياة نور الدين حافلة بالأحداث ،وقد سجّل التاريخ بطولاته وانتصاراته في المعارك ضد الصليبيين ،وانجازاته في ميادين الحياة المختلفة .

وصور الأدباء جوانب شخصيته الفذّة ،وعلّقوا الآمال عليه في تحرير ما اغتصبه الصليبيون من أرض المسلمين .

* * *

---

(١) انظر : صبح الاعشى ٧/٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صفاتـــــــه

تحدّث أبو شامة عن سيرتي نور الدين وصلاح الدين ،واعتبر نور الدين قدوة لصلاح الدين ،فقال : " وجدتهما في المتأخرين ، كالعمرين - رضي الله عنهما - في المتقدمين ،فإن كل ثانٍ من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد ،واجتهد في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد " (١) ، ويقول في موضع آخر : " فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة ،وجميل السريرة ، وهما حنفي وشافعي ،شفى الله بهما كلّ غيّ ،وظهرت بهما من خالقهما العناية ،فتقاربا حتى في العمر ومدة الولاية "(٢) .

اتصف نور الدين بصفات حدت بالمؤرخين إلى وضعه في مرتبة تأتي بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ،فقد قال ابن الأثير : " قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام ،وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ،ولا أكثر تحرّيًا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهّز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ،وإحسان يوليه ،وإنعام يسديه ،ونحن نذكر ما يُعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان في أمة لافتخرت به ، فكيف ببيت واحد " (٣) .

ورث نور الدين بعض صفاته عن أبيه عماد الدين زَنْكي ، وزاد عنه في صفات أخرى ، فقد كانت سيرة عماد الدين " من أحسن سير الملوك ، وكان من أكثرها حزمًا وضبطًا للأمور ،وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف "(٤) ، وكان " جبارًا عظيمًا ،شديد الهيبة على عسكره ورعيته ، عظيم السياسة "(٥) .

وقد خلع الشعراء على الشهيد عماد الدين زنكي خلالاً إسلامية وصفاتٍ قيادية ،فهو رجل شجاع قاهر للأعداء ،ومتميّز عن الملوك الآخرين بصفاته المجيدة ، يقول ابن منير :

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٥ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٦ .
(٣) التاريخ الباهر / ١٦٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ١١ .
(٤) المصدر نفسه / ٧٦ ،والمصدر نفسه ١/ ١٠٩-١١٠ .
(٥) انظر : زبدة الحلب ٢/ ٣٨٣ ،وتاريخ مختصر الدول / ٢٠٦ ،وتاريخ دولة آل سلجوق / ١٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صفاتُ مجدك لفظٌ جلَّ معناه فلا استردَّ الذي أعطاكهُ اللّهُ
يا صارماً بيمين الله قائمُهُ وفي أعالي أعادي الله حدّاه
أصبحْت دون ملوك الأرض مُنفرداً بلا شبيهٍ إذ الأملاكُ أشباه

وهو ملكٌ تقيٌّ مجتنبٌ للفواحش ، يسهر من أجل عمل الخير وما فيه صلاح للرعية : ملك تنام عن الفحشاء همته تقى وتسهر للمعروف عيناه (١)

بعماد الدين يزداد الدين منعة وقوة ،وتسترد البلاد ، يقول ابن منير :

وبعماد الدين أضحت عروة الدّين معصوبًا بها الفتح المبين (٢)

وفي ظلّه يسود العدل ،يقول ابن منير أيضًا :

يا محيي العدل الذي في ظلّهِ تَسرْبَلَتْ زينَتَها الآفاقُ (٣)

وهو عند ابن القيسراني محارب شجاع يحمي الدين ويدافع عن حرمات الله ، يقول :

هو السّيفُ لا يغنيك إلّا جلادُهُ وهل طوّق الأملاك إلّا نجادُهُ
سمت قبة الإسلام فخرًا بطوله ولم يكُ يسمو الدينُ لولا عمادُهُ
وذاد قسيمُ الدولة ابنُ قسيمها عن الله ما لا يستطاعُ ذيادُهُ (٤)

وتحدّث الشعراء عن كرمه وهيبته وإخافته للأعداء وما إلى ذلك من الصفات التي يتصف بها البطل المسلم (٥).

وأبرز لنا الأدباء صفات نور الدين التي يتحلى بها ، وشمائله الإسلامية السامية ،ورسموا له في مدائحهم صورة أخلاقية وبطولية مثالية .

فقد كان نور الدين عابدًا للّه متمسكاً بأهداب الإيمان وَمُثُل الإسلام فكان " يصلي كثيرًا بالليل ،وله فيه أوراد حسنة ، وكان ملازمًا للصلاة جماعة ، كثير التلاوة والصيام والتسبيح " (٦) .

فهو كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربّه ما أحسن المحراب في المحراب (٧)

وهو يعتمد في حكمه على القرآن الكريم ،يقول ابن منير :

لا مُلْكَ إلّا مُلْكُ محمودِ الّذي تَخِذ الكتاب مُظاهِرًا ووزيرا (٨)

---

(١) ديوان ابن منير / ١٩٥ ،وشعر ابن منير/ ١٩٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٩٩ .
(٢) ديوان ابن منير/ ١٩٩ ،وشعر ابن منير/ ١٩١ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٠١ .
(٣) ديوان ابن منير / ٢٠٢ ،وشعر ابن منير/ ١٣٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٠٦ .
(٤) كتاب الروضتين ١/ ٩٧ .
(٥) انظر : الشواهد على ذلك في الروضتين ١/ ١١٥، ١١٦، ١١٨ .
(٦) انظر: الكامل ١١/ ٤٠٣ ،والبداية والنهاية ١٢/ ٢٨٦ ،ودول الإسلام ٢/ ٦٠ .
(٧) انظر البيت في الكامل ١١/ ٤٠٣ ،والباهر/ ١٦٥ ،والروضتين ١/ ١٤ ، والمحراب الأولى : صيغة مبالغة بمعنى كثير الحرب ، والمحراب الثانية : قبلة الصلاة : لسان العرب مادة : حرب) .
(٨) ديوان ابن منير/ ٢٤٦ ،وشعر ابن منير/ ٩٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان حريًّا بهذا البطل المسلم الذي انتهج الإسلام سبيلاً ، واتخذ القرآن دستورًا أن يكون حب الناس اياه واجبا دينيا ، وبغضهم إياه كفرًا يقول العماد الاصفهاني :

وإنَّ حبَّكَ دينٌ وإنّ بغضَكَ كُفْرُ(١)

وكان نور الدين يحفظ أصول الديانات ، ويطبق الشريعة الإسلامية ، فيترجم اعتقاده وقوة إيمانه إلى واقع عملي ، وكان يعظّم الشريعة المطهّرة ويقف عند أحكامها ، ويقول " نحن شحن (٢) لها نمضي أوامرها "(٣) .

وكان مراعيًا لأصول الديانات لا يهملها ، ولا يمكن أحدًا من الناس من إظهار ما يخالف الحق . ومتى أقدم مقدم على ذلك ، أدّبه بما يناسب بدعته . وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل فيهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل ؟ (٤) .

وعندما كتب له عمر الملاّ بأن " المفسدين قد كثروا ويحتاج إلى سياسة ، ومثل هذا لا يجيء إلاّ بقتل وصلب وضرب ، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يشهد له ؟" ، فكتب إليه الملك العادل : "إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بما يصلحهم وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه ، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى "(٥) .

ويظهر لنا هذا الردّ مدى تمسك نور الدين بالشريعة الإسلامية وحدودها .

ونور الدين يتسامى بسيرته ، فهو متواضع وتقيّ ، ومع هيبته وعظمته ، كان إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير ، يقوم له ويمشي بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحديثه ، كأنه أقرب الناس إليه (٦) .

وكان من رآه شاهد من جلالة السلطنة وهيبة الملك ما يبهره ، وإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيّره (٧) .

وهو متحصن بتقوى الله ، ومتخذ من التقوى شعارًا يميّزه ، يقول ابن القيسراني :

---

(١) ديوان العماد / ١٧٤ ، وكتاب الروضتين ١ / ٥٧٧ .
(٢) شحن : من فيهم الكفاية لضبط البلد من أولياء السلطان (انظر لسان العرب ، مادة شحن ، وانظر: Dozy, Supp. Dict. Tome I, P. 733
(٣) الكواكب الدرية / ٢٠ .
(٤) انظر الباهر / ١٧٣-١٧٤ ، وكتاب الروضتين ١ / ٢٤ .
(٥) كتاب الروضتين ١ / ٣٢ ، والبداية والنهاية ١٢ / ٢٨٢ - ٢٨٣ .
(٦) انظر الباهر / ١٧٢ ، والكواكب الدرية / ٣١ .
(٧) الدارس في تاريخ المدارس ١ / ٦٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قاسمًا ما ملكتَ في النّاس حتـــى لقسمت التُّقى على الأتقياءِ (١)

ويقول أيضـًا :

أوْ تحصّنت في شعارٍ من التّقـــوى فما زلت منه في سربـال (٢)

وخلع عليه العماد الأصفهاني صفات الفضل ، والعطاء ،والعلم ،والتقى ، والسداد ،إذ يقول :

الغزير الإفضال والفضل والنـــا ئل والعلم والتُّقى والسدادِ (٣)

وصوّره العماد الأصفهاني قد بز الملوك في العفة والتقوى والصلاح وسداد الرأى ، وتفوق عليهم في فتح المعاقل وتثبيت دعائم الإسلام ،يقول :" أعفّ الملوك وأتقاهم ،وأصلحهم عملاً وأنجحهم أملاً ،وأرجحهم رأياً ،وأوضحهم آيـًا ، وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام ، فاستفتح معاقلهـــــا ، واستخلص عقائلها " (٤) .

وأما زهده ، فكان زهد المؤمن الذي لا يرغب في الدنيا وما فيها من ملذات وشهوات ،ويسعى ويعمل للآخرة دار النعيم والخيرات .

فهو لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلاّ من ملك كان له قـــد اشتراه من سهمه من الغنيمة ،ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلميـــن ، وقد أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك ،فأخذ ما أفتـــوه بحله ، ولم يتعده إلى غيره (٥) .

ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ،ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ،ومن إدخالها إلى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ،وكل الناس عنده فيه سواء (٦) .

وحكي عنه أنه حُمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهّبة ، فوضعـــت بين يديه ،فلم يلتفت إليها ، وبينما هم معه في حـــديثها ، إذ جاءه رجـــل صوفي ،فأمر له بها ،فقيل له : إنها لا تصلح لهذا الرجل ،ولو أعطي غيرها كان أنفع له ، فقال : أعطوها له ،فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة (٧) .

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٥ ،والكواكب الدرية / ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٧٩ . السربال : القميص والدّرع ، وقيل كل ما لبس وهو معرّب شَروال (انظر : لسان العرب : سربل ، ومعجم الألفـــاظ الفارسية المعرّبة / ٨٨) .

(٣) ديوان العماد / ١٢٥ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٤٨ .

(٤) انظر : سنا البرق الشامي ١/ ٥٥-٥٦ .

(٥) انظر: الكامل ١١/ ٤٠٣ ، والباهر / ١٦٤ ،والروضتين ١/ ١١ ،والكواكب الدرية / ٥٣ .

(٦) انظر : الباهر / ١٦٤ ،والروضتين ١/ ١١ ،والكواكب الدرية/ ٥٤ ، والدارس ١/ ٦١٠ .

(٧) انظر الروضتين ١/ ١٣ ،والكواكب الدرية / ٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو عند ابن القيسراني أزهد الزهّاد ،وعفافه وزهده جعلاه يعزف عما في الدنيا من أموال وشهوات ،يقول :

يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزهد زُهّادها (١)

ويقول أيضا :

ثنى يده عن الدنيا عفافا ومال بها عن الأموال زهدُ (٢)

ويصوّره ابن منير من الصالحين والأبرار الذين يزهدون فيما يتنازع عليه الناس من عرض الدنيا الزائل ،يقول :

لا زلت تقفو الصالحين مسابقًا لهُمُ وتطّلعُ خلفك الأبرارُ
نفس السيادة زهْد مثلك في الذي فيه تفانتْ يَعْرُبٌ ونزار (٣)

ونور الدين رجل دولة ،ساهر على مصالح الأُمّة ،ذابٌّ عنهم عاديات الشر ،ليحيوا في طمأنينة وأمن ،يقول ابن منير :

سهرت عينك الكلُوءُ ونامـوا تحت أكناف رعيها آمنينا
بين ذبٍّ يميت عادية الشـر ك وهبٍّ يحيا به المسلمونا (٤)

وكان يفعل الخير ويسبق غيره في الحرص على مصالح المسلمين ، فقد أشهد جماعة بوقف حوانيت في حمص ، فلما شهدوا عليه ،التفت إليهم وقال : بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير ،دلونا عليه وأشركونا في الثواب ، فقال أحدهم وهو شرف الدين ابن أبي عصرون : والله ما ترك المولى شيئًا من أبواب البر إلاّ وقد فعله ،ولم يترك لاحدٍ بعده فعل خير ، إلاّ وقد سبقه إليه (٥) .

ولا يشغله شيء عن فعل الخير ،يقول أسامة بن منقذ :

ما له عن جهاده الكفر والسعـد ل وفعل الخيرات شغلٌ يعوقُ (٦)

ويذكر العماد الأصفهاني أنّ نور الدين يفعل الخير ويسدي المعروف عن خلق وطبع ،ودون تكلف أو تصنع ،اذ يقول :

يا فاعلَ الخيرِ عن طبْعٍ بلا كلـفٍ ومُولِيَ العُرْف عن خُلْقٍ بلا سَأَمِ (٧)

وكان نور الدين كريما معطاءً ،يكثر من الأوقاف والصدقات . " وما كان له من الغنائم وجزية أهل الذمة ،فكان ينفق منه على حوائجه المهمة ،وما يستفضل منه يتصدق به في آخر الشهر.

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٢٠٩ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٤٨ .
(٣) ديوان ابن منير/ ١٩٢ ،وشعر ابن منير/ ٨٦ وكتاب الروضتين ١/ ٥٤-٥٥ .
(٤) ديوان ابن منير / ١٩٤ وشعر ابن منير/ ١٨٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ١١٧ .
(٥) كتاب الروضتين ١/ ٣١ .
(٦) ديوان اسامة / ١٨٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ١١٧ .
(٧) ديوان العماد / ٣٨٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ٤٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما ما كان له من هدايا الملوك وغيرهم التي كانت تهدى إليه فإنه كان لا يتصرف في شيء منه ، لا قليل ولا كثير ،بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي يحصل ثمنه ،ويصرف في عمارة المساجد المهجورة .

وأورد أبو شامة في أخبار سنة تسع وستين وخمسمائة قول العماد :

" وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر ،فزاد على ثلاثين ألف دينار "(١) .

فنور الدين كان كريمًا منفقًا على مصالح المسلمين وحيث يحب الله ،راجيًا رضاه . لذلك نرى الأدباء الذين أحبوا نور الدين وأخلصوا له ،يذكرون كرمه وجوده في كثير من المناسبات ، دون أن يكون لهم أيّ مطلب أو مكسب ،

ونور الدين بحر في العطاء ،فهو يبسط كفّه ويعطي الكثير ،يقول ابن القيسراني :

ونـدى يـدٍ ما ضرّ وارد هـا ألاّ يبيت مجاور البحر(٢)

ويقول أيضًا :

وبسطتَ بالأموال كفّاً طالما طالتْ بها الآمالُ وهْي قصارُ
وثنى الفراتُ إلى يديك عنانه والبحر ما اتصلت به الأنهارُ(٣)

وصوّر ابن منير جود نور الدين بقوله :

يا أيُّها المَلِكُ المنادي جودُه في سائر الآفاق : هل من مبسرٍ؟(٤)

ومدح العماد الأصفهاني نور الدين ،وتحدث في كثير من قصائده عن كرمه وجوده ، وعده أكرم الناس ، والسعيد من جاوره ونال من عطاياه ،وما قاله في ذلك :

وما في الأنام كريمٌ سواه فإن كنت تُنكر ذا فتش (٥)

وقوله :

من لم يكن في ظلّهِ ساكنًا فإنّهُ ليس بسعـود
وكيف لا يَسْعَدُ عبدٌ لـه أقام بين العدل والجود
سفائنُ الآمالِ من جـوده قد استوت منا على الجودي(٦)

---

(١) انظر الروضتين ١/ ٢٦ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٤٧ .
(٣) نفسه ١/ ١٧٥ .
(٤) ديوان ابن منير / ٢٣٠ ،وشعر ابن منير / ١٠٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٩٧ .
(٥) ديوان العماد / ٢٤٧ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٦٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٤٣ .
(٦) ديوان العماد / ١٣٨ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٤٣ .
والجودي : موضع ،وقيل جبل بآمد ،وقيل جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام (لسان العرب ،مادة : جود) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان نور الدين شجاعًا حازمًا حسن الرأي . قال ابن الأثير : " وأما شجاعته وحسن رأيه ، فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيًا ،وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك . ويقول أيضًا : " سمعت جمعًا كثيرًا من الناس لا أحصيهم يقولون : إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل ،وكان من أحسن الناس لعبًا بالكرة وأقدرهم عليها " (١) .

وكان " إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين (٢) وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها (٣) .

وسمعه يومًا الإمام قطب الدين النيسابوري وهو يقول ذلك . فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين ،فإنك عمادهم ،ولئن أصبت - والعياذ بالله في معركة - لا يبقى من المسلمين أحد إلاّ أخذه السيف ،وأخذت البلاد . فقال له نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ من قبلي من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلاّ هو (٤) .

لقد كان نور الدين قائدًا مظفرًا ، وشجاعًا إلى حد بالغ ، ولعل ذلك يرجع إلى نشأته في بيت والده عماد الدين وانحداره من أسرة تركية عسكرية عريقة ،إضافة إلى اعتقاد نور الدين اليقيني بالقضاء والقدر ،وصدقه الكامل في قتاله ،كما نستدل من قصته السابقة مع قطب الدين النيسابوري .

وروى أبو شامة " أنه كان في الحرب ثابت القدم ،حسن الرمي ،صليب الضرب ،يتقدّم أصحابه ،ويتعرض للشهادة " (٥) .

ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده ،فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولدًا ،أمر اقطاعه عليه ،فإن كان الولد كبيرًا ، استبدّ بنفسه ، وإن كان صغيرًا رتّب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر ،فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ،فنحن نقاتل عنها (٦) .

---

(١) الباهر/ ١٦٨ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٨-١٩ .
(٢) التركاش : جعبة السهام (وهي لفظة فارسية الأصل) ،انظر معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة/ ٣٦ ،وانظر : Dozy,Supp.Dict.Ar.Tom.I,P.145
(٣) الباهر / ١٦٩ ،والكامل ١١/ ٤٠٤ ،
وكتاب الروضتين ١/ ١٨-١٩ .
(٤) الكامل ١١/ ٤٠٤ وكتاب الروضتين ١/ ١٩ ، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٨٠ .
(٥) كتاب الروضتين ١/ ١٠ ،والدارس في تاريخ المدارس ١/ ٦٠٧ .
(٦) الباهر/ ١٦٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان ذلك سببًا عظيمًا من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب ، وكان أيضًا يثبت أسماء الأجناد ، كل أمير في ديوانه (١) .

وكان نور الدين حازمًا في اتخاذ قراراته ،ضد من تظهر منه خيانة ، كما فعل بمن تولى الديوان بدمشق بعناية الأمير أسد الدين النائب عن الملك العادل نور الدين ،حيث اقتضت الحال بأن يحلق لحيته ،ويركب حمارًا مقلوبًا ،وخلفه من يعلوه بالدرة ،وأن يطاف به في أسواق دمشق بعد سخام وجهه ، وينادى عليه " هذا جزاء كل خائن ونمام " .

ثم أقام في الاعتقال ، ونفي بعد ذلك إلى حلب ، ولعنه الناس ، ونشرت مخازيه (٢) .

وتحدّث الأدباء في مدحهم لنور الدين عن صفة الشجاعة ،وشبهوا نور الدين بالأسد ،بل هو بأسر الأسود ويتغلب عليها ، يقول ابن القيسراني :

من باتت الأُسْدُ أسرى في سلاسله هل يأسر الغلب الا من له الغلب (٣) .

ويقول ايضا :

أنت حينًا تقاس بالأسد الورْ دِ وَحينًا تُعدّ في الأولياء (٤) .

وهو عند الأصفهاني يغلب الملوك ،ويصيد الأسود ،وهو فارس الفرسان ، ويسلب التيجان من الملوك الآخرين ،ويحوز الفخار لشجاعته وبطولته ،يقول العماد في مدحه :

يا غالب الغلب الملوك وصائد الصّ ـيد اللّيوث وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابها حزت الفخار على ذوي التيجان (٥)

ونور الدين يتصف بالحزم وقوة العزيمة ،يقول ابن القيسراني :

إذا سار نور الدين في عزماته فقولا لليل الإفك : قد طلع الفجر (٦)

ولشجاعة نور الدين وقوة عزيمته ذاع صيته بين الناس ،وهو لا يضع سيفه في غمده ليظل مستعدًا للقتال ،وبعزمه وحزمه وطد أركان الهدى والإيمان يقول العماد الأصفهاني في إحدى قصائده :

---

(١) انظر الروضتين ١/ ٢٠ .
(٢) انظر : ذيل تاريخ دمشق / ٣٣٦ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ١٥٤ .
(٤) نفسه ١/ ٤٥ .
(٥) ديوان العماد / ٤١٠ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٨ .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ١٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَزْمَتُهُ مشهورةٌ في الورى وسيفُهُ ليس بمغمود

ومنها أيضًا :

شيّدتَ بالشام بناءَ الهدى عزمًا وحزمًا أيَّ تشييد (١)

ويتصف نور الدين بالسداد في أقواله وأفعاله ،قال ابن منير :

وأسَدُّ الأنام قولاً وأفعا لاً ونفسًا ونيةً ويقينا (٢)

ويتميّز برأيه الثاقب وحصافته ،ويترفع عن الدهاء والمكر ، قال العماد :

آراؤه بصوابها مقرونةٌ وبمقتضاها دائرٌ فلك النهى
متلبّسٌ بحصافةٍ (٣) وحصانةٍ متقدّسٌ عن شَوْبِ (٤) مكرٍ أو دها (٥)

وبإضافة إلى شجاعة نور الدين ،فقد كان مهيبًا وقورًا ،قال ابن الأثير : وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما ، ولقد كان كما قيل : شديدًا في غير عنف ،رقيقًا في غير ضعف ،واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ،فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها ،وكان يلزمهم بوظائف الخدمة : الصغير منهم والكبير ،ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ،إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف .

وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية وغيرهما ، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده ،يقفون قيامًا إلى أن يأمرهم بالقعود (٦) ، وقال صاحب دول الإسلام : "من رآه شاهد من جلال الملك وهيبة السلطان ما يدهشه" (٧) .

وكان نور الدين قوى الشخصية ذا هيبة وتجربة وبأس ، قال فيه ابن قسيم الحموي :

تبدو الشجاعةُ من طلاقةِ وجْهِهِ كالرّمح دلّ على القساوة لينُهُ
ووراءَ يقظتِهِ أناةُ مُجرِّبٍ للّهِ سطوةُ بأسِهِ وسُكُونُه (٨)

---

(١) ديوان العماد / ١٣٩ ،والخريدة ،قسم الشام ١ / ٤٤ .
(٢) ديوان ابن منير/١٩٣ ،وشعر ابن منير / ١٨٦ ،وكتاب الروضتين ١ / ٥٦ .
(٣) حصافة : الرجل الحصيف : الجيّد الرأي والمحكم العقل (لسان العرب مادة حصف) .
(٤) شوب : خلط ،وفي فلان شوبة أي خديعة (لسان العرب ،مادة شوب) .
(٥) كتاب الروضتين ١ / ٣٨١ ،والأبيات غير موجودة في الديوان ، انظر ديوان العماد / ٤٤٦ .
(٦) الباهر/ ١٧٢ ،وكتاب الروضتين ١ / ٢٣ ، والبداية والنهاية ١٢ / ٢٨١ .
(٧) دول الإسلام ٢ / ٦٠ .
(٨) كتاب الروضتين ١ / ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال ابن منير :

ملأ البلاد مواهبًا ومهابةً حتى استَرقَّتْ آيُهُ أحرارها (١)

وقال أيضًا :

متهلل والموت في نبراته يُرجى ويرهب خوفه وعقابه (٢)

و أبرز صفات نور الدين ،وأكثرها وروداً في الشعر والنثر ،صفة العدل .

وثمة كثير من النصوص الشعرية والنثرية تصفه بالعدل ،وكثير من القصص التي تتحدث عن عدالته ،يقول ابن الأثير : وأما عدله ، فانه كان من أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكمًا ،فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسًا (٣) ولا عشرًا (٤) ، بل أطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعًا والموصل وأعمالها ،وديار مصر وغيرها مما حكم عليه .

وكان يتحرى العدل ،وينصف المظلوم من الظالم كائنًا من كان ،القوي والضعيف عنده في الحق سواء ،فكان يسمع شكوى المظلوم ،ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير ،فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها (٥) .

وكان نور الدين يحضر إلى مجلس الحكم ولا فرق بينه وبين أحد من العامة ،قال ابن الأثير : وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فمضى معه إليه ،وأرسل إلى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري ،يقول : " قد جئت محاكمًا ، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم . وظهر الحق له ، فوهبه الخصم الذي أحضره ،وقال : أردت أن أترك له ما يدعيه ،إنّما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة ، فحضرت ثم وهبته ما يدّعيه .

وبنى دار العدل في بلاده ، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم ،ولو أنه يهودي ،من الظالم ،ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده (٦) .

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢١٧ ،وشعر ابن منير/ ١٢٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٦٢ .

(٢) ديوان ابن منير/ ٢٤٧ ، وشعر ابن منير/ ٤٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢١٨ .

(٣) المكوس : أموال ديوانية غير شرعية ،وهو ما يؤخذ على الواصل المجلوب من البضائع (صبح الأعشى ٣/ ٤٦٤) .

(٤) العشر : زكاة الأصناف ،ولا يصحّ اقطاعه (صبح الاعشى ١٣/ ١١٧) .

(٥) الباهر/ ١٦٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٤ ،والكواكب الدرية/ ١٩ .

(٦) الكامل ١١/ ٤٠٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٥ - ١٦ ،والبداية والنهاية ١٢/ ٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان نور الدين يحرص على أن تسود العدالة بين الناس ،لذا نراه " يجلس في دار العدل التي بناها مرتين في الأسبوع ،وقيل أربع مرات ،وقيل خمس ، ويحضر القاضي والفقهاء من سائر المذاهب ،ويصل إليه القوي والضعيف ،ويكشف المظالم "(١) . وكان سبب بناء دار العدل ،هو أسد الدين ،لأن كمال الدين لم يقدم على الانتصاف من أسد الدين شيركوه فانهي الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببناء دار العدل ،فلما سمع بذلك أسد الدين ،جمع نوابه وأمرهم ،أن يرضوا كل من بينهم وبينه منازعة ، وكان يقول : خروج أملاكي عن يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم ،أو يساوى بيني وبين آحاد الناس في حكومة . وبعد ذلك ،جلس نور الدين في دار العدل ،ولم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين" (٢) .

ولم يكن نور الدين يعاقب على الظنّة والتهمة ،بل يطلب الشهود على المتهم ،فإن قامت البينة الشرعية ،عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعمد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشرّ ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة ، والأخذ بالظنة ،وأمنت البلاد مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل ،واتباع الشرع المطهر (٣) .

فنور الدين الملك العادل كان يتبع في عدله الشريعة الإسلامية ،وكان يقف في صفّ الحق ،ولا يفرق بين مسلم وذمي في الحكم ،وكان يطلب إلى مجلس الحكم فيذهب إليه ،ويساوى بينه وبين خصمه . لذلك كانت شخصيته متميّزة ،فأحبه من عرفه أو سمع به ،وأكثر المؤرخون من الثناء عليه ،وكذلك الأدباء ،وبرزت صفة العدل في كثير من النصوص الأدبية ولا سيما القصائد الشعرية ، فنجد لقب (الملك العادل) يتردد على ألسنة الشعراء ،يقول ابن منير :

الملك العادل لفظ طابق الـ معنى وفي الوصف معاد مسترد (٤)

ويقول أسامة بن منقذ :

ملكٌ عادلٌ أنار به الدّيـ ـنُ فعمّ الإسلام منه الشروق (٥)

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٣٣ ،والبداية والنهاية ١٢/ ٢٨٠ ،والكواكب الدرية / ٢٤ .

(٢) انظر الروضتين ١/ ١٧-١٨ ،والبداية والنهاية ١٢/ ٢٨٠ .

(٣) انظر الباهر/ ٦٧ ،والروضتين ١/ ١٦ ،والكواكب الدرية / ٢١ .

(٤) ديوان ابن منير / ١٨٧ ،وشعر ابن منير/ ٨٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٠ .

(٥) ديوان أسامة / ١٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونور الدين أحيا العدل ونشره بين الناس ، فأصبحت البلاد آمنة ، وعاش الناس في طمأنينة وسلام ، يقول ابن منير :

يا محيي العدل ويا مُنشرهُ من بين أطباق البلى وقد همد (١)

وفي ظل نور الدين وعدله لا يستطيع القوي أن يظلم الضعيف ، يقول العماد :

يا محيي العدل الذي في ظلّه من عدْله رعت الأسودُ مع المها (٢)

وتميز نور الدين عن غيره من الملوك بصفاء نيته وإقامته للعدل ، فهو يعدل في حين يظلم ويجور غيره من الملوك ، يقول ابن منير :

صافٍ إذا كدر المعادن ، عادلٌ إن حاف حكّام الملوك وجاروا (٣)

وانتشر عدل نور الدين وذاع صيته حتى ملأ الأرض وبدد منها كل أنواع الظلم والمنكر ، وأحل محلها المعروف وعمل الخير ، يقول ابن منير :

أولَسْتَ مَنْ ملأ البسيطة عدلهُ واجتبَّ بالمعروف أنف المنكر (٤)

ويقول أيضًا :

أضاءت شمس عدلك في دُجاها فكلُّ زمان ساكنها نهار (٥)

واستطاع نور الدين أن يلم بعدله شمل المسلمين في البلاد الإسلامية ويوحد جهودهم ويزيل ما بينهم من فساد وتنافر وتناحر ، يقول العماد :

أضحى بعدلك شمل الملك ملتئمًا وهل بعدلك شيء غير ملتئم

بما من العدل والإحسان تنشره تخاف ربك خوف المذنب الأثم (٦)

---

(١) ديوان ابن منير / ١٨٧ ، وشعر ابن منير / ٨٠ ، وكتاب الروضتين ١ / ٥٠ .

(٢) كتاب الروضتين ١ / ٣٨١ ، والبيت لم يذكر في الديوان ، انظر ديوان العماد / ٤٤٦ .

(٣) ديوان ابن منير / ٢٢٤ ، وشعر ابن منير / ٨٨ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٩١ .

(٤) ديوان ابن منير / ٢٢٩ ، وشعر ابن منير / ١٠٨ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٩٦ .

(٥) ديوان ابن منير / ٢٥١ ، وشعر ابن منير / ٨٩ ، وكتاب الروضتين ١ / ٢٢٨ .

(٦) ديوان العماد / ٣٨٠ ، وكتاب الروضتين ١ / ٤٤٣-٤٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمّة صفات أخرى كثيرة وُصف بها نور الدين ، فهو ملك طاهر صادق في قوله ومخلص في عمله ، يقول ابن أسعد الموصلي :

مَلِكٌ بعيدٌ من الأدناس ذو كلفٍ بالصدق في القول والإخلاص في العمل (١)

ويتصف بالرأفة والشهامة والعفاف والحياء ، يقول ابن القيسراني :

رأفةٌ في شهامةٍ وعفافٌ في اقتدار وسطوةٌ في حياء (٢)

ويصفه ابن قسيم الحموي بعدم الغدر والتلوّن ، حيث يقول :

مَلِكُ الورى مَلِكٌ أغرُّ متـــوَّجٌ لا غدرُهُ يُخشى ولا تلوينه (٣)

ووصفه ابن منير بالسماحة في قوله :

يهب التلاد (٤) من البلاد وما حوت
إن السماحة للبحار بحـــار (٥)

وهو يتحلى بالحلم عندما يغضب ، وغيره يسفه عند غضبه ، يقول العماد الأصفهاني :

وأراك تحلم حين تصبح ساخطاً
ويكادُ غيرك ساخطاً أنْ يسفها (٦)

وهو يتصف بالأناة التي يخالها الجاهل إهمالاً وفيها هلاك الأعداء ، يقول أسامة بن منقذ :

ذو أناةٍ يخالُها الغِرُّ إهْمـــالاً وفيها حتفُ الأعادي المحيق (٧)

وبذلك تكون صفات نور الدين مُمثّلة لصفات البطل المسلم الصادق الذي نال إعجاب معاصريه من الأدباء والمؤرخين ، وأثنى عليه كثير من الباحثين في فترة الحروب الصليبية .

---

(١) ديوان ابن الدهّان / ٧٤ ، وكتاب الروضتين ١ / ٣٢١ .
(٢) كتاب الروضتين ١ / ٤٥ .
(٣) المصدر نفسه ١ / ٥٧ .
(٤) التلاد : المال القديم الأصلي ، ما ولد عندك أو نتج وهو نقيض الطارف (لسان العرب مادة : تلد) .
(٥) ديوان ابن منير / ٢٢٤ ، وشعر ابن منير / ٨٧ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٩٠ .
(٦) كتاب الروضتين ١ / ٣٨١ ، والبيت لم يذكر في الديوان ، انظر ديوان العماد ٤٤٦ .
(٧) ديوان أسامة / ١٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البـــاب الثانـــي

نور الدين زنكي في الأدب العربي
في عصر الحروب الصليبية

الفصل الأول : الحاكم المسلم .
المبحث الأول : الإداري .
المبحث الثاني : السياسي .
المبحث الثالث : العسكري .

الفصل الثاني : صورة البطل المسلم .
المبحث الأول : المجاهد .
أولاً - الجهاد ضد العدو .
ثانيًا - الساعي لاسترداد المقدسات والأرض المحتلة .

المبحث الثاني : الساعي للوحدة الاسلامية .
المبحث الثالث : المقتدي بالسلف الصالح .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الفصـــــــــل الأول)

الحاكـــــم المسلـــــــم

المبحـــــث الأول : الإداري .

المبحـــــث الثاني : السياسي .

المبحـــــث الثالث : العسكري .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المبحث الأول)

الإداري

نجح نور الدين في إدارة شؤون دولته ،وكان ملتزما بالشريعة الاسلامية ومنفذا لاحكامها ، واذا احدثت بدعة أعدمها ،وذلك كما حدث سنة ثلاث واربعين وخمسمائة ،فقد أبطل الاذان "بحي على خير العمل" والتظاهر بسبب الصحابة(١) ، وفي ذلك يقول ابن القيسراني :

هذا وكم من سنّةٍ بدعةٍ أعدمتها من بعد إيجادها
مآثرٌ لو عدمت راويـًا تكفّل النظم بإسنادها (٢)

وأشاد العماد الأصفهاني بازالة نور الدين للبدعة والتزامه بحفظ أمور الدين ،فقال من قصيدة مدحه فيها :

والسنّة اتسقت والبدعة انمحقتْ وعاودتْ دولةُ الإحسان والكرم

ومنها :

للّه دَرُّك نور الدين من مَلِكٍ عدلٍ لحفظ أمور الدين ملتزم(٣)

* * *

وأما ما فعله نور الدين من المصالح ، فقد بنى المدارس في كثير من مدن الشام ، وبنى البيمارستانات والجوامع والربط والخوانق ، وكان يعمر ويرمم الابنية القائمة ،واهتم ببناء الاسوار والدور والحمامات ،وما الى ذلك(٤) .

يقول ابن منير في بناء نور الدين للمدارس التي يتعلم فيها الناس على مختلف مذاهبهم :

سمكت المدارس فوق النجوم
فكم منجم تحتها قد نجم
وعاش الحنيفيّ والشافعيّ
بما شدّت منها وكانا رمم (٥)

وأثنى العماد الاصفهاني على نور الدين لهمته العالية في بناء الربط والمدارس طلبا للثواب والاجر ،وهدمه للبيع ،اذ يقول :

همّك الرُّبْطُ والمدارس تبـ نيها ثواباً وتهدم البيعا (٦)

وقد تجلى اهتمام نور الدين بالنواحي العمرانية بعد وقوع الزلازل التي ضربت بلاد الشام ،فقد أورد ابن الاثير في أخبار سنة اثنتين وخمسين

---

(١) انظر الروضتين ١/ ١٤٧ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٠٩ .
(٣) ديوان العماد / ٣٨١-٣٨٢ .
(٤) انظر التفصيل في بناء هذه المصالح وتعميرها في التمهيد من هذه الدراسة .
(٥) ديوان ابن منير / ٢٥٩ ،وشعرا ابن منير/ ١٧٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٥ .
(٦) ديوان العماد / ٢٨٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخمسمائة أن زلازل كثيرة قوية خربت كثيرا من بلاد الشام ،وهلك فيها ما لا يحصى كثرة ،وتهدمت أسوار البلاد والقلاع ،فخاف نور الدين على بلاد الاسلام من الفرنج ، حيث خربت الأسوار ،فجمع عساكره ،وأقام بأطراف بلاده ، يفير على بلاد الفرنج ،ويعمل في الأسوار في سائر البلاد ، فلم يزل كذلك حتى فرغ من جميع أسوار البلاد ،وعمر البلاد التي خربت ،فعادت كأحسن مما كانت عليه (١) .

وقد نظم في ذلك بعض الشعراء ، وبين الحالة النفسية للناس ، وما سببته الزلازل من أضرار ،اذ يقول :

روّعتنا زلازلٌ حادثاتٌ ... بقضاءٍ قضاه ربُّ السماءِ
هدمت حصن شيزر وحماةٍ ... أهلكت أهلَهُ بسوءِ القضاءِ
وبلاداً كثيرةً وحصوناً ... وثغوراً مُوثّقات البناءِ (٢)

وتحدث أسامة بن منقذ عن هذه الزلازل في كثير من قصائده ، ويرجع ذلك إلى أن اهله هلكوا بسببها في حصن شيزر ،الذى استولى عليه بعد ذلك نور الدين وعمره ،يقول أسامة :

نمنا عن الموت والمعادِ وأصْـ ... ـبحنا نظنّ اليقين أحلاما
فحركتنا هذي الزلازل أنْ : ... تيقظوا كم ينام من نامـا (٣)

وبيّن اسامة أن في الزلازل عبرة وعظة للغافلين ،وتذكرة بالموت الحق إذ يقول :

أيُّها الغافلون عن سكرة المو ... ت وإذ لا يسوغ في الحلق ريقُ
كم إلى هذا التشاغل والغفـ ... ـلة حار الساري وضلّ الطريق
إنّما هزّت الزلازل هذي الـ ... ـأرض بالغافلين كي يستفيقوا (٤)

وتحدث طلائع بن رزيك عن هذه الزلازل في رسالة بعث بها الى اسامة بن منقذ يعزيه عن أهله ،يقول :

كره الشامَ أهلُه فهْو محقـ ... ـقٌ بألاّ يقيم فيه لبيبُ
إنْ تجلّتْ عنه الحروبُ قليلاً ... خلفتها زلازلٌ وخطوبُ
رقصتْ أرضه عشيّة غنى السرّ ... عد في الجوّ والكريم طروب (٥)

---

(١) انظر الحديث عن هذه الزلازل ،وما فعل نور الدين بسببها في الكامل ١١/ ٢١٨ ،والباهر / ١١٢ ، وزبدة الحلب ٢/ ٣٠٧ ، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤٤ ، والعبر في خبر من غبر ٤/ ١٤٦ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٢٦٢-٢٦٣ .
(٣) ديوان اسامة / ٢٩٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٦٤ .
(٤) المصدر نفسه / ٢٨٧ ، والمصدر نفسه ١/ ٢٦٥ .
(٥) ديوان طلائع / ٦٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٦٦-٢٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحدثت زلزلة عظيمة سنة خمس وستين وخمسمائة ، عمت بلاد الشام ومصر وديار الجزيرة والموصل والعراق ، فقام نور الدين باعمار البلاد وتحصينهـــا ، وعندما رأى أن حلب أصابها من الزلزلة اعظم مما أصاب غيرها ، لاسيمـــا أنهـا كانت قريبة من مواقع الفرنج ، أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه .

ويذكر ابن الاثير أن نور الدين رصد لذلك من الاموال مالا يقدر قدره (١) .

وقد ذكر العماد الاصفهاني هذه الزلزلة في قصيدة مدح فيها نور الدين وبين أثرها وضررها على الناس ، اذ يقول :

سطوة زلزلت بسكانهـا الأر ض وهـــدّت قواعـد الأطواد
أخذتهم بالحق رجفة بأس تركتهم صرعى صروف العـــوادي
وبحق أصيبت الأرض لمّـــا مكّنت من مقام أهل الفســاد (٢)

ومن أعمال نور الدين العمرانية المتعلقة بأمن المسلمين " بناؤه الأبراج على الطرق " (٣) ، وفي المناطق الواقعة بين المسلمين ومواقع الأعداء ، وكانت هذه الأبراج أشبه بالمفارز الحدودية ، فيها حامية من الجنود ، ومعهـــم ما يسمى بالطيور الهوادي (٤) ، فاذا رأى الجنود من العدو خطرا أرسلوا هذه الطيور ، فيحتاط الناس ويأخذون حذرهم . ويعتبر ابن الاثير ذلـــك من ألطف الافكار وانفعها ، وقد جعل نور الدين هذه الطيور في جميع بـــلاده ، وكان سبب ذلك اتساع بلاده ، فكانت من حد النوبة الى باب همذان (٥) .

وهذه الحمائم تنقل الاخبار ، وتعمل على سرعة الاتصال بين المناطق الاسلاميـة .

وورد في صبح الأعشى ان " نور الدين أول من اتخذ حمائم الرسائـــل ، واعتنى بها من الملوك ، وذلك سنة خمس وستين وخمسمائة " (٦) .

وذكر العماد الاصفهاني أن نور الدين رأى اتخاذ الحمام المناسيب (٧) وتدريجها على الطيران لتحمل اليه الكتب بأخبار البلدان ، وأنه تقدم اليـه بكتابة منشور لأربابها واعزاز أصحابها (٨) ، فكتب العماد منشورا وصف فيـه الحمائم ، وتحدث عن المهام التي تقوم بها ، وبين فوائد استخدامها ، فهـي تقطـــع البلدان وتوصل الاخبار ، وتختصر الوقت ، وتوفر الجهد على المسلمين ،

---

(١) انظر الباهر / ١٤٥ ، وزبدة الحلب ٢ / ٣٣٠ ، ونهر الذهب ٣ / ٩٦-٩٧ .
(٢) ديوان العماد / ١٢٦ ، والخريدة ، بداية قسم الشام ١ / ٤٦-٥٠ .
(٣) الباهر / ١٧١ ، وكتاب الروضتين ١ / ٢١ ، والبداية والنهاية ١٢ / ٢٨١ .
(٤) الهوادي : ما له اهتداء في الطيران من المسافة البعيدة (صبح الاعشى ٢ / ٨٩) .
(٥) انظر الباهر / ١٥٩ ، والكامل ١١ / ٣٧٥ ، وكتاب الروضتين ١ / ٢١-٢٢ ، وشذرات الذهب ٤ / ٢٢٠ . وهمذان : بالذال المعجمة ، مدينة من عراق العجم ، اكبر مدينة بالجبال (معجم البلدان ٥ / ٤١٠ ، والروض المعطار / ٥٩٧) .
(٦) انظر صبح الاعشى ١٤ / ٣٩٠ ، وبدائع الزهور ١ / ٢٤١ .
(٧) الحمام المناسيب : المنسوب ، كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العـرب (صبح الأعشى ٢ / ٩٠) .
(٨) سنا البرق الشامي ١ / ١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال : "هي براثد الأنباء ،المخصوصة بفضيلة الالهام والايحاء . . . والحاملات ملطفات الأسرار ، في أقرب مدة الى أبعد غاية ، والموصلات مهمات الاخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية . . . وهي تطوى الفراسخ البعيدة ، والأشواط في ساعة ،وتنتهي الى أقصى غايات الطاعة بأتم استطاعة ،وقد عم بها نفع المرابطين للغزاة ،والمجاهدين في سبيل الله ،في اهداء أخبار الكفرة اليهم من أماكنها ،دالة على مكايدها ومكامنها ، طائرة بكتبهم السر من وراءهم من الطلائع والسرايا ، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الامور الخفايا ، وانها لميمونة المطار ،مأمونة العثار ،سالمة على الاخطار ، مهدية في الاسفار أمينة على الاسرار ، سابقة الى الأوكار ، صادرة بالأوطار ،سائرة الى المؤمنين بنبأ الكفار "(١) .

وقال القاضي الفاضل في وصف الطيور : "الطيور ملائكة الملوك "(٢) .

* * *

وكان نور الدين إداريا حازما في الشؤون المالية ،والمحافظة على أموال الامة ، ويقف عند حد الشرع في الضرائب والاموال ،وكان أمينا على أموال المسلمين ،ويفرض رقابة على موظفيه (٣) .

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة أبطل نور الدين ،وهو بشيزر مظالم ومكوسا ببلاده كلها مقدارها مائة وخمسون ألف دينار (٤) .

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أمر بكتابة منشور يقرأ على الناس كافة في دمشق بإبطال الرسوم جميعها وتعفية ذكرها ، فبالغ العامة في مواصلة الادعية للملك العادل والثناء عليه والنشر لمحاسنه "(٥) .

ومن التوقيعات التي كتبت عن نور الدين باطلاق المظالم والمكوس رأفة بالناس ورحمة بالمسلمين ،ولطفا بالمرابطين واقرارا للحق ما أنشأه أبو غانم ابن المنذر (٦) : "بسم الله الرحمن الرحيم ،هذا ما تقرب به إلى الله تعالى سبحانه صافحا وأطلقه سامحا لمن علم ضعفه من الرعايا ، رعاهم الله ،لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدى الكفار ،أبادهم الله تعالى ،عند استيلائهم على البلاد ،وظهور كلمتهم في العباد ، رأفة بالمسلمين المثاغرين ، ولطفا بالضعفاء المرابطين ،الذين خصهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد ،واستنجهم بمجاورة أهل العناد اختبارا لصبرهم ،واعظاما لأجرهم ،فصبروا احتسابا ، وأجزل الله لهم أجرا وثوابا ،انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ،وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمرية ،وأقرها في الدولة الاسلامية ،بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين ،واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين ،فطمس عنهم بذلك معالم

---

(١) كتاب الروضتين ١ / ٥٢١ .
(٢) الكواكب الدرية / ٢١٥ .
(٣) كتاب الروضتين ١ / ٢٨٦ .
(٤) زبدة الحلب ٢ / ٣٠٨ .
(٥) انظر ذيل تاريخ دمشق / ٣٥٢-٣٥٣ ، وكتاب الروضتين ١ / ٣٠٢-٣٠٣ .
(٦) عند ما خرج نور الدين لأخذ شيزر ، خرج معه أبو غانم بن المنذر ،فأمره نورالدين بكتابة منشور باطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحران وسنجار وغيرها (انظر الروضتين ١ / ٣٨) ، ولم أجد للكاتب ترجمة في المصادر الميسورة لي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجـــور . . . الخ "(١) .

وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد ،وذلـــك في سنة ست وستين وخمسمائة ،وأنشأ بذلك منشورا يقرأ على الناس - ولـــم يذكر أبو شامة اسم الكاتب - ومنه : " وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير مـن الحلال ،فسحقا للسحت ،ومحقا للحرام الحقيق بالمقت ،وبعدا لما يبعـد من رضا الرب ،ويقصي من محل القرب ، وقد استخرنا الله وتقربنا اليـــه ، وتوكلنا في جميع الاحوال عليه ،وتقدمنا باسقاط كل مكس وضريبة ،في كـــل ولاية لنا بعيدة أو قريبة . . . ومحو كل سنة سيئة شنيعة ،ونفي كل مظلمة فظيعة ،واحياء كل سنة حسنة ،وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة ، واطـــلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الاموال المحظورة ، خوفا من عواقبها الرديئة المحذورة ،فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جاريا ،ولا عمل لا يكون بـــه الله راضيا ، ايثارا للثواب الآجل على الحطام العاجل . . .الخ "(٢) .

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة قرئ على المنبر بالقاهرة منشور باسقاط المكوس بمصر عن الملك الناصر صلاح الدين في أيام نور الدين . يقـــول أبو شامة : " فهو كان الآمر وذاك المباشر "، ومن هذا المنشور :

" وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين اليهما ،بأبواب المكوس صادرها ووارداها ،فيرد التاجر ويسفر ،ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر ،برا وبحرا ،سرا وجهـرا ، لا يحل ما شدّه ولا يحاول ما عنده ،ولا يكشف ما ستره ،ولا يسأل عمـا أورده وأصدره ،ولا يستوقف في طريقه . . . الخ (٣) .

فنور الدين أسقط المكوس وأزال الضرائب ،تقربا الى الله تعـالى وطلبا لرضاه وطمعا في الثواب الآجل ، وبعدا عن الشبهات والوقوع في الحـــرام وقناعة بالحلال .

ومحا المظالم رأفة بالمسلمين ،وحفظا لحقوقهم ،وتخفيفا للضرر الواقع عليهم ،وبذلك يكون قد أبطل سنة سيئة ،وأحيا سنة حسنة .وفي سنة وفاتـه أبطل جميع المكوس من ممالكه (٤) ، وكان يطلب من نوابه ابطـــال الضمانات (٥) والمؤن والمكوس ، ويستشيرهم في ذلك كما فعل مـــع أسد الدين شيركوه (٦) . ومن ذلك ابطاله لفريضة الأتبان ، يقـول :

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٣٨-٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٤٧٩-٤٨٠ .
(٣) انظر المنشور في الروضتين ١/ ٥٢٢-٥٤٣ .
(٤) دول الاسلام ٢/ ٦٠ .
(٥) الضمانات : الأموال غير الشرعية التي تؤخذ داخل البلاد (صبـح الاعشى ٣/ ٤٦٦) .
(٦) انظر الروضتين ١/ ٣٧ ، والكواكب الدرية ٤٢-٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان "(١) .

وكان نور الدين يطلب من موفق الدين خالد بن القيسراني أن يكتب باطلاق المكوس والأعشار ،وأن يكتب للمسلمين ما نصه : " انني قد رفعت عنكم ما رفعه الله عنكم ،وأثبت عليكم ما أثبته الله عليكم "(٢) .

ويظهر من هذه العبارة مدى التزام نور الدين بالشرع في الشؤون المالية . وباسقاطه المكوس والضرائب استطاع أن يكسب ود الناس ويساهم في ازالة همومهم وحل مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية .

وقد أثنى محمد بن نصر القيسراني على إدارة نور الدين بحط المكوس عن الرعية ، ونشر العدل بينهم ،مما جعل الناس يدعون له ،إذ يقول :

ثنى يده عن الدنيا عقافاً ومال بها عن الأموال زهدُ
رأى حطّ المكوس عن الرعايا فأهدر قبل ما أنشاه بعدُ
ومدّ لها رواق العدل شِرْعا وقد طُوي الرِّواق ومن يمدّ
وبات وعند باب العرش منها لدولته دعاءٌ لا يردُّ (٣)

ونور الدين رفع الاموال الباطلة عن رعيته عطفا عليها ورفقا بها ،قال ابن القيسراني :

ألغى حقوقاً كُلّها باطلٌ إلى ضمانٍ حط مال الضمانْ
عطفاً ورفقاً بالرعايا وإن أصبح تأديب ملوك الزمانْ (٤)

وهو يمحو ما يثبته الظلم ، ويزيل كل اساءة تقع على المسلمين ،يقول ابن منير :

محوْت ما أثبته الجور مضى عليه اخلاد الليالي فخلدْ
من كلّ مكّاسٍ (٥) يظلُّ قاعداً لما يسوء المسلمين بالرصدْ (٦)

وقال ايضا :

ومحا المظالم منك نظرةُ راحم لله في خطراته أسرارُ
غضبان للإسلام مال عموده فلنوره مما عراه نوارُ
لم يبق ماكسٌ مسلمٍ سِلَعاً ولا ساعٍ لمظلمة ولا عشّارُ (٧)

ونور الدين يعدل بين الناس باسقاط المكوس،وردع المكاس ، منطلقا في ذلك من تطبيقه لاحكام الدين ومراعاتها ، قال العماد الأصفهاني :

أسقطت أقساط ما وجدت من الـ مكس بعدلٍ ،والقاسط ارتدعا
ولم تدع من ابتغاء مصلحة الدّ ين لنا باقياً ،ولنْ تدعا (٨)

---

(١) انظر المنشور في الروضتين ١/ ٥٥٠-٥٥١ .
(٢) انظر المصدر نفسه ١/ ٣٧-٣٨ ، والكواكب الدرية / ٥٠ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٤٨ .
(٤) المصدر نفسه ١/ ٥٠ .
(٥) المكّاس : جابي الضرائب (لسان العرب : مكس) .
(٦) ديوان ابن منير / ١٨٧ ، وشعر ابن منير/ ٧٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥١ .
(٧) ديوان ابن منير/ ١٩١-١٩٢ ، وشعر ابن منير/ ٨٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٤ .
(٨) ديوان العماد / ٢٨٦ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان نور الدين كثير النفقات والاوقاف على أبواب الخير المختلفة ، وكان يعطي الاموال لمستحقيها ،وكانت الأمور المالية مضبوطة ، وكان لا يتصرف في شيء مما يهدى له ، بل ينفقه في أبواب الخير (١) .

وكان لا يتصرف في الاموال التي يحصل عليها من فداء الأسرى ، فكان يصرفها في بناء البيمارستانات ، كالبيمارستان الكبير الذى بناه في دمشق (٢) .

ولم يكن نور الدين يتهاون في الحفاظ على موارد الخزينة المالية المتمثلة في الخراج والجزية والزكاة والغنائم ، وذلك لكي يحافظ على خزينة الدولة من العجز او الافلاس ، ويضمن الموازنة المالية من أجل الاصلاحات الداخلية والتعبئة العسكرية (٣) .

* * *

واهتم نور الدين بشؤون القضاء ، واعتمد على رجال ثقات، رأى فيهم العلم الواسع والفقه والتقوى.

وكان يصدر حكم القضاء عن الشريعة الاسلامية من أجل اقرار مبادىء الحق والعدل ، ونور الدين أول من بنى دارا لكشف المظالم ، وسماها دار العدل . ولاهتمام نور الدين بالقضاء وعدله بين الناس ، غلبت عليه القاب لها صلة بالعدل والقضاء كلقب (الملك العادل) (٤) .

واستعان نور الدين بعدد من القضاة الذين تولوا مناصب قضائية ومنهم : القاضي زكي الدين ابو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي (٥) ، قاضي دمشق ، الذى طلب من نور الدين سنة خمس وخمسين وخمسمائة اعفاءه من القضاء (٦) . فأعفاه واستبدل به القاضي كمال الدين محمد بن الشهرزورى الذى تولى سنة سبع وخمسين قضاء ممالك نور الدين كلها ، وأصبح قاضيا للقضاة . و وزيرا لنور الدين (٧) وكان اليه كذلك أمر المساجد والمدارس والأوقاف والحسبة والامور الدينية والشرعية ، وكان صاحب القلم والسيف وفوض اليه نور الدين في سنة تسع وستين وخمسمائة شحنكية دمشق ، وكان كمال الدين وافر العلم ، عارفا بقوانين الاحكام ، عادلا نزيها (٨) .

---

(١) سنا البرق الشامي ١/ ١٤٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٦.

(٢) كتاب الروضتين ١/ ٢٦.

(٣) انظر سنا البرق الشامي ١/ ١٤٣ ، والروضتين ١/ ٢٦ ، ونور الدين (اليسيف) / ٧٩٤ - ٨٠٥ .

(٤) انظر الحديث عن صفاته ، الباب الأول من هذه الدراسة .

(٥) والد محيي الدين بن زكي الدين ، كان كثير الخير والدين ،استعفى من القضاء فاعفي ، فخرج الى مكة حاجا وعاد الى بغداد سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فأقام بها ، وكان عالي الطبقة في سماع الحديث ، حدث ببغداد مدة اقامته ، وسمع عليه ناس ، وتوفي فيها سنة اربع وستين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة الامام احمد بن حنبل (وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٦).

(٦) انظر الروضتين ١/ ٣١٠ ،والكواكب الدرية/ ١٥٩.

(٧) زبدة الحلب ٢/ ٣١٢ ،والعبر ٤/ ٢١٥-٢١٦ .

(٨) كتاب الروضتين ١/ ٣١٠ ،النجوم الزاهرة ٦/ ٧٩-٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفوض نور الدين القضاء والحكم بنصيبين (١) وسنجار والخابور (٢) الى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون ، فولى بها نوابه وحكم فيها اصحابه (٣) .
وكان نور الدين لا يحاسب القاضي على الاوقاف ، ويقول : "أنا قد قلدته أن يتصرف بالمعروف" (٤) .

* * *

وقسم نور الدين دولته اداريًا الى عدة أقاليم (٥) ، وأقر بعض الأنظمة والوظائف الإدارية ،ومنها : نظام الشحنة (٦) ، ونظام الاقطاعات (٧) ، ووظيفة رئيس البلد (٨) ،وصاحب الشرطة (٩) ،والحاجب (١٠) .

---

(١) نصيبين : مدينة على شاطيء الفرات ،ونصيبين من قرى حلب (مراصد الاطلاع ٣ / ١٣٧٤) .
(٢) الخابور : مدينة على شاطيء الفرات (الروض المعطار / ٢١١) .
(٣) كتاب الروضتين ١ / ٤٨١ .
(٤) سنا البرق الشامي ١ / ١٤٦-١٤٧ .
(٥) القسم الشمالي من بلاد الشام وقاعدته حلب ،والقسم الاوسط وقاعدته دمشق ومقاطعة حمص ،واقليم الجزيرة ،ويضم ثلاث مقاطعات ،وهي : ديار ربيعة وقاعدتها الموصل ،وديار مضر وقاعدتها الرقة ،وديار بكر وقاعدتها آمد ، بالاضافة الى الاقاليم التي فتحت كمصر واليمن ،وربط نور الدين هذه الاقاليم بسياسة مركزية موحدة لمحاربة التمزق في المنطقة ومجابهة الصليبيين (انظر ،نور الدين (إليسيف) ٣ / ٧٨١ - ٧٨٣ .
(٦) نظام الشحنة : وذلك على غرار ما صنع والده زنكي في حلب ،ويعين صاحب الشحنة من قبل السلطان ،ومن واجباته المحافظة على النظام العام ، وملاحظة الخارجين على النظام (انظر التفصيل في ذلك : نور الدين (اليسيف) ٣ / ٨٣٣) .
(٧) نظام الاقطاعات : كان يقطع الامير اقطاعا ،ويعين بحوزته ضياعا ، ويجعل معه رجالا وخيلا وسلاحا ، وكان ينهي اصحابه عن اقتناء الاملاك ،ويقول : مهما كانت البلاد لنا ،فأي حاجة لكم في الأملاك ، فان الاقطاعات تغني عنها ،وان خرجت البلاد من ايدينا ، فالاملاك تذهب معها ، ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية ،وتعدوا عليهم وغصبوا أملاكهم . (انظر سنا البرق الشامي / ١ / ١٢٢ ،والكواكب الدرية / ١٢١) .
(٨) رئيس البلد : يتولى رئاسة جماعات مسلحة من سكان المدينة ،ويقر والي المدينة اختياره ، انظر نور الدين (اليسيف ٣ / ٨٣١) .
(٩) صاحب الشرطة : يتولى حماية الديار والناس ومطاردة الخارجين على النظام ، ويتبع مباشرة للشحنة (نفسه ٣ / ٨٣٤) .
(١٠) الحاجب : من الوظائف الرفيعة ،وكانت وظيفته اطلاع السلطان على الامور الرئيسية للدولة وابلاغه عن حالة الشعب ،وكشف مظالم الناس (نفسه ٣ / ٧٨٧-٧٨٨) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشارك نور الدين في ادارة دولته عدد من الرجال الذين توافرت فيهم الثقافة ، والقدرة الادارية والنزاهة .

وكان نور الدين يحكم على الرجال ، ويحسن اختيارهم ، لذا نجد حوله رجالا كانوا خير عون له في مختلف الامور ، وكانت علاقتهم به قائمة على الولاء والاخلاص وذلك لما يتميز به .

ومن ابرز الاداريين الذين اعتمد عليهم بنو أيوب ، فنجم الدين ايوب كان من أكبر امراء عسكر دمشق ، وهو ممن ساعد نور الدين على ملك دمشق ، وكانت له منزلة عالية عند نور الدين (١) .

وقد أبرز العماد الاصفهاني صفات نجم الدين من خلال قصيدة مدحه فيها ، فهو موفق الرأى ، ماضي العزم ، يعمل لنصرة دين الله ، يقول :

أرجو إيابي اليكم ظافرًا عجلاً ... فقد ظفرت بنجم الدين ايوب
موفق الرأي، ماضي العزم، مرتفعٌ ... عن الأعاجم مجدًا والأعاريب
أحبّك اللّهُ إذ لازمت نجدته ... على جهينٍ بتاج الملك معصوب
اخوك وابنك ، صدقًا منهما اعتصما ... بالله، والنصر وعدٌ غير مكذوب (٢) .

ولا يقل شأن أسد الدين شيركوه عن شأن نجم الدين أيوب ، فقد اتصل أسد الدين بنور الدين بعد قتل الشهيد عماد الدين زنكي والد نور الدين ، فقربه نور الدين وأقطعه حمص وأعمالها ، والرحبة ، وزاده عليهما ، وجعله مقدم عسكره ، وأرسله ثلاث مرات إلى مصر حتى ملكها (٣) .

وقد ذكر المرقلة الكلبي مهابة أسد الدين وشجاعته وذيوع صيته اذ يقول :

وهل همَّ يومًا شيركوهُ بجلّقٍ ... إلى الصيد إلّا ارتاع في مصر شاورُ
هو الملك المنصور والأسد الذي ... شذى ذكره في الشرق والغرب سائرُ (٤) .

ووصفه العماد الاصفهاني بالعدل والاقدام ، وشبهه بعظماء التاريخ ، وذلك في قصيدة مدحه فيها عندما اجتمع به سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، بعد عودته من مصر ، يقول منها :

---

(١) انظر الباهر ١/ ١٢٠ . المختصر في اخبار البشر ٥/ ٦٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٣٠-٣٣١ .
(٢) ديوان العماد /٨٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٦٩ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٣٣٠ ، ٣٨٣ ، والمختصر في اخبار البشر ٥/ ٦٤ ، ودول الاسلام ٢/ ٥٥ .
(٤) ديوان المرقلة الكلبي /٥٢ ، وشاور : وزير العاضد صاحب مصر ، ولي الوزارة له سنة ٥٥٨هـ ، خدم الصالح بن رزيك وولاه الصعيد . (وفيات الأعيان ٢/ ٤٤٣) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلغت بالجدِّ ما لا يبلغُ البشرُ ونلت ما عجزت عن نيله القُدَرُ
أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً فقل لنا : أعلي أنت أم عمرُ
اسكندرٌ ذكروا أخبار حكمته ونحن فيك رأينا كلّ ما ذكروا
ورستمٌ خبرونا عن شجاعته وصار فيك عيانا ذلك الخبر
افخرْ فإنّ ملوك الأرض اذ هلهمْ ما قد فعلت فكلٌّ فيك مفتكر

ووصفه أيضا بالحزم والعزم والحكمة ونصرة الدين ،اذ يقول :

يسّرت فتح بلاد كان أيسرها لغير رأيك قفلاً فتحُهُ عَسِرُ
قرنت بالحزم منك العزم فاتسقت مآربٌ لك عنها أسفر السَفَرُ
وإن من شيركوه الشرك منخذلٌ والكفر منخذلٌ والدين منتصرُ (١)

أما صلاح الدين فقد فوض الملك العادل شحنكية دمشق اليه سنة ستين وخمسمائة فأظهر السياسة ،وهذب الأمور (٢) .

وقد مدحه العرقلة الكلبي في كثير من قصائده (٣) ، وحثه على ملك مصر ،ومما قاله فيه :

إلام ألام فيك وكم أعادي وأمرض من جفاك ولن أعادي

ومنها :

لئن أعطاه نور الدين حصناً فإن الله أعطاه البلادا
إلى كم ذا التواني في دمشقٍ وقد جاءتكمُ مصرٌ تهادى (٤)

وممن خدم نور الدين أيضًا من بني أيوب،الملك العادل أبو بكر بن أيوب الذي حضر مع أخيه صلاح الدين فتوحاته (٥) .

ومن الاداريين الذين اعتمد عليهم نور الدين مجد الدين أبو بكر محمد ابن الداية واخوته ، وكان مجد الدين رضيع نور الدين ،وقد تربى معه ولزمه الى أن ملك الشام بعد والده ، ففوض نور الدين الى مجد الدين جميع مقاصده ، وحكمه في الملك ،وكان يرجع الى رأيه ، وكان مجد الدين نائبا لنور الدين في حلب (٦) .

---

(١) انظر ديوان العماد ١٦٩-١٧٢ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٠-٣٧٢ .
(٢) النجوم الزاهرة ٥/ ٣٦٧ .
(٣) انظر ديوان العرقلة الكلبي .
(٤) انظر المصدر نفسه / ٣٠-٣٢ .
(٥) الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٢٦٢ .
(٦) انظر الروضتين ١/ ٢٤٩، ٥٩٣ ، وأعلام النبلاء ٢/ ٨٢-٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف ابن القيسراني مجد الدين بن الداية بأنه كريم ، وتقي زاهد وصاحب رأي ، اذ يقول :

كريمٌ سمت أوصافه لعفاته قرائنُ كلّ اثنين بينهما عقد
محيّاه والبشرى ويمناه والنّدى ونجواه والدنيا ،وتقواه والزهد
ففي قربه الزلفى وفي وعده الغنى وفي نيله الحسنى وفي رأيه الرشد
إذا وَجْه نور الدين قابل مجده فقل في كمال البدر قابله السعد(١)

وقد لمعت أسماء اخرى لاداريين لا تقل أهميتهم عن أبناء أيوب وابن الداية ،ومن هؤلاء العماد الكاتب الاصفهاني ، الذى ترتب مشرفا بديوان نور الدين ،بالاضافة الى كتابة الانشاء(٢) . وموفق الدين خالد بن محمد القيسراني (٣) وزير نور الدين ، تقدم عنده تقدما زائدا بحيث فوض امور اليه . وأثنى الحسين بن عبدالله بن رواحة(٤) على الموفق خالد بن القيسراني ، وذكر انه يحل المسائل المعضلة ، ونور الدين متفائل باسمه(٥) ..

ومن نواب نور الدين سعد الدين كمشتكين(٦) الذى كان نائبا بقلعة الموصل ، وكان نور الدين قد أمر فخر الدين عبد المسيح (٧) أن يكون في خدمته(٨) ..

ومن أكابر امراء نور الدين الذين اعتمد عليهم الامير جردبك بن عبدالله النورى(٩) ، الذى خدمه ، وخدم السلطان صلاح الدين في جميع غزواته وحروبه ، وهو الذى قتل شاور بمصر ، وكان شجاعا مهيبا جوادا(١٠) .

وكان نور الدين يتخير نوابه وولاته دون اعتبار الجنس أو النسب ، وكان يتخيرهم من أكثر رجال دولته كفاية ، وكانت تقام لدى تعيين أحدهم حفلة رسمية ، يمنح فيها نور الدين خلعة وتقليدا وكتابا رسميا يسمى التشريف(١١) .

وقد اعجب بادارته كل من درس سيرته وتاريخ دولته ، فالمستشرق جب يقول -: "لقد أظهر نور الدين القائد الاداري بصيرة ومقدرة تفوقان المستوى المعتاد في ذلك الزمن "(١٢) .

---

(١) كتاب الروضتين ١/٢٤٩.
(٢) المصدر نفسه ١/٥٢٤ .
(٣) خالد بن القيسراني : انظر الحديث عن نور الدين والادباء في الباب الثالث من هذه الدراسة .
(٤) الحسين بن عبدالله بن رواحة : انظر الحديث عن نور الدين والادباء الباب الثالث من هذه الدراسة .
(٥) انظر الشعر في الحديث عن نور الدين والادباء ، الباب الثالث من هذه الدراسة .
(٦) سعد الدين كمشتكين : استنابه نور الدين في قلعة الموصل سنة ست وستين وخمسمائة (الكامل ١١/٣٦٤-٣٦٥) .
(٧) تقدم التعريف به . ( )انظر سنا البرق الشامي ١/٩٩-١٠٠ ،والنجوم الزاهرة٦/٨١. (٩) ولاه صلاح الدين القدس(ذيل الروضتين/١٣ .
(١٠) انظر النجوم الزاهرة٦/١٤٣. (١١) انظر نورالدين (البيسف)٣/٧٨٩.
(١٢) دراسات في حضارة الاسلام/١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المبحث الثاني)

السياسي

كان نور الدين من القادة السياسيين الذين صاغوا الانتصارات في الحروب الصليبية ، فقد استطاع بحنكته ودهائه أن يكون دولة اسلامية واسعة وقفت في وجه الصليبيين .

وقد صور الأدباء كفاية نور الدين وقدرته على تدبير شؤون دولته وسياسته للمسلمين وسهره على مصالحهم ، وعمله على توفير الامن والسلام لهم ، فتحدث الادباء عن جهوده وعلاقاته السياسية .

فهو مُصْلَت الرأي قبل أن يكون مُصْلَت الحسام ، يقول ابن منير :

وأصْلتَّ رأيك قبل الحسام فخمَّد جمرة أجلابها (١)

وحساد نور الدين يشهدون له بفضله وحكمته وقدرته السياسية ، يقول ابن منير أيضا :

وتدين حسَّدُهُ لمحكم آيه والفضل ما شهدت به حُسّادُه (٢)

فنور الدين سياسي بعيد النظر ، حسن التقدير ، لا يخطو خطوة إلاّ بعد تدبير وحساب (٣) .

وسياسته في البلاد التي ملكها كانت ناجحة ، فاذا ملك بلدا تمنت البلاد الاخرى أن يملكها ، فابن القيسراني يقول من قصيدة له فيه :

وملكت سنجاراً وما من بلدةٍ إلاّ تمنّى أنها سنجارُ

ومنها :

وملكت رحبة مالكٍ فتبرّجتْ منها لعيْنك كاعبٌ معطار (٤)

فالبلاد التي تستعصي على غيره ، يطلبها فتأتي مطيعة ، فقد أحسن سياستها وترويضها ، يقول ابن القيسراني :

سام الشآم ويا لها من صفقة لولاه ما عنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحتْ فيها العواصم وهْي غير عواصم
تلك التي جمحت على من راضها ودعوت فانقادت بغير شكائم (٥)

---

(١) ديوان ابن منير / ٢٢٢ ، وشعر ابن منير / ٤٧ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٨٢ . أجلابها : الذين يجلبون الابل والغنم للبيع (لسان العرب ، مادة : جلب) .

(٢) ديوان ابن منير / ٢٢٥ ، وشعر ابن منير / ٨٢ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٩١ .

(٣) انظر ، نور الدين محمود (سيرة مجاهد صادق) / ١٧٨ .

(٤) كتاب الروضتين ١ / ١٧٥ ، والكاعب : الفتاة التي نهد ثديها (لسان العرب مادة : كعب) .

(٥) كتاب الروضتين ١ / ٤٩ ، والكواكب الدرية / ٧٨ . شكائم : مفردها شكيمة وهي الحديدة المعترضة في الفم (لسان العرب ، مادة : شكم) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر العماد الأصفهاني أن نور الدين كان من أحسن الناس سياسة لرعيته وسهرا على مصالحهم ، لذا فقد أحبه الناس وشعروا بأنهم في نعمة وعيشة راضية ، يقول في مدحه :

آثاره حميدةٌ وإنما ... للمرء من آثاره حميدُها
إنّ الورى بحبه وبغضه ... يعرف من شقيُّها سعيدُها
جلا ظلام الظلم نورالدين عن ... أرض الشآم فله تحميدها
إنّ الرعايا منه في رعاية ... ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر بل لأمنها ... يخاف بل يخصبُها بجودها

ويواصل العماد ثناءه على سياسة نور الدين الحكيمة ، فنتيجة لهذه السياسة أمنت الدولة وأصبحت خصبة ، ويذكر أن بقاء نور الدين في كل عام هو عيد للرعايا ، يقول :

يا دولةً نوريةً ، أمْن الورَى ... وخصبُها وجودُها وجودُها

ويقول منها :

فابْقَ لنا يا ملكاً بقاؤه ... في كل عام للرعايا عيدها
في نعمةٍ جديدةٍ سعودها ... ودولةٍ سعيدةٍ جدودها (١)

ويرى ابن منير ان سياسة نور الدين جعلت البلاد تخضع له ، وجعلت الرعايا تطيعه ولا تبغي سواه ، يقول :

دولةٌ من دانت البلاد له ... وعمّها ظلّه فأغناها
لا بسواها تطيق بهجتها ... ولا سواه تبغي رعاياها (٢)

ويقول في قصيدة اخرى ، بأن الحياة في ظل نور الدين مشرقة ، ودولته محمودة الآثار ، ومواسمها أعياد :

والعيشُ أبلجُ(٣) مشرق القسمات والـ ... أشجار غرٌّ والأصائل(٤) غيد(٥)
والملك ممدودُ الرّواق منوّر الـ ... آفاق ، وضّاءُ المنى محسود
في دولة مذْ هب نشر ربيعها ... نُشر الرفات(٦) وأثمر الجُلمود(٧)

---

(١) ديوان العماد / ١٤٤ ، وكتاب الروضتين / ٣٧٧-٣٧٨ .
(٢) ديوان ابن منير / ٢٣٤ ، وشعر ابن منير / ٢٠٠ ، وكتاب الروضتين ١ / ٢٠٠ .
(٣) أبلج الشيء : أضاء (لسان العرب ، مادة : بلج) .
(٤) الأصائل : التي تثب وتسطو على الأعداء (لسان العرب ، مادة : صول) .
(٥) غيد : الغيد ، ميلان العنق (المصدر نفسه ، مادة : غيد) .
(٦) الرفات : الحطام من كل شيء تكسر (ما دق فكسر) (انظر المصدر نفسه مادة : رفت) .
(٧) الجلمود : الصخر (المصدر نفسه ، مادة : جلمد) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محمودةُ الآثارِ محمودٌ سيّـــرةٌ كلُّ المواسِمِ عندها تعييـــد (١)

وأعداء نور الدين من المسلمين لم يكونوا أقل خطرا عليه وعلى تطلعاته من الصليبيين والبيزنطيين (٢) ، ولم يغفل نور الدين عن أحد من هؤلاء. فكان لا يسمح للولاة والأمراء أن يظلموا الناس ،وتسوء أفعالهم ،بـــل يعاقب ويردع كل من تحدثه نفسه بالخروج عن أنظمة الدولة وقوانينها .

قال العماد في مدح نور الدين ،عندما بعث الى ابن حسان (٣) ، صاحب منبج مَنْ حاصَره وانتزعها منه بعد أن ساءت أفعاله :

ما أعجزتك الشُّهْبُ في أبراجها
طلبًا فكيف خوارجٌ في أبـــرج
ولقدْرُ من يعصيك أحقر أن يرى
أثر العبوس بوجهك المتبلّـــج
لكن تهذّبُ من عصاك سياسةٌ
في ضمنها تقويمُ كلِّ مُعـــوَّجِ (٤)

وأنشد العماد الأصفهاني نور الدين قصيدة بقلعة جعبر ، وقد أخذها نور الدين من صاحبها شهاب الدين مالك بن علـي بن مالك العقيلي (٥) الذى خضع له ،وكانت هذه القلعة قد عزت على والده عماد الدين زنكي ،يقول العماد :

ومالكٌ حين رُمْت قلعته غدا مطيعًا للأمر متّبعـا
عنا خشوعًا لربِّ مملكـــة لغير ربّ السماء ما خشعـا
هَضْبةُ عزٍّ لولاك ما ارتُقيَت وطودُ مُلْك لولاك ما فرعـا
عزَّتْ على المالك الشهيد وأعْـ ـطَتْكَ قيادًا ما زال مُمتنعـا (٦)

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢٤٣ ،وشعر ابن منير/ ٦٨ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢١٤ .
(٢) انظر ايضا ،نور الدين محمود (سيرة مجاهد صادق)/ ٢٨٠ .
(٣) غازى بن حسان ، صاحب منبج أخذها نور الدين منه وأقطعها قطـــب الدين ينال بن حسان (انظر الباهر/ ١٣٥ ،والكامل ١١/ ٣٢٩ ، ونهر الذهب ٣/ ٩٦) .
(٤) ديوان العماد / ١٠٢ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٨٠ ،واعلام النبوة ٢/ ٤٨ .
(٥) وقلعة جعبر من أمنع القلاع ،أبى صاحبها أن يسلمها لنور الدين مع أن نور الدين رغبه في الاقطاع والمال ،وبعد ذلك مال نور الديـــن إلى الشدة والعنف ثم سلك طريق اللين وأشار عليه بالعوض فأخـــذ عوضا عنها سروج وأعمالها والملاحة بالتي بين بلد حلب وباب بزاعه وعشرين الف دينار معجلة . (انظر الكامل ١١/ ٣٣٤-٣٣٥ . والباهر / ١٣٦-١٣٧) .
(٦) انظر ديوان العماد /٢٨٦-٢٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فنور الدين كان يستخدم الشدة واللين مع خصومه كما فعل مع قائد القلعة . وأنكر نور الدين على سرخاك (١) والي بصرى عصيانه وتعاونه مع الفرنج واعتضاده بهم ،وأنهض اليه فريقا وافرا من عسكره ، وذلك سنة ست وأربعين وخمسمائة (٢) .

ونقل لنا طلائع بن رزيك ،ذلك التطاحن العقيم الذى فرضه قليج أرسلان بن مسعود (٣) على نور الدين ، هذا التطاحن الذى أعاق مسيرة الجهاد ضد أعداء المسلمين ، وعز على طلائع بن زريك (٤) أن يرى جهود المسلمين تنصرف إلى بعضها ،ويتمنى أن يزول الخلاف ليقف الجميع في صف واحد ضد الأعداء ،يقول :

نقولُ ولكنّ أين من يتفهّمُ ويعلمُ وجْه الرأي والرأي مبهمُ
وما كلّ من قاس الأمور وساسها يُوفّقُ للأمر الذى هو أحزمُ
وما أحدٌ في الملك يبقى مخلّداً وما أحدٌ مما قضى الله يسلمُ
أمِنْ بعد ما ذاق العدى طعم حربكمْ بفيهم وكانت وهْي صابٌ وعلقمُ
رجعتمْ إلى حكم التنافُس بينكم وفيكمْ من الشحناء نارٌ تضرّمُ
أما عندكمْ من يتقي اللّه وحده أما في رعاياكمْ من الناس مسلمُ (٥)

ومن رسائل نور الدين الى قليج أرسلان قوله : "إنّني أريد منك أمورًا وقواعد ،ومهما تركت منها ، فلا أترك ثلاثة أشياء : أحدها أن تجدد إسلامك على يد رسولي ، لكي يحلّ لي إقرارك على بلاد الاسلام ، فاني لا أعتقدك مؤمنًا .

والثاني : إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيّره ، فإنك قد ملكت طرفًا كبيرًا من بلاد الاسلام ،وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم . فإما أنْ تنجدني بعسكرك لاقاتل بهم الفرنج ،وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم ،وتبذل الوسع والجهد في جهادهم ،والثالث أن تزوّج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي"(٦) .

---

(١) سرخاك : هو فخر الدين سرخاك ،والي بصرى ،كان مفرطا في التحرز والتيقظ ،ولكنه قتل غيلة ،بموافقة من أعيان خاصته ، وذلك في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة (كتاب الروضتين ١/ ٢٨٦) .

( ) انظر الروضتين ١/ ٢١٣ .

(٣) هو عز الدين قليج أرسلان بن مسعود ،صاحب الروم ،فيما بعد سعى في الصلح بين عز الدين مسعود بن قطب الدين والملك الصالح اسماعيل وصلاح الدين الأيوبي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (انظر وفيات الأعيان ٥/ ٢٠٥).

(٤) طلائع بن رزيك : انظر ترجمته في الحديث عن نور الدين والأدباء ، في الباب الثالث من هذه الدراسة .

(٥) ديوان طلائع بن رزيك / ١٣٣ .

(٦) كتاب الروضتين ١/ ٥٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو من الرسالة مدى حرص نور الدين على رعاية الاسلام ، والحفاظ على الدولة الإسلامية متماسكة قوية ، فإذا حدث فيها ثغرة وكان سببها أحد عماله على البلاد ، أعاده إلى صوابه وحاسبه .

وظهر من الرسالة أيضًا ميل نور الدين إلى المصاهرة السياسية ،لتيقنه من أن المصاهرة تؤلف القلوب وتلمّ الشتات . وهذا ما فعله أيضا مع معين الدين أُنر (١) الذى كان على صلة مع الفرنج ويراسلهم ، فخوفا من تسليم دمشق للفرنج ، حرص نور الدين على صلته معه ، وانعقدت الصلة بين معين الدين والأسرة الزنكية (٢) .

وقد صوّر العماد الأصفهاني نور الدين ملكا متفوقا على الملوك الآخرين ومتميّزًا عنهم بقيامه بأمور الدين والملك ، يقول من قصيدة له فيه :

بالدّين والمُلْك له قيامه ... وللملوك عنهما قعودها (٣)

وصوره ملكا جادا ، لا يلهو كبقية الملوك ،وهو يفعل الخير ويفوق الملوك في سماحته وحماسته ، يقول :

ما للملوك لدى ظهورك رونقٌ
وإذا بَدَتْ شمسُ الضّحى خفي السُّها
إن الملوك لهوْا وإنك من غدا
وبماله والملك منهُ مالها
شرهت نفوسُهُمُ إلى دنياهُمُ
وأبى لنفسك زهدُها أنْ تشرها
ما نمت عن خيرٍ ولم يكُ نائمًا
مَنْ لا يزالُ على الجميل منبّها
فقت الملوك سماحةً وحماسةً
حتى عدمنا فيهمُ لك مشبها
ولك الفخار على الجميع فدونهمْ
أصْبَحْتَ عن كلّ العيوبِ مُنزّها (٤)

* ** *

ونور الدين لا يضيع الفرصة في الاتفاق مع حلفائه من المسلمين للوقوف في وجوه الأعداء ، وذلك كما حدث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة عندما وصل إليه كتاب صاحب طرابُلُس يشير عليه بقصد حصن العُرَيمة (٥)، وذلك لان ملك

---

(١) تقدم التعريف به .
(٢) انظر الروضتين ١/ ١٢٩ ، والباب الأول من هذه الدراسة .
(٣) ديوان العماد / ١٤٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٧ .
(٤) كتاب الروضتين ١/ ٣٨١-٣٨٢ ،والابيات غير مذكورة في ديوان العماد .
(٥) حصن العريمة : يحتل موقعا منيعا ، إذ يتحكم في الطريق الممتد من طرابلس إلى انطرطوس ،وفي الطريق الذى يتجه من طرابلس الى داخل البلاد ،إلى البقيعة . (انظر معجم البلدان ٤/ ١١٥ ،وتاريخ الحروب الصليبية ٢/ ٤٦٢) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الالمان تغلب عليه ،فذهب وبصحبته معين الدين أنر واستنجدا بسيف الدين غازى ،فحصروا الحصن ونقبوا السور ،فأذعن الفرنج واستسلموا (١)

وقد ذكر ابن منير هذا اليوم ، ووصف نور الدين بالقوة والشجاعة ، وأثنى على فعله بالفرنج ،وذكر بعض معارك نور الدين التي هزم فيها الفرنج ، واعتبر يوم العُرَيمة امتدادًا لها ، يقول :

رآك الصليبُ صليب القنـــاة أمين العثار متين العَمَـــدْ
تهمُّ فتسلبُهُ ما اقتنـــى وتدأى (٢) فتثكلهُ ما احتشـــدْ
زَبَنْتَهُمُو(٣) أمس عن صرخـــدٍ (٤) ففضّوا كأنَّ نعامًا شـــردْ
ويوم العُرَيْمة أقبلتهـــم عرامًا (٥) تثعلب منه الأسَـــدْ (٦)

وعندما أفسد الافرنج في الاعمال الحورانية سنة أربع وأربعين وخمسمائة وقاموا بالنهب والسبي ،عزم نور الدين على قصدهم ،وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه ، وأرسل الى مجير الدين (٧) يقول : " انني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلبًا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنّما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حَوْران والعربان ، بأن الفلاحين أخذت أموالهـــم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج ،وعدم الناصر لهم .

ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد ،من الاقتدار على نصرة الدين وجهاد المشركين ،وكثرة المال والرجال ،أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم ،مـــع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ،والتقصير الذى دعاكم الـــى الاستصراخ بالافرنـــج على محاربتي ، وبذلـــكم لهـــم أموال الضعفـــاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم . وهذا لا يرضي الله تعالى ولا أحدا من المسلمين ، ولا بد من المعونة بألف فارس تجرد مع من يوثـــق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة "

فكان الجواب عن هذه الرسالة : " ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك إنْ قصدتنا ونزلت إلينا "(٨) .

---

(١) انظر الروضتين ١ / ١٤٢-١٤٣ .
(٢) تدأى : تتبع (انظر لسان العرب ،مادة : دأى) .
(٣) زبنتهم : الزبن : الدفع ،دفع الشيء عن الشيء (لسان العـــرب مادة : زبن) .
(٤) صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق ،وهو قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة . (معجم البلدان ٣ / ٤٠١) .
(٥) عرام : قوة الجيش وكثرته (لسان العرب ،مادة :عرم) .
(٦) ديوان ابن منير / ١٨٨ ،وشعر ابن منير / ٨٠ ،وكتاب الروضتين ١ / ٥١-٥٢ .
(٧) مجيرالدين آبُق : تقدم التعريف به .
(٨) انظر الروضتين ١ / ١٧٨-١٧٩ ،وعيون التواريخ ١٢ / ٤٣١-٤٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر من مراسلة نور الدين مجير الدين وردّ مجير الدين عليه ، حرص نور الدين على بلاد المسلمين ، وغيرته على حرماتهم ، وتهاون مجير الدين في الدفاع عن البلاد الاسلامية ، وتعاونه مع الفرنج ضد المسلمين ، مما جعل نور الدين يسعى بعد ذلك لضم دمشق ، لأنها تقف في الطريق بينه وبين الفرنج .

* * *

وكان نور الدين يجنح للسلم ، إن كان في القتال ضرر يقع على المسلمين المقيمين في المدينة التي يحاصرها ، وذلك كما حدث في دمشق سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، عندما أشفق نور الدين من سفك دماء المسلمين ، إن أقام على حربها والمضايقة لها ، وبعد ذلك بذلت الطاعة له وأقيمت الخطبة له على منبر دمشق ، بعد الخليفة والسلطان ، ورحل عن مخيمه عائداً إلى حلب ، بعد إحكام ما قرر وتكميل ما دبّر (١) .

وقد هنأ ابن القيسراني نور الدين في هذه المناسبة بقصيدة قال منها :

وقد علم الأعداء مُذْ بتَّ جانحًا ... إلى السلم ما تنوى بذاك وما تنحو
إذا ما (دمشقُ) ملكتك عنانها ... تيقّن مَنْ في إيليا أنه الذَّبحُ
متى التف نقع الجحفلين على الهدى ... فلا مهمهٌ يحوى الضلال ولا سفحُ
إذا سار نور الدين في الجيش غازيًا ... فقولا لليل الإفك قد طلع الصبحُ (٢)

ونرى ابن القيسراني ، وقد حبذ الصلح والوفاق ، وعد صلح نور الدين مع أرباب دمشق انتصاراً سياسيًا ، يحققه في المنطقة ، لأنه بذلك يستطيع التفريق بين دمشق والفرنج ، وبذلك لا يجمع عدوّين في آن واحد .

واتبع نور الدين هذه السياسة مع الروم أثناء حربه للفرنج ، فقد كان يراسل الروم ، حتى لا يجتمع الفرنج والروم على حرب المسلمين (٣) .

ويصّرح ابنُ القيسراني في الأبيات السابقة بأن اتحاد دمشق وحلب معناه فناء مغتصبي بيت المقدس .

وفي سنة ست وأربعين وخمسمائة حاصر نور الدين دمشق لسوء سيرة مجير الدين (٤) وقد كان لهذا الحصار صدى في شعر الشعراء ، ووقفوا إلى جانب نور الدين ، فقد مدحه ابن منير وهو محاصر دمشق بقصيدة حرضه فيها على أخذ دمشق ، وحثه على قتال أهل النفاق فيها ، وذلك لتعطيلهم الجهاد ، وبذلك لم يقف الشعر عند حد التحريض على مقارعة الصليبيين ، بل دعا إلى الحزم تجاه المتعاونين مع الفرنج ، ما داموا في صف العدو ، يعملون ضد مصالح المسلمين ، يقول :

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق / ٣٠٩-٣١٠ ، والروضتين ١ / ١٧٩ ، والكواكب الدرية / ١٣٦ .
(٢) كتاب الروضتين ١ / ١٨٠ .
(٣) انظر الروضتين ١ / ٣٠٨ ، والكواكب الدرية / ١٥٦ .
(٤) انظر الروضتين ١ / ١٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صفِّر بحدّ السيف دار أشائب[1] عقلوا جبانك عن بنات الأصفر
هُمْ شيَّدوا صرح النفاق ، وأوقدوا ناراً تحُشُّ بهم غداً في المحشر
أذكوا بجلّق حرّها واستشعرت لفحاتها بين الصّفا والمشعر
ما الغشُّ من أُمّه نصرانيةٌ لم تَخْتَتِنْ كالغشِّ من متنصِّر (٢)

وكتب ابن منير من حماة قصيدة إلى نور الدين وهو محاصر دمشق ينال فيها من صاحبها مجير الدين ، ويبين فيها خيانته ،وأثنى في مطلعها على نور الدين قائلاً :

أبوك أبٌ لو كان للناس كلّهم أباً ورَضُوا وطءَ النجوم لفنّدوا (٣)
وما مات حتى سدَّ ثلمة ملكه بك الله ،ترمي ما رماه فتصرد (٤)

ثم يهجو مجير الدين لنفاقه ومحاربته المسلمين ، وسوء سيرته ، واستعانته بالفرنج على المسلمين ، قائلا :

فيا راكباً إما عرضت فبلِّغنْ بيوتاً على جَيْرون بالذّل تعمدُ
وقل لمبير الدّين (٥) وهْو مجيرُه بزعم له وجه الحقيقة أربدُ
حطتَ الصليبَ باغياً ،ونَبَذْتَهُ وثغرك مطووس (٦) النبات وأدرد (٧)
وحاربت حزب الله ،واللهُ ناصرٌ لناصره ودين أحمدَ أحمدُ
تنصّرت حيناً والبلاءُ مُوكّلٌ ولا بدَّ من يوم به تتهوّدُ

ومنها :

تنصّرت أتماً ، بل تمجّستَ والداً وعمّاً ،فعرق الكفر فيك مردّدُ (٨)

فغيرة ابن منير على مصالح المسلمين ،وحبه لنور الدين ،وما اشتهر به من مقدرة على الهجاء كل هذا جعله يعرى مجير الدين ،ويصفه بالكفر والخروج عن الدين ،ويقف الى جانب نور الدين يشجعه على قتال من خان الاسلام والمسلمين .

وبسبب ما ظهر من مجير الدين صاحب دمشق من الظلم وسفك دماء

---

(١) دار أشائب : شاب إذا غش ،وشاب إذا كذب ،وشاب إذا خدع (لسان العرب مادة : شاب) .
(٢) ديوان ابن منير/ ٢٢٩ ،وشعر ابن منير/ ١٠٦-١٠٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٩٦ .
(٣) فندوا : ضعفوا وعجزوا (لسان العرب ،مادة : فند) .
(٤) تصرد : تنفذه من الرمية (نفسه ،مادة : صرد) .
(٥) مبير : مهلك (نفسه ، مادة : بور) .
(٦) مطووس النبات : مكسورالنبات (نفسه ،مادة : طاس) .
(٧) أدرد : الأدرد الذى ليس في فمه سن (لسان العرب مادة :درد) .
(٨) ديوان ابن منير/ ٦٢ ،وشعر ابن منير/ ٦٢ ،وكتاب الروضتين ١ / ١٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسلمين وأخذ أموالهم ، ومكاتبة الفرنج ، يستنجد بهم ،ويطمعهم في البلاد ، كاتب الأمراء وأعيان الدولة نور الدين يستغيثون به . ولما رأى نور الدين الحال هكذا ،عمد الى الخدعة خوفا من سفك الدماء ، وخوفا من تسليم دمشق للفرنج ، فراسل مجير الدين صاحبها واستمالله وواصله بالهدايا ، وأظهر له المودة حتى وثق به ، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ، ويقول : إن فلانًا - ويذكر بعض أمراء مجير الدين - قد كاتبني في المؤامرة عليك فاحذره ،فتارة يأخذ اقطاع أحدهم وتارة يقبض عليه ،فلما خلت دمشق من الأمراء ،قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء ابن حفاظ السلمي الخادم(١) ، وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله . ولما حاصر نور الدين دمشق الحصار الثاني سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ثار الأحداث(٢) الذين كاتبهم نور الدين وسلموا له البلد من الباب الشرقي ، وملك نور الدين دمشق (٣) .

وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء بن حفاظ السلمي ، السابق الذكر ،كان له مع نور الدين في دمشق حديث ،ويقول أبو شامة : ويجوز أن هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك(٤) .

قال ابن منير :

ودَمْشَقَ في دِمَشْقَ رجالُ سِلْمٍ لحُور نسائهم منهم نساء

إلى قوله :

ويا نعم العطاءُ عطاء ربٍّ توسّطه فأنشطه عطاءُ
تفاءَلَ باسمِهِ فالفألُ وعدٌ يكون على ظباك به الوفاءُ
هو السّبب الذي شَزَرَتْ قواهُ(٥) وهذّبَهُ بخدمتك الصَّفاءُ
وسيفٌ إنْ تشِمْهُ تشم حساماً وإن يغمد فنارٌ بل ذكاءُ
جَنَتْهُ لك السّعادةُ قطْفَ رأيٍ لنقب الخادعيك به هناءُ(٦)

---

(١) من أمراء مجيرالدين ،كان شهمًا شجاعًا ، وفوض إليه مجير الدين أمر دولته . (انظر الروضتين ١/ ٢٣٨) .

(٢) الأحداث : رجال الشرطة المكلفون باخماد الفتن والاضطرابات وعقاب مثيري الشغب ، انظر : Dozy,s Supp. Dict. Ar,Tome I P,258

(٣) انظر الخبر في الباهر/ ١٠٧-١٠٩ ،والروضتين/ ٢٣٧-٢٣٨ ،وعيون التواريخ ١٢/ ٤٣٢-٤٤٣ .

(٤) كتاب الروضتين ١/ ٢٣٨ .

(٥) شزرت قواه : الشزر (المعاداة) ،وشزر : ألقاه في مكروه لا يخرج منه (لسان العرب ،مادة : شزر) .

(٦) ديوان ابن منير/ ٢٦٠-٢٦١ ،وشعر ابن منير/ ٣٣-٣٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانضمام دمشق الى جبهة نور الدين ،هو أعظم انتصار سياسي يحققه نور الدين في ذلك الوقت ، وذلك لأن الفرنج خافوه وعلموا أنه لا يقعد عن غزو بلادهم . وكما يقول أبو شامة : فقد كان أبغض الأشياء اليهم أن يملك نور الدين دمشق ، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق ،فكيف إذا أخذها وقوي بها ؟ (١) .

وكذلك بأخذ نور الدين لدمشق خسرت مملكة بيت المقدس اكبر صديق لها ، كما فتحت الطريق إلى مصر (٢) .

ومما جعل نور الدين يركز اهتمامه على دمشق ، أهمية موقعها ، فهي بين الموصل وبيت المقدس ،وعلى الطريق التجاري الممتد من الفرات إلى مصر ، ولذلك أصبحت تتحكم في سياسة الشام (٣) . وكان هدف نور الدين كذلك أن يجعلها طريقًا إلى بيت المقدس ليستعيد البلاد التي أخذها الصليبيون (٤) .

* * *

ولم يكن مجيرُ الدين العدوَّ الوحيد ،الذي حاربه نور الدين في الداخل ، فقد كانت (الباطنية) من ألدّ أعداء الاسلام ،وقاموا بدور سيء ضد الاسلام والمسلمين ،وقتلوا كثيرًا من المجاهدين والأمراء ، وكان هؤلاء كلما اشتد عليهم أمر المسلمين ،يتصلون بالفرنج يستنجدون بهم أو يسلمونهم القلاع ، كما فعل صاحب بانياس(٥) .

وفي عهد نور الدين ،انصرف الباطنية إلى تدعيم بلادهم في جبال النصيرية ، واعتبروا نور الدين عدوهم اللدود ،نظرا لأن سلطانه قيد توسعهم (٦) .

وعظم على الاسماعيلية وأهل التشيع ابطال نور الدين (حي على خير العمل) ،وسب الصحابة ، وهاجوا وماجوا ، ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة ،وهيبته المحذورة (٧) .

وأنشد ابن منير نور الدين قصيدة مطلعها :

فداك من صام ومن أفطرا ومن سعى سعيك أو قصّرا

يقول فيها وقد أثنى على نور الدين وذكر حمايته لمحارم الاسلام ونصرته للدين :

ما حلب البيضاء مذّ صنتها إلّا حرامٌ مثل أم القرى

شيّدت في معمور أرجائها لكل باغي عُمرةٍ مشعرا

---

(١) كتاب الروضتين ١ / ٢٣٧ .
(٢) انظر العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج / ٤٣ .
(٣) انظر الحروب الصليبية / ٥٠ .
(٤) انظر شعر الجهاد / ٤٣ .
(٥) انظر الكواكب الدرية / ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ .
(٦) انظر تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٦٤١ .
(٧) انظر الروضتين ١ / ١٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا عدم الاسلامُ مَنْ كَفَّهُ كهفٌ لِمَنْ أُرهق أو أُحصرا
أبقاك للدنيا وللدّين من خلّاك في ليلِهما نيّـرا
حتى نرى عيسى من القدس قد لجا إلى سيفك مستنصرا (١)

فنور الدين حمى حلب من الباطنية وبدعهم وطهرها منهم ، حتى أصبحت في حرمتها كأم القرى .

وكانت طائفة العلوية تثير الفتن في البلاد ،وذلك كما حدث سنة أربع وخمسين وخمسمائة ،عندما استغل العلويون فرصة مرض نور الدين ،اذ وقعت الفتنة بينهم وبين السنة ،ونهب الشيعة العلوية مدرسة ابن عصرون وغيرها ، وقامت الحرب بين العلوية والسنة وأحرق العلويون الأسواق والمدارس والمساجد (٢) .

وبعد ذلك عمل نور الدين في الشام ونائبه صلاح الدين في مصر على نصرة السنة ومحاربة الشيعة وعزل قضاتهم (٣) ، مما خفف من وطأتهم على السنة ، ونظرا لأن عواطف الباطنية وميولهم كانت شيعية لا سنية ،فقد ارتاعوا لزوال الخلافة الفاطمية ،واستطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم (٤) .

* * *

وكان نور الدين يتطلع الى توثيق علاقته بأمراء الموصل ، ففي سنة اربع وخمسين وخمسمائة ،عندما عرض لنور الدين مرض أضعف قوته ، تقدم إلى خواص أصحابه وقال لهم : "إنّني قد عزمت على وصية إليكم بما وقع في نفسي فكونوا لها سامعين مطيعين ، وبشروطها عاملين . إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين ،والظلمة الجائرين . . . وقد وقع اختياري على أخي الأمير قطب الدين مودود ،متولي الموصل ، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد" . فحلفوا له وأنفذ رسله إلى أخيه باعلامه صورة الحال ليكون لها مستعدا (٥) .

ويبدو من وصية نور الدين لأخيه قطب الدين ، حرصه على رعاية شؤون المسلمين ، وثقته بأخيه ،وتطلعه الى الوحدة بين الشام وشمال العراق تحت لواء قطب الدين أمير الموصل ،ولكن ذلك لم يتحقق ،لأن الله من على نور الدين بالشفاء ،وتزايدت قوته .

وكان نور الدين لا يسمح لمن تحدثه نفسه بإثارة الفتنة في الموصل ، وتعطيل دورها في الدفاع عن الاسلام ،والأرض الاسلامية ، فعندما بلغه خبر وفاة أخيه قطب الدين مودود سنة خمس وستين وخمسمائة ،وملك ولده

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢٠٧ ،وشعر ابن منير / ٩٥-٩٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٤٨ .
(٢) انظر زبدة الحلب ٢/ ٣٠٩ ،والكواكب الدرية/ ١٥٦ .
(٣) انظر بدائع الزهور ١/ ٢٣٣ .
(٤) انظر الروضتين ١/ ٥٠١ ،وتاريخ الحروب الصليبية ٢/ ٦٤١ .
(٥) انظر ذيل تاريخ دمشق / ٣٠٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سيف الدين بعده ، وكانت الوصاية لابنه عماد الدين ،واستيلاء فخر الدين عبد المسيح ، واستبداده بالأمور ، شق عليه ذلك ، لما يبلغه من خشونة عبد المسيح على الرعية ، فقال : "أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم".

وتوجه إلى سنجار واستولى عليها وسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن أخيه ، وبذل له أمراء الموصل الطاعة ، ولم يكن بينهم قتال ، لأن الجميع من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله .

وأقام نور الدين بالموصل فترة ثم أقر سيف الدين غازي على الموصل ، وولى بقلعتها خادمًا يقال له سعد الدين كمشتكين ،وقسم ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة الشرعية ، وأخذ معه إلى الشام فخر الدين عبد المسيح رأس الفتنة ، وغير اسمه وسماه عبد الله ،وأقطعه إقطاعا كبيرًا (١) .

وقد سجل العماد الأصفهاني هذا الانتصار السياسي ،بعد سيطرة نور الدين على الموصل وتسليمها لابن أخيه سيف الدين غازي . قال : فقلت ونحن في العود قد خيمنا على حلب ، وفزنا بكل طلب ، سنة ست وستين وخمسمائة :

الحمد للّه فزنا وللمطالب حُزنا
حزنا السرور ومات الـ حسود غما وحزنا
وعاد سهلاً من الأمـ ـر كل ما كان حزنا
وأذعنت واستقادت مُنىً لنا قد نشزنا

وعد العماد انتصار نور الدين بضم الموصل هزيمة للأعداء والمشركين ، وذلاً لهم ،وعزة ومنعة للمسلمين ،وأن نور الدين حقق الهدف الذي ذهب من أجله ، يقول :

إنّ الاعادِيَ ذلّوا بنصرنا وعززنا
كم ظهر شركٍ قصمنا وعطف(٢) عزٍّ هززنا
وجيش باغٍ هزمنا ورأس عاتٍ همزنا

---

(١) انظر الكامل ١١/ ٣٦٢-٣٦٥ ، وزبدة الحلب ٢/ ٣٣١-٣٣٢ ، وكتاب الروضتين ٢/ ٤٧٥- ٤٧٧ ، والبيسيف (نور الدين) ٢/ ٦٦٥ .

(٢) عطف عز هززنا : عطفا الرجل : جانباه عن يمين وشمال . وتعطف بالعزّ : تردى بالعزّ أي شطه - (لسان العرب ، مادة : عطف) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفرصة للأماني مع النجاح انتهزنا
وكم مراكز ملك فيها الرّماح ركزنا
وكم عدوٍّ سَلَبْنا لُملكَهُ وابتززنا
نلنا الذي قد رَجَوْنا بالحوط مما احترزنا
ببأس محمودٍ الملـ ـك للخطوب برزنا

ومنها :

ولم ندع للأعادي في موقف الفخر وزنا (١)

* * *

وكشف لنا الشعر عن علاقة نور الدين بالدولة الفاطمية في مصر ، وكانت مراسلات أسامة بن منقذ والملك الصالح طلائع بن رزيك الشعرية تترجم عن هذه العلاقة التي تقوم على توحيد الجهود من أجل الوقوف في وجه العدوّ المشترك ، على الرغم من الاختلاف المذهبي بين نور الدين والفاطميين .

وقد أحسن طلائع بن رزيك استثمار فرصة وجود أسامة بن منقذ في الشام إلى جانب نور الدين ، فكلفه القيام بالمهام السياسية ، ومن أهمها حث نور الدين على مواجهة الصليبيين لكي يقف الشام صخرة صلبة أمامهم تمنعهم من التوغل في مصر ، وتحد من أطماعهم فيها ،وتجعل مصر قادرة على صد هجماتهم بعد تفرق قواهم على جبهتين (٢) .

ومن ذلك ما كتبه طلائع بن رزيك إلى أسامة (٣) ،وقد وصف جيوشه وحث نور الدين على القتال ، إذْ يقول :

يا سيدًا يسمو بهمّـ ـته إلى الرتب العلية
أنت الصديقُ وإنّ بَعْـ ـدَ ت وصاحبُ الشيم الرضيّة
يهنيك أنّ جيوشَنا فَعَلَتْ فعال الجاهليّة
سارت إلى الأعداء مِنْ أبطالها ماشتا سريـة
فتُغير هذي بكـرةً وتعاودُ الأخرى عشية
فالويل منها للفرنـ ـج فقد لقوا جهد البلية
جاءت رؤوسُهمُ تلـو ح على رؤوس السمهرية
وبدائعٌ قد قسمت بين الجنود على السويّة
وخلائقٌ كثرت مـن الـ أسرى تقاد إلى المنية

ثم يطلب من أسامة إعلام نور الدين بذلك ويستنهضه لقتال الفرنج ، يقول :

فانهض فقد أنبيت مجـ ـد الدين بالحال الجلية
ألمم (بنورالدين) واعـ ـلمهُ بهاتيك القضية
فَهُوَ الذي ما زال يخلـ ـصُ منهُ أفعالٌ ونية
ويبيد جمع الكفر بالـ بيض الرقاق المشرفية

---

(١) انظر ديوان العماد / ٤٠٦-٤٠٨ ،والخريدة ، قسم الشام ١/ ٥٠-٥٣ .
(٢) انظر اسامة بن منقذ ،حياته وشعره ١/ ٢٥٩ .
(٣) وسندرس بعض مراسلاتهما الشعرية عند الحديث عن نور الدين : المجاهد ، والساعي للوحدة الاسلامية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعساهُ ينهض نهضةً يغني بها تلك البقية
إما لنصرة دينه أو ملكه أو للحمية (١)

وحدث سنة تسع وخمسين وخمسمائة أن هرب شاور (٢) الوزير الفاطمي إلى الشام ملتجئا إلى نور الدين ،وشرط له ثلث الجباية ، على أن يرسل معه نور الدين العساكر ،وينتقم له ممن نازعه على الوزارة ،فاستجاب نور الدين لذلك وأرسل معه أسد الدين شيركوه على رأس عساكره ، وقاتل قتالاً شديدًا ،وانتقم لشاور من ضرغام (٣) وأعاده إلى الوزارة (٤) ولكن شاور نكث عهده مع نور الدين وطلب من أسد الدين مغادرة مصر ، فلم يقبل ، فاستعان شاور بجيوش الملك مرّي (٥) الصليبية ، وأعطى الفرنج الاموال وأقطعهم الاقطاعات ،وعقد الفرنج مع شاور معاهدة ، كان من أهم شروطها : أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ،ليمتنع الملك العادل (نور الدين) من إنفاذ عسكر اليهم ، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار (٦) .

وقد سجل الشعر هذه المواقف الخيانية ، وهجا الشعراء شاور ، لتهاونه وتخاذله ،واستنجاده بالصليبيين ،ودعوتهم لدخول مصر ، فيقول العماد الاصفهاني مخاطبا أسد الدين شيركوه بعد أن أصبح وزيرا في مصر : من شر شاور أنقذت العباد فكم وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذى اطمع الافرنج في بلد الاسلام حتى سعوا للقصد والطلب (٧)

وقال العماد فيه من قصيدة أخرى مدح بها نور الدين وهنأه بملك مصر ، مطلعها :

بملك مصر أهنّي مالك الأُمم فاسّعد وأبشر بنصر اللّه عن أمم

---

(١) انظر ديوان طلائع بن رزيك / ١٧٣ .
(٢) شاور : تقدم التعريف به .
(٣) ضرغام : الملك المنصور ،أبو الاشبال ضرغام بن سوار اللخمي ، تنازع مع شاور على وزارة مصر ،قتل سنة ٥٥٩هـ عند مشهد السيدة نفيسة فيما بين القاهرة ومصر (وفيات الأعيان ٢ / ٤٤٢) .
(٤) انظر الخبر في الروضتين ١ / ٣٣٦-٣٣٧ ،والمختصر في اخبار البشر ٢ / ٥٧٥ ،والبداية والنهاية ١٢ / ٢٤٧ ،وتاريخ ابن خلدون ٤ / ٧٧ .
(٥) الملك مرّي : (Amaury I) ورد أيضا في المؤلفات العربية : أموري ، وعموري الأول ، ملك بيت المقدس ،تولى مملكة بيت المقدس سنة ٥٥٧هـ - ٥٦٩ هـ ،تنافس هو وأسد الدين على مصر ،وانتهت المنافسة باستيلاء أسد الدين شيركوه وصلاح الدين على مصر (انظر نور الدين (إليسيف) / ٥٦١) والحروب الصليبية في المشرق والمغرب / ٧٢، ٧٥) .
(٦) كتاب الروضتين ١ / ٤٢١ ،وزبدة الحلب ٢ / ٣١٧-٣١٨ ،والنجوم الزاهرة ٥ / ٣٤٨ .
(٧) ديوان العماد / ٨٠-٨١ ،وكتاب الروضتين ١ / ٤٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول فيها :

لقد شفتْ غلةُ الاسلام وانتقمتْ ... من العدو بحد الصارم الخذم (١)
أعانها اللّه في إطفاء جمر أذىً ... من شر شاور في الاسلام مضطرم
و أصبحت بك مصر بعد خيفتها ... للأمن والعز والإقبال كالحرم (٢)

وأنشد العماد كذلك أسد الدين بعد عودته من مصر سنة اثنتين وستين وخمسمائة قصيدة أثنى فيها على جهود أسد الدين ،وذم شاور ومن في القصور القاهرية لتآمرهم ، يقول :

والساكنين القصور القاهرية قد ... نادى القصورُ عليهمْ أنهمْ قُهروا
وشاورٌ شاوروه في مكائدهم ... فكاده الكيدُ لمّا خانهُ الحذر
كانوا من الرعب موتى في جلودهمُ ... وحين أسْتَنْهَضَهمْ مِنْ خوفهم نشروا
وإن من شيركوه الشرك منخزلٌ ... والكفر منخذلٌ ، والدين منتصر (٣)

وقال أيضا :

لاذ بالنيل شاورٌ مثل فرعو ... ن فذلكَ اللّاجي وعزَّ العبورُ
شارك المشركين بغياً وقدماً ... شاركتها قريظةٌ والنضيرُ
والذي يدّعي الإمامةَ بالقسا ... هرة ارتاع أنّهُ مقهورُ (٤)

وقال العرقلة الكلبي يمدح صلاح الدين ويهجو شاورا لبغيه وطغيانه :

هو الأسد الضاري الذي جلّ خطبهُ
وشاورُ كلبٌ للرجال عقورُ
بغى وطغى حتى لقد قال قائلٌ
على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ... ولا زال فيها مُنكرٌ ونكيرُ (٥)

وقال أيضًا في هجاء شاور ووصفه بالنفاق :

أشاور كم تشاور كل خب ... وتنفق عند مثلك بالنفاق(٦)

وقد قتل شاور فيما بعد ، لسوء سيرته على يد صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك النورى سنة أربع وستين وخمسمائة . وقد هنأ العرقلة مصر بمناسبة الخلاص من شاور وشره وشبه قتل صلاح الدين شاور بقتل داود جالوت، إذ يقول :

هنيئًا لمصرٍ حوزُ يوسفَ مُلكَها ... بأمرٍ من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاورا ... يماثلُ إلّا قتل داود جالوتا (٧)

---

(١) الحذم : القاطع (لسان العرب ، مادة : حذم) ،وانظر أساس البلاغة/ ١٥٦ .
(٢) ديوان العماد / ٣٨٠-٣٨١ ،وكتاب الروضتين ١ / ٤٤٤ .
(٣) ديوان العماد / ١٧١-١٧٢ ،وكتاب الروضتين ١ / ٣٧١-٣٧٢ .
(٤) ديوان العماد / ١٨١ ،وكتاب الروضتين ١ / ٣٧١-٣٧٢ .
(٥) انظر ديوان العرقلة / ٥٢ .
(٦) كتاب الروضتين ١ / ٣٧٤ .
(٧) انظر بدائع الزهور ١ / ٢٣٢-٢٣٣ ،والأبيات لم تذكر في ديوان العرقلة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتولى الوزارة بعد شاور أسد الدين شيركوه ، ولقبه العاضد (١) بالمنصور وكتب له عهدا بتقليد الوزارة ، ونصه : " هذا عهدٌ لا عهدَ لوزير بمثله ، وتقليد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله ، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله . فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوّة النبوة . واتخذه للفوز سبيلاً ، (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) (٢) .

ولم يمكث أسد الدين مدة طويلة ، فقد مات بعد شهرين وخمسة أيام من توليه الوزارة ، فنصب العاضد عوضا عنه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، ولقب بالناصر لدين الله . وكتب له العاضد عهداً بتقليد الوزارة بعد عمه أسد الدين ، وهو : " هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله تعالى عليك ، فأوف بعهدك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولمن مضى بجدّنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحسن أسوة ، ولمن بقي بقربنا سلوة ، (تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) (٣) .

ويقول العرقلة بمناسبة تولي صلاح الدين للوزارة في مصر :

أصبح الملك بعد آل علي مشرقًا بالملوك من آل شاذي (٤)
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو م ومصرٌ تزهو على بغداذ
ما حوَوْها إلاّ بحزم وعزم وصليل الفولاذ في الفولاذ (٥)

وكان العاضد يستنجد بنور الدين من حين إلى آخر ، بسبب محاولات الفرنج المتكررة للسيطرة على مصر ، وخيانة شاور .

وكان نور الدين يغتنم الفرص التي تعزز نجاح سياسته في مصر ، فكان يستجيب لنداءات العاضد ، وكان يرسل إليه التهاني بانتصارات جيوش المسلمين في مصر ، فعندما انتصر المسلمون في دمياط سنة خمس وستين وخمسمائة كتب العماد الأصفهاني عن الملك العادل نور الدين كتابًا إلى الخليفة العاضد يهنئه بالنصر ، ومنه : "أطال الله بقاءه فلان ، ولا زالت عوادي نعمه محدقة بأوليائه إحداق الأجفان بالأحداق ، وعوادي نقمه محرقة لأعدائه إحراق النيران أهل الشقاق ، ما أطنت رايات النصر للدين ونطيت

---

(١) العاضد : أبو محمد عبد الله الملقب العاضد بن يوسف بن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور ابن القائم بن المهدي ، آخر خلفاء ملوك مصر من العبيديين ، ولي المملكة بعد وفاة ابن عمه الفائز ، وكان العاضد شديد التشيّع ، مغالياً في سب الصحابة (وفيات الأعيان ٣ / ١٠٩) .

(٢) انظر النص في الروضتين ١ / ٤٠٢ ، ومجموعة الوثائق الفاطمية / ٤٠١ ، والآية : ٩١ من سورة النحل .

(٣) انظر النص في الروضتين ١ / ٤٠٩ ، ومجموعة الوثائق الفاطمية / ٤١٩ ، والآية من سورة القصص / ٣٨ .

(٤) آل شاذي : أسرة صلاح الدين .

(٥) انظر ديوان العرقلة / ٣٧-٣٨ ، والروضتين ١ / ٥٠٩ ، وبدائع الزهور ١ / ٢٣٧-٢٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آيات الذكر المبين .

الخادم يهنيء بما سناه الله من الظفر الذى أضحك سن الإيمان ، وحصل أهل الشرك في شرك الخذلان ،وأعاد جيش الكفر واهي الجأش ،وبيد الضلالة بادية الارتعاش ، حتى عاد حزب الشيطان مخذولا ، وسيف الله في رقاب أعدائه سلولا ، وذلك ببركات الدولة التي سطع فخرها . ولولا اهتمامه بأهل الاسلام ،وحفظ الاولياء الذين يذبون عن الدين ويحافظون على الذمام ، لكاد ركن الحق يميل لكيد الباطل ،فوفق الله فلانًا وأيّده اللّه بنصره ،وردّ كيد العدوّ والكافر في نحره"(١) .

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة ، أرسل الخليفة العباسي من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر ، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك ،وحمله رسالة منها : "وهذا أمر تجب المبادرة اليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة ،والمنقبة النبيلة ، قبل هجوم الموت وحضور الفوت ،لا سيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته ، وهو عنده من أهم أمنيته"(٢) .

* * *

وكان نور الدين يتطلع بشوق إلى قطع الخطبة للفاطميين في مصر ، وإقامة الخطبة العباسية ،ولكن صلاح الدين اعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه ، لميلهم إلى العلويين ،ولم يقبل نور الدين عذره ، وألحّ عليه بقطع الخطبة ،وألزمه إلزامًا لا فسحة له في مخالفته ،وكان على الحقيقة نائب نور الدين . وبعد استشارة أمرائه وجد أنه لا يمكنه إلاّ امتثال أمر نور الدين "(٣) .

وكان سقوط الخلافة الفاطمية في مصر ،وعودتها إلى أحضان الخلافة العباسية في بغداد ،من أهم الأحداث السياسية يومئذ ،لأن نور الدين كان يرى في ذلك بداية الطريق نحو تحرير بيت المقدس ،وقد سجل الأدباء هذا الحدث المهم ،فمما يدل على تطلع نور الدين لقطع الخطبة الفاطمية أن العماد الاصفهاني أنشد أسد الدين شيركوه قوله :

ردّ الخلافة عباسيةً ودع الدّ عيّ فيها يصارِفْ شرَّ منقلَبِ
لا تَقْطَعَنْ ذنب الأفعى وترسله فالحزم عندِيَ قطع الرأس كالذنبِ(٤)

وأنشد صلاح الدين سنة اثنتين وستين وخمسمائة قوله :

فاستردوا حقَّ الإمامة مـن خان فيها فانَّه مُستعيرُ(٥)

---

(١) انظر النص في سنا البرق الشامي ١/ ٨٧-٨٨ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٤٦٥-٤٦٦ .
(٣) الكامل ١١/ ٣٦٨-٣٦٩ ،وزبدة الحلب ٢/ ٣٣٣ ،والعبر ٤/ ١٩٥ ، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٨١ .
(٤) ديوان العماد / ٨١ ،وسنا البرق الشامي ١/ ٧٨-٧٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ٤٠٣-٤٠٤ .
(٥) ديوان العماد / ١٨٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما سقطت الخلافة الفاطمية أنشأ العماد قصيدة هنأ فيها نور الدين والخلفاء العباسيين بإقامة الدعوة العباسية بمصر ،ومنها قوله :

قد خطبنا للمستضيء بمصـــر ... نائب المصطفى إمام العصـــر
وأشعنا بها شعار بني العبـ ... ـاس فاستبشرت وجوه النصـــر
وتركنا الدّعيّ يدعو ثبـــوراً ... وهْو بالذلّ تحت حجْرٍ وحَصْـــرِ
وتباهت منابر الدين بالخط ... بة للهاشميّ في أرض مصـــرِ
فاغتدى الدينُ ثابت الرّكن في مصـ ... ـر محوط الحمى مصون الثّغـرِ
واستنارت عزائم الملك العـــا ... دل نور الدين الكريم الأغـــرّ
عرف الحقّ أهلُ مصر وكانوا ... قبله بين منكرٍ ومُقـــــرّ
واستعدنا من أدعياء حقوقاً ... تُدّعى بينهم لزيدٍ وعمـــرو
والذي يدّعي الإمامةَ بالقـا ... هرة انحطّ في حضيض القهـــرِ
خلفاء الهدى سراة بني العبّـ ... ـاس والطيبون أهل الطهـــرِ
بهم الدينُ ظافرٌ مستقيـــمٌ ... ظاهرٌ قوّةً قويُّ الظهـــرِ (١)

ولما وصلت البشارة بإقامة الخطبة العباسية إلى بغداد ، ضربت البشائر بها عدة أيام ، وزينت بغداد وظهر من الفرح والجذل ما لا حد له (٢) .

وكان نور الدين قد ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين بن أبي عصرون ، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها ، وتحدث فيها عن إقامة الدعوة العباسية في جميع البلاد المصرية ،والوقوف في وجه الفرنج الطامعين بها ، وإزالة أهل الرفض والإلحاد منها ،يقول فيها :

" أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه ، وأوضح لنا منهاجه ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والاسكندرية ومصر والقاهرة ،وسائر الأطراف الدانية والقاصية ، والبادية والحاضرة ،وما برحت همتنا إلى مصر مصروفة ،وعلى افتتاحها موقوفة ،وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية . . . وسبّب قصد الفرنج لها وتوجههم إليها طمعاً في الاستيلاء عليها ، واجتمع داعيان : الكفر والبدعة ، وكلاهما شديد الروعة ،فملكنا الله تلك البلاد ، ومكن لنا في الأرض ،وأقدرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الالحاد والرفض،ومن إقامة الفرض ، وتقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة ،ويستنجح ما لنا من الإرادة ،ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الالحاد بها المهالك"(٣) .

وحمل الأدباء على الخلفاء الفاطميين ،فهم دعاة شرك وأدعياء باطل ، وهم غواة مشركون ، يقول العماد الأصفهاني :

تُوفيَ العاضدُ الدّعيّ ،فمـــا ... يفتح ذو بدعةٍ بمصر فمـــا
وعصر فرعونها انقضى وغـــدا ... يوسفُها في الأمور محتكمـــا
وانطفأت جمرة الغواة وقـــد ... باخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئمـــاً ... بها وعقد السداد منتظمـــا
لما غدا معلنا شعار بنـي الـ ... ـعباس حقاً والباطل اكتتمـــا

---

(١) ديوان العماد / ١٩٨-٢٠١ وكتاب الروضتين ١ / ٣٠٥-٤٠٥ والنجوم الزاهرة ٥ / ٣٥٦ .
(٢) انظر الكامل ١١ / ٣٧١ ،والأنس الجليل / ٣١٥ .
(٣) كتاب الروضتين ١ / ٥٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعد العماد اسقاط نور الدين دولتهم إنجازا سياسيًا عظيمًا خلص المسلمين من أذاهم ،ورد الدعوة لبني العباس ، وفرح بذلك أهل السنة يقول :

وعاد بالمستضيء مجتهدًا بناءُ حق قد كان مُنْهَدِما
واهتزَّ عِطْفُ الإسلام من جَذَلٍ وافترَّ ثغرُ الإيمان وابتسما
واستبشرتْ أوجُه الهُدَى فَرَحًا فليقرع الكفرُ سِنَّهُ نَدَمًا (١)

ووصفهم بعض الأدباء بأنهم زنادقة كفار ،شيعية باطنية ، مجوس ومنافقون ، إذ يقول :

ألستم مزيلي دولة الكفر من بني عبيد بمصر إنَّ هذا هو الفضل
زنادقةٌ شيعيّةٌ باطنيةٌ مجوسٌ وما في الصالحين لهم أصل
يسرّون كفرًا يظهرون تشيُّعًا ليستتروا شيئًا وعَمَّهُمُ الجهل (٢)

وبعد زوال الدولة الفاطمية تسلم السلطان صلاح الدين القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس ، وكانت عظيمة الوصف ،واستولى على قصور الفاطميين (٣) .

* *** *

أما عن علاقة نور الدين بصلاح الدين ، فقد روى ابن الأثير وذكر أبو شامة نقلا عن ابن أبي طي أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين التي ابتدأت سنة سبع وستين وخمسمائة وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك ورجع صلاح الدين إلى مصر قبل أن يلتقي بنور الدين (٤) .

وأخذ عن ابن الأثير وابن أبي طي عدد من المؤرخين (٥) ، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تمحيص ، وغالوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم لاسباب الوحشة ونتائجها ، فوصفوا العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية ،ومن ذلك أن كل واحد منهما بات يخاف صاحبه ، وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين ويحبذ أن تظل منطقة الكرك فاصلا بينه وبين نور الدين ، ونور الدين فكر في أنه أخطأ في انفاذ اسد الدين وصلاح إلى مصر ، ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين . . . وما إلى ذلك (٦) .

---

(١) ديوان العماد ٣٧٦-٣٧٧ ، وكتاب الروضتين ١/ ٤٩٥-٤٩٦ .
(٢) بدائع الزهور ١/ ١٣٥ ، ولم يذكر القائل .
(٣) انظر خطط المقريزي ١/ ٤٩٦ .
(٤) انظر التفصيل في أسباب الوحشة في الكامل ١١/ ٣٧١-٣٧٣ ، ٣٩٢-٣٩٣ ، والباهر / ١٥٨-١٥٩ ، والروضتين ١/ ٥١٨-٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٥٨١-٥٨٥ .
(٥) انظر زبدة الحلب ٢/ ٣٣٥-٣٣٦ ،والسلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٤٨-٤٩ .
(٦) انظر أدب الحروب الصليبية/ ٤٩ ،وموسوعة التاريخ الاسلامي / ١٧٤ ،١٧٧ وخطط الشام ٢/ ٤١-٤٢ ،ونورالدين (إليسيف) ٢/ ٦٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأرى أنه من المستبعد أن تكون هناك وحشة تؤدي إلى علاقة عدائية بين نور الدين وصلاح الدين ، فتفسيرات ابن أبي طي فيها كثير من التحامل على نور الدين وعلاقته بصلاح الدين ، بسبب تشيعه ، ولأن نور الدين أذلّ الشيعة وأبطل شعارهم (١) .

ويروي لنا ابن الأثير أن نور الدين اختار أسد الدين وصلاح الدين دون غيرهما ، وألح عليهما في الذهاب إلى مصر (٢) .

وأرسل نور الدين تقليداً لصلاح الدين واستقر مستوليا على مصر ، نيابة عن نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلّها (٣) .

وكان صلاح الدين يجهز الأموال والهدايا ويرسلها إلى نور الدين في الشام (٤) .

والعماد الأصفهاني الذي كان على صلة وثيقة بنور الدين وصلاح الدين يقول : "كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ويعمل له عمل القوى الأمين ، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين "(٥)

وكتب العماد إلى صلاح الدين قصيدة مدحه فيها ، وذكر أنه المعاضد والمؤازر لنور الدين ، قال منها :

واسلم لنور الدين سلطان الورى في الحادثات معاضداً ومؤازرا (٦)

ويقول أبو شامة بأنه وقف على كتاب " بخط نور الدين يشكر فيه صلاح الدين ، وذلك يتعارض مع ما قاله ابن أبي طي ، وقد كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو بحلب ليوليه قضاء مصر ، ومما قال فيه : " وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى لي حجة ، تصل أنت وولدك عندي حتى أسيّركم إلى مصر والسلام ، بموافقة صاحبي صلاح الدين وفقه الله ، فأنا أشكره كثيرا كثيرا ، جزاه الله خيراً وأبقاه ، فغي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم ، ومنفعة لأهل الاسلام "(٧) .

---

(١) انظر الروضتين ١/ ٤٤١ ، والكواكب الدرية/ ١٨١-١٨٢ ، وصلاح الدين الأيوبي / ١٨٨ .
(٢) انظر الباهر / ١٤١ ، والروضتين ١/ ٣٩٤ .
(٣) الباهر/ ١٤٢ ، وبدائع الزهور ١/ ٢٣٧ ، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٥٥ .
(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك/ ٥٠ ، ٥٤ ، وزبدة الحلب ٢/ ٣٣٨-٣٣٩ ، والكواكب الدرية / ٢١٦ .
(٥) سنا البرق الشامي ١/ ١٤١ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥٠٣ .
(٦) ديوان العماد / ١٥٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٩ .
(٧) انظر الكتاب في الروضتين ١/ ٤٤٢-٤٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأورد أبو شامة كتابًا آخر ظهر فيه ولاء صلاح الدين لنور الدين، أرسله صلاح الدين إلى نور الدين، من إنشاء القاضي الفاضل، وكان صلاح الدين قد نزل على الكرك والشوبك وغيرها من الحصون، فهرح فيها وخرب عماراتها، وأغارت سراياه على أعمالها، ونصّ الكتاب: "سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أعز الله سلطانه، ومدّ أبدا إحسانه، ومكن بالنصر امكانه، وشيّد بالتأييد مكانه، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه. علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ويقلل أسلحتهم ويقطع موادهم ويخرب بلادهم... الخ"(١).

ولقد كانت علاقة صلاح الدين بنور الدين حسنة، ولا سيما بعد تنفيذ صلاح الدين أوامر نور الدين بقطع الخطبة الفاطمية.

وعندما اعتذر صلاح الدين وعاد عن الكرك إلى مصر، كان يدرك ما يمكن أن يحدث في مصر، ولم تكن عودته هروبًا من واجبه أو خوفًا من لقاء نور الدين، ففي "رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة قصد جماعة من أعيان المصريين الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، ولكنه علم بهم وصلبهم عن آخرهم"(٢)

وقد كتب القاضي الفاضل كتابًا مطوّلاً إلى نور الدين، يشرح فيه قضية المصلّبين، ومنه: "لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم أنّهم أعداء، وإن تعددت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام، وكان لا يحتقر منهم حقيرًا ولا يستبعد منهم شرًا كبيرًا، وعيونه لمقاصدهم موكلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة، لا تخلو سنة تمرّ، ولا شهر يكرّ من مكر يجتمعون عليه وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها ومكيدة يتممونها، وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج - خذلهم الله تعالى - التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، ويحطونهم فيها على العظائم والفظائع... الخ"(٣).

---

(١) انظر الكتاب في الروضتين ١/٥٢٦ - ٥٢٧.
(٢) المختصر في أخبار البشر ٥/٧٤.
(٣) انظر الكتاب في الروضتين ١/٥٦٢-٥٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي كل الأحوال لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء ولا سوّغ لاعتبار الاختلاف في الرأي وحشة ونفرة كما يقرر ذلك عدد من المؤرخين والكتاب ، وكل ما هنالك أنّ نور الدين كان يتطلع إلى مصر على أنها مصدر للواردات يمدّ بها نفقات الجهاد ضد الصليبيين في الشام ،وأنها مصدر للطاقة البشرية المقاتلة .

وكان صلاح الدين أكثر معرفة من نور الدين لما يجري في مصر من أخطار ناجمة عن استعداد أنصار الفاطميين للانضمام الى الفرنج ، فوجه اهتمامه إلى بناء جيش جديد على درجة من القوة ، بحيث يستطيع السيطرة على مصر ، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام(١) .

وهذا يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذي بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك ،حيث قال : " حفظ مصر أهم عندنا من غيرها"(٢) .

وعندما بلغ صلاح الدين خبر وفاة نور الدين ، أرسل كتاباً إلى الشام من إنشاء القاضي الفاضل ، أظهر فيه مدى تأثره واهتمامه لدى سماعه الخبر ،وإيمانه بقضاء الله وقدره ،وحرصه على وحدة المسلمين للوقوف في وجه العدو الصليبي ، وبين استعداده للوقوف إلى جانب الملك الصالح اسماعيل ولد نور الدين ،ومناصرته إكراما لوالده ،ومنه : " ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين ، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه ،ونور بعافيته القلوب والوجوه ، فاشتد به الأمر ،وضاق به الصدر ،وانقصم بحادثه الظهر ،وعز فيه التثبت ،وأعوز الصبر ، فإن كان والعياذ بالله قد تم ،وخصه الحكم الذي عم ،فللحوادث تدخر النصال ، وللأيام تصطنع الرجال ،وما رتب الملوك ممالكها إلاّ لأولادها ، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلاّ لتؤدي حقّها يوم حصادها . فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي ،فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها ،وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها ،إلى أن أعطت قيادها ، فكونوا يداً واحدة ، واعضاداً متساعدة ،وقلوبا يجمعها الود ،وسيوفا يضمها غمد ،ولا تختلفوا فتتكلوا ،ولا تتنازعوا فتفشلوا ، وقوموا على أشاط الأرجل ،ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل ، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان ،والكفر مجتمع

---

(١) انظر صلاح الدين الأيوبي / ١٢١ ، وسياسة صلاح الدين / ١١٥-١١٦ .

(٢) انظر الكامل ١١/٣٩٣ ، وزبدة الحلب ٢/٣٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الإيمان ،ولهذا البيت منا ناصر . . . فنحن لهذا الولد يد على من ناواه ، وسيف على من عاداه ،وان أسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب والنذر الذى يحل على الأيدي والقلوب "(١) .

* * *

أما علاقة نور الدين بالخلفاء العباسيين ، فكانت قائمة على التواصل والمودة ، والخلفاء راضون عنه لجهاده الكفر ،وإقامته الشرع ،ونصرة السنة والقضاء على الشيعة ، " وكان نور الدين يستمد سلطته من الخليفة العباسي في بغداد ،ويحرص على ذلك ،على الرغم من استقلاله في دولته"(٢) .

ولم ينقطع التواصل بين نور الدين والخليفة العباسي ، وكان كل منهما يصل الآخر بالكتب والبشائر والهدايا ، وقد أشاد الأدباء بهذه العلاقة ، وأثنوا على نور الدين والخليفة العباسي ، ففي سنة ست وأربعين وخمسمائة وصلت الخلع إلى نور الدين من بغداد من عند الخليفة على يد الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون ، فكتب أحمد بن منير إلى نور الدين يهنئه بوصول الخلع قصيدة ، منها :

وكساكَ من رأي الخليفةِ جُبَّةً ... لا النّقص يُوهيها ولا التّقْليلُ
وبرزْتَ في لبس الخلافةِ كالهلا ... لِ جلاهُ في حُلَلِ الدُّجا التهليلُ
خِلَعٌ خَلَعْنَ على القلوبِ مسرةً ... سَدكاتُها التعظيمُ والتبجيلُ (٣)

وكان نور الدين يظهر الطاعة والولاء للخليفة العباسي ،فمن قصيدة للعماد الأصفهاني على لسان نور الدين ،سيّرت إلى بغداد ،يقول :

من ذا الذي سار سيري في ولائكُمُ ... غداة قال العدا : لا سير عند عصا
قد نال عبدك محمودٌ بها ظَفَرًا ... مازال يرقبُهُ من قبل مرتبصا (٤)
من هول سطوته أنَّ العدوّ إذا ... أمّ الثغور على أعقابه نكصا (٥)

---

(١) انظر الكتاب في الروضتين ١/ ٥٨٧ .
(٢) انظر أدب الدول المتتابعة /٣٣ .
(٣) ديوان ابن منير /٢٣٩ ،وشعر ابن منير /١٤٩-١٥١ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢١٠-٢١٢ .
سدكاتها : اللازم لها (سدك الشيء سدكا : لزمه ،وسدك به كفرح سدكا بسكون الدال وفتحها ، والسدك : المولع بالشيء أو الملازم (انظر لسان العرب ، مادة سدك ،وأساس البلاغة / ٢٩٠) .
(٤) مرتبصا : انتظر به خيرًا أو شرًا يحل به كتربص (لسان العرب ،مادة : ربص) .
(٥) ديوان العماد /٢٥٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعثت كتب التهاني إلى بغداد لأبي محمد المستضيء بأمر الله بولايته بعد وفاة المستنجد بالله ، منها هذه الأبيات التي نظمها العماد يمدح بها المستضيء ويهنيء أهل بغداد بولايته ،يقول :

قد أضاء الزمان بالمستضيء وارث البُرد وابن عمّ النبيّ
جاء بالعدل والشريعة والحقّ فحيا مرحبًا بهذا المجيّ
فهنيئًا لأهل بغداد فازوا بعد بؤس بكل عيش هنيّ (١)

وقلد الخليفة العباسي نور الدين السيفين إشارة إلى الجمع له بين مصر والشام (٢) .

وفي سنة ثمان وستين أرسل نورالدين رسولاً إلى الخليفة ، وكان الرسول القاضي كمال الدين الشهرزوري قاضي بلاده جميعها ، أرسله يطلب تقليدًا بما بيده من البلاد : مصر والشام والجزيرة والموصل ، وبما في طاعته كديار بكر وما يجاورها ، فأكرم كمال الدين وأجيب إلى ما التمسه (٣) .

وعندما كسر المسلمون الروم وساقوا الأسرى إلى نور الدين ،أرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد (٤) .

وسير العماد معه قصيدة أثنى فيها على الخليفة العباسي ، فهو الحافظ للسنة ،والأمين على الشرع والعباد ،وقد خطب له في كل البلاد التي يحكمها نور الدين ،يقول منها :

بالمستضيء أبي محمدٍ الحسَنْ رَجَعَتْ أمورُ المسلمين الى السَّنَنْ
فالمغرب الأقصى بذلك مشرقٌ وبنصر مصر محققٌ يُمْنَ اليمنْ
ورأى الإلهُ المستضيءَ لِشَرْعِهِ وعبادِهِ نعمَ الأمينُ المؤْتَمَنْ
سرّ النبوة كامنٌ فيه ومِنْ فِطَرِ الإمامةِ مشرقٌ نورُ الفِطَنْ

ومنها في مدح نور الدين إذ يقول :

هل مثل محمود بن زنكي مخلص متوحّد يبغي رضاك بكلّ فنّ (٥)

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة ،عندما ملك شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين اليمن ،كتب الملك الناصر بذلك إلى نور الدين ، فأرسل نور الدين إلى الخليفة من يبشره بفتح اليمن والخطبة بها ،وبكسر الروم مرة ثانية (٦) .

---

(١) ديوان العماد ٦٤-٦٥ ،وسنا البرق الشامي ١/ ١٠٢-١٠٣ .
(٢) الكواكب الدرية/ ٣ ٢٠٣-٢٠٤ .
(٣) الكامل ١١/ ٣٩٥ .
(٤) سنا البرق الشامي ١/ ١٣٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٤٧ .
(٥) ديوان العماد / ٤٢٠-٤٢١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٤٨- ٥٤٩ .
(٦) المصدر نفسه ١/ ٥٥٦ ،والكواكب الدرية /٣ ٢٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستطاع نور الدين بعلاقته الطيبة مع الخليفة العباسي أن يستقطب عواطف المسلمين ، وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى جمع شمل المسلمين للوقوف في وجه الصليبيين ،واسترداد الأرض الاسلامية .

* *** *

أما علاقة نور الدين بالفرنج فقد كانت قائمة على العداء المستمر ، وقد وضع نور الدين أمامه هدفاً وهو طرد الفرنج من البلاد الاسلامية كافة وتطهيرها منهم ،وكان هذا الهدف أمل الأدباء ،فهذا ابن القيسراني ينشد نور الدين قصيدة منها :

غضبت للدين حتى لم يُغْتَكَ رضى
وكان دين الهدى مرضاتُهُ الغضبُ
طهّرت أرض الأعادي من دمائهمُ
طهارةً كلّ سيفٍ عندها جُنُبُ (١)

وكان الفرنج لا يحفظون عهدا ولا ذمة ، والغدر من صفاتهم ، ففي شوال من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة تقررت الموادعة والمهادنة بين نور الدين وملك الفرنج مدة سنة كاملة ،وتأكدت بالأيمان والمواثيق المشدّدة ، ولكن الفرنج غدروا في ذي الحجة ونقضوا ما كان استقر من المهادنة بينهم وبين نور الدين ،فقد اعتدوا على ناحية مجاورة لبانياس واستاقوا ما وجدوه ، وأفقروا أهله منه ،مع من أسروه من تركمان وغيرهم (٢) .

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة " خرج مركبان من مصر إلى الشام ، فأرسيا بمدينة اللاذقية ،فأخذهما الفرنج وهما مملوءان بالأمتعة والتجار ، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة ،فنكثوا وغدروا ،مما جعل نور الدين يجمع العساكر ،ويذهب إلى بلادهم ويرغمهم على ردّهما" (٣)

وقد كشف الأدباء عن خداع الفرنج وطغيانهم وغدرهم ،فقال ابن القيسراني من قصيدة له خاطب بها نور الدين عندما استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات سنة أربع وأربعين وخمسمائة :

وأرى صياحَ القُمّصِ(٤) كان خديعةً
فطفى وجار وليس ثمّ وجارُ(٥)
أمضى السّلاحُ على عدوّك بغيُهُ
بالغدر يطعن في الوغى الغدارُ
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفلٍ
كالليلِ فيه من الصفيح نهارُ(٦)

---

(١) الروضتين ١/ ١٥٣ ،وأعلام النبلاء ٢/ ١٣ .
(٢) انظر ذيل تاريخ دمشق/ ٣٣٦ ،والروضتين ١/ ٢٥٩ ،ونور الدين (إليسيف) ٢/ ٥٠٤ .
(٣) الكامل ١١/ ٣٧٣- ٣٧٤ .
(٤) القُمّص: تعريب للفظة اللاتينية (Comes) أي الأمير أو الرفيق ،انظر : Dozy, Supp. Dict. Ar, Tome II, P, 405.
(٥) وجار: وجر: طعن بالرمح (لسان العرب: وجر) .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ١٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصور ابن منير الطرابلسي أسر نور الدين جوسلين (١) بقوله :

لا يَخْدَعَنْكَ فإنّما إصلاح مَـنْ يُخشَى انتشاط خناقه افسادُهُ
أنزلْهُ حيثُ قضتْ لهُ غَدَراتُـهُ وأحلّهُ طغيانه وعنـادُهُ (٢)

وعندما هزم نور الدين الفرنج على الملاّحة بين طبريا وبانياس سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ،نظم أحد الشعراء أبياتاً بين فيها نقض الفرنج للهدنة وبغيهم ،منها :

نقضوا هدنة الصّلاح بجهل بعد تأكيدها بحُسْن الوفاءِ
فلقوا بغيهمْ بما كان منهمْ من فسادٍ بجهلهمْ واعتداءِ
لا حمى الله شملهمْ من شتاتٍ بمواضٍ تفوق حدّ المضاءِ (٣)

وذكر ابن أسعد الموصلي مكر الفرنج وخداعهم في قصيدة مدح فيها نور الدين ،إذ يقول :

بني الأصافر ما نلتم بمكركُمُ والمكر في كل إنسان أخو الغشل (٤)

وعندما توفي نور الدين ، في شوال سنة تسع وستين وخمسمائة (٥) ، خسرت الأمة الاسلامية أعظم قادتها السياسيين في ذلك الوقت ، فقد استطاع أن يقيم دولة إسلامية واسعة ،امتدت من شمال الشام وحتى الموصل وديار الجزيرة ، ومصر واليمن في ظروف استثنائية خطيرة ، واستطاع أن يقف أمام طموحات الأعداء ويحطمها .

وقد حزن عليه المسلمون ،لأنهم كانوا يأملون أن يحرر بيت المقدس الذي كان يشكل محور الصراع .

ويذكر العماد الأصفهاني أن الموازين قد انقلبت ،واختلّت الأشياء لغياب نور الدين ، فمات البأس ودب اليأس في النفوس ،وانحسر الخير ، وزاد الشر ،وكاد الكفر يعلو على الدين ،فقال في رثائه :

ولما غاب نور الدي ـن عنّا أظلم الحفلُ
وزال الخِصبُ والخيـر وزاد الشرُّ والمحلُ
ومات البأسُ والجـودُ وعاش اليأسُ والبخلُ
وكاد الدّين ينحـط وكاد الكفر أن يعلـو (٦)

---

(١) Joscelin ،انظر نور الدين (إليسيف) /٤٥٣ .
كونت الرها ، أسره بعض المغامرين التركمان ،عندما ابتعد عن حرسه ، ثم أخذه منهم نور الدين ،وألقاه في السجن إلى أن مات ،وذلك سنة ست وأربعين وخمسمائة. (انظر قصة أسره في : الكامل ١١/ ١٥٤-١٥٥ ، وتاريخ الحروب الصليبية ٢/ ٥٢٧-٥٢٨) .

(٢) ديوان ابن منير/ ٢٢٦ ،وشعرابن منير/ ٨٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٩٢ .

(٣) وردت الأبيات في ذيل تاريخ دمشق/ ٣٤٢ ،والروضتين ١/ ٢٧٢-٢٧٣ ، دون ذكر القائل .

(٤) ديوان ابن الدهان/ ٧٢ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٢١ .

(٥) كتاب الروضتين ١/ ٥٨٣ .

(٦) ديوان العماد/ ٣٣٦-٣٣٧ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٧٠ ،وسنا البرق الشامي ١/ ١٥٩- ١٦٠ ،وكتاب الروضتين ٢/ ٥٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتولى السلطنة بعد نور الدين ابنه الملك الصالح اسماعيل ،وكان صغيرا لم يتجاوز الحادية عشرة ، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق ،وأقام بهـا ، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام ،وصلاح الدين بمصر ،وخطب له بها ،وضربت السكة باسمه فيها ، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم ، وصار مدبر دولته (١) .

* * *

وأما موقف صلاح الدين بعد وفاة نور الدين ، فقد كان سليما ، ورأى أن عليه مسؤولية الحفاظ على ملك نور الدين ،وجمع شمل المسلمين من جديد .ظهر ذلك من خلال مكاتباته للملك الصالح اسماعيل وأمراء الشام .

فعند ما توفي نور الدين أرسل كتبًا للتعزية يبين فيها مدى حزنه وألمه لوفاة سيده ، وأظهر فيها ولاءه للملك الصالح ،وأنه سيف على من عاداه ، وحث فيها أمراء الشام على أن يكونوا يدًا واحدةً ولا يتنازعوا فيما بينهم ،وقال لهم إن العدوّ محدقٌ بهم من كل مكان ،والكفر مجتمع على الإيمان (٢) .

ورد عليه الملك الصالح بكتاب بين فيه مـدى ثقته به ،وأن والـده نور الدين كان يعتمد عليه في السّنوائب ،ورجاه لنفسه ولولده ، وأعده لحسم أدواء المعضـلات .

وتعهد بقتال الأعداء ،وخدمة المسلمين وجمع كلمتهم (٣) أما الأمراء الذين بدمشق فلم يمكنوا الملك الصالح من المسير إلى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية ، الذى كان أكبر الامراء النورية (٤) .

واختلف الأمراء بعد ذلك وتنافسوا فيما بينهم لاختلاف آرائهم ،مـا أفسح المجال للتدخل الخارجي من كل جانب(٥) ، فقد ملك سيـف الدين غازي البلاد الجزرية إلى الفرات ، وحاول عبوره والاتجاه إلى حلب(٦) .

وقصد الفرنج بانياس ، وعزموا على قصد دمشق وانتزاعها من أيـدي المسلمين ، فبرز لهم ابن المقدم وواقعهم عند بانياس وضعف عن مقاومتهم ، وخوّفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين من مصر ، وهادنهم ودفع إليهم أموالاً (٧) .

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري قد أشار على الأمير شمس الدين ابن المقدم وعلى جماعة الأمراء بالانقياد إلى صلاح الدين والرجوع إلى مـا يشير به وعدم إخراجه من بينهم ، فيخرج عن طاعتهم ،وهو أقوى منهـم

---

(١) انظر الباهر/ ١٦٢ ،والكامل ١١/ ٤٠٥ ،ومفرج الكروب٢/ ١-٢ .

(٢) انظر الكتب في الروضتين ١/ ٥٨٦-٥٨٨ ،ومفرج الكروب ٢/ ٤٨٠-٤٨٣ ، وصبح الاعشى ٧/ ٢٩ .

(٣) انظر الكتاب في الروضتين ١/ ٥٨٨ .

(٤) كتاب الروضتين ١/ ٥٩٠ ،وشمس الدين : أخو مجد الدين بن الدايـة رضيع نور الدين .

(٥) مفرج الكروب ٢/ ٢٨ .

(٦) مفرج الكروب ٢/ ٧ ،كتاب الروضتين ١/ ٥٩٠ ،والكواكب الدرية/ ٢٢٩ .

(٧) انظر كتاب الروضتين ١/ ٥٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لانفراده بملك مصر ، فلم يوافق هذا القول أغراضهم ، وخافوا من دخول صلاح الدين البلاد واخراجهم منها (١) . ولما علم صلاح الدين بتفرق كلمة الأمراء ، كتب إلى ابن المقدم أنه "لا يؤثر للاسلام وأهله الا ما يجمع شملهم ويؤلف كلمتهم ، وللبيت الأتابكي إلا ما يحفظ أصله وفرعه ، ويدفع ضره ويجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر الأعداء" (٢) .

وأنكر عليهم ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة (٣) . ولما بلغه ما فعله سيف الدين غازي كتب إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري والأمراء يقول : "لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري ، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأقابل كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده" (٤) .

ولما اتصل خبر الهدنة التي عقدها ابن المقدم مع الفرنج بصلاح الدين ، استصغر أمر أمراء الشام وعلم ضعفهم ، فراسل ابن المقدم وغيره من الأمراء ، وأنكر عليهم ذلك ووبّخهم ، وذكر أن بلاد المسلمين واحدة ، وعدوها واحد ، ولا يجوز أن يصرف مال المسلمين في غير وجهه (٥) .

وقال صلاح الدين : "أنا أحق بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم ، تفرقت الكلمة وطمعت الكفار في البلاد" (٦) .

وفي سنة سبعين وخمسمائة توجه صلاح الدين الى الشام ، وملك دمشق وحمص وحماة ، وحاصر حلب ، وسبب ذلك هو استبداد سعد الدين كمشتكين في حلب ، فقد قبض على شمس الدين بن الداية أمير حلب ، واستبد بتدبير الملك الصالح ، فخافه الأمراء بدمشق ومنهم ابن المقدم ، وكاتبوا صلاح الدين ليملكوه دمشق ، فأقبل اليهم على الفور وسلموه إياها دون أدنى مشقة (٧) .

وبعد وفاة نور الدين رأى العماد الأصفهاني حال المسلمين وتفرق أمرائهم ، فبث حزنه وآلامه بسبب المصيبة التي حلت بالمسلمين ، بعد نور الدين ، في قصيدة طويلة ، وقد صور العماد الأصفهاني الدين وقد أظلم بعد ضيائه ، والدهر وقد حزن لفقد أميره نور الدين ، يقول :

---

(١) انظر مفرج الكروب ٢/٣ ، ٢/٥٨٩ .
(٢) انظر الكتاب في سنا البرق الشامي ١/١٦٨-١٦٩ ، ومفرج الكروب ٢/ ١٧-١٨ ، والروضتين ١/٥٩٧-٥٩٨ .
(٣) سنا البرق الشامي ١/١٦٨ .
(٤) انظر الكتاب في مفرج الكروب ٢/٧ ، والروضتين ١/٥٩٠ ، وزبدة الحلب ٣/١٣ .
(٥) انظر الكتاب في الروضتين ١/٥٩٤-٥٩٥ .
(٦) مفرج الكروب ٢/١٧ .
(٧) انظر خطط المقريزي ٣/٨٥ ، نهر الذهب ٣/٩٨-٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدين في ظُلم لغيبة نوره والدهر في غمّ لفقد أميره

وتحدث الشاعر عن الفراغ الكبير الذي تركه نور الدين في حياة المسلمين فمن الذي ينصر الاسلام ، ويدافع عن المسلمين ، ومن الذي سيجاهد الافرنج ويغزوهم ؟ كل ذلك ارتبط بالقائد الذي غاب عن الساحة :

من ينصر الإسلام في غزواته فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها من للهدى يبغي فكاك أسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولاً أبكارها برواحه في غزوه وبكوره

وعدد الشاعر مناقب نور الدين ، فهو الذي أحيا الشريعة ، وهو الذي تولى مقارعة الأعداء وأسر قادتهم ، وعلى يديه فتحت الحصون والقلاع :

أنت الذي أحييتَ شرع محمدٍ وقضيت بعدَ وفاته بنشوره
كم قد أمرت بحفرِ خندقِ معقلٍ حتى سكنت اللّحد في محفوره
كم قيصر للروم رمتَ بقسره إرواء بيض الهند من تامور (١)
أوتيت فتح حصونه وملكت عُقْـ ـر بلاده وسبيت أهل قصوره

ويرى الشاعر أن الأمور تغيّرت بوفاة نور الدين ، فمن الذي سيحرر القدس من بعده :

أوما وعدت القدسَ أنّك منجزٌ ميعادَهُ في فَتْحه وظهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدا وتقدّس الرحمن في تطهيره

ويبين أن وفاة نور الدين كانت مصيبة ألمّت بجماعة المسلمين :

من للكريم ومن لنعش عثاره من لليتيم ومن لجبر كسيره
لهفي على تلك الأنامل إنها مذ غُيّبَتْ غاضَ الندى ببحوره

ويطلب الشاعر من حاملي نعش نور الدين التمهل في المسير ، فملائكة السماء نزلت لدفنه ، ثم يدعو له بحسن المقام في الآخرة ، وأن تكون له جنة نعيم :

يا حاملين سريره مهلاً فمن عجب نهوضكمُ بحمل ثبيره (٢)
نزلت ملائكة السماء لدفنه ستجمعين على شفير حفيره
حياك معتلّ الصبا بنسيمه وسقاك منهلّ الحيا بدروره
وسكنتَ عليّين في فردوسه حلّفَ السرّةِ ظافرًا بأجوره (٣)

---

(١) تامور : دمه (لسان العرب ، مادة : تمر) .
(٢) ثبير : شيء ثقيل (جبل) (لسان العرب ، مادة : ثبر) .
(٣) انظر القصيدة في ديوان العماد / ٢١٢-٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المبحث الثالث)

العسكري

رافق نور الدين والده عماد الدين زنكي في معظم عملياته العسكرية ، وكان يتمتع خلال الفترة التي عاشها مع الجيش بهيبة ووقار (١) . ونور الدين قائد عسكري نذر نفسه لرسالة سامية ، وآثر مصلحة أمته على مصالحه الخاصة .

واندفع نور الدين إلى ميدان المعركة " من منطلق الإيمان بالاسلام عقيدة ومجداً وكياناً لا يغلب ، وهذه الفكرة جعلته يلتزم بقضايا أمته التي هي قضاياه التزاماً يدفعه إلى الاستشهاد "(٢) .

وقد صوره الأدب بصورة القائد الذي اجتمعت فيه صفات البطولة والقيادة في أسمى درجاتها .

وأبرز الأدب صفات نور الدين القائد العسكري ، فتجده صاحب نفس شجاعة تتحدى الأعداء ، وصاحب حمية ونجدة وهيبة ، وقوة جسدية تصبر على احتمال النوائب، فالسيوف تستمد من عزمه مضاءها ، وهو في الحرب شهاب الكتيبة ، وله هيبة أمام جيوشه ، قال ابن القيسراني من قصيده له فيه :

عجب الناسُ منك أنّك في الحر ب شهاب الكتيبة الشهباءُ
وكأنّ السيوفَ من عزمك المـا ضي أفادت ما عندها من مضاءِ (٣)

وله فيه :

لله عزمك أي سيف وغى طبعت مضاربه على القهر
ملكٌ مهابتُهُ طليعتُهُ أبداً أمامَ جيوشهِ تَسْري (٤)

وقال فيه ابن قسيم الحموي :

بِعَزْمِكَ أيُّها الملكُ العظيم تذلّ لكَ الصِّعابُ وتستقيمُ (٥)

ونور الدين صاحب تجربة حربية ، وهو عند ابن منير أسد يفترس الفوارس في ميدان القتال ، يقول فيه :

نبذوا السلاح لضيغمٍ عاداتهُ فَرْسُ الفوارس والقنا غاباتهُ (٦)

---

(١) انظر نور الدين (السيف) ٢/ ٣٨٩ .
(٢) انظر معارك نور الدين/ ١٣٠ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٤٦ ، والكواكب الدرية / ٧٦ .
(٤) نفسه ١/ ٤٦ .
(٥) التاريخ الباهر / ٥٦ ، وكتاب الروضتين ١/ ٨٢ .
(٦) ديوان ابن منير/ ٢١٠ ، وشعر ابن منير/ ٥٢ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونور الدين كثير الغزو للأعداء ، مدحه ابن منير قائلاً :

أخو غزواتٍ كالعقود تناسقت تحلّ بأجياد الجياد وتعقد (١)

وهو يأسر الملوك ويضعهم في القيود ، يقول ابن منير ايضاً :

حَبَيْتَ مليكَهُمُ في الصَّفاد وعَفْوُكَ عنه أعمّ الصَّفدْ (٢)

وأما ابن القيسراني فقد رسم لنا صورة رائعة لفعل نور الدين بالأعداء ، فهو يحصد رؤوسهم حصداً ويقتلهم صبراً ، ويرسم صورة ساخرة لمقتل (الابرنز) فقد جعل رأسه فوق سنان الرمح وكأنه وسادة له ، يقول :

وان تتلُ الغوافي ما تلتــه بانكّب ما يؤنّبها سنــــادُ
جرت بالنصر أقلام العوالي وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أرؤس الأعلاج خصباً فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبراً ولا طعنٌ هناك ولا طرادُ
وللإبرنز فوق الرمح رأسٌ توسّدُ والسّنان له وساد (٣)

ونور الدين متفوق في المعركة بقواته العسكرية وبرأيه وخططه ، قال فيه ابن منير :

مظفر الرّايات والرأى إذا الـ حربُ مشتّ تعثُرُ في خطامها (٤)

وله فيه من قصيدة أخرى :

أبداً تباشر وجه غزوك ضاحكاً وتؤوب منه مؤيّداً منصورا (٥)

وبعزيمة نور الدين تفتح البلدان ، وبه تكون الثغور سدوداً منيعة في وجه الأعداء ، يقول ابن القيسراني :

فكل مصرٍ بك مستفتحٌ وكلّ ثغرٍ بك مسدودُ (٦)

---

(١) ديوان ابن منير/ ١٨٩ ، وشعر ابن منير/ ٦١ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥٢ .
(٢) ديوان ابن منير/ ١٨٨ ، وشعر ابن منير / ٨٠ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥١ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ١٤٦ ، وسناد : المخالفة بين الحركات التي تلي الأرداف في الروي مثل (منا ، وبنا) (لسان العرب مادة : سند) والنجيع : الدم المصبوب (لسان العرب ، مادة : نجع) . القتل صبراً : ينصب الإنسان ليقتل (لسان العرب ، مادة : صبر) .
(٤) ديوان ابن منير/ ٢٣٥ ، وشعر ابن منير/ ١٧٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٠٤ .
(٥) ديوان ابن منير/ ٢٤٤ ، وشعر ابن منير/ ٩٧ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢١٦ .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ١٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتوالت فتوح نور الدين حتى أصبح بيده الأمر والنهي في المشرق والمغرب، قال ابن منير في مدحه :

وتوالت لك الفتوح إلى أنْ تملأ الخافقين نَهْيًا وأمرا (١)

وأنشده العماد الأصفهاني بقلعة جعبر قوله :

كم بكر فتحٍ ولّدته ظباك من حربٍ لقمع المشركين عوان (٢)

وقد قام نور الدين بعد استشهاد والده بمهمة مقارعة الصليبيين ومنع توسعهم ، وفي سبيل ذلك خاض نور الدين العديد من المعارك ،وقد سجل لنا الأدب هذه المعارك ،وأبرز لنا البطولة المتألقة لنور الدين القائد العسكري الفذ ، وركز على الفتوح والانتصارات ، وتحدث عن فعل المسلمين بالأعداء ، وذكر في بعض القصائد من حضر منهم هذه المعارك وما لاقى فيها من ويلات(٣) .

وقد حاولت استقصاء هذه المعارك - ما استطعت - من خلال النصوص الأدبية ،وذلك بحسب التسلسل الزمني ، وأوردت ما يسندها من روايات تاريخية ، وقد أثرت هذه المعارك في الشعراء ، فقالوا الشعر ، وكان الشعر مصاحبا لها .

ففي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ،طمع ابن جوسلين (٤) باستعادة الرّها ، فراسل أهلها من نصرانيي الأرمن ، حتى دخلها واستولى عليها ، وقتل من بها من المسلمين ، فنهض إليه نور الدين من حلب في حوالي عشرة آلاف فارس ،ودخل المدينة وقتل كثيرا من الفرنج ،وفرّ ابن جوسلين هاربًا تحت جنح الظلام (٥) .

وقد بين ابن منير من خلال مدحه لنور الدين أهمية هذا الفتح ،وهذه السنة التي سار فيها نور الدين على نهج والده ، وبين الأهمية العسكرية لموقع الرها ، واعتبر فتحها نقطة انطلاق لفتوحات أخرى في الشام والعراق ، إذ يقول :

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢٦٨ ،وشعر ابن منير/ ١٠١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٧٨ .
(٢) ديوان العماد / ٤١١ ، والخريدة قسم الشام ١/ ٥٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٩ ،والحرب العوان : الحرب المتردة (لسان العرب مادة :عون).
(٣) انظر المصدر نفسه ١/ ٥٩ .
(٤) (Joscelin) (انظر نور الدين (إليسيف) /٣ ٤٥٣ .
(٥) انظر الكامل ١١٤/٠٠ ،وذيل تاريخ دمشق / ٢٨٨ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٢٥ ، ونهر الذهب ٣/ ٩٠-٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكَ ما أذلَّ بالفتح أرضًا قطُّ إلا أعزّها إغلاقُهْ
والوها في الرُّهاءِ أزجى إليها عارضًا شيَّبَ الدُّجى إبراقُهْ
تلك بكر الفتوح فالشام منها شامُهُ والعراق بعدُ عراقُهْ
سنّة سنّها أبوه بكلب البرّ وم لمّا أظلّه إرهاقُهْ (١)

وقال أيضا :

ولم تمش رهْوًا لنصر الرّها ومثلك أدرك لمّا عزمْ (٢)

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، توجه نور الدين نحو صَرْخد (٣) ، وأخذها من الفرنج بالأمان (٤) .

وذكر ابن منير صرخد في شعره فقال في مدحه لنور الدين :

رد تهم على بصرى (٥) وصَرْخدَ خيلهُ
وقد أبصرتْ بصرى ردا ها وصرخدُ (٦)

وفي السنة نفسها فتح نور الدين (أرْتاح) (٧) بالسيف و (حصن بارة) (٨) و (بَسَرْفوث) (٩) و (كفر لاثا) (١٠) .

وقد سجل ابن منير هذه الوقائع ، وبين فعل نور الدين بالفرنج ، فقال :

وفي كفر لاثا وهاب (١١) حَلَلْـ ـت عقْد البرنس ببيض خذم
ويوم بَسَرْفودَ جَرَّعْتَهُمْ أجاجًا (١٢) أغصّهُمُ واصطلم (١٣)
وبارتُهُمْ أذّنت أنّها أبارتهُمُ ظيبوُا بذم
بَنوها وأعْوَا ولم يعلموا بما خطّ في اللّوح منك القلم (١٤)

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢٠٤ وشعر ابن منير /١٤٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٢٧ ، والوَها : الضعف والخرق (لسان العرب مادة : وهي) .

(٢) ديوان ابن منير/ ٢٥٩ ، وشعر ابن منير/ ١٧٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٤ ، ورهْوًا : سير سهل مستقيم (لسان العرب ، مادة : رها) .

(٣) صرخد : تقدم التعريف بها .

(٤) انظر الروضتين ١/ ١٣٠ .

(٥) بصرى : بالضم ، بالشام منه أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران (معجم البلدان ١/ ٤٤١) .

(٦) انظر ديوان ابن منير/ ٢٣٢ ، وشعر ابن منير/ ٦٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٩٩ .

(٧) أرْتاح : اسم حصن منيع ، كان من العواصم من أعمال حلب (معجم البلدان ١/ ١٤٠) .

(٨) البارة : بليدة وكورة من نواحي حلب ، وبها حصن ، وهي ذات بساتين (المصدر نفسه ١/ ٣٢٠) .

(٩) بسرفوث : حصن من أعمال حلب ، وقد خرب وهو الآن قرية (المصدر نفسه ١/ ٤٢٠) .

(١٠) كفرلاثا : قرية ذات جامع وسنير من نواحي حلب ذات بساتين ومياه جارية (مراصد الاطلاع ٣/ ١١٧١) .

(١١) هاب : قلعة عظيمة من العواصم (مراصد الاطلاع/ ١٤٤٨) .

(١٢) أجاجا : شديد الملوحة والمرارة (لسان العرب ، مادة أجج) .

(١٣) اصطلم القوم : أبيدوا من أصلهم (لسان العرب مادة : صلم) .

(١٤) ديوان ابن منير/ ٢٥٩ ، وشعر ابن منير/ ١٧٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسار نور الدين في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى بصرى ، وقد اجتمع بها الفرنج ،واشتد القتال بين الفريقين وانهزم الفرنج ،وأخذتهم سيوف المسلمين ، فكانوا بين قتيل وأسير ،وما سلم منهم إلا القليل . ، ويقول في ذلك ابن القيسراني يمدح نور الدين ، ويصور فعله بالاعداء ويبين نتائج المعركة :

وكم له من وقعة يومها عند ملوك الشرك مشهود
والقوم اما مرهقٌ صرعةٌ أو مُوْثَقٌ بالقيد مشدود(١)

ويقول ابن منير في المناسبة نفسها :

فتحٌ تعاقبه فتح ومُطلبٌ دانى المنال وملك ثابت راس (٢)
نصرًا ببُصْرى وصفحًا عن حماة لقد أحسنت للداء حسمًا أيُّها الآسي

واجتمع معين الدين ونور الدين وألف فارس من عسكر سيف الدين غازي وقصدوا حصن العريمة ، ونشبت الحرب بينهم وبين الفرنج وقتل أكثر من كان في الحصن ونهب الحصن ، وأسر ولد الملك (ألفنش) (٣) ، وأخذه نورالدين مع أمه الى حلب(٤) .

وذكر ابن منير حصن العريمة وأسر نور الدين لابن ملك الفرنج (ألفنش) ، وأخذ امه ،اذ يقول :

وفوق العريمة غشاهم عرام(٥) جيوشك سيل العرم(٦)
وأبْتَ بكلبهم في الكبول مباح الحريم مذال الحرم(٧) (٨)

وفي هذه السنة هزم نور الدين الفرنج بمكان اسمه يفرا (٩) من أرض الشام ، وأسر جماعة من مقدميهم ، وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ، وليغيروا عليها ، وأرسل نور الدين من الغنيمة والأسرى إلى أخيه سيف الدين غازي وإلى الخليفة ببغداد (١٠) .

---

(١) الباهر/ ٩٢ .
(٢) ديوان ابن منير/ ٢٥٨ ،وشعر ابن منير/ ١٣١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٣-٢٣٤ .
(٣) ابن الفنش: من أولاد ملوك الفرنج ،وألفنش: اسم أطلقه العرب على ألفونسو جوردان كونت تولوز(Alphonse Jourdain, Comte de Toulouse) ، كان مع ابن ألفنش حصن العريمة فحاصره المسلمون وملكوه سنة٥٤٣هـ ،وأخذوا كل من فيه وفيهم ابن ألفنش (الكامل ١١/ ١٣١-١٣٢ ، وتاريخ الحروب الصليبية ٢/ ٤٥٠) .
(٤) ذيل تاريخ دمشق/ ٣٠٠-٣٠١ ،والكامل ١١/ ١٣١ .
(٥) عرام جيوشك : كثرتها (لسان العرب ،مادة: عرم) .
(٦) سيل العرم: السيل الذي لا يطاق (المصدر نفسه ،مادة: عرم) .
(٧) مذال الحرم: مهان ومستخف به (المصدر نفسه ،مادة : ذيل) .
(٨) ديوان ابن منير/ ٢٥٩ ،وشعر ابن منير/ ١٧٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٤ .
(٩) يفرا :بين أنطاكية والثغور تجتمع اليها مياه العاصي (مراصد الاطلاع ١/ ١٦٨) .
(١٠) الكامل ١١/ ١٣٤ ،والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٣٠-٣١ ،ونهر الذهب ٣/ ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر ابن القيسراني يوم يغرا في إحدى قصائده وقد قرن به يوم إنّب(١) ، وبين أن أيام نور الدين متتابعة ،ويذكّر كل يوم باليوم الآخر ، يقول :

ما يومُ إنّبَ والأيامُ دائلةٌ من يوم يغرا بعيد لا ولا كثبُ(٢)

وفي السنة نفسها توجه نور الدين بعسكره إلى ناحية الأعمال الافرنجية ، وقصد (فامية)(٣) ،وظفر بعدة من الحصون والمعاقل الافرنجية ،وبعدة وافرة من الافرنج(٤) .

وقد سجل ابن القيسراني هذا الانتصار ومدح نور الدين إذ يقول :

ألا للّه درك أي درٍّ صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكرك الذي استولى سيحًا على ما بين فامية وسيح(٥)

وفي عام أربعة وأربعين وخمسمائة سار نور الدين إلى حصن حارم(٦) وهو للفرنج ،فحاصره وخرب ربضه ،ونهب سواده ،ثم رحل عنه إلى حصن انّب وحاصره ، فاجتمع الفرنج مع أمير انطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنّب فلم يرحل ، بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلا ، وفي هذه المعركة ظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب ما تعجب الناس منه ،وانجلت المعركة عن هزيمة الفرنج ، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا ،وفيمن قتل أمير انطاكية ،وكان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم(٧) .

وقد سجل الشعراء هذه المعارك ،وأكثروا من مدح نور الدين وتهنئته بالانتصارات وبقتل أمير أنطاكية ، فصور ابن القيسراني معارك نور الدين التي فاقت في عظمتها ووقائعها أيام العرب ،إذ يقول :

أنباء ملحمةٍ لو أنّها ذُكرت فيما مضى نسيت أيامها العرب

ووصف قتل نور الدين لأمير انطاكية بقوله :

إذا القناة ابتغت في رأسه نفقًا بدا لثعلبها(٨) من نحره(٩) سَرَب(١٠)

---

(١) إنّب : حصن من أعمال عزاز في نواحي حلب (معجم البلدان ١/ ٣٣٢) .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ١٥٣ .
(٣) فامية : مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ،وقد يقال بالهمز في أوله (مراصد الاطلاع ٣/ ١٠١٦) .
(٤) ذيل تاريخ دمشق/ ٣٠٢-٣٠٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٤٣ ، وأعلام النبلاء ٢/ ٧ .
(٥) كتاب الروضتين ١/ ١٥٥ ،وسيح :سيح الغمر ،وسيح النعامة ،وسيح البردان ، مواضع باليمامة (معجم البلدان ٥/ ١٩٢) .
(٦) حصن حارم : حصن حصين تجاه انطاكية وهو في أيام ياقوت من أعمال حلب (المصدر نفسه ٢/ ٢٠٥) .
(٧) الباهر/ ٩٨-٩٩ ،والكامل ١١/ ١٤٤-١٤٥ ،وذيل تاريخ دمشق/ ٣٠٤-٣٠٥ ،وزبدة الحلب ٢/ ٢٩٨-٢٩٩ .
(٨) ثعلب القناة : طرف الرمح الداخل في حبة السنان (لسان العرب ،مادة :ثعلب) .
(٩) النحر : الصدر (لسان العرب ،مادة : نحر) .
(١٠) السرب : الحفر ،أو الطريق (المصدر نفسه،مادة :سرب) ، انظر الروضتين ١/ ١٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وله من قصيدة أخرى يذكر فيها وقائع نور الدين ،ويثني على بطولته وشجاعته وقيادته لجيوش المسلمين من نصر الى نصر ،يقول :

بإنّب لما أكسب المال وانثنى بصاحب انطاكية وهْو كسيبُهُ
غداة هوى شطرين للسيف رأسه وللرمح حتى توّج الرأس قلبُهُ

ومنها :

وقائعُ محمودية النصر لم تزل غريبًا بها عن موطن السّيف غربُهُ (١)
يقوم مقام الجيش فيها وعيده ويفعل أفعال الكتائب كتبه (٢)

ويقول ابن منير :

عرفت لنور الدين نور وقائع يفشى إذا اكتحلت به أبصارها
مشهورة سطعت وقد حاولتها الـ أقدار عجزًا أن تشق غبارها
فبقيت تستجلي الفتوح عرائسًا متطلّيًا صدر العلا وصدارها (٣)

وعلى الرغم من الانتصارات التي حققها نور الدين في شرقي بلاد الشام ونواحي حلب وأنطاكية ،إلا أن جوسلين عاتي الفرنج وشيطانهم - كما اعتاد مؤرخو الاسلام وصفه - كان يعيث فسادًا في تلك المناطق ،فعزم نور الدين على الاستيلاء على ديار ه ،وهي شمالي حلب منها :(تل باشر)(٤) و (عزاز)(٥) وغيرهما ، ولما علم جوسلين بذلك جمع الفرنج فارسهم وراجلهم ولقوا نور الدين ، وكان ذلك في سنة ست وأربعين وخمسمائة ،" فكانت بينهم حرب شديدة ،انهزم فيها المسلمون ،وقتل منهم وأسر جمع كبير ،وكان في جملة من أسر سلاح دار (٦) نور الدين "(٧) .

---

(١) غربه : حد السيف (لسان العرب ،مادة : غرب) .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ١٨٨ - ١٨٩ .
(٣) ديوان ابن منير / ٢١٧-٢١٨ ،وشعر ابن منير/ ١٢٠-١٢٤ .
(٤) تل باشر : قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب ، بينها وبين حلب يومان (مراصد الاطلاع ١/ ٢٦٩) .
(٥) عزاز: بفتح أوله وتكرير الزاي وربما قيلت بالألف في أولها ، بليدة فيها قلعة شمالي حلب بينهما يوم (مراصد الاطلاع ٢/ ٩٣٧).
(٦) سلاح دار: الذى يحمل سلاح السلطان (صبح الاعشى ٥/ ٤٦٢ ، ومعجم الالفاظ الفارسية / ٩٢) .
(٧) انظر ، الباهر / ١٠١-١٠٢ ،والكامل ١١/ ١٥٤-١٥٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٨٣ - ١٨٤ ، وزبدة الحلب ٢/ ٣٠١ - ٣٠٢ ،ونهر الذهب ٣/ ٩٢ - ٩٣) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل هذه الموقعة كانت أول موقعة ينهزم فيها نور الدين أمام الفرنج أو غيرهم ، " فاستغل جوسلين هذه الحادثة ليخفض من اسم نور الدين وهيبته ، فأرسل سلاحه إلى معين الدين حتى يريه هزيمة صهره وزوج ابنته ، ولكن نور الدين ظل يتدبر خدعة للايقاع بجوسلين ، حتى تمكن من أسره على يد جماعة من التركمان أثناء خروجه للصيد ، وكان شديداً على المسلمين ، قاسي القلب ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره"(١) . ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها ، وهي : (تل باشر) و (عزاز) ،و (تل خالد) (٢) و(قورس) (٣) و (الراوندان) (٤) و (برج الرصاص) (٥) و (حصن البارة) (٦) وغير ذلك من أعماله في مدة قصيرة"(٧) .

ومن قول ابن الاثير : " وأصيبت النصرانية كافة بأسره " نلمس ما للبطل في ذلك الوقت من الأثر الكبير لكل من الصليبيين والمسلمين على حد سواء ، فان أسر جوسلين أتاح لنور الدين أن يملك الكثير من الحصون في مدة وجيزة .

وقد أكثر الشعراء القول في هذه الحادثة ،فمن ذلك قول ابن القيسراني من قصيدة أثنى فيها على عزم نور الدين وشجاعته ،وذكر اسره لجوسلين وملكه لقلاعه ، أولها :

دعا ما ادّعى من غرّه النهيُ والأمرُ
فما الملك الا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدّنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره
وأسعد قِرْن من حواه لك الأسر
طغى وبغى عدْوًا على غُلوائه
فأوبقه الكُفرانُ عَدْواه والكفر
وأسرت عزازٌ كاسمها بك عزّةً تشق على النّسرين لو أنّها وكْرُ

---

(١) انظر الكامل ١١/ ١٥٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٨٤ ،وتاريخ مختصر الدول / ٢٠٨ .
(٢) تل خالد : قلعة من نواحي حلب (مراصد الاطلاع ١/ ٢٧٠) .
(٣) قُورُس: مدينة أزلية بها آبار قديمة ،من نواحي حلب (المصدر نفسه٣/ ١١٣٢) .
(٤) الرَّاوَنْدان : قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة من نواحي حلب (معجم البلدان ٣/ ١٩) .
(٥) بُرجُ الرَّصاص : قلعة من أعمال حلب ،قرب أنطاكية (المصدر نفسه ١/ ٣٧٣) .
(٦) حصن البارة : البارة ،بليدة وكورة من نواحي حلب ،وبها حصن وهي ذات بساتين (نفسه ١/ ٣٢٠) .
(٧) انظر الكامل ١١/ ١٥٥ ، والباهر/ ١٠٣ ، وذيل تاريخ دمشق/ ٣١٠-٣١٢ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سللت سيوفاً أثكلت كل بلـــدة بصاحبها حتى تخوّفك البـــدر (١)

وذكر ابن منير في شعره بعض القلاع التي ملكها نور الدين بعد أسر جوسلين ، وهي قورس وعزاز ، فقال من قصيدة له :

وفاجأتَ قورُسَ بالشائلات (٢) تمجّ القنا سمّ أذنابهـــا
فما رُمتَ حتى رَمَت بيضها إليك أزمّة ضرّابهـــا
وعزّت عزازُ فأذللتهـــا بمجرٍ مُضَيّق أشهابهـــا (٣)

وتحدث ابن القيسراني عن أخذ نور الدين لعزاز وتل باشر في معرض وصفه لوقائع نور الدين ، ووصف القمص المقهور بأنه عمود الكفر الذي تحطم أمـــام نور الدين ، فقال :

ولمّا نزا بالقمص عجب هوى بـه على أمّ رأس البغي والغدر عجبه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونـه فيا عانياً (٤) ضرب البشائر ضربه
تناجي عزازٌ باسمه تلّ باشـــر فيلعنه لعن الصّريح وسبّـــه
فان يكن المقهور من تُلّ عرشهُ فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه (٥)

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة تجمعت الفرنج ، وحشدت الفارس والراجـل ، وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن ملكها ، فوصلوا إليه وهـو بدُلُوك (٦) ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم انهزم الفرنج وقتل منهم وأسر كثيـر وعاد نور الدين إلى دلوك فملكها واستولى عليها (٧) .

وقال في ذلك ابن منير :

وإن دالكتهُم دلوكٌ فقـد أسرّت فصدقت أخبارهـــا
وشب التدامُر حتى طلعْتَ عليها فولتك أدبارهـــا (٨)

---

(١) انظر الكامل ١١ / ١٥٥-١٥٦ ، والباهر / ١٠٣ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٨٥-١٨٨ .
(٢) الشائلات : جمع شائلة ، وهي الناقة التي شال لبنها أي ارتفع (لسان العرب : شول) .
(٣) ديوان ابن منير / ٢٢٢ ، وشعر ابن منير / ٤٧-٥٠ ، والأسهاب : جمع سهب وهي الفلاة (لسان العرب : سهب) .
(٤) العاني : الخاضع والمقهور (لسان العرب مادة : عنا) .
(٥) كتاب الروضتين ١ / ١٨٩ ، وهناك شعر كثير لابن منير في مناسبة أسر جوسلين والاستيلاء على حصونه (الروضتين ١ / ١٩٠-١٩٢) .
(٦) دُلوك : بضم أوله : بلدة من نواحي حلب ، من الثغور المتصلة ببـلاد الشـروم (انظر معجم البلدان ٢ / ٤٦١ ، والروض المعطار / ٢٣٦) .
(٧) الكامل ١١ / ١٦٣-١٦٤ ، والباهر / ١٠٤-١٠٥ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٩٢-١٩٣ .
(٨) ديوان ابن منير / ٢٢٨ ، وشعر ابن منير / ١٢٦ ، والكامل ١١ / ١٦٤ ، والباهر / ١٠٥ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٩٣ .
ودالكتهم : دلك الشيء : مرسه وعركه ، ودلكه الدهر : حنّكه وعلمه (لسان العرب : دلك) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكن نور الدين ليتجاهل عدوان الفرنج على بلد من بلاد المسلمين ، فقد عزم على نصرة أهل عسقلان عندما سمع بنزول الفرنج عليها ومضايقتهم لها ، وذلك سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (١) .

ولكن خلافه مع مجير الدين صاحب دمشق حال دون وصوله إلى عسقلان وفكر نور الدين بعد ذلك بامتلاك دمشق لأنها تعترض بينه وبين الفرنج ولزيادة ظلم مجير الدين لأهل دمشق .

وفي صفر من سنة تسع وأربعين وخمسمائة حاصر نور الدين دمشق ،وأخذها من صاحبها مجير الدين (٢) . " واستقبل أهل دمشق نور الدين بكل مظاهر الفرح والسرور ،فمنع جنده من النهب ،وألغى الضريبة المقررة على الفاكهة والخضراوات وغيرها ، ولما عاد إلى حلب أناب عنه نجم الدين أيوب في حكومة دمشق " (٣) .

وباستيلاء نور الدين على دمشق يكون قد نجح عسكريا في كشف الفرنج ومضايقتهم وحرمانهم من حليفهم مجير الدين .

وفي سنة خمسين وخمسمائة ،" غزا نور الدين الفرنج وافتتح حصونًا ،وسار إلى أن وصل إلى قونية (٤) ، فملك عدة من قلاعها وحصونها بالسيف والأمان "(٥) .

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة هزم نور الدين الفرنج على صفد وكانت وقعة عظيمة (٦) . وافتتح مدينة بانياس بالسيف (٧) .

ولما عرف أن معسكر الفرنج على الملاحة (٨) ، نهض اليهم في عسكره وانتصر المسلمون عليهم وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا (٩) .

ونظم أبو يعلى ابن القلانسي أبياتا يذكر فيها محاسن نور الدين وما فعله بالفرنج

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق / ٣٢٠-٣٢١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٢٤ .

(٢) انظر ذيل تاريخ دمشق / ٣٢٧ ،والكامل ١١/ ١٩٧ ،والباهر/ ١٠٦ ، وزبدة الحلب ٢/ ٣٠٣-٣٠٤ .

(٣) انظر تاريخ الحروب الصليبية / ٥٥٠ .

(٤) قونية : من أعظم مدن المسلمين وهي عاصمة امارة قونية السلجوقية بآسيا الصغرى (مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٤) .

(٥) كتاب الروضتين ١/ ٢٥٢ ،ودول الاسلام ٢/ ٤٨ .

(٦) عيون التواريخ ١٢/ ٤٩٨ ،والعبر في خبر من غبر ٤/ ١٤٦ ،ودول الاسلام ٢/ ٤٩ .

(٧) ذيل تاريخ دمشق / ٣٤٠-٣٤١ .

(٨) الملاحة : بين طبرية وبانياس ، شمال غرب بحيرة الحولة (كتاب الروضتين ١/ ٢٧١) .

(٩) انظر الروضتين ١/ ٢٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من قتل وأسر واذلال ، فيقول منها :

ما رأينا فيما تقدّم يومـــاً كامل الحسن غاية في البهـــاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم ذلّة الأسر والبلا والفنـــاء
وبرايا تهم على العيس زفّـــوا بين ذلّ وحسرة وعنـــاء
هكذا هكذا هلاك الأعـادي عند شن الإغارة الشعـــواء
فجزاء الكفور قتلٌ وأســـرٌ وجزاء الشكور خير الجـــزاء (١)

وفي " أوائل المحرم من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ضايق الفرنج حصـــن حارم ،ورموه بالمجانيق إلى أن ضعف وملك بالسيف ،وتزايد طمعهم في شـــن الغارات في الأعمال الشامية والفساد فيها "(٢) .

ولكن نور الدين كان لهم بالمرصاد ، فبرز من دمشق مجدّاً في جهادهم وأغار على مواقعهم وقتل وأسر الكثير منهم ،وغنم الغنائم الكثيرة (٣) .

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة جمع نور الدين العساكر وسار إلى قلعـة حارم وحصرها وجد في قتالها ، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها مـــن فرسان الفرنج (٤) .

ولم ييأس من قتال الفرنج على حارم ، فقد عاد وقاتلهم عليها سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، ثم رحل عنها ولم يملكها (٥) .

وجمع عساكره في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ،و " دخل بلاد الفرنج ونزل (تحت حصن الأكراد) ،وكان عازماً على منازلة طرابلس ،ولكن الفرنج باغتوا المسلمين وهم آمنون في خيامهم في وسط النهار ،ولم تشعر طليعة المسلمين إلا وقد قاربهم الفرنج ، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك ،ولا حق الفرنج طليعة الجيش حتى وصلوا معا المعسكر النوري ،فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح ،وأكثر الفرنج القتل والأسر للمسلمين ،ونجا نور الدين منهـــم بمساعدة رجل كردي قطع شبحة (٦) فرس نور الدين ،وكان أكثر القتل فـــي السوقة والغلمان .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق / ٥٢٤ ،وكتاب الروضتين ١ / ٢٧٢-٢٧٣ .
(٢) ذيل تاريخ دمشق / ٣٥١-٣٥٢ ،وكتاب الروضتين ١ / ٢٨٧ ،وأعلام النبلاء ٢ / ٣٨ .
(٣) ذيل تاريخ دمشق / ٣٥١-٣٥٢ ،وكتاب الروضتين ١ / ٢٩٩-٣٠٠ .
(٤) كتاب الروضتين ١ / ٣١٧ .
(٥) الباهر / ١١٦ ،والكامل ١١ / ٢٨٥ ،والمختصر في اخبار البشر ٢ / ٥٥ ،
(٦) شبحة : جمعها شبح ،وهي سلسلة يربط بها قدم الحصان في أحد طرفيها ،وطرفها الآخر يربط بوتد يدق في الأرض. انظر :
Dozy, Supp. Dict. Ar. Tome I, p. 719 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يسكت نور الدين على هذه الهزيمة بل سار إلى مدينة حمص وأقام بظاهرها ،وأرسل الى دمشق وحلب ،وأحضر الأموال والدواب والاسلحة وجمع قواته واستعد للقاء الفرنج ،وعندما قال له أحد أصحابه : ليس من الرأى أن تقيم ههنا - وكان بينهم وبين الوقعة أربعة فراسخ - فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال ، وبخه وأسكته وقال قولته المشهورة : إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بهم قلوا أو كثروا والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري "(١) .

وأما الفرنج فانهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ،لأنها أقرب البلاد اليهم ،فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ،قالوا : انه لم يفعل هذا إلّا وعنده من القوة أن يمنعنا ، وأرسلوا إلى نور الدين من أجل المهادنة فلم يجبهم إليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا (٢) .

وفي هذه الحادثة (تحت حصن الأكراد)، قال أبو الفرج عبيد الله بن أسعد الموصلي من قصيدة أحسن فيها الاعتذار عن نور الدين والمسلمين ومدحهم وهم المنهزمون ، وهذه الهزيمة - كما يقول الشاعر - لا تعيب نور الدين وأصحابه ، فقد تمت نتيجة حيلة وخداع ،وحصلت قضاء وقدرا ، يقول :

واستيقظوا وأراد الله غفلتكم لينفذ القدر المحتوم في الأزل

ويخاطب الفرنج قائلا : ان ما أخذتموه لا قيمة له ،وإنكم لم تأخذوه في ميدان القتال وجهًا لوجه مع المسلمين :

وما رجعتم بأسرى خاب سعيُكُمُ غير الأراذل والأتباع والسَّفَلِ
سلبتم الجرد مُعْراةً بلا لُجُمٍ والسّمر مركوزة والبيض في الخللِ
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها
مثالَ آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزًا كسالبه والحرب دائرةٌ من كفّ معتقل (٣)

وأما جيش نور الدين فقد أُصيب بعين الحسد ، لكثرة انتصاراته ، فهزم في هذه الحادثة لمباغتة الاعداء له ولعدم يقظته :

---

(١) الباهر/ ١١٦-١١٧ ،والكامل ١١ / ٢٩٤-٢٩٦ ،وكتاب الروضتين ٣١٨/١-٣١٩ ،
(٢) الباهر/ ١١٧-١١٨ .
(٣) كف معتقل : محبوس،والعقال : الرباط الذي يعقل به (لسان العرب ، مادة : عقل) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جيشٌ أصابتهُمُ عين الكمال وما يخلو من العين إلا غير مكتمل

ويمدح الشاعر نور الدين ، ويصفه بالشجاعة والثبات والصلابة ، ويثني على قيادته الحكيمة ، وبطولته ، وإرادته ، وعمق إيمانه ، فهو يخوض المعركة وكأنه جيش كامل :

وكم تجلت بنور الدين من ظلم للظلم وانجاب للإضلال من ظُلَلِ

قل للمولّين : كفوا الطرف من جبن
عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل

طلبتم السهل تبغون النجاة ولو
لذتم بِعَلْكُمُ لذتم إلى جَبَلِ

أسلمتموه وولّيتم فأسلَمَكُمْ بثبْتةٍ لو بغاها الطود لم يَنَلِ (١)

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وبعد ثلاثة أشهر من حادثة (تحت حصن الأكراد) كسر نور الدين الافرنج على حارم ، وقتل في معركة واحدة منهم عشرون ألفا ، وأسر من نجا ، وأخذ بعض أمرائهم وملوكهم (٢) ، وفتح حارم هذا من أهم إنجازات نور الدين الحربية ، فقد كان فتحًا مبينًا ، ردّ به اعتبار المسلمين بعد هزيمتهم تحت حصن الأكراد .

وفي سنة ستين وخمسمائة فتح نور الدين قلعة بانياس بعد عودته من فتح حارم (٣) . وأخذ حصن المنيطرة (٤) عنوة في سنة إحدى وستين ، وذلك على غفلة من الافرنج (٥) .

وكان من مبادئ نور الدين وخططه العسكرية ، الهجوم المعاكس ، فلكي يخفف عن أسد الدين وطأة الافرنج في مصر ، "أرسل إلى أخيه قطب الدين فحضر اليه من الموصل ، وجمع العساكر وأغار على بلاد الافرنج في الشام ، وفتح بعض حصونهم" (٦) .

أما أعظم الفتوحات فهو فتح مصر ، سنة أربع وستين وخمسمائة ، ففي " ربيع الأول منها سار أسد الدين شيركوه في العساكر النورية إلى ديار مصر وملكها واستولى عليها ، وذلك لأن الافرنج استولوا على البلاد وجعلوا لهم شحنة بالقاهرة ، وتحكموا تحكما كثيرا ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا ، فنال المسلمين منهم أذى شديد وجور عظيم" (٧) .

---

(١) انظر ديوان ابن الدهان / ٧٠-٧٧ ، وكتاب الروضتين ١ / ٣٢٠-٣٢٢ .
(٢) انظر سنا البرق الشامي ١ / ٦٢ ، والكامل ١١ / ٣٠٢-٣٠٤ ، والباهر / ١٢٣-١٢٥ ، وزبدة الحلب ٢ / ٣١٩ .
(٣) انظر الباهر / ١٣٠-١٣١ ، والروضتين ١ / ٣٥٦-٣٥٧ .
(٤) المنيطرة : حصن بالشام ، قريب من طرابلس (مراصد الاطلاع ٣ / ١٣٢٦) .
(٥) انظر الكامل ١١ / ٣٢٢-، والباهر / ١٣١ ، وزبدة الحلب ٢ / ٣٢٢ ، والروضتين ١ / ٣٦٠ .
(٦) انظر الكامل ١١ / ٣٢٧-٣٢٨ ، والروضتين ١ / ٣٧٤-٣٦٥ .
(٧) انظر الكامل ١١ / ٣٣٨ ، والباهر / ١٣٧ ، والروضتين ١ / ٣٨٩ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند ما ورد الخبر إلى الشام باستيلاء جيش نور الدين على مصر ، كتب الحافظ ابن عساكر إلى نور الدين يهنئه بذلك يقول :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب عُوِّضت مصر بما فيها من النشب (١)

وقال العماد الأصفهاني في قصيدة مدح بها نور الدين وهنأه بملك مصر ، يقول منها :

سرت لتقطع ما للكفر من سبب وام وتوصل ما للدين من رحم
كانت ولاية مصر قبل عزتها بكشف دولتها لحمًا على وضم (٢)

ولعلم الدين الشاتاني (٣) في نور الدين بمناسبة فتح مصر قصيدة يقول منها :

هل حاز غيرك ملك مصر وصار من أتباعه من جده المستنصر (٤)

وبفتح مصر يكون نور الدين قد وضع الصليبيين بين شقي رحى ، مما سهل على صلاح الدين من بعده أن يبدأ بتطهيرهم وحصرهم في الشريط الساحلي وعند ما حاصر الافرنج دمياط سنة خمس وستين " سير نور الدين العساكر ارسالا يتلو بعضها الآخر ، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر ، ثم سار بنفسه إلى بلاد الافرنج الشامية فنهبها ، وأغار عليها واستباحها ، مما جعل الافرنج يرجعون خائبين لم يظفروا بشيء ، ووجدوا بلادهم خرابا .

وفيها حاصر نور الدين حصن الكرك مدة ثم رحل عنه " (٥) .

وفي سنة ست وستين وخمسمائة واصل كل من نور الدين ونائبه صلاح الدين أعمالهما العسكرية ، فقد استولى نور الدين على الرقة والخابور ونصيبين " (٦) .

وأغار صلاح الدين على أعمال عسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه " (٧) .

---

(١) انظر الروضتين ١/ ٤٠٥ ، والنشب : المال والعقار (لسان العرب مادة : نشب) .

(٢) ديوان العماد / ٣٨١-٣٨٢ ، وكتاب الروضتين /٤٤٤-٤٤٥ ، والوضم : كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب وغيره يوقى به من الأرض . (لسان العرب ، مادة : وضم) .

(٣) علم الدين الشاتاني : انظر ترجمته في الحديث عن نور الدين والأدباء ، الباب الثالث من هذه الدراسة .

(٤) كتاب الروضتين ١/ ٤٤٥ ، والمستنصر : أحد الخلفاء الفاطميين (وفيات الأعيان ٧/ ١٥٨) .

(٥) الكامل ١١/ ٣٥٢- ٣٥٣ ، والباهر / ١٤٤ ، وسنا البرق الشامي ١/ ٨٩-٩٠ ، وزبدة الحلب ٢/ ٣٢٩-٣٣٠ .

(٦) كتاب الروضتين ١/ ٤٧٦ ، والخابور ونصيبين : تقدم التعريف بهما .

(٧) الكامل ١١/ ٣٦٥ ، والكواكب الدرية / ١٩٤-١٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحصر نور الدين حصن عِرْقة (١) ، وأخرب ربضه ، وخربت عساكره ولا يسة أنطاكية ونهبتها ، وذلك سنة سبع وستين وخمسمائة (٢) .

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة ، فتح نور الدين مرعش (٣) وبهسنا (٤) ، ودان له صاحب الروم قليج ارسلان .

وقد وصف العماد الأصفهاني أعمال نور الدين العسكرية هذه ومدحه بقصيدة يقول منها :

كم وقعة لك بالفرنج حديثها قد سار في الآفاق والبلدان

ومنها :

وملكت رقّ ملوكهمْ وتركتهم بالذلّ في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم وسحبتهم هُونًا على الأذقان
لم تلْقهم ثقةً بقوّة شوْكةٍ لكن وثقْت بنصرة الرحمن (٦)

وفي هذه القصيدة ما فعله نور الدين بالأعداء ، ووصف فيها أمراءه ومدحهم ، (وهي قصيدة طويلة) .

وفي هذه السنة استولى قادة نور الدين على طرابلس الغرب (٧) وعلى بلاد اليمن (٨) .

وبعد وفاة نور الدين سنة تسع وستين وخمسمائة ، " حاصر الافرنج قلعة بانياس (٩) وخرج إليهم ابن المقدم (١٠) ، وخوفهم بقصد صلاح الدين بلادهم ، وبعد ذلك تمت المصالحة والهدنة بينهم "(١١) .

---

(١) حصن عرقة : بكسر أوله مدينة من ثغور مرعش ، وهي قديمة في سفح جبل قليل العلو ، والبحر منها على ثلاثة أميال ولها في وسطها حصن عال . (انظر الأعلاق الخطيرة / ٩٢ ، ومعجم ما استعجم ٢ / ٩٣٤) .

(٢) كتاب الروضتين ١ / ٥١٦-٥١٧ ، وزبدة الحلب ٢ / ٣٣٦-٣٣٧ .

(٣) مرعش : بالفتح ثم السكون ، مدينة بالثغور بين الشام وبلاد الروم ، (مراصد الاطلاع ٣ / ١٢٥٩) .

(٤) بهسنا : قلعة حصينة بقرب مرعش وهي من أعمال حلب (معجم ما استعجم ١ / ٥١٦) .

(٥) قليج أرسلان : تقدم التعريف به .

(٦) انظر القصيدة في ديوان العماد / ٤١١ ، ٤١٧ ، والروضتين ١ / ٥٢٨-٥٣٠ .

(٧) انظر الكامل ١١ / ٣٨٩ ، والعبر في خبر من غبر ٤ / ٥٠١ ، وشذرات الذهب ٤ / ٢٢٥ .

(٨) انظر العبر في خبر من غبر ٤ / ٢٠١ ، وشذرات الذهب ٤ / ٢٢٥ .

(٩) بانياس : تقدم التعريف بها .

(١٠) ابن المقدم : تقدم التعريف به .

(١١) انظر سنا البرق الشامي ١ / ١٥٥-١٥٦ ، والكامل ١١ / ٤٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وقصد صلاح الدين دمشق وأخذها دون قتال وذلك سنة سبعين وخمسمائة ، وسعى من جديد لتوحيد مصر والشام ضد الصليبيين" (١) .

* * *

وإضافة إلى مواكبة الشعر أعمال نور الدين العسكرية وانتصاراته وتسجيلها ، فقد صور لنا بطولة كتائب جنده ،وعدة حربه ،فأفراد كتائبه يتصفون بالشجاعة والإقدام ،وتتداعى تحت وطأتهم جيوش الأعداء يقول ابن منير :

كتائبٌ ترمي جنود الصليـ ـب منها بتقطيع أصلا بهـا (٢)

وهم جنود يقاتلون الأعداء عن قرب وباندفاع وحماس طلبا للنصر أو الشهادة ، وقد أصبحوا مثار هلع وفزع في نفوس أعدائهم ، يقول ابن القيسراني :

وتدرك ثأرها من كل باغٍ فوارس من عزائمها الجلادُ
وجند كالصقور على صقورٍ إذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا وان أبدوا عداوتهم أبادوا (٣)

وفي قصيدة أخرى يصوّر ابن القيسراني ضخامة الجيش النوري فيقول :

فارقت دار الملك غير مفارقٍ لك من علاك بكل أرضٍ دار
في عسكر يخفي كواكب ليله نقعًا فيطلعها القنا الخطّار (٤)
جرّار أذيال العجاج وراءه وأمامه بل جحفلٌ جرّار

وجنود نور الدين حرب على الاعداء ، وأنصاره مخلصون في ولائهم له :

فاحسم عناد ذوى العناد بجحفلٍ كالليل فيه من الصفيح نهار
جندٌ على جردٍ أمام صدورها صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الإخلاص بيعة نُصرةٍ ولكلّ هادٍ أُمة أنصار (٥)

* * *

وقد كان جيش نور الدين يضم جنسيات مختلفة ،منها : التركمان ، والأكراد والعرب (٦) ، وكان يتشكل من عدة فرق وعلى كل فرقة أمير مقدّم ، ومن أشهر هذه الفرق . اليارقية (٧) والأسدية وهي التي أنشأها أسد الدين من الأكراد والمماليك (٨) .

---

(١) انظر العبر ٤/ ٢١٠ ، ودول الاسلام ٢/ ٦١ .
(٢) ديوان ابن منير/ ٢٢١ ،وشعر ابن منير/ ٤٧ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٨١ .
(٣) انظر الروضتين /١٤٦ .
(٤) القنا الخطار: رمح خطار : ذو اهتزاز ، ورجلٌ خطار: طعان بالرمح (لسان العرب : خطر) .
(٥) كتاب الروضتين ١/ ١٧٤-١٧٥ .
(٦) دراسات في حضارة الاسلام/ ٨ .
(٧) اليارقية: فرسان تركمان ، يحتمل أنهم كانوا من قبيلة ياروق (انظر صلاح الدين الايوبي " دراسات في التاريخ الاسلامي/ ١٥٤) .
(٨) صلاح الدين الايوبي (دراسات في التاريخ الاسلامي) / ١٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن خيالة العرب الذين انضموا إلى القوات النظامية بنو منقذ أصحاب شيزر (١) .

وقد ذكر أسامة بن منقذ أنه استأذن نور الدين في أن يأخذ رجالاً من أصحابه ويغير على الافرنج ، فأذن له نور الدين وأعطاه ثمانمائة وستين فارساً ، ويروي أسامة أنه أخذهم وسار بهم وسط بلاد الافرنج يغير عليهم (٢) .

ومن أبرز الأمراء المقدّمين الذين شاركوا نور الدين في عملياته العسكرية سواء أكانوا بصحبته أم بتوجيه منه : أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، ومجد الدين بن الداية ، وشمس الدين بن المقدم ، وجردبك النوري (٣) ، وعين الدولة الياروقي (٤) وغيرهم (٥) .

وقد ذكر العماد الاصفهاني بعض عناصر وتشكيلات الجيش النوري وصوّر فعلهم بالأعداء ، ومنهم : جردبك ، وعين الدولة ، والأتراك ، والأكراد ، والمماليك ، واليارقية ، يقول :

حَمَلَتْ عليهم من جنودك فتيةٌ ... لم تَدْرِ غير حمَيَّة الفتيان
وبسيف جُردبك المجرّد غودروا ... بدماء أهل الغدر في غدران
وبعين دولتك التي قدّ متنه ... فقئَتْ عيون الكفر والكفران
واليارُقيّةُ أرْقَتْهُمُ في الدّجى ... بسهام كلّ حنيّةٍ مِرّنان (٦)
وكأنما الأكراد فوق جيادها ... عقبان مُلْحِمةٍ على عقبان
ولطالما سَهَرتْ على نصر الهدى ... أنصارك الأبطال من سهران
لم يترك الأتراك فيهم غايةً ... بالفتك وإلارهاق والاثخان
من كل رام سهمُهُ من وهمه ... أهدى إلى إنسان عين الرّاني
ملك المماليكُ الذين بهم عَنَتْ ... أملاك مصر لمالكي بغدان

ووصف العماد ما اعتمده نور الدين ، حيث أنفذ سرية إلى بلاد الافرنج ، فأحرقت ونهبت وكبست أهلها وكسبت ، يقول :

أخْلَوا بلادَهُمُ فحلّ بأهلها ... منك الغداة طوارقُ الحِدْثان
أنْهَضْتَ ، حين خَلَتْ إليها عسكرًا ... أخلى قواعدها من البنيان
وَشَغَلْتَ جأشَهُمُ (٧) بجيشٍ هَدَّهُمْ ... فجنى ثمار النّصرة الجيشان (٨)

* * *

---

(١) انظر صلاح الدين الأيوبي (دراسات في التاريخ الاسلامي) / ١٧٢ .
(٢) انظر الاعتبار / ١٤-١٧ .
(٣) جردبك النوري ، وابن المقدم ، وابن الداية : تقدم التعريف بهم .
(٤) عين الدولة الياروقي : من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر بعد وفاة أسد الدين ، وهو ممن طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة في مصر (وفيات الاعيان ٧/١٥٣) .
(٥) انظر الروضتين ١/ ٤٨-١٧٢ ، ٢٣٧ .
(٦) مرنان : لين في صلابة (لسان العرب ، مادة : مرن) .
(٧) جأشهم : الجأش : النفس أو القلب (لسان العرب ، مادة : جأش) .
(٨) انظر القصيدة في ديوان العماد / ٤١٣-٤١٦ ، والخريدة قسم الشام ١/ ٥٧-٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما الخيل ، فقد أولاها الشعراء قسطا من شعرهم ، فتحدثوا عن نشاطها ، وصبرها على الحرب ، فهي خير عتاد الكريم ، وهي تطيعه ، ويصنع بها النصر ، يقول ابن منير :

هي الخيل خير عتاد الكريـ ـم يحضر للهمّ إحضارها
ضفمْتَ (١) فأدررتَ أفواهها (٢) وسرت فقلّمت أظفارها (٣)

وهذه الخيول تساهم مع فرسانها في اقتحام المعارك ،وإدخال الرعب في نفوس الاعداء ،وقطع دابرهم ، وفي تحقيق النصر ، يقول العماد في وصف الجيوش النورية التي زحفت نحو مصر :

أوردتَ مصرَ خيول النصر عادمةً ثني الأعنّة إقداماً على اللُّجُم
فأقبلتْ في سحابٍ من ذوابلها وقُضّبها بدماء الهام منسجم
تمكن الرعب في قلب العدو بها تمكن النار بالإحراق في الفحم
سرت لتقطع ما للكفر من سببٍ واهٍ، وتوصل ما للدين من رحم
مستسهلات وعور الطُّرق في طلب الـ ـعلياء مقتحمات أصعب القمم
وجاعلات من الافرنج غنّهم والقيد في موضع الأطواق والحزم (٤)

والخيل تخوض المعارك ، وتصبر على القتال ،وترجع من المعركة وقد تغيرت ألوانها ، واصطبغت بدماء القتلى ،حتى لم يعد الناظر يتبين ألوانها الحقيقية ، ففي وصف ابن القيسراني حصار نور الدين دمشق ، يقول :

فأما وقفت الخيلَ ناقعةَ الصدى (٥) على بردى من فوقها الورق النضرُ
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى وأصدرتها ،والبيض من عَلَقٍ حمر
وجللتها نقْعاً أضاع شياتها (٦) فلا شهبها شهبٌ ولا شقرها شقر (٧)

وهي تلاحق العدو أينما ذهب وتضيق الخناق عليه حتى تظفر به ، يقول أسامة بن منقذ :

ونحنُ كسرنا البغدوينَ (٨) وما لمن
كسرناهُ إبلالٌ (٩) يُرَجّى ولا جَبْرُ

---

(١) ضفمت : الضفم : العض الشديد دون النهش (لسان العرب ،مادة : ضفم) .
(٢) أدررت أفواهها : يقال للرجل إذا طلب الحاجة فألح فيها أدرها ، ودر الفرس إذا عدا عدوا شديدا (لسان العرب مادة : درر) .
(٣) ديوان ابن منير/ ٢٢٧ ،وشعر ابن منير/ ١٢٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٩٣ .
(٤) ديوان العماد / ٣٨١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٤٤٣ .
(٥) ناقعة الصدى : صداها مرتفع (لسان العرب ،مادة : نقع) .
(٦) شياتها : خلقها ،صفاتها (المصدر نفسه مادة : شيأ) .
(٧) كتاب الروضتين ١/ ١٨٦ .
(٨) البغدوين (Baudouin III) (بودويـن) ،بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس (تاريخ الحروب الصليبية ٢/ ٣٧٦ ،٣٩٠) .
(٩) إبلال : بل فلان من مرضه وأبلّ إذا برأ (لسان العرب مادة : بلل) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ضاقت الدنيا عليه برحبها ... فلم ينجه بر ولم يحمه بحر
وقد كان لون الخيل شتى فأصبحت ... تعاد الينا وهي من دمهم شقر
وما تنثني عنه أعنة خيله ... ولو طار في أفق السماء به النسر

* * *

وعرض الشعراء صورًا للأسلحة التي يستخدمها البطل ، فهي من مظاهر قوته ، التي يخيف بها الأعداء ، وهي عدته التي تزيد من لهيب المعركة ، وبالأسلحة استطاع المسلمون تحقيق النصر ، وخفقت راياتهم ، قال ابن منير :

ما برقت بيضك في غمامها ... إلّا وغيث الدين لا بتسامها
مظفّر الرايات والرأي إذا ... حربٌ مشت تعثُر في خِطامها (٢)
وبها توفّى الديونُ ، ويُدرك الثأر ، قال ابن القيسراني :

تغي بضمانها البيض الحداد ... وتقضي دينها السُّمر الصِّعاد (٣)
وتدرك ثأرها من كل باغ ... فوارس من عزائمها الجلاد (٤)

وبالسيوف استطاع المسلمون أن يحطموا أسلحة العدو ، قال ابن القيسراني :

أغرتْ سيوفُك بالافرنج راجفةً ... فؤاد رومية الكبرى لها يَجِبُ (٥)
ضربت كبشهم منها بقاصمةٍ ... أودى بها الصُّلْبُ وانحطت بها الصُلُبُ

وصور ابن القيسراني لمعان هذه السيوف المصقولة ، وهي تهوي على هامات الأعداء ، كاللهب ومن فوقها الغبار كالدخان ، وصور النبال كالمطر ، وهي تهطل فوق رؤوس الأعداء ، وأسنة الرماح تطعن في صدورهم ، يقول :

والنقع فوق صقال البيض منعقد ... كما استقل دخانٌ تحته لهبُ
والسيف هام على هام بمعركةٍ ... لا البيض ذو ذمّةٍ فيها ولا اليَلَبُ (٦)

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ / ٢٠٣ .
(٢) ديوان ابن منير / ٢٣٥ ، وشعر ابن منير / ١٧٨-١٨٠ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٠٣ - ٢٠٤ .
(٣) الصعاد : جمع صعدة ، وهي القناة التي تنبت مستقيمة (لسان العرب مادة : صعد) .
(٤) كتاب الروضتين ١/ ١٤٦ .
(٥) يجب : يخفق (لسان العرب ، مادة : وجب) .
(٦) اليلب : الدروع أو جلود تلبس مثل الدروع (لسان العرب مادة : يلب) ، وانظر أساس البلاغة / ٧١٤ .
وانظر : Dozy, Supp. Dict. Ar, Tome II, P. 853

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنبل كالنوبل هطال وليس له ... سوى القسي وأيدٍ فوقها سُحُب
وللظُّبى ظَفَرٌ حلوٌ مذاقتُهُ ... كأنّما الضرب فيما بينهم ضَرَب
وللأسنّةِ عمّا في صدورهمُ ... مصادرٌ أقلوب تلك أم قُلُب

وتحدث ابن القيسراني عن خيانة الأعداء ،وتخلي أسلحتهم عنهم بسبب ذلك

خانوا فخانت رماح الطعن أيديهمُ ... فاستسلموا وهي لا نبعٌ ولا غرب (١)
كذاك من لم يوق الله مهجته ... لا قيس العدى والقنا في كفه قَصَبُ
كانت سيوفُهُمُ أوحى حتوفهمُ ... يا رب حائنةٍ منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم ... ثارت عليهم بها من تحتها النّوبُ (٢)

وصور علم الدين الشاتاني أسنة الرماح تقطر من دماء الأعداء ، يقول :

يا خير من ركب الجياد ،وخاض في ... لجج المنايا والأسنة تقطر (٣)

والدروع من لوازم المقاتل ، يقول ابن القيسراني مخاطبا نور الدين :

حصّن بلادك هيبةً لا رهبةً ... والدرع من عدد الشجاع الحازم (٤)

والمنجنيقات تحيل الحصون أنقاضاً ،كما قال ابن منير :

وإذا مجانِقُهُ رَكَزْنَ لِصَعْبَةٍ الـ ... ـطلقاة أسْجدَ كالجدير جدارُها (٥)

وتحدث العماد عن الاسلحة عندما طلب منه نور الدين وصفحالهم مع الأعداء :

وجعلت في أعناقهم أغلالهم ... وسحبتهم هونًا على الأذقان
إذْ في السّوابغ تحطمُ السُّمرُ القنا ... والبيض تُخْضَبُ بالنجيع القاني
وعلى غناء المشرفية في الطلى ... والهام رقصُ عوامل المُرّان (٦)
وكأنّ بين النقع لمع حديدها ... نارٌ تألّقُ من خلال دخانَ
غطّى الهجاجُ به نجومَ سمائهِ ... لتنوب عنها أنجم الخِرْصانِ (٧)

---

(١) لا نبع ولا غرب : نبع ،نوع من الشجر (لسان العرب مادة : نبع) ،وغرب: شجر (لسان العرب : غرب) .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ١٥٤ .
(٣) كتاب الروضتين ٢/ ٤٤٥ .
(٤) نفسه ١/ ٤٩ .
(٥) ديوان ابن منير/ ٢١٧ ،وشعر ابن منير/ ١٢٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٦٢ .
(٦) عوامل المران : عوامل : عامل الرمح وعاملته : صدره دون السنان ويجمع عوامل ،وقيل عامل الرمح ما يلي السنان (لسان العرب مادة :عمل) . المران : نبات الرماح (لسان العرب ،مادة : مرن) وانظر معجم الألفاظ الفارسية/ ١٤٥ .
(٧) انظر ديوان العماد / ٤١٢ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٥٥ . والخرصان : الخِرْص : الرمح ،والخرصان : القضبان ،والخِرْصان :الدروع وهي (خِرْصان وخُرْصان) (لسان العرب مادة : خرص) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الفصل الثاني)

صورة البطل المسلم

(المبحث الأول)

المجاهد

آمن نور الدين بأنه يرضي ربه بالجهاد في سبيله ، " فكان لا يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد وما يعود نفعه على العباد "(١) .

وعندما أقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار إلى الشام ، قيل له : "إنّك تحب الموصل والمقام بها ، ونراك أسرعت العود ، فقال : يمنعني أنني ههنا لا أكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد " (٢) .

وكان " لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغر ، وصونا من الحيف ، ليحمي البلاد من العدو بالسيف "(٣) .

وقد خلف نور الدين والده في مسيرة الجهاد والتحرير ، وقد حقق انتصارات عظيمة على الافرنج ذكرت المسلمين بوقائعهم الأولى مع المشركين والروم والفرس ، وقد استمر الصراع رهيبا بين المسلمين والافرنج ، وكلما انتصر المسلمون في موقعة أعادوا للامة ثقتها بامكانية تحرير بقية بلاد المسلمين ، ولأجل ذلك كان الشعراء يحثون نور الدين على مواصلة الجهاد ، وحطوا على عواتقهم عبء الدعوة الى الجهاد ومقاومة المحتلين .

وكان نور الدين يقاتل العدو بنفسه ، وقد وضع هدفا ، وهو طرد الصليبيين ، وعمل على تحقيقه . وقد سجل الشعراء صورا رائعة لجهاد نور الدين البطل المسلم ، ومنها : اشتغال نور الدين بمجاهدة نفسه وحملها على فعل الخير ، وكذلك مجاهدة الاعداء المتربصين بالامة الاسلامية ، فصوروه ذائدا عن ديار الاسلام ، وساعيا لاسترداد المقدسات والارض المحتلة .

---

(١) الروضتين ٢/ ٥٨٤ .
(٢) نفسه / ٤٧٨ .
(٣) نفسه / ٥٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : الجهاد ضد العدو

تنبه الشعراء إلى مجاهدة نور الدين نفسه ، فعدوا ذلك نوعًا من الجهاد يستحق التمجيد ، وقرنوه بجهاد العدوّ ، يقول ابن القيسراني :

ذو الجهادين من عدوٍّ ونفسٍ فَهْو طول الحياةِ في هيجاء (١)

ويقول ابن منير :

أمّا نهارُك فهو ليلٌ مجاهدٍ والليلُ مِنْ طول القيام نهارُ (٢)

ونور الدين بعيد كل البعد عن مظاهر اللهو والترف ، وهو يحدث نفسه دائما بالجهاد ، قال العماد في مدحه :

يمسي ويصبح في الجهاد وغيرُهُ
يضحى رضيع سلافةٍ وضجيع دنّ (٣)

ونور الدين لا يضاهيه أحد من الملوك في جهاده ، فهو مجاهد في السر والعلانية ، وقد وصفه العماد - عندما طلب نور الدين من العماد وصف حالهم مع الفرنج - بقوله :

قل أين مثلك في الملوك مجاهدٌ للّه في سرّ وفي إعلان (٤)

ومدح ابن قسيم الحموي نور الدين ، وذكر جهاده في سبيل الله ، يقول من قصيدة له فيه :

هذا الذي في الله صحّ جهادُهُ
هذا الذي بالله صحّ يقينُهُ (٥)

وعين نور الدين تسهر من أجل أمن المسلمين وسلامتهم ، كما يقول ابن منير :

سهرت عينك الكلوءُ ونامو تحت أكناف رعيها آمنينا (٦)

ويبقى نور الدين مهموما حتى يحقق هدفه ، ويطرد الأعداء من أرض المسلمين ، فهو وان اراح الخيل لا يرتاح باله ، يقول ابن القيسراني :

فأنت وان أرحت الخيل وقتًا فهمُّك غيرُ همِّ المستريح (٧)

---

(١) كتاب الروضتين ١ / ٤٥ ، والكواكب الدرية / ٧٥ .
(٢) ديوان ابن منير ٢ / ١٩٢ ، وشعر ابن منير / ٨٧ ، وكتاب الروضتين ١ / ٥٤ .
(٣) ديوان العماد / ٤٢١ ، وكتاب الروضتين ١ / ٥٤٩ .
(٤) ديوان العماد / ٤١٧ ، وكتاب الروضتين ١ / ٥٢٩ .
(٥) كتاب الروضتين ١ / ٧٥٠ .
(٦) ديوان ابن منير / ١٩٤ ، وشعر ابن منير / ١٨٦ ، وكتاب الروضتين ١ / ٥٧ .
(٧) كتاب الروضتين ١ / ١٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستعين نور الدين بالصبر على الجهاد ، واسترداد البلاد المحتلة وفي ذلك يقول ابن القيسراني :

صبرت فكان الصبرُ خيرَ مغبةٍ فسيق إليك الملكُ يسعى به النُّجْحُ (١)

ويقول اسامة بن منقذ :

لكن لنور الدين من دون الورى ناران : نارُ قرى ونارُ جهاد (٢)

وقال العماد في مقدمة الخريدة : " ولقد قال نور الدين يوما : ما أطيب دمشق ،ولكني مشتغل بالجهاد عن ملاذها ،ونظم العماد ابياتا في الجهاد بديهة على لسان نور الدين ، يقول منها :

ليس في الدنيا جميعًا بلدةٌ مثل دمشق
ويُسلّيني عنها في سبيل الله عشقي (٣)

ويصور العماد نور الدين محبا للجهاد ومغرما به ، ولا صبر له عنه ، يقول :

أصْبَحْتَ بالغَزْوِ صبًّا وعنْهُ مالَكَ صَبْرُ (٤)

وبسبب حب نور الدين للجهاد وعشقه له ،كان يطلب من العماد أن يعمل على لسانه (دوبيتات) في الغزو والجهاد منها :

أقسَمْتُ سوى الجهادِ ما لي أربُ
والراحةُ في سواه عندي تعبُ
إلّا بالجدِّ لا يُنال الطَّلَبُ
والعيش بلا جدّ جهادٍ لَعِبُ (٥)

وقال ايضا في معنى الجهاد على لسانه :

لا راحة في العيش سوى أنْ أغزُو
سيغي طَرَبًا إلى الطِّلى يهتز
في ذلّ ذوي الكفر يكون العزُّ
والقدرةُ في غير جهادٍ عجزُ (٦)

وقال : للغزو نشاطي وإليه طربي مالي في العيش غيرهُ من أَرَبِ

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٨٠ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٥٨٤ ، والبيت غير مذكور في ديوان أسامة .
(٣) ديوان العماد / ٣١٤ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ١٧-١٨ .
(٤) ديوان العماد / ١٧٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٧٨ .
(٥) ديوان العماد / ٧٦ ،والخريدة ، قسم الشام ١/ ٤٢ .
(٦) ديوان العماد / ٢٢٣ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالجدّ وبالجهاد نجحُ الطّلب
والرّاحة مستودعةٌ في التعب (١)

وقد سجل الشعراء صورا مشرقة لبطولة نور الدين وجهاده للاعداء ، وشارك الشعراء في المعركة ضد العدو ، وكان لهم أثر بالغ في الاستثارة والحشد والتعبئة ، من أجل طرد العدو واسترداد الارض .

وكان للشعراء أثر بارز في بعث الحماسة والحمية في نفوس المقاتلين ودعوة نور الدين لمواصلة الجهاد والكفاح .

وقد كان الشعر الجهادي سجلاً للأحداث والمعارك التي خاضها نور الدين وأعجب الشعراء بالبطل ، وأثنوا عليه ، وأشادوا بجهاده ، وصوروا فعله بالأعداء ، وسخروا من الأسير والقتيل الصليبي .

قال ابن منير من قصيدة مدح فيها نور الدين البطل ، الذى يقود المعارك وتتهاوى امامه قلاع الاعداء :

يا نور دين الله: كم حادثٍ دجا وأسفرتَ له فانْشَرَى
وكم حمىً للشّرك لا يهتدى الـ وهم له غادرته مجزرا
مناقبٌ تكسر كسرى كما تَقْصِرُ عن إدراكها قيصرا
ما عام في أوصافها شاعرٌ الا رأى أوصافها أشعرا (٢)

وقال ايضا :

يتناذر الأعداء منهُ سطوةً ملء الزمان تغيُّظًا وزفيرا
عرفوا لنور الدين وقْعَ وقائعٍ وفّى بها الاسلام أمس نذورا (٣)

---

(١) ديوان العماد / ٧٧ ، والخريدة ، قسم الشام ١/ ٤٣ .

(٢) ديوان ابن منير / ٢٠٧ ، وشعر ابن منير / ٩٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٤٧ .

(٣) ديوان ابن منير / ٢١٨ ، وشعر ابن منير / ٩٦ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصوّر ابن منير في قصيدة اخرى الصراع الديني بين المسلمين والفرنج ، وبيّن ما يفعل نور الدين بقادة الفرنج وكنائسهم وصلبانهم ، فيقول :

صدم الصليب على صلابة عوده
فتفرقت أيدي سبا خشباتُهُ (١)
وسقى البرنس (٢) وقد تبرنس ذلةً
بالرّوح مُقْفَر (٣) ما جنت غدراتُهُ
ولّى وقد شربت ظباك كماتَهُ
تحت العجاج وأسلمته حماتُهُ
ترك الكنائس والكناس لناهبٍ بالبيض ينهب ما حواه عفاتُهُ
غلّاب أروع ، لا يُميت عِداتِهِ داء المطال ولا تعيش عداتُهُ (٤)

وصور ابن منير الصليب ، وقد خر بسبب ضربات سيوف المسلمين :

خر الصّليبُ وقد علَتْ نغماتُها واستَوْهَلَتْ صلواتُهُ تكرارها (٥)

وصور ابن منير أيضا ، فعل نور الدين بالرّوم وصلبانهم ، وأصنامهم ، يقول :

ملكٌ أزال الرّوم عن صلبانها دفاعُهُ وكبّ من أصنامها
جالَ على الجَوْلان أمس جولةً صفّرت الأدْحيّ من نعامها (٦)

وبين ابن منير أن معاقل الصليبيين وصلبانهم لا تستطيع الصمود أمام قوة نور الدين وبأسه ، يقول :

صببت على الصّليب صليب بأسٍ قُواهُ تحت كَلْكَلِهِ خطام
ولمت على معاقلهم فخرّت ولا مثل ما انتقض النّظام (٧)

وبقوة إرادة نور الدين وعزمه وإيمانه ، وتصميمه على طرد الأعداء يتيسر الجهاد وتصبح طريقه سهلة أمام البطل وجنوده ، مما يتيح لنور الدين قتل الشرك وأهله ، يقول ابن القيسراني :

رَدَدْتَ الجهادَ الصّعبَ سَهْلاً سبيلُهُ
ويا طالَما أمسى وسلكُهُ وَعْرُ

---

(١) تفرقت أيدي سبا خشباته : ضربت العرب بأهل سبأ المثل في الفرقة ، لأنه لما أذهب الله عنهم جنتهم وغرق مكانهم تبددوا في البلاد ، وهنا شبه خشبات الصليب وتفرقها بأهل سبأ لما مزقهم الله في الارض كل ممزق ، والعرب لا تهمز سبا في هذا الموضع لأنه كثر في كلامهم . (انظر لسان العرب ، مادة : سبا) .

(٢) Prince : الأمير (كل عضو في الأسرة المالكة) ، انظر نور الدين (اليسيف) / ٤٠٧) .

(٣) مقفر : من أقفر الشيء : صار مرا (لسان العرب مادة : مقر) .

(٤) ديوان ابن منير / ٢١٢-٢١٣ ، وشعر ابن منير / ٥٥-٥٦ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٥٨-١٥٩ .

(٥) ديوان ابن منير / ٢١٦ ، وشعر ابن منير / ١٢٠-١٢٤ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٦١ .

(٦) ديوان ابن منير / ٢٣٤ ، وشعر ابن منير / ١٧٨ ، وكتاب الروضتين ١ / ٢٠٣ .

(٧) ديوان ابن منير / ٢٤٨ ، وشعر ابن منير / ١٦٦-١٦٧ ، وكتاب الروضتين ١ / ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأطمعت في الافرنج من كان بأسه تخوّف أن يعتاده منهم فكر
وأقحمت جرد الخيل أعلى حصونها ولولاك لم يهجم على كافر كفر
ومن يدّعي في قتلك الشرك شركةً إذا لم يكن عند القوافي له ذكر (١)

ويشير ابن منير إلى أن نور الدين ،قد طهر البلاد من رجس الفرنج وأوثانهم وجعل قصورهم قبورهم ، يقول :

أخلى ديار الشرك من أوثانها حتى غدا ثالوثهنّ نكيرا (٢)
رفع القصور على نضائد هامهم من بعد ما جعل القصور قبورا

وقد وجد ابن منير في انتصار نور الدين فرصة لتحريضه وحثه على مزيد من الجهاد والقتال لطرد الأعداء من الأرض ،واستئصال شأفتهم ،يقول :

ألق العصا فيمن أطاع ،ومن عصى منهم ،ودَمِّر أرضهم تدميرا
لا يُلهِهِمْ أن قد مَنَنْتَ ، وشُنَّها شعواء تُصلى الكافرين سعيرا (٣)

ويسخر ابن منير من قادة الفرنج ويحقرهم ،ويصف ما أصابهم من قتل وأسر وذل ،ويتشفى بهم ، ويمجد بطولة المسلمين ، يقول :

أنّى في إثْر فوارسها ترْدى فتردي أولاك أخراها
أشجت لهاة البرنس هبوتها (٤) وكم عتا عاتيًا فأشجاها
وجوسلين استساغ نطفتها فاحتلب الذلّ تحت مغداها (٥)
ردّته صفرًا من كل ما ملكت يداه أيدٍ ما ضلّ سراها (٦)

وصور ابن منير الاعداء ، وما يفعل بهم نور الدين في قصيدة اخرى قائلا :

ملقٍ بأطراف الفرنجة كلكلاً (٧) طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا ،فلما عاينوا حوض الردى حاموا برائش كيدهم أو كادوا

---

(١) كتاب الروضتين ٢/١٨٦-١٨٧ .
(٢) ثالوثهن نكيرا : المقصود هنا تغيير المنكر (عقيدة التثليث والايمان بها) (لسان العرب : نكر) .
(٣) ديوان ابن منير/٢٤٦ ،وشعر ابن منير/٩٧-٩٩ ،وكتاب الروضتين ١/٢١٦-٢١٧ .
(٤) هبوتها : غبرتها (لسان العرب ، مادة : هبا) .
(٥) مغداها : المغداة ،ما في بطون الحوامل (لسان العرب ، مادة : غدا) .
(٦) ديوان ابن منير/٢٥٦ ،وشعر ابن منير/٢٠١ ،وكتاب الروضتين ٢٣٢/١ .
(٧) الكلكل- الصدر من كل شيء ،وقيل هو ما بين الترقوتين ،والكلكل من الفرس ما بين محزمه إلى ما مس الارض منه اذا ربض (لسان العرب : مادة : كلل) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورجا البرنس وقد تبرنس ذلّـــةً حرمًا بحارم والمصاد مُصـــاد (١)
ضجت ثعالبه فأخرس جرسهـــا بيضٌ تناسب في الحديد حداد (٢)

ويصور العماد الأصفهاني نور الدين وقد زرع الرعب في قلوب الأعداء فظهـرت علاماته على وجوههم ، يقول :

واستنارت عزائم الملـك العـــا دل نور الدين الكريم الأغـرّ
وبنو الأصفر القوامصُ منـــــه بوجوهٍ من المخافة صُفْـــر (٣)

وقال العماد في معنى الجهاد على لسان نور الدين أبياتًا يبين فيها مـــا أصاب الأعداء من اهانة وذل ،وما لنور الدين من العزم والتصميم على جهادهم ، ويصفهم بالمشركين والكفار :

أذللتُ ذوي الشّرك بعزٍّ العـزم والكفر بهزّ صارمي في عزم
شيدتُ بنى الملك بأمري الجـزم والنصر رأيته قرين الحـزم (٤)

ومدح العماد نور الدين من قصيدة أخرى ،وصوّر ما يلحق الفرنج من مصائـب عظيمة ، وما يدخل في نفوسهم من رعب، يقول :

جلّ رزء الفرنـج فاستبدلـوا منـ ـهُ بلبس الحديد لبس الحداد
فرّق الرّعبَ منه في أنفس الكفّـ ـار بين الأرواح والأجسـاد (٥)

ويصور أبو يعلى (٦) مـدى فرحة المسلمين وابتهاجهم بالنصر عندمـا يهزم نور الدين الفرنج فيقول :

ما رأينا فيما تقدم يومـًا كاملِ الحسن غايةً في البهـاء
مثل يوم الفرنج حين علتهـم ذلةُ الأسر والبلا والفنـاء
وبرايا تهم على العيس زُفّـوا بين ذلٍّ وحسرةٍ وعنـاء

---

(١) والمصاد مصاد : الأولى بمعنى (الصيد) ، والثانية بمعنى مأخوذ انظر (لسان العرب ،مادة:صيد)
(٢) ديوان ابن منير/٢٦٣ ،وشعر ابن منير/ ٧٠-٧١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٥٥ .
(٣) ديوان العماد /٢٠٠ ،وكتاب الروضتين ١/٥٠٣ ، وبنو الأصفر: الفرنج .
(٤) ديوان العماد /٣٩٣ ، والخريدة ،قسم الشام ١/٤٣ .
(٥) ديوان العماد /١٢٦ ،والخريدة ،قسم الشام ١/٤٩ .
(٦) أبو يعلى : حمزة بن القلانسي ، انظر ترجمته في الحديث عـن نور الدين والأدباء ،الباب الثالث من هذه الدراسة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هكذا هكذا هلاك الأعادي عند شنّ الإغارة الشعواء(١)

واشترك الشاعران الصديقان أسامة بن منقذ والملك الصالح طلائع بن رزيك في تحريض نور الدين على جهاد العدو ، وحث فرسان مصر والشام على الجهاد من خلال الرسائل الشعرية المتبادلة بين الشاعرين .

وقد تضمنت هذه الرسائل وصفا للوقائع والمعارك ،وعددت الانتصارات ، ومجدت الابطال ، ودعتهم لمواصلة قتال الاعداء . فهذا طلائع بن رزيك يحث نور الدين على التجهز وقتال العدو في احدى رسائله الشعرية إلى أسامة بن منقذ ، وقد افتتحها بما يتناسب وموضوع الحث على الجهاد ، يقول :

ألا هكذا في الله تمضي العزائمُ
وتُنضى لدى الحرب السيوفُ الصوارمُ
وَتُستَنْزَلِ الأعداءُ من طَوْدِ عزِّهم
وليس سوى سُمر الرِّماح سَلالمُ
وتغزى جيوش الكفر في عُقْر دارِها
ويوطى حماها والأنوفُ رواغمُ

فذكر السيوف والرماح ، وغزو جيوش الكفر قبل أن تتحرك لقتال المسلمين ، هو تمهيد لدعوة صريحة من أجل غزو الاعداء في عقر دارهم وطردهم من أرض المسلمين :

فقولوا لنور الدين لا فُلَّ حَدُّه
ولا حكمت فيه اللّيالي الغواشمُ
تَجَهَّزْ إلى أرضِ العدوّ ولا تهن
وتُظْهر فتورًا إنْ مَضَتْ مِنْكَ حارمُ
فَنَحْنُ على ما قَدْ عَهِدْتَ ،نَروعُهم
ونحلفُ جهدًا أننا لا نُسالِمُ
وغاراتُنا ليست تغتَرُّ عنهم
وليس ينجي القوم منا الهزائم(٢)

وفي رسالة اخرى يستنهض طلائع بن رزيك نور الدين ،ويعلق عليه أملاً كبيرًا في جهاد العدو ، واستئصال شأفة الكفار ،يقول :

أيّها المنقذيُّ أنت على البُعْد صديقٌ لنا ونعم الصديقُ

---

(١) ذيل تاريخ دمشق / ٥٢٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٧٢ .
(٢) ديوان طلائع بن رزيك / ١٣٥-١٤٢ ، وديوان اسامة بن منقذ / ٢٢٠-٢٢٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها :

وأهم الأمور أمرُ جهادِ الـ ... ـكُفْرِ فاسمع فعندنا التحقيقُ
وانتظرنا بزحفنا برءَ نورِ الـ ... ـدين علمًا منا بأنّ سيُغيثُ
قُلْ له : لا عداه رأيٌ ولا زا ... ل لديه لكلّ خيرٍ طريقُ
أنتَ في حَسْم داء طاغيةِ الكفْـ ... ـفار ذاك المرجوُّ والمرموقُ
فاغتنم بالجهادِ أجرك كي تلـ ... ـقى رفيقًا له ونعمَ الرفيقُ (١)

وأجابه أسامة بن منقذ ، وقال له : إن نور الدين يلبي دائمًا دعوة الجهاد وهو سبّاق إلى فعل المكرمات ، يقول :

يا أميرَ الجيوش ما زال للاسْـ ... ـلام والدين منك ركن وثيقُ
أسمعت دعوةَ الجهاد فلبّـ ... ـا هـا طيكَ بالمكرُمات خَليقُ
ما له عن جهاده الكفرَ والعدّ ... ل وفعلِ الخيرات شغلٌ يعوقُ
هو مثل الحسام : صدرٌ صقيلٌ ... ليّنٌ مسّهُ وحدٌّ زليقُ (٢)

وكتب الصالح إلى أسامة من قصيدة يقول :

فلو انّ نور الدّين يجْـ ... ـعل فعلنا فيهم مثالا
ويسيّر الأجناد جَحْـ ... ـرًا كيْ ينازلهم نزالا (٣)

فأجابه أسامة بقوله :

نَبّهْتَ عبدًا طالمـا ... نَبَّهْتُهُ قَدَرًا وحالا
وعتبته فأنلتـ ... ـه فخرًا ومجدًا لن ينالا (٤)

وجهاد العدو أحلى أماني نور الدين ، فهو يسعى دائما لقمع المشركين ، ويعد جهاده لهم واجبا دينيا . يقول العماد الاصفهاني من قصيدة مدح بها نور الدين عندما طلب منه وصف ما جرى مع الفرنج :

أحلى أمانيك الجهاد وإنّه ... لك مُؤْذِنٌ أبدًا بكلّ أمان
كم بكر فتح ولّدَتْه ظباك من ... حربٍ لقمع المشركين عوان

---

(١) ديوان طلائع بن رزيك/ ١٠٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٩١-٢٩٢ .
وفي الروضتين : وأهم المهم أمر جهاد الـ كفر فاسمع فعندنا التحقيق .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ / ١٨٨-١٨٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٩٢ ،
وزليق : أملس يزلق عنه السلاح فلا يخرقه (لسان العرب ، مادة : زلق) .

(٣) ديوان طلائع بن رزيك / ١٢٤-١٢٦ ، وديوان أسامة/ ٢١٥ ،
وكتاب الروضتين ١/ ٢٩٣-٢٩٤ . فلو ان نور الدين : بتسهيل الهمزة .

(٤) ديوان أسامة/ ٢١٧ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٩٤ .
وفي الروضتين : وعتبته ، فأنلته فخرًا ، وحمدًا ، لن ينالا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها :

للرّوم والإفرنج منك مصائب
بالتّرك والأكراد والعربان (١)

وأرى أن الأدباء بشكل عام قد ألحّوا في طلب جهاد العدو ، وقد كان هذا الحث مطلبًا أساسيًا للمسلمين عامة ، والأدباء أحسوا بهذا الضغط من المسلمين فعبروا عن شعورهم وأمانيهم .

وقد كان لنور الدين دور مهم في الذود عن ديار المسلمين ، ورفع راية الاسلام ،وقد أعاد للاسلام عزه ومجده ، وقوى أركانه ، بعد أن ذاق الاسلام والمسلمون الذل والهوان على أيدي الصليبيين ، وقد سار على نهج والده في الذود عن ديار الاسلام ، يقول ابن القلانسي بعد وفاة عماد الدين زنكي :

وكم سَلَكٍ للسَّفْر أمَّن سُبْلَه وسرح حيٍّ أن تُراع سوائمُهْ
وكم ثغر إسلام حماهُ بسَيْفِه من الرُّوم لمّا أدركتْهُ مراحمُهْ (٢)

وصور الشعراء نور الدين بطلا مجاهدا ، أعز الاسلام وحافظ على ديار ،وأذل أعداءه . فقد صوره ابن القيسراني حاميًا لعواصم المسلمين ، فلا يستطيع الاعداء الاقتراب منها ، يقول :

عصم العواصمَ فهْي ضاحكةٌ تجلو الظّبى ثغرًا على الثغر (٣)

---

(١) انظر ديوان العماد / ٤١١ ، ٤١٧ ،والخريدة ، قسم الشام ١/ ٥٤ - ٥٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ .
(٢) ذيل تاريخ دمشق / ٢٨٦ - ٢٨٧ ، وكتاب الروضتين ١/ ١١٦ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصوره أيضا ، ذائدا عن الاسلام ومبعدا للمشركين عن ديـاره ، اذ يقـول :

تدارك ملةَ العربـيِّ ذبّـًا إلى أن عدّه منهُ مَعَـــــدُّ
وحلّ ذرا العواصم وهْي نهبى فأجلى الشِّرْكَ حتى ليس ضدُّ (١)

ونور الدين يغار على الاسلام ويغضب له ، يقول ابن منير :

غضبانُ للإسلام مالَ عمودُهُ ظنوره مما غراه نـــوارُ (٢)

وذكر أيضا ،أن نور الدين يجاهد من أجل حماية الدين وعزة الاسلام ،اذ يقول :

وجهاد عن حوزة الدين لم يأ لُ له ركضُه ولا إنفاقُـــهْ (٣)

وله فيه من قصيدة اخـــرى :

لقد أحصدت للإســـلام عـــزًّا يفوت سنامه يد كل قـــال
وأصبحت العواصم ملحفـــــاتٍ عصامًا غير مُنْتكِث الحبـال (٤)

وقد رد نور الدين للاسلام اعتباره ، وفي ظله انتصر الهدى على الضـــــلال ، وذلك بقوة عزيمته وثبات ايمانه ، يقول ابن منير :

أقوى الضلال وأقفرت عَرَصاتُـهُ وعلا الهـــدى وتبلّجت قسماتُهُ
وانتاشَ(٥) دين محمدٍ محمودُه من بعد ما عُلَّت دمًا عَبراتُـــهُ (٦)
رَدَّتْ على الاسلام عصرَ شبابِهِ وَثْباتُهُ من دونِهِ وَثَباتُـــهُ (٧)

ويقول ابن القيسراني ان بلاد المسلمين في ظل نور الدين قد طال بناؤها فلا يستطيع الهادم الوصول اليه ،ومع ذلك نجد الشاعر - زيادة في الحرص - يطلب من نور الدين أن يحصن البلاد حتى يهابها الأعداء ، والشاعـــر يعبر عن مشاعر المسلمين عامـــة وغيرتهم على البلاد الاسلامية ، يقول :

حَصِّنْ بـلادَك هيبةً لا رهبـةً فالدّرعُ من عُدَدِ الشّجاعِ الحازِمِ
هيهات يطمع في محلك طامعٌ طال البناءُ على يمين الهـادمِ (٨)

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٨ .
(٢) ديوان ابن منير/ ١٩١ ،وشعر ابن منير/ ٨٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٣ .
(٣) ديوان ابن منير/ ٢٠٥ ،وشعر ابن منير/ ١٤٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٢٨ .
(٤) ديوان ابن منير/ ٢٠٦ ،وشعر ابن منير/ ١٤٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٢٨ .
(٥) انتاش دين محمد : أي أحياه ورفعه (لسان العرب مادة : نأش) .
(٦) عُلَّت دما : العل : الشربة الثانية ،وقيل الشرب بعد الشرب تباعـــا (المصدر نفسه ،مادة : علل) .
(٧) ديوان ابن منير/ ٢٠٨ ،وشعر ابن منير/ ٥١ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٥٦ .
(٨) كتاب الروضتين ١/ ٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير ابن القيسراني أيضا الى أن نور الدين قد ذاد عن حمى الاسلام بخيله ، وأذل الكفر في وقائع كثيرة ،يقول من قصيدة له :

حمى قبّة الاسلام بالخيل فاغتدتْ وأوتادها جُرد (١) الطعان وقُبُّهُ (٢)
فكم هبوةٍ (٣) أوقعن بالكفر تحتها فما انقشعت إلاّ وللذلّ جنْبُهُ (٤)

ومدحه ابن منير مشيرا الى أنه حمى الشريعة وأذل الضلال بجهاده، اذ يقول :

ألوى (٥) ألدّ (٦) حمى الشريعة جُهْدُهُ وأذلّ ناصية الضّلالِ جهادُهُ (٧)

وله من قصيدة اخرى يثني فيها على نور الدين لحفظه معالم الدين واحيائه الشريعة :

مُحيي شريعَتِهِ من بَعْدِ ما انهَدَمَتْ
واستعْجَمَتْ بعد إفصاحٍ معانيها (٨)

وهو عنده هضبة الاسلام التي من يعصم بها يؤمن ، يقول :

يا هضْبةَ الإسلام من يُعْصَم بها يؤْمِنْ ،ومن يتولَّ عنها يكْفُرِ (٩)

والدنيا قد خضعت اجلالا لنور الدين ،وتوجته عزا ،وقد تمنطق الجوزاء ، وهو يغضب للاسلام ويدافع عن دياره ، يقول ابن منير :

جَلَّتْ له الدُّنيا على زِبْرِجِها (١٠) عفْوًا فلم تلو على خطامها (١١)
فتوّجَتْهُ العزّ في مرْتبةٍ تمنطق الجوزاء في نظامها
غضبانُ للإسلام لا يغيظُهُ اسْـ تسلامها للقسر من إسلامها (١٢)

---

(١) جرد الطعان : جرد : جمع أجرد : وهو الذى يسبق الخيل وينجرد عنها لسرعته (لسان العرب مادة : جرد) .
(٢) قبه : مفردها أقب : وهو الضامر البطن (نفسه ،مادة :قبب) .
(٣) هبوة : غبرة (نفسه ،مادة : هبا) .
(٤) كتاب الروضتين ١/ ١٨٨-١٨٩ .
(٥) ألوى : شديد الخصومة (لسان العرب ،مادة : لوى) .
(٦) ألد : شديد الخصومة للاعداء ،وقوى في دفاعه عن الاسلام (نفسه مادة : لدد) .
(٧) ديوان ابن منير/ ٢٢٥ ،وشعر ابن منير/ ٨٢ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٩١ .
(٨) ديوان ابن منير/ ٢٥٤ ،وشعر ابن منير/ ٢٠٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٠-٢٣١ .
(٩) ديوان ابن منير/ ٢٢٩ ،وشعر ابن منير/ ١٠٧ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٩٦ .
(١٠) زبرجها : غرور الدنيا وزينتها (لسان العرب ،مادة : زبرج) .
(١١) خطامها :الجمع: خطم ،وهو الحبل الذى يقاد به البعير (المصدر نفسه مادة : خطم) .
(١٢) ديوان ابن منير/ ٢٣٥ ،وشعر ابن منير/ ١٧٩-١٨٠ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونور الدين يحافظ على الثغور ويحمي الدّين ،ويصدّ الاعداء عن بلاد المسلمين ، يقول علم الدين الشاتاني (١) :

أَوَسدَّ بالشام الثغور محاميـًا للدين حتى عاد عنها قيصر (٢)

ومدح ابن منير نور الدين وصوره منجدا للاسلام ومقاتلا للاعداء ،يقول :

مَلْكٌ كسا الإسلام من ذَبّـه بُرْدا بتدبيج (٣) الظّبا مُعلما
من أصبح الشّامُ به شامـةً يقطر من قتل عداهُ دما
لوْ لمْ يقم مُنْصُلِتا دونـهُ لم نَلْقَ في أقطارها مسلما (٤)

فنور الدين يذود عن ديار الاسلام ،ويذود عن المسلمين ، ومع أنه يقوم بواجبه الا أننا نجد الشعراء يطلبون المزيد ويستنهضونه من أجل عزة الاسلام وذل الكفر ، فقد كتب الملك الصالح طلائع بن رزيك الى اسامة بن منقذ رسالة شعرية ، يقول منها :

جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ولم يلهنا عنه السّماع ولا الخمرُ

ومنها :

بنا أيّد الاسلام وازداد عـزّةً وذلّ لنا من بعد عزّته الكفر (٥)

وهو ركن للاسلام ،وحرب على الكفار ،ورافع لرايات الإيمان والتوحيد ، ومطهر للأرض من الكفار ، يقول العماد الأصفهاني :

وَثلْمُ ثَغْرِ الكُفْرِ عاداتُـهُ لا لَثْمُ ثَغْرِ الغادَةِ الرّودِ (٦)

ومنها :

غدوت للإسلام ركنًا وكـم ركن ضلال بك مهدودِ
شيّدت بالشام بناء الهدى عزمًا وحزما أيَّ تشييدِ
لولاك لم تعلُ بأطرافـه راياتُ إيمانٍ وتوحيدِ
فلمْ تدع في أرضه كافـرًا أو ملحدًا ليس بملحودِ
ولم تزل تردى صناديدهم بجندك الغُرّ الصناديدِ (٧)

---

(١) علم الدين الشاتاني : انظر ترجمته في الحديث عن نور الدين والأدباء في الباب الثالث من هذه الدراسة .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٤٤٥ .
(٣) تدبيج : تزيين (لسان العرب مادة : دبج) .
(٤) ديوان ابن منير/ ٢٥٨ ،ونشعر ابن منير/ ١٧٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٣ .
(٥) ديوان أسامة / ٢٠٢ .
(٦) الغادة الرود : الفتاة الناعمة (لسان العرب مادة : رود) .
(٧) ديوان العماد / ١٣٨-١٣٩ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيًا : الساعي لاسترداد المقدّسات والأرض المحتلة

لقد كان استرجاع بيت المقدس أمنيةَ المسلمين ، فالقدس أولى القبلتين ، وفيها ثالث الحرمين الشريفين ، وهي مسرى الرسول الأعظم ، ولها مكانة في العقيدة الاسلامية ، وارتباط وثيق بالحياة الاسلامية .

وقد استرجع نور الدين من الصليبيين " نيفًا وخمسين مدينة وحصنا ، وكان قد عزم على فتح القدس فوافته المنية "(١) .

وكان نور الدين قد عمل منبرا وقبلة بجامع حلب على اسم القدس ، ولكنه توفي قبل فتح القدس ، فلما ملك صلاح الدين بيت المقدس حمل المنبر إليه ، وأبقى القبلة بجامع حلب (٢) .

والملاحظ من خلال أدب الجهاد أن معظم نصوصه كانت تشير الى ضرورة تخليص القدس الشريف ، وفي هذه النصوص دعوة صريحة لانقاذ المسجد الأقصى من أيدى الصليبيين ، وتطهير جميع الأراضي المحتلة من دنسهم .

ونجد أنَّ الدعوة لاسترداد القدس والأرض المحتلة كانت تتكرر بعد كل انتصار يحرزه المسلمون على الصليبيين ، وكانت أنباء الانتصارات تهز مشاعر الادباء ، وتثير في نفوسهم الحماس ، وتدعوهم الى طلب المزيد من بذل الجهد لاسترداد ما تبقى من أرض المسلمين في أيدي الصليبيين .

ونور الدين حرّر بسيفه البلاد الكثيرة التي لم يكن يؤمل أحد في تحريرها ، ولذا فقد وضع الاسلام والمسلمون أملهم فيه لتطهير المسجد الأقصى ، واسترداد القدس ، ومدن الساحل ، لذا نرى ابن القيسراني يستنهض نور الدين لمواصلة الجهاد والنهوض إلى المسجد الأقصى ، لأن المسلمين يتطلعون بشوق وحماس لتطهير هذا الحرم الشريف من رجس الأعداء ، يقول :

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٧ ، ودول الاسلام ٢/ ٦٠ ـ ٦١ ، والكواكب الدرية / ١٦ .

(٢) الكواكب الدرية / ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب(١)
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله
فانما أنت بحر لجه لجب(٢)

ويقول ابن القيسراني من قصيدة أخرى ، يحث نور الدين على الجهاد واسترداد القدس :

فَسِرْ واملأ الدُّنيا ضياءً وبهجةً فبالأُفق الدّاجي إلى ذا السَّنا فقرُ
كأني بهذا العزم لا فلّ حدّه وأقصاه بالأقصى وقد قُضي الأمرُ
وقد أصبح البيتُ المقدّسُ طاهرًا وليس سوى جاري الدماء له طُهْرُ
وان يَتَيَمَّم ساحلَ البحرِ مالكًا فلا عجبَ أنْ يملكَ الساحلَ البحرُ(٣)

ويغتنم ابن القيسراني فرصة فتح دمشق ليذكر بفتح بيت المقدس ، يقول :

اذا ما (دمشق) ملكتك عنانها تيقن من في ايليا أنّه الذبح(٤)

وفي المناسبة نفسها - اى في حصار دمشق وفتحها - كتب ابن منير الى نور الدين قصيدة يمدحه فيها ، ويطلب منه تطهير المسجد الاقصى من دنس الصليبيين ، يقول منها :

آثارهم نَجَسٌ أذالَ المسجد الـ أقصى ، فَصُنْ ما دَنّسوه وطهّر(٥)

وكتب إليه أيضا قصيدة مدحه فيها ، وتطلع الى فتح القدس ، وتمنى ذلك ، يقول منها :

دمشقُ دمشقٌ إنّما القدسُ سرحةٌ(٦) ومركزها صَرْحٌ عليها ممرّدُ(٧)
متى أنا رائٍ طائرَ الفتحِ صادحًا يرفرفُ في أرجائها ويغرّدُ ؟(٨)

ويعرض ابن رزيك صورة مؤلمة لما حل ببيت المقدس من مصائب على أيدى الصليبيين تحرك مشاعر الانسان وتثير فيه الحماس للنهوض والجهاد ، فيقول من قصيدة بعث بها الى اسامة بن منقذ :

كره الشام أهله فَهْوَ محقٌّ بألّا يقيم فيه لبيب
ان تجلت عنه الحروب قليلًا خلفتها زلازلٌ وخطوب

---

(١) لجب : صوت العسكر (لسان العرب مادة : لجب) .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ١٥٤ ، واعلام النبلاء ٢/ ١٤ .
(٣) الباهر/ ١٠٣ ، والكامل ١١/ ١٥٦ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٨٧ ، واعلام النبلاء ٢/ ٢٣ .
(٤) كتاب الروضتين ١/ ١٨٠ .
(٥) ديوان ابن منير / ٢٢٩ ، وشعر ابن منير / ١٠٦-١٠٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٩٦ .
(٦) سرحة : دوحة محلال واسعة يحل تحتها الناس في الصيف (لسان العرب مادة : سرح) .
(٧) صرح ممرد : ممرس ، وتمريد البناء : تلميسه (المصدر نفسه ، مادة : مرد) .
(٨) ديوان ابن منير/ ٢٣٣ ، وشعر ابن منير/ ٦٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن ظنّي والظن مثل سهام الـ ـرّ مي ،منها المخطي ومنها المصيبُ
أن هذا الأن غدت ساحة القـ ـدْ س وما للإسلام فيها نصيبُ
منزل الوحي قبل بعث رسول الـ ـله ،فَهْو المحجوج والمحجوبُ
نزلتْ وسْطهُ الخنازيرُ والخمـ ـرُ ،وبارى الناقوس فيه الصليبُ
لو رآه المسيح لم يرض فعلا ذكروا أنه له منسوبُ
أبعد الناس عن عبادة رب النـ ـاس قومٌ إلههم مصلوبُ
لَهْف نفسي على ديارٍ من السّكْـ ـكان أقوت، فليس فيها عَرِيبُ(١)

فالشاعر عزّ عليه ما حلّ بساحة القدس وهي مهبط الوحي ، وعز عليه نزول الخنازير بساحتها ،ومعاقرتهم للخمر فيها .

ومما كتبه ابن رزيك ايضا ، الى اسامة قصيدة يصف فيها فعلهم بالفرنج ، ويرى فرصة مناسبة لحث نور الدين على الجهاد ،والنهوض من أجل استرداد القدس ، يقول :

بَلِّغُوا قولَنا إلى المَلِك العا دِلِ ،فَهْو المرجوّ والمأمولُ
سِرْ إلى القدس واحتسب ذاك في اللّـ ـه فبالسير منك يشفى الغليلُ
وإذا ما أبْطا سيرُك فاللّـ ـهُ إذًا حسبنا ونعم الوكيلُ(٢)

ومن رسائل أسامة بن منقذ الجوابية التي أرسلها إلى طلائع بن رزيك رسالة شعرية ،ذكر فيها بعض فتوحات نور الدين ،يقول في مطلعها :

أبى اللّهُ إلّا أنْ يكونَ لنا الأمـ ـرُ لتحيا بنا الدُّنيا ويفْتَخِرَ العصرُ
نسيرُ إلى الأعداءِ والطّيرُ فوقَنا لها القوتُ من أعدائِنا،ولنا النَّصْرُ

ومنها :

ونرتجعُ القُدْسَ المُطَهّرَ منهمُ ويُتلى بإذن اللّهِ في الصَّخرةِ الذِّكرُ
بنا استرجعَ اللّهُ البلادَ وأمّنَ الـ ـعبادَ فلا خوفٌ عليهمْ ولا قَهْرُ(٣)

---

(١) انظر ديوان أسامة/ ١٦٤-١٦٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٦٧ .
(٢) ديوان طلائع بن رزيك / ١٢٩-١٣٠ ،وديوان أسامة / ٢١٨ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٩٧ .
ما أبطا : بتسهيل الهمزة الثانية .
(٣) انظر ديوان أسامة بن منقذ / ٢٠١ - ٢٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما دام نور الدين قد استرجع الكثير من البلاد ، فقد أمل اسامة أن يسترجع القدس الشريف ، ويحقق للمسلمين أمنيتهم :

وكان كلُّ نصرٍ يذكر المسلمين باستعادة القدس . فعندما انتزع نور الدين منبج من ابن حسان ، مدحه العماد بقصيدة يقول منها :

أعطيت هذا الفتح مفتاحًا بـه ... في المُلْك يَفْتَحُ كلَّ بابٍ مُرتَجِ
وافى يبشّرُ بالفُتـــوح وراءَهُ ... فانهضْ إليها بالجيوش وعـرِّجِ
أبْشِرْ ، فبيتُ القدْس يتلو منبجًـا ... ولمنبجٌ لسواهُ كالأُنْمـوذَجِ

ويحثه على مواصلة الجهاد واسترجاع القدس والمدن الاخرى المحتلة ،قائلا :

فانْهد إلى البيت المقدس غازيًا ... وعلى طرابُلُسٍ ونابُلُسٍ عُجِ (١)

وعندما فتح أسد الدين مصر ، كتب اليه العماد من الشام يهنئه ،ويتمنى فتح بيت المقدس عن قريب ، يقول :

فتحت مصر وأرجو أن تصير بها ... ميسّرًا فَتْحَ بيت القُدْسِ عن كَثَبِ (٢)

وأنشد الحافظ ابن عساكر نور الدين قصيدة يهنئه فيها باستيلاء جنده على مصر ،وكان نور الدين قد أعفى أهل دمشق من المطالبة بالخشب ، يقول في مطلعها :

لما سمحت لأهل الشام بالخَشَبِ ... عُوِّضت مصر بما فيها من النشب

ويغتنم ابن عساكر هذه المناسبة ليحث نور الدين على البذل والجهاد من أجل استرداد القدس وتطهير المسجد الاقصى ، وما حوله من النجاسات ومن المشركين والصلب ، فيقول :

وإنْ بَذَلْتَ لفتح القُدْسِ مُحْتَسِبًـا ... للأجْرِ جوزيتَ أجرًا غيرَ مُحْتَسَبِ

ومنهـا :

ولستَ تُعذَرُ في تَرْكِ الجهادِ وَقَدْ ... أصبحتَ تَمْلِكُ من مصرَ إلى حَلَبِ

---

(١) ديوان العماد / ١٠٢-١٠٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٨٠ - ٣٨١ ،وأعلام النبلاء ٢/ ٤٨ .
عج : عجت بالمكان : أقمت به (لسان العرب ،مادة : عوج) .
(٢) ديوان العماد / ٨٠ ،وسنا البرق الشامي ١/ ٧٩ ،وكتاب الروضتين ٢/ ٤٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَطَهِّرِ المَسْجِدَ الأقصى وحوزَتَهُ من النَّجاساتِ والاشراكِ والصُّلُبِ
عساكَ تَظْفَرُ في الدُّنيا بحسنِ ثنًا وفي القيامةِ تلقى خيرَ مُنْقَلَبِ (١)

ويرى العماد الاصفهاني أن غزو الاعداء في بلادهم ضرورى لكبح جماحهم، لذا فاننا نجده يطلب من نور الدين أن يغزوهم في عقر دارهم، وأن يحطم جموعهم، ويطهر القدس من رجسهم، يقول من قصيدة مدح فيها نور الدين:

أُغْزُ الفرنْجَ فهذا وقْتُ غَزْوِهِمُ واحطم جموعَهُمُ بالذابلِ الخطمِ
وطهِّرِ القدْسَ من رِجْسِ الصَّليبِ وثِبْ على البُغاثِ وثوبَ الأجْدَلِ القطمِ (٢)

ويطلب العماد أيضا من قائد نور الدين صلاح الدين الأيوبي أن يقتل الافرنج ويأسرهم، ويستنهض الهمم من أجل غزوهم وفتح البيت المقدس، وعدم التواني في نيل هذه الفضيلة التي تديم المعروف والذكر الطيب، يقول من قصيدة مدح فيها صلاح الدين:

أيا يوسف الإحسان والحسن خيرُ منْ
حوى الفضْلَ والإفضالَ والنهْيَ والأمرا
حمى حوْزةَ الدِّينِ الحنيفِ بحوْزه
من الخالقِ الحُسْنى ومن خلْقه الشكرا

ومنها:

فصبّوا على الافرنج سوط عذابها
بأن تقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهطلوا البيت المقدس واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيّب ذكركم
وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا (٣)

ويبدو من إحدى رسائل نور الدين التي بعث بها إلى الخليفة العباسي تصميم نور الدين على استعادة القدس والساحل الفلسطيني، وطرد الصليبيين من جميع بلاد المسلمين، يقول منه: " وقسطنطينية والقدسُ يجريان إلى أمَدِ الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحْشةِ ليلِ الظلام المُدْلَهمّ على انتظار صباحِ المؤانَسَة، والله تعالى بكرمه يدني قطافَ الفتحين لأهلِ الإسلام، ويوفّق الخادمَ لحيازةِ مراضي الإمام "

---

(١) كتاب الروضتين ٢/ ٤٠٥. (٢) ديوان العماد/٣٨٢، وكتاب الروضتين ١/٤٤٣-٤٤٥.
البغاث: ضعاف الطير، وكل طائر ليس من جوارح الطير (لسان العرب مادة: بغث).
الأجدل: الصقر (المصدر نفسه، مادة جدل).
القطم: المشتهى للحم (المصدر نفسه، مادة: قطم).
(٣) ديوان العماد/ ١٥٩-١٦١، وكتاب الروضتين ١/٤٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي آخر الكتاب يقول : " ونسأل الله التوفيق لاستدناء المنى واقصاء عبدة الصليب الانجاس من المسجد الاقصى ، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده ومقتدح زناده ومقترحه في جهاده وأن يطلعه الساحل بجميع بلاده "(١) .

مما تقدم نرى سعي نور الدين البطل المسلم لاسترداد المقدسات والارض المحتلة ، وتطلع الادباء الى تحقيق هذه الامنية التي طالما راودتهم .

ودور الادباء في الحث على الجهاد وبعث الحماس في نفوس المسلمين ، وأملهم في استرداد الارض المحتلة وطرد العدو الصليبي . كل ذلك يبين مدى التزام الادباء بقضايا امتهم وغيرتهم على المقدسات الاسلامية .

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٥٤٧ - ٥٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المبحث الثاني)

الساعي للوحدة الاسلامية

لقد كان نور الدين يدرك - كما كان يدرك والده عماد الدين - أن وحدة الصف الاسلامي تعني نهاية العدو الصليبي الطارئ على البلاد الاسلامية ، لذا فقد خطط نور الدين لتوحيد الامارات الشامية الاسلامية ، في ظل دولة إسلامية موحدة قوية ،وبجند الشام وماله يضم مصر ، وبجند مصر والشام يطرد الصليبيين من بلاد المسلمين ، وبعد ذلك استطاع نور الدين أن يسير في سبيل هذه الوحدة خطوات واسعة موفقة . وقد كانت الوحدة الاسلامية عاملا اساسيا من العوامل التي أضعفت الصليبيين ، وبالتالي أدت إلى طردهم من البلاد الاسلامية فيما بعد .

ولقد أسهم الادباء بقسط وافر في الدعوة إلى الوحدة لتحطيم العدو الصليبي ، ولتحرير بقية البلاد الاسلامية ، واستغلوا كل فرصة متاحة لدعوتهم هذه التي تعبر عن آمال المسلمين ، وفي إطار توحيد الصفوف في الداخل ، تم الصلح بين حكام دمشق ونور الدين ،وذلك سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، فاستغل الشعراء هذا الحدث العظيم ، ومدحوا نور الدين لسعيه من أجل إجراء هذا الصلح ، يقول ابن القيسراني :

لك الله ان حاربت فالنصر والفتح
وان شئت صُلحاً عُدّ من حزمك الصلح
وهل أنت الا السيف في كل حالة
فطوراً له حدٌ وطوراً له صفح (١)

فالشاعر يعد الصلح نصرا ، وهذه حقيقة ،اذ انه قوى مركز نور الدين في الداخل ، حتى يتسنى له الاستعداد التام لمعاركه مع الفرنج .

وفي قصيدة اخرى يعبر الشاعر عن فرحته بمصالحة دمشق مع حلب ، ويتتبع في هذه القصيدة انتصارات نور الدين السابقة ،يقول مخاطبا نور الدين :

ليَهْنِ دمشقاً أنّ كرسيَّ مُلْكِها حبى منك صدراً ضاق عن همّه الصَّدْرُ
وأنّك نورُ الدين ،مُذ زُرْتَ أرضَها سَمَتْ بك حتى انحطّ عن نَسْرِها النَّسْرُ
خَطَبْتَ ،فلم يحجبك عنها وليُّها وخَطْبُ العُلا بالسيف ما دونه سِتْرُ
جلاها لَكَ الإقبالُ حوريةَ السّنا عليها مِن الفِرْدوسِ أردية خُضْرُ

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسقت إليها الأمن والعدل نِحْلةً فأسْمَت ولا أسر تخاف ولا إصْـــر
وهل هي إلا كالحَصَانِ تَمَنَّعَـتْ دلالاً ،وإنْ عَزّ الحيا وغلا المَهْـرُ
ولكن إذا ما قستها بصَداقِهـــا فليسَ له قَدْرٌ وليس لها قـــدْرُ
على أنّها لو لم تُجِبْك إنابـــةً لأرْهقها من بأسك الخوفُ والذعْرُ (١)

وفي سنة ست وأربعين وخمسمائة حاصر نور الدين دمشق ، لمعاضـــدة أهلها الافرنج ، فكتب إليه ابن منير ، يحرضه على الثأر منهم :

هُمْ شيّدوا صَرْح النِّفاق وأوقَـدُوا ناراً تَخُشُّ بهمْ غداً في المَحْشَـرِ
أذكوا بجلّق حرّها واستشعـــرت لفحاتها بين الصفا والمَشْعَـــرِ
شمِّر ، فقد مدّت إليكَ رقابَهـــا لا يُدرِكُ الغايات غيرُ مشمِّـــرِ (٢)

وفي عام اثنين وستين وخمسمائة ،انتزع نور الدين قلعة منبج من صاحبها ابن حسان بسبب أفعاله السيئة ،وتوجه اليها لتهذيب أحوالها ،فأثنـــى عليه العماد ، واعتبر هذا الفتح من الفتوح المدعمة للوحدة الاسلاميـــة والمقوية لعزائم المسلمين ، يقول من قصيدة له فيه :

بشـــرى الممالك فتح قلعة منبج فليُهْنِ هذا النصر كلّ متـــوّج
أُعطيتَ هذا الفتحَ مِفتاحًا بـــهِ في المُلْكِ يُفتح كلّ بابٍ مُرْتَـــجِ (٣)

وقد بيّن ابن القيسراني أن نور الدين عمل على توحيد بلاد الشام ، فهـو يلحق عاصيها بطائعها ،ويعيد إلى الثغور ابتسامتها وأمنها ، يقول مـــن قصيدة له :

يا مَنْ أعاد ثغور الشام ضاحكـــةً من الظّبا عن ثغور زانَها الشَّنَـــبُ
ما زِلْتَ تُلحق عاصيها بطائعهـــا حتى أقمْتَ وأنطاكيّةٌ حَلَـــــبُ (٤)

ومدحه أيضا بقصيدة أشار فيها إلى أن شمال بلاد الشام أصبح تحت سيطرة نور الدين ، يقـول :

إنْ تُمْسِ في حَلَبٍ رياحُك غضّـــةً فلها بأنطاكية إعصـــار
وغدت جيادك بالشآم مقيمـــةً ولها بأطراف الدروب مغارُ (٥)

---

(١) كتاب الروضتين ١/١٨٦ .
(٢) ديوان ابن منير /٢٢٩ ،وشعرابن منير/١٠٦-١٠٧ ، كتاب الروضتين ١/١٩٦ .
(٣) ديوان العماد /١٠٢ ، وكتاب الروضتين ١/٣٨٠-٣٨١ .
مرتج : مغلق (لسان العرب ، مادة : رتج) .
(٤) كتاب الروضتين ١/١٥٤ .
(٥) نفسه ١/١٧٥ ، ومغار: الأمغر من الخيل الذي شقرته تعلوها مغـــرة أي كدرة (لسان العرب ، مادة : مغر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا ابن منير يتطلع بأمل ورجاء لضم مصر والصعيد ، ويأمل أن يكون ذلك على يدى نور الدين ، يقول فيه :

وزلزلت الصّعيد وراء مصر غداة علتك في قطنا الخيامُ
رجاءٌ هزّ تيك ، وتلك خوفٌ ولو قد شئت ضمّهما قرام (١)

وقد تحقق أمل ابن منير فيما بعد ، واستولى جند نور الدين على مصر بقيادة كل من أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين ، ولو عاش ابن منير إلى فتح مصر لقال فيهم جميعا الشعر الكثير .

وقد تكرر أمل ابن منير في توحيد بلاد المسلمين تحت راية نور الدين ، فهو يقول من قصيدة أخرى :

إليكم بني العلّات عَنْ متشاوِس(٢) له الشام مرفا والعراق مُرَفّد
وما مصر إلّا بعض أمصاره التي إلى أمره تسعى قِماً(٣) وتحفد (٤)

وقال أيضاً :

جلّت له الدنيا على زِبْرِجها عفواً فلمْ تلوِ على خطامها
خط على مثلِ أبٍ طاعت له الـ آفاقُ واستشرف لاغتشامها (٥)
تصرّفُ الدّنيا على إيثاره عراقها مُستردفاً بشامها (٦)

وتحدث ابن منير أيضًا عن المودة التي كانت بين نور الدين والخليفة العباسي في بغداد ، هذه المودة التي من شأنها أن تدعم الوحدة الاسلامية ، فقال من قصيدة كتبها من حماة الى نور الدين يهنئه بوصول الخلع اليه من بغداد من عند الخليفة ، وقد تقدم ذكر بعض أبياتها :

وأقام يَنْشُر في العراق ودجلة آياً تأوّلها لمصرَ النيلُ
وكساك منْ رأى الخليفة جبةً لا النّقص يوهيها ولا التقليلُ
كنت الشريف ، أفضْتَ في تشريفهِ ماءً عليهِ من سناك دليلُ
وبرزتَ في لبس الخلافة كالهلا لِ جلاه في حُلَل الدّجى التهليلُ
خلَعٌ خلعْنَ على القلوب مسرّةً سدكاتها التعظيمُ والتّبجيلُ (٧)

وله من أخرى يمدح فيها نور الدين ، ويشير إلى توحيده للعراق والشام ، يقول :

عزّت سيوفك فالعراق عراقها والشام غير مدافعات شامها

---

(١) ديوان ابن منير / ٢٢٠ ، وشعر ابن منير / ١٦٥ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٧٦ ، قرام : ثوب من صوف يتخذ سترا (لسان العرب ، مادة : قرم) .
(٢) متشاوس : ذو النخوة والجرىء على القتال الشديد (نفسه ، مادة : شوس) .
(٣) تسعى قماً وتحفد : أي تخف وتسرع (نفسه ، مادة : قمأ) .
(٤) ديوان ابن منير / ٢٣٢ ، وشعر ابن منير / ٦٣ ، وكتاب الروضتين ١ / ١٩٨ .
(٥) استشرف لاغتشامها : المغشم من الرجال ، الذى يركب رأسه لا يثنيه شيء عما يريد ويهوى من شجاعته (لسان العرب ، مادة : غشم) .
(٦) ديوان ابن منير / ٢٣٥ ، وشعر ابن منير / ١٧٨-١٨٠ ، وكتاب الروضتين ١ / ٢٠٤ .
(٧) ديوان ابن منير / ٢٣٩ ، وشعر ابن منير / ١٤٩-١٥١ ، وكتاب الروضتين ١ / ٢١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شُخِبَتْ(١) عداك بها ، فلا اشراقها بمغازةٍ منها ولا إعتامها
حتى أحَلْنَ الشّام شاماً صرصرت فيه جنادبُها وصدّح هامُها (٢)

وأما العماد الأصفهاني فقد صوّر الدّنيا بأسرها وقد دانت لنور الدين وأصبحت البلاد الإسلامية وحدة واحدة تحت رايته ، ولم يلتهه عن الوصول إلى همذان سوى اشتغاله بجهاد العدوّ الصليبي ، يقول :

دانت لك الدنيا فقاصيها إذا حقّقْتَه لنفاذ أمْرِك دانِ
فمن العراق إلى الشآم إلى ذرى مصر إلى قوص إلى أسوان
لم تلْهُ عن باقي البلاد وإنّما ألهاك مُرضُ الغزو عن هَمَذانِ (٣)

وكان نور الدين يراقب تقلبات السياسة الفاطمية ، وقد حصل اتصال بينه وبين الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك عن طريق اسامة بن منقذ ، وكان هدف هذا الاتصال والمراسلات توحيد الجهود من أجل قتال العدو الصليبي المشترك ، واجتماع كلمة المسلمين من السنة والشيعة ضد الصليب . ومن الشعراء الذين أثنوا على وحدة هذه الجهود المهذب بن الزبير (٤) ، فبعد أن مدح الصالح بن رزيك في قصيدة له ، وذكر فعله بالأعداء ، انتقل للحديث عن علاقته بنور الدين ، وتحدث عن شجاعة نور الدين وقتله للبرنس ، يقول :

وأعدت رُسْل ابن القسيم إليه في شعبان كي يتلاءم الشّعبان
والفال يشهد في اسمه أنْ سوف يف دو الشام وهْو عليكما قسمان
وأراك من بعد الشهيد أباً له وجعلته من أقرب الإخوان
وهُو الذي مازال يفعل في العدا ما لم يكن ليُعَدّ في الإمكان
قتل البِرِنْسَ ومن عَساهُ أعانَهُ لمّا عَتَا في البغْي والعدوان (٥)

ونجد في مراسلات اسامة بن منقذ والصالح بن رزيك تركيزا على وحدة الصف الاسلامي ضد العدو الصليبي المشترك ، ويؤمن كل من الشاعرين بأن وحدة مصر والشام ، من أهم العوامل لدحر الاعداء ، فقد كتب أسامة بن منقذ إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك من إحدى رسائله الجوابية ، داعيا إلى توطيد دعائم الوحدة والتعاون بين القائدين ، يقول في أولها :

يا أشرفَ الوزراء أخـ ـلاقا وأكرمهم فعالا

---

(١) شُخِبتْ عداك بها : قطعت أوداجهم فسالت دما (لسان العرب ، مادة : شخب) .
(٢) ديوان ابن منير / ٢٥٥ ، وشعر ابن منير / ١٨٠-١٨١ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٣١ .
وصدّح هامها : الصدح : رفع الصوت وشدته (لسان العرب ، مادة : صدح) ، وصدح الطائر : صاح ، وهامها : هامة : اسم طائر وقيل هي البومة (لسان العرب ، مادة : هوم) .
(٣) ديوان العماد / ٤١٧ ، والخريدة ، قسم الشام ١ / ٦١ ، وسنا البرق الشامي ١ / ١٢٨ ، وكتاب الروضتين ١ / ٥٢٩ .
(٤) المهذب بن الزبير وطلائع بن رزيك : انظر ترجمة كل منهما في الحديث عن نور الدين والأدباء ، الباب الثالث من هذه الدراسة .
(٥) انظر الروضتين ١ / ٣٧٥-٣٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول منهـا :

فاسلم لنا حتى نـــرى ... لك في بني الدُّنيا مَثالا
واشدُدْ يديك بودّ نـو ... رِ الدّين ،والقَ به الرِّجالا
فَهُوَ المحامي عن بـــلا ... دَ الشام جمعًا أن تـذالا
وسبيدُ أملاكِ الفِرنـ ... ـجِ وجمعِهم حالاً فحالا
فبقيتُما للمسلميـ ... ـن حميً وللدّنيا جَمالا (١)

وقد تضمنت الرسائل التي بعث بها طلائع بن رزيك الى أسامة بن منقذ بيانا لفعل جند مصر بالفرنج ، وتحريض نور الدين على الجهاد ، ودعوته من أجل توحيد الجهود للوقوف في وجه الصليبيين، يقول من إحدى رسائله مخاطبا اسامة :

فانهض الآن سرعًا ،فبأمثا ... لِك ما زال يُدرك المطلـــوبُ
ألْقِ عنّا رسالةً عند نور الـدْ ... دين ما في إلقائها ما يريـــب
قل له ،دام ملكه ،وعليـــه ... مِنْ لباس الإقبال بُردٌ قشيـــبُ
أيُّها العادل الذي هو للدّيـ ... ـن شبابٌ ،وللحروب شبيـــبُ
قصدنا أن يكون منّا ومنكـمْ ... أجلٌ في مسيرنا مضـــروب (٢)

ولما بلغ الصالح بن رزيك ما حصل بين نور الدين وقلج ارسلان من وحشة أدت الى الحرب والتطاحن والتضاغن ، كتب الى قلج أرسلان بن مسعود صاحب الروم قصيدة ينهاه عن ذلك ، ويدعوه الى الوحدة الاسلامية ، يقول منها :

رجعتم الى حكم التنافس بينكم ... وفيكم من الشّحناء نارٌ تَضَرَّمُ

ومنها :

تعالَوا ،لعلّ اللهَ ينصُرُ دينَهُ ... إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتُمُ
وننهَضُ نحو الكافرين بعزمـةٍ ... بأمثالها تُحوى البلادُ وتُقْسَـمُ (٣)

ونجد في الأبيات تركيزا على العاطفة الدينية ،وهي التي تجمع بين المسلمين ودعوة للتعاون من أجل قتال عدوّ الدين . وقد ظهر هذا التعاون أيضًا ، في رسالة للقاضي الفاضل ،وقد بدا فيها التعاون بين صلاح الدين في مصر ونور الدين في الشام ،وكان بينهما تنسيق من أجل مجاهدة العـدوّ وتوحيد البلاد الاسلامية ،يقول منها : " لم يكن سببُ خروج الملوك من بيته إلاّ وَعْدٌ كان انعقدَ بينَهُ وبين نور الدين - رحمه الله تعالى - في أن يتجاذبا طرفيّ الغزاة من مصر والشام ،الملوك بعَسْكريّ برّه وبحره ، ونور الدين من جانب سَهْل الشام ووعره .... الخ "(٤) .

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ / ٢١٧ ،وتذال : تهان (لسان العرب ،مادة :ذيل) .
(٢) ديوان طلائع بن رزيك/ ٦٤-٦٥ ،وكتاب الروضتين ١ / ٢٩٥-٢٩٦ وفيه : ألْقِ منّا رسالة .
(٣) ديوان طلائع بن رزيك / ١٣٣ .
(٤) انظر الرسالة في الروضتين ١ / ٦٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد أن استولى نور الدين على الشام توجهت أنظاره الى ملك مصر ، لانعدام الأمن فيها ، وخوفه من سقوطها بيد الافرنج ، اضافة لما تمثله مصر من أهمية خاصة لنور الدين ،من حيث موقعها وثقلها البشرى ، فأرسل ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه ، الى أن تمكن من السيطرة عليها سنة أربع وستين وخمسمائة ،والقضاء نهائيا على الدولة الفاطمية سنة سبع وستين فاصبح الفرنج بين فكي كماشة ، وكان ملك مصر بداية حقيقية لتحطيم الفرنج ، وتحرير بيت المقدس ، وسائر بلاد المسلمين . فما قاله الشاعر عرقلة الكلبي (١) في صلاح الدين محرضا على فتح مصر :

إلى كَمْ ذا التواني في دمشق وَقَدْ جاءتكمُ مصرٌ تهادى
عروسٌ بعلُها أسدٌ هزبرٌ يصيدُ المعتدين ولنْ يصادا
ألا يا معشرَ الأجنادِ سيروا وراءَ لوائهِ تَلْقَوْا رَشادا (٢)

وممن كتب للتهنئة بملك مصر الحافظ ابن عساكر (٣) ،وفي كتابته دعوة لمواصلة الجهاد ، وبيان أن مصر أصبحت ملك نور الدين ، يقول :

ولستَ تُعْذَرُ في تَرْكِ الجهادِ وَقَدْ أصبحتَ تملكُ من مصرٍ إلى حَلَبِ
وصاحبُ الموصلِ الفيحاءِ مُمْتَثِلٌ لما تريدُ فبادِرْ فجأةَ النُّوَبِ (٤)

ومدح العماد الأصفهاني نور الدين وهنأه بملك مصر ،وأشار الى الوحدة الاسلامية بين مصر والشام في احدى قصائده ،اذ يقول :

فملكُ مصرَ وملكُ الشام قد نظما في عقد عزٍّ من الإسلام مُنْتَظِمِ
محمودُ الملكِ الغازي يسوسُهما بالفضل والعدل والإفضال والنِّعَمِ (٥)

ومدح العماد صلاح الدين قائد نور الدين بقصيدة ، يقول منها :

يا صلاح الدين الذي أصلح الفا سد بالعدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر الى الشّا م نوالاً أم سال نيلٌ ثاني (٦)

مما تقدم نرى أن نور الدين البطل المسلم ، استطاع أن يوحد بلاد الشام ، وبعد ذلك استطاع ضم مصر ، وأصبحت مصر والشام تحت امرته ، وكانت امنيته أن يكمل ما بدأه ويحرر ما تبقى من بلاد المسلمين بأيدى الصليبيين ، ولكن أجله انتهى قبل أن يحقق أمله .

وقد قام باتمام هذه المهمة من بعده ، قائده المظفر صلاح الدين الايوبي ، الذى انتصر على الصليبيين في كثير من المعارك ،وكان أشهرها معركة حطين التي تلاها الفتح الأعظم ، فتح بيت المقدس،هذا الفتح الذى هزّ مشاعر المسلمين ، والذى طالما تمناه نور الدين وأعد له .

---

(١) عرقلة الكلبي :انظر ترجمته في الحديث عن نور الدين والأدباء في الباب الثالث من هذه الدراسة .
(٢) ديوان العرقلة / ٣٢ ، وكتاب الروضتين ١ / ٣٩٤ .
(٣) ابن عساكر: انظر ترجمته في الحديث عن نور الدين والادباء ،في الباب الثالث من هذه الدراسة . (٤) انظر الروضتين ١ / ٤٠٥ .
(٥) ديوان العماد / ٣٨٢ ، وكتاب الروضتين ١ / ٤٤٣-٤٤٥ .
(٦) ديوان العماد / ٤٠٩ ، وكتاب الروضتين ١ / ٤٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(المبحث الثالث)

المقتدى بالسلف الصالح

لقد جمع نور الدين في شخصه الصّفات المثلى للقائد المسلم ، وقد أضفى عليه الأدباء صفات الصالحين الأتقياء ،وشبّهوه بالخلفاء الراشدين والصحابة ، رضي الله عنهم .

قال الحافظ ابنُ عساكر بعد أن ذكر أوصاف نور الدين الجليلة : " هذا مع ما جمع اللّهُ له من العَقْلِ المتين والرأي الثاقب الرّصين ،والاقتداءِ بسيرةِ السَّلَفِ الماضين ، والتشبُّه بالعُلماء والصّالحين ، والاقتداء بسيرة من سلف منهم ، في حُسْنِ سَمْتِهم والاتباع لهم في حفظ حالهم "(١) .

ونور الدين في زهده متبع للسّلف الصالح ، فقد " حُملت إليه من مصر عمامةٌ من القصب الرفيع مذهّبة فلم يحضرها عنده ، ولم يلتفت لوضعها وأمر بها لرجل صوفيّ "(٢) .

وقد اتبع سنة الرسول - عليه السلام - في تقلده بالسيف، وأمر جنده بذلك (٣) .

واتبع نور الدين الصحابة في الاجتماع والمشاورة ، فقد كان يجمع العلماء والفقهاء ويشاورهم في شؤون المسلمين (٤) .

ومن الصّور التي خلعها عليه الأدباء ، تشبيهه بالخلفاء لاقتدائه بهم .

---

(١) كتاب الروضتين ٥٨٢/١ - ٥٨٣ .
(٢) نفسه ١٣/١ .
(٣) نفسه ٢٧/١ .
(٤) نفسه ٤٢/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول ابن القيسراني :

أيُّها المالكُ الذي ألزم النّا ... سَ سلوكَ المَحَجَّةِ البيضاءِ
قد فَضَحْتَ الملوكَ بالعدْلِ لمّا ... سِرْتَ في النّاسِ سِيرةَ الخُلَفاءِ (١)

وفي تصوير الشعراء صفات نور الدين ربطوا بينه وبين الشخصيات الاسلامية العظيمة ،وما تتصف به من عدل ، وشجاعة ،ومن هذه الشخصيات : الخليفتان عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ،يقول ابن القيسراني من قصيدة أخرى :

عَدْلٌ حَقيقٌ مَنْ تأمَّلَهُ ... أنْ يُحيي العُمَرين بالذِّكرِ (٢)

ويقول ابن منير :

كمْ سيرةٍ إحْيَيْتَها عُمريـــةٍ ... رُفِعَتْ لها في الخافقين مَنارُ (٣)

وصوره وقد اقتدى بعمر بن الخطاب والمعتصم في شجاعتهما في المعارك اذ يقول :

لمجرّبٍ عمريّةٍ غضباتُـــهُ ... لِلّهِ معتصميّةٌ غزواتُـــهُ (٤)

وصوره أيضا ،مقتديا بعلي بن أبي طالب في الشجاعة ، فيقول :

تَجلّى لها حَيْدريّ المصا ... ع أغْلبُ موتٍ بغلّابهـــا

ويقول ابن منير أيضًا ،ان نور الدين قد أعاد سيرة أبي بكر وعمر بن الخطّاب :

من اللّاءِ عادَ عتيقٌ لهـــا ... وردَّ عليها ابنُ خَطّابِهـــا (٥)

وصوره الشعراء مقتديًا بالأنبياء ، ومتّبعا لهم في حسن السيرة ، يقـــول ابنُ القيسراني :

نالَ المعالي حاكمًا مالكًا ... فهْو سليمانٌ و داوودُ (٦)

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٥ ، والكواكب الدرية / ٧٥ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٤٦ .
(٣) ديوان ابن منير/ ١٩٢ ، وشعر ابن منير/ ٨٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٤ .
(٤) ديوان ابن منير/ ٢١٠ ،وشعر ابن منير/ ٥٢ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٥٧ . وأعلام النبلاء ٢/ ١٠٧ .
(٥) ديوان ابن منير/ ٢٢٢-٢٢٣ ،وشعر ابن منير/ ٤٧-٥٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٨١-١٨٣ .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ٤٥ ،وأعلام النبلاء ٢/ ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصوّر ابن منير نور الدين ووالده عماد الدين وقد اقتديا بسليمان وداوود في تتابع الملك والسيرة الصالحة ،يقول :

وأزمّةُ الأقدارِ طوع يديك والـ أيامُ جندك ،والأنام عبيدُ
فتحُ الورى وعقدتْ ناصيةُ المدى بمذمّر الشعرى (١) ،فأين تريد ؟
تالٍ أباك ، فهل سليمان يُرى في الدّست مهّد مُلكه داوودُ

ويقول منها مصوّرًا نور الدين وقد اقتدى بصالح وهود في سيرتيهما :

أوَدَوْا كما أوْدَى بعادٍ عَيُّهـا وعتوا كما استغوى الفصيل (٢) ثمود
إن آلموا عقرًا فانّك صالحٌ أو آلموا عذرًا فانّك هودُ (٣)

وصوره العماد متبعا داوود في دفاعه عن الملة وحفظه لها ، يقول :

والملةُ الغرّاءُ خالٍ بالهُدى عالٍ سناها ، بك حالٍ جيدها
وإن بغى جالوتُها ضلالةً فأنتَ في إهلاكِهِ داوودُها (٤)

وصوره العماد أيضا ، مقتديا بسليمان في عفافه وفي ملكه ، وباليسع في زهده ، يقول :

أنتَ سليمانُ في العفافِ وفي الـ مُلكِ،وتحكي بزُهْدِكَ اليَسَعا (٥)

وشبه ابن منير عصر نور الدين بعصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه بأصحابه ،وأنه أعاد بفعله وانتصاراته عهد النبي ،فأوجد مهاجرين وأنصارا ، يقول :

أعَدْتَ بعَصْرك هذا الأنيـ (٦) ـقَ فتوحَ النبيّ وأعصارَها
وكان مهاجرُها تابعيك وأنصارُ رأيك أنصارَها
فجدّدْتَ إسلام سلمانها وعمّر جدُّك عمّارَها (٧)

---

(١) مذمّر الشعرى : اخرها ،ماوراءها (لسان العرب مادة : ذمر) .
(٢) الفصيل: ولد الناقة (نفسه ،مادة : فصل) .
(٣) ديوان ابن منير/ ٢٤٢ ، وشعر ابن منير/ ٦٦-٦٧ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢١٢-٢١٣ .
(٤) ديوان العماد/ ١٤٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٧-٣٧٨ .
(٥) ديوان العماد/ ٢٨٥ ،، وكتاب الروضتين ١/ ٣٨٧ .
(٦) الانيق : المحبب الحسن ، (لسان العرب مادة: أنق) .
(٧) ديوان ابن منير / ٢٢٧ ، وشعر ابن منير / ١٢٥-١٢٦ ،،والباهر / ١٠٤ ، والروضتين ١/ ١٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصوره ابن منير مقتديا بسلمان الفارسي ،ومتبعًا في معاركه نهج النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزواته ، يقول :

نبويّ تشبيه الفتوح كأنّمـــا أنصارُه رَجَعَتْ له أنصارها
أحيا لصرح سلامِها سلمانَها وأمات تحت عَمارِها عمّارَها (١)

ويصوره وقد اقتدى في دفاعه وحمايته للعواصم بالرشيد والمنصور من الخلفاء العباسيين ، يقول :

وعلى العواصم من دِفاعِكَ عاصمٌ ينشي الرشيدُ ويَنْشرُ المنصورا (٢)

ونور الدين خلف الخلفاء في صفاتهم ،وسار على نهجهم ،قال ابن منير أيضا :

خلف الخلائف قائمًا عنهم بما عَيُّوا (٣) به ،ألْوَى (٤)، ألدَّ (٥) غيورا
البرّ ،والمعصوم ،والمَهْدِيّ، والـ مأمون ،والسَّفاحَ ،والمنصورا (٦)

ويذكر ابن منير بأن نور الدين أحيا ذكر الملوك الغابرين ،وقد خلع عليه صفاتهم ، يقول من قصيدة له فيه :

أذْكَتْ لنا هذي العزائمُ ،لا خَبَتْ ما غارَ من سُنَنِ الملوك الغُبَّرَ
إثقابُ آراءِ المُعِزِّ وخفـــق را يات العزيز ، ويقظةِ المستنصرِ (٧)

ويقول فيها :

إنْ كنْتَ أحْيَيْتَ ابنَ حَمدانٍ لها فأنا الّذي غَبّرت في وجه السّري (٨)
ولأنْتَ أكرمُ مِنْ أناسٍ نَوَّهُـــوا باسم ابنِ أوسٍ واستخصّوا البُحتري (٩)

ويربط الشعراء بين معارك المسلمين الأولى ومعارك ممدوحيهم ،ذلك لشحذ الهمم ،كما ربط ابن الدهّان الموصلي بين حادثة "تحت حصن الاكراد" ويوم حنين ، وهو يشبه نور الدين وأصحابه وما أصابهم ، بأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وما أصابهم في حنين ، يقول :

لهم بيوم حنينٍ أسوةٌ وَهُـــمُ خيرُ الأنام وفيهمْ خاتمُ الرُّسلِ (١٠)

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢١٧ ،وشعر ابن منير/ ١٢٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٦٢ ، وأعلام النبلاء ٢/ ٢٠ .
(٢) ديوان ابن منير/ ٢١٩ ،وشعر ابن منير/ ٩٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٦٣ .
(٣) عيوا : عجزوا عنه (لسان العرب مادة : عيا) .
(٤+٥) ألوى ،وألدّ : تقدم تفسيرهما .
(٦) ديوان ابن منير/ ٢٤٦ ،وشعر ابن منير/ ٩٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢١٨ .
(٧) المعز والعزيز والمستنصر : من الخلفاء الفاطميين (انظر وفيات الاعيان ٧/ ١٥٨) . (٨) ابن حمدان : سيف الدولة الحمداني، والسري : السرى الرفاء : ابو الحسن السرى بن أحمد بن السري الكندي الرفاء الشاعر المشهور ، (انظر وفيات الأعيان ٢/ ٣٥٩-٣٦٢) .
(٩) ديوان ابن منير/ ٢٣٠ ،وشعر ابن منير/ ١٠٦-١٠٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٩٦-١٩٧ . وابن أوس هو أبو تمام الطائي .
(١٠) ديوان ابن الدهان /٧٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعماد الأصفهاني يشبه أصحاب نور الدين بأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ويشبه نفسه بحسان بن ثابت شاعر الرسول ، يقول :

حملتْ عليهمْ من جُنودِكَ فتيةٌ لم تَدْرِ غير حمِيَّة الفتيانِ
هُمْ كالصّحابةِ يومَ بدرٍ حاوَلوا نَصْرَ النبيِّ ونُبْتُ عنْ حَسّانِ (١)

أما علم الدين الشاتاني ، فيجعل نور الدين يرتفع على أبطال التاريخ وأعاظم الملوك ، يقول :

ما نالَ شأوَكَ في المعالي سنْجرٌ(٢) كَلّا ،ولا كِسْرى ،ولا الإسْكَنْدَرُ
يا خيرَ من رَكِبَ الجيادَ وخاض في لُجَجِ المنايا والأسنّة تقطرُ

ويخلع عليه صفات مشهوري العرب في الرأى والكرم والشجاعة ، ولكنه يبالغ حين يقرن فصاحة نور الدين بفصاحة قس بن ساعدة ، إذْ إنَّ نور الدين كان تركيا ، ولم تعرف عنه فصاحة . يقول :

وإذا عَدَدْنا للأنام مناقبًا فعليكَ قبل الكلّ يُثْنى الخِنْصِرُ
في الرأي قيسٌ ، في السماحةِ حاتِمٌ في النُّطْقِ قُسٌّ ،في البسالةِ حَيْدَرُ(٣)

وتطرق الشعراء الى تصوير الممدوح مقتديًا بالسلف الصالح قصد به ربط المسلمين بماضيهم المضيء ، وتذكيرهم بأمجادِ الأجدادِ من أجلِ الاستلهام من التاريخ واحداثِهِ وشخصياتِهِ .

---

(١) ديوان العماد / ٤١٣ ، ٤١٥ ،والخريدة ، قسم الشام ١ / ٥٧-٥٩ .

(٢) سنْجر : أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، السلطان السلجوقي ،ولد سنة ٤٧٩ هـ ، بظاهر سنجار ولذلك سمي سنجر ، ملك بلادا واسعة ،وتلقب بالسلطان الأعظم معز الدين ،كان من أعظم الملوك همة وأكثرهم عطاء ،توفي سنة ٥٥٢ هـ . (انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ٢ / ٤٢٧ - ٤٢٨) .

(٣) كتاب الروضتين ١ / ٤٤٥ - ٤٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الباب الثالث)

نور الدين والأدباء

منذ أن رفع عماد الدين زنكي راية الجهاد ، التفّ حوله عدد من الأدباء ، ورفعوا من مكانته ، وصوروا شعور المسلمين بكل صدق وأمانة ، وكان عماد الدين يحب الشعر ويشجع عليه ، ويتذوقه ، فعندما غناه مغنٍّ على قلعة جعبر(١) ، وهو يحاصرها ، قول الشاعر :

ويلي من المُعرض الغضبان إنْ نقل الـ
ـواشي إليه حديثًا كُلُّهُ زورُ
سلَّمتُ فازورَّ يزوي قوسَ حاجبِهِ
كأنّني كأسُ خمرٍ وَهْوَ مخمورُ

استحسنها زَنْكي ، وقال : لمن هذه ؟ فقيل : لابن منير(٢) ، وهو بحلب ، فكتب إلى والي حلب يسيّره إليه سريعًا ، فسيّره ، فليلة وصل ابن منير ،قتل أتابك(٣) زَنْكي (٤) .

واستدعاء عماد الدين لابن منير من حلب لدى سماعه شعره ، واستحسانه له ، يدل على مدى إعجاب عماد الدين بهذا الشعر ، وتذوقه له.

---

(١) قلعة جعبر : تقدم التعريف بها .

(٢) ابن منير : ابو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابُلُسي " ضبطه ابن خلكان وياقوت الحموي ،هكذا : مُنِيْر : بضم الميم وكسر النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ،ومُفْلِح : بضم الميم وسكون الفاء وكسر اللام وبعدها حاء مهملة ،والطرابُلُسي : بفتح الطاء المهملة والراء ،وبعد الألف باء موحدة مضمومة ، ولام مضمومة ثم سين مهملة ،هذه النسبة إلى طرابُلُس . انظر وفيات الأعيان ١/ ١٦٠ ، ومعجم الأدباء ١٩/ ٦٤-٦٥ " .
ولد سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ،ولقبه مهذّب الدين عين الزمان ، وكان شاعرًا مجيدًا مكثرا ،كان أبوه ينشد الأشعار ،ويغني في أسواق طرابُلُس ،حفظ ابن منير القرآن الكريم ،وتعلّم اللغة والادب ،قدم دمشق وسكنها ،وكان رافضيًّا كثير الهجاء ، كان بينه وبين ابن القيسراني مكاتبات ومهاجاة ،مدح عماد الدين زَنْكي وابنه نور الدين ،وكان هو وابن القيسراني شاعري نور الدين ،توفي في حلب سنة ثمان وأربعين وخمسمائة. (انظر ترجمته في : الخريدة قسم الشام ١/ ٧٦- ٧٨ ،ووفيات الأعيان ١/ ١٥٦ ،وتهذيب تاريخ دمشق ٢/ ١٠٠-١٠٢ ،وعيون التواريخ ١٢/ ٤٦٧) .

(٣) الأتابك : أمير العساكر (الأمير العظيم) ،انظر : Dozy, Supp. Dict. Ar. Tome I, P. 8 .

(٤) وفيات الأعيان ١/ ١٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما مدح به عمادُ الدين زنكي عند فتح الرُّها ،من قصيدة قالها فيه ابنُ منير :

صفاتُ مجدِكَ لفظٌ جلَّ معناهُ ... فلا استردَّ الذي اعطاكَهُ اللهُ
يا صارمًا بيمين اللهِ قائمُهُ ... وفي أعالي أعادي الله حدّاهُ
أصْبَحْتَ دون ملوك الأرض منفردًا ... بلا شبيهٍ إذ الأملاكُ أشباهُ
قُلْ للأعادي : ألا موتوا به كمدًا ... فاللهُ خيّبكمُ والله أعطاهُ
مَلْكٌ تتام عن الفحشاءِ همّتُهُ ... تُقىً وتسْهَرُ للمعروفِ عيناهُ (١)

ومّما مدحه به ابن القيسراني (٢) قصيدة أوّلها :

هو السيفُ لا يغنيك الا جلادُهُ ... وهل طوّق الأملاكَ إلّا نجادُهُ
وعن ثغرِ هذا النصرِ فَلْتأخُذ الظُّبا سناها وإنْ فات العيونَ اتقادُهُ
سمتْ قبةُ الاسلامِ فخرًا بطوليهِ ... ولمْ يكُ يسمو الدينُ لولا عمادُهُ
وذادَ قسيمُ الدولةِ ابنُ قسيمها ... عن الله ما لا يُستطاعُ ذيادُهُ (٣)

وحمل لواء الجهاد بعد عماد الدين ابنُه نورُ الدين محمود ،وقد مثّل نورُ الدين أمل الأمة الاسلامية ،وجسّد رغباتها في الخلاص من العدو الصليبي المحتل لأرض المسلمين .

ووجدت الأمة فيه البطل القائد الصالح ،الذي جمع بين العلم والتقوى والشجاعة ،فتجسّدت فيه صورة مثالية للحاكم المسلم .

ووقف الأدباء إلى جانب نورِ الدين ،وأدّوا دورهم في المعارك ،وكانت هذه المعاركُ مصدرَ الهام لهم في نَظْمِهم ونَثْرِهم ،وساهموا بفنهم في التحريض على الجهاد ،وإثارة الحماس في النفوس ،وشَحْذِ الهمم ،والعزائم ،وأبرزوا الصراع بين البطل وأعدائه من خلال مدحهم له .

---

(١) ديوان ابن منير / ١٩٥ ، شعر ابن منير/ ١٩٥ ، كتاب الروضتين ١/ ٩٩ .

(٢) ابن القيسراني : محمد بنُ نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد ، شرف الدين المخزومي ،المعروف بابن القيسراني الحلبي ،الأديب الشاعر ولد بعكا سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ،ونشأ بقيسارية الساحل ، ثم انتقل إلى حلب ،ثم إلى دمشق ، مدح عماد الدين ،ونور الدين ،ومجير الدين آبق ،وغيرهم . كان شاعرًا مجيدًا وأديبا متفننا ، بليغ النظم ، مليح المعاني ،كثير التطبيق والتجنيس ، ناظم الدر النفيس ،وله شعر كثير مدون ،وكان فاضلاً في الأدب ، وعلم الهيئة ،ونقل عنه : أنه أخذ من كل علم طرفًا ، توفي في دمشق ،سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .
(انظر ترجمته في الخريدة ،قسم الشام ١/ ٩٦-١١٤ ،وذيل تاريخ دمشق/ ٣٢٢ ،ومعجم الأدباء ٧/ ١١٢-١١٣ ،ووفيات الأعيان ٤/ ٤٥٨-٤٦١ ، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٥٦) .

(٣) كتاب الروضتين ١/ ٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان أدبُهم تسجيلاً لسمات البطولة ،وأداةً في خدمة الجهاد ، ومخلداً للمعارك ،وسجلاً للقضايا التي تتصل بحياة البطل ،ووثيقة قيّمة لدراستها . ورسم لنا الأدباء في قصائدهم ومكاتباتهم صورة واضحة المعالم لشخصية نور الدين . واستطاعت الكلمة أنْ تساهم في توعية الجماهير المسلمة واثارتها ، وتصعيد حركة الجهاد ضد الصليبيين ،وعبر الشعراء عن آمال الجماعة الاسلامية وطموحها في الوحدة ،واسترداد ما سلبه منها أعداؤها كما عبروا بصدق عن الأحداث السياسية والعسكرية ،والاجتماعية في عهد نور الدين ،فكان شعرهم مرآةً لأحداث عصرهم .

وأعمال نور الدين المجيدة ، وبطولاته العظيمة ،والانتصارات التي حقّقها ،وما اتصف به من صفات ، كل ذلك جعل الشعراء يلتفون حوله ، ويعجبون بإيمانه وبسالته إعجاباً صادقاً .

ولم يَكُنْ مدحُهم لنور الدين بدافع التكسب ،أو توخّي التزلف ، يقول الدكتور محمود إبراهيم في حديثه عن علاقة ابن القيسراني بنور الدين ، ومدحه له : " ومما يلفت النظر في تمجيد ابن القيسراني لنور الدين ، أنّ الشعر الذي نظم في هذا التمجيد ،قد خلا من الاستماحة التي لم تخل منها قصائد أخرى لابن القيسراني قيلت في أشخاص آخرين في مناسبات قديمة . ولعل هذا مما يعضّد الاعتقاد بأن شعر ابن القيسراني في نور الدين يمثّل إعجابا صادقاً بالبطل الإسلامي ،وأن هذا الشعر لا يترجم عن مشاعر ابن القيسراني وحده ، بل عن مشاعر الجماعة الإسلامية كذلك " (١) .

ومدح الشعراء لنور الدين في كثير من قصائدهم ،يدلّ على أنّ نورَ الدين كان يقبل الشعر ويستحسنه . وأما ما ذكر من أنّ نور الدين " كان قليل الابتهاج بالشعر "(٢) ، فهذا لا يعني أن نور الدين كان ينفر من الشعر ، أو أنه ينقبض لسماعه ، " ولكنه سدّ مصاريع أبوابه بوجه الشعراء الذين عرف عنهم منكر القول ،لأن أخلاقيته لا تسمح بمثل ما يأتي به أمثال هؤلاء الشعراء "(٣) .

ويعلق أبو شامة على هذا الموضوع بقوله : " ولما اشتهر به من قلة ابتهاجه بالمدح ، لما علم من تزايد الشعراء ، وهي طريقة عمر ابن عبد العزيز زاهد الخلفاء "(٤) .

---

(١) صدى الغزو الصليبي / ١٥٩-١٦٠ .
(٢) كتاب الروضتين ١ / ٥٨ .
(٣) معارك نور الدين / ١٨١ .
(٤) كتاب الروضتين ١ / ٥٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويورد أبو شامة قول يحيى بن محمد الوهراني (١) ، في مقامة له ، وقد سئل في بغداد عن نور الدين ،فقال : " هو سهمٌ للدولة سديد ، وركنٌ للخلافة شديد ،وأميرٌ زاهد ،وملكٌ مجاهد ، تساعدُه الأفلاكُ ، وتعضده الجيوش والأملاك ،غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل ،وبالمحل الجديب للشاعر الأديب ، فما يرزى ولا يعزّى ،ولا لشاعر عنده من نعمةٍ تُجزى "(٢) .

وأورد أيضًا قول أسامة بن منقذ :

سلطاننا زاهدٌ والناسُ قد زَهدُوا ... له فكلٌّ على الخيراتِ منكمشُ
أيامُهُ مثل شهرِ الصّوم طاهرةٌ ... من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ(٣)

يقول أبو شامة في تعقيبه على النصّين : "وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به ،فهو القائلُ في ليلة الميلاد ، يمدحُ نورَ الدين :

في كلِّ عامٍ للبريةِ ليلةٌ ... فيها تَشُبُّ النارُ بالإيقادِ
لكنّ لنورِ الدّين من دون الورى ... ناران : نارُ قرى ونارُ جهادِ
أبدًا يصرِّفُها نداهُ وبأسُهُ ... فالعامُ أجمعُ ليلةُ الميلادِ
مَلِكٌ لهُ في كلِّ جيدٍ منّةٌ ... أبهى من الأطواقِ في الأجيادِ
أعلى الملوكِ يدًا ،وأمنعُهُمْ حِمىً ... وأمدُّهُمْ كفًّا بذلِ تلادِ
يعطي الجزيلَ من النوال تبرُّعًا ... من غيرِ مسألةٍ ولا ميعادِ
لا زالَ في سَعَدٍ وملكٍ دائمٍ ... ما دامتِ الدُّنيا بغيرِ نفادِ(٤)

---

(١) يحيى بن محمد الوهراني : من المرجّح أن يكون محمد بن مُحْرِز بن محمد الوهراني ، صاحب المنامات وليس كما ورد في الروضتين ، طبعة دار الجيل ، والطبعة الأخرى المحققة ، التي حققها د. محمد حلمي ، وذلك لأمرين : الأول : لم أرَ ليحيى بن محمد الوهراني ترجمة في المصادر الميسورة لي ، والثاني : أنّ النص الذي أورده أبو شامة في الروضتين ،هو لمحمد بن محرز بن محمد الوهراني ، وهو موجود في منامات الوهراني كما يلي : قيل له : " فما تقول في الملك العادل نور الدين ؟ قال : فقلت : سهمٌ للدولة سديد ،وركن للخلافة شديد وأمير زاهد ، وملك مجاهد ،تساعده الأفلاك ،وتخدمه الجيوش والأملاك .

فلو رام أرضَ الصّين لباه مُلكه ... كما دانت الأملاكُ للاسكندرِ

(منامات الوهراني / ١٤) .

ومحمد بنُ محرز بن محمد الوهراني : ترجم له ابن خلكان ،وقال بأنه أحد الفضلاء الظرفاء ،سلك طريق الهزل ،وله منامات ومقامات ورسائل منسوبة إليه ،عاصر نور الدين ،وتنقل في البلاد ،أقام بدمشق زمانا ، وتولى الخطابة بداريّا : وهي قرية على باب دمشق بالغُوطة ، وتوفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة ،والوهراني : نسبة إلى وهران ،وهي مدينة كبيرة ،بينها وبين تلمسان مسافة يومين . (وفيات الأعيان ٤/ ٣٨٥) .

(٢) كتاب الروضتين ١/ ٥٨٤ .

(٣) ديوان أسامة/ ١٥٨ ،ومعجم الأدباء ٥/ ٢٠٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٨٤ .

(٤) كتاب الروضتين ١/ ٥٨٤-٥٨٥ ،ولم تذكر الأبيات في ديوان أسامة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقدّم من شعر ابن منير وابن القيسراني والعماد الكاتب ،وغيرهم ممن مدح نور الدين بالكرم والجود ،ما قليل منه يردّ قول الوهراني وابن منقذ ،على أنّ ابنَ منقذٍ قد رَدَدنا شعرَه لِشِعْرِهِ كما تراه ،وإنّما الشعراءُ وأكثرُ الناس، كما قال الله تعالى في وصف قوم : (فان أُعطوا منها رضوا ،وان لم يُعطَوْا منها إذا هم يسخطون) (١) . وما كل وقت ينفق العطاء ، ويفعل الله ما يشاء "(٢) .

ويعقب الدكتور محمود ابراهيم على قول أبي شامة هذا ،بقوله : " ولقد صدق أبو شامة ،وأفرط الوهراني وابن منقذ "(٣) .

وكان نور الدين يحبّ الشعر ،ويعجب به ،لأنه كان يدرك أثر الشعر في إثارة الشعور وتحريكه ،ولا سيما شعر الجهاد ووصف المعارك . أما كونه لا يبتهج بالمدح ،فهذا تواضع منه ،لأنه لا يحب مبالغات الشعراء ومزايداتهم بالمدح ، ولأنه كان مقتدياً بالسلف الصالح كالخلفاء الراشدين ،فلا يأخذه بهرجُ القول .

وأما ما تضمّنه قولُ الوهراني ،وقول ابن منقذ من إشارة إلى بُخْل نور الدين ،أو حرصه على المال ،فهذا أمرٌ مستبعَدٌ ، وفيه كثير من المبالغة ، ولو كان نور الدين كما يقولان ،لما ازدحم الشعراء على بابه يمدحونه ، ويسجلون انتصاراته ،ولما أجمع أغلب شعراء عصره على مدحه بالكرم والجود ، حتى أسامة بن منقذ نفسه ، ولَمَا اختصَّ بمدحه بعضُ الشعراء ولا زموه فتراتٍ طويلة .

* * *

وكان نور الدين يعتمد في كتابة رسائله وتواقيعه ومنشوراته على الكتّاب المشهورين ،وكان يقربهم ويطلعهم على أخطر الأمور ،ويقلدهم المناصب الرفيعة ،فيتصدروا دواوينه ،ويتخذ منهم وزراء وسفراء ،ولذا كانت صلته بهم وثيقة .

ولعلّ في قول صلاح الدين الأيوبي ،نائب نور الدين على مصر ، بعد أن خلفه في مسيرة الجهاد : " ما فتحت البلاد بالعساكر ، وانما فتحتها بقلم القاضي الفاضل "(٤) أوضح برهان على مدى اعتماد الحكام في تلك الفترة على الكتاب .

ومع أن النثر ضرورة حتمية لاساليب الحياة المختلفة : السياسية والدينية والفكرية وما يصدر عن دواوين الدولة من مكاتبات ، إلّا أن النصوص النثرية ـ التي وصلتنا ـ أقلّ بكثير من الشعر الذي وصلنا ،ووجدنا بالتالي أن الكتّاب أقلّ انتاجاً من الشعراء (٥) .

---

(١) التوبة : ٥٨ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٥٨٥ .
(٣) صدى الغزو الصليبي / ١٩٢-١٩٣ .
(٤) مرآة الزمان ٨/ ٤٧٢ .
(٥) انظر أدب الدول المتتابعة/ ٩٠ ٧ ، وأدب الحروب الصليبية/ ١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأوردت بعض المصادر التراجم المختصرة لبعض الكتاب ، دون أن تورد لهم نصوصا نثرية ، ومنها خريدة القصر للعماد الأصفهاني .

* * *

أما أبرز الأدباء الذين اتصلوا بنور الدين وكانت له علاقات بهم ومدحوه أو كتبوا له ، فمنهم : الشاعران محمد بن نصر القيسراني ، وأحمد بن منير الطرابلسي ، اللذان مدحا نور الدين وتغنيا بانتصاراته وجهاده ، يقول أبو شامة : " وقد مدح نور الدين بأشعار كثيرة ، وأوصافه فوق ما مدح به ، وكان في أول دولته شاعرا زمانه ، أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير ، وأبو الحسين أحمد بن منير ، ولهما فيه أشعار فائقة "(١) .

وفي موضع آخر يقول : " وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ونفسه فيها طويل "(٢) .

ويقول العماد عن علاقة ابن منير بنور الدين : " واتصل في آخر عمره بخدمة نور الدين محمود بن زنكي ، وارتدى عنده من الوجاهة والكرامة حللها ، ومحاسن أبي الحسين بن منير منيرة ، وفضائله كثيرة "(٣) .

وقد اختص الشاعران بالملك العادل نور الدين ، وتتبعا انتصاراته ، وخلدا في قصائدهما ومدحهما لنور الدين الصراع المرير بين المسلمين والصليبيين .

والتقى ابن منير بابن القيسراني في حلب : " وكانا متنافسين في صنعتهما "(٤) . وقال العماد في ذلك : " فكأنهما جرير العصر وفرزدقه "(٥) .

وتوثقت علاقة الشاعرين بنور الدين بعد معركة الرها التي كانت قد أعلنت العصيان عليه ، وعندما فتحها نور الدين - الفتح الثاني بعد عصيانها -(٦) مدحه ابن منير بقصيدة أولها :

ملكٌ ما أذلَّ بالفتح أرضًا ... قطُّ إلا أعزَّها بإعلاقه

تلك بكر الفتوح فالشام منها ... شامُه والعراقُ بعدُ عراقه(٧)

ولابن القيسراني قصيدة ذكر فيها فتح الرّها يقول منها :

فإنْ يكُ فتحُ الرُّها لُجَّةً ... فساحِلُها القدسُ والساحلُ

فهلْ عَلِمَتْ عِلْمَ تلك الدّيا ... رِ أنَّ المقيمَ بِها راحلُ(٨)

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٤ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٢٣٥ .
(٣) الخريدة ، قسم الشام ١/ ٧٨ .
(٤) ذيل تاريخ دمشق/ ٣٢٢ ، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٦٧ .
(٥) الخريدة ، قسم الشام ١/ ٧٩ .
(٦) انظر الروضتين ١/ ١٢٦ .
(٧) ديوان ابن منير/ ٢٠٤ ، وشعر ابن منير/ ١٤٣ ، وكتاب الروضتين/ ١٢٧ .
(٨) كتاب الروضتين ١/ ١٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واتخذ الشاعران من حلب حاضرة مُلْك نور الدين مستقرًا ومقامًا لهما وخص الشاعران نورَ الدين بمدحهما الكثيرة ، حتى أصبحت قصائدُهما سجلاً لبطولات نور الدين ومعاركه ، تسجل النصر تلو النصر ، وتطالب بالمزيد من الجهاد .

ونال الشاعران منزلةً عظيمةً عند نور الدين ، وبقيا يحاطان بالرعاية والعناية في ظل نور الدين حتى وفاتهما في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (١) .

ومما قاله ابن منير في مدح نور الدين - على سبيل التمثيل - من قصيدة له :

بنور الدين رَوَّضَ كلُّ مَحْلٍ ... من الدُّنيا وجَدَّدَ كلُّ بالِ
وصَوَّبَ عَدْلُهُ في كلِّ أوبٍ ... فعوَّضَ عاطلاً منهُ بحالِ
يُنَكِّسُ رأيُهُ رأيَ المحامي ... ويقتُلُ خوفُهُ قبلَ القتالِ
لقدْ أحْصَدْتَ للإسلامِ عِزًّا ... يفوتُ سَنامُهُ يَدَ كلِّ قالِ
وأصْبَحَتِ العواصمُ مُلْتَحَفاتٍ ... عصامًا غيرَ مُنْتَكِثِ الحبالِ (٢)

فقربُ ابنِ منير من نور الدين ، جعله يُعْجَبُ به وببطولته ، وقد عبَّر عن إعجابه بمدحه له . فبنور الدين تتجدد الحياة ، وينتشر العدل في كل صوب ، وهو سديد الرأي ، معزّ للاسلام ، ومدافع عن بلاد المسلمين .

ولا يكتفي بذلك ، بل يصوِّرُ نورَ الدين ، وقد تفوَّقَ على الملوك في كلِّ شيء ، فلا يستطيعون اللحاق به ، يقول :

أيَّ شأنٍ أدركت يا نورَ دين اللـ ... ـه أعْيا على الملوكِ لِحاقُهْ
نطق الحاسدون بالعجز عن مَلْـ ... ـكٍ محلّىً بالنَّيِّراتِ نِطاقُهْ
غَضَّ أبصارَهُم لِحاقُ جوادٍ ... ليس إلّا إلى المعالي سِباقُهْ (٣)

ومما قاله ابن القيسراني في مدح نور الدين من قصيدة له :

صاغكَ اللهُ من صميم المعالي ... حيثُ لا نسبةٌ سوى الأعلاءِ
رأفةٌ في شهامةٍ ، وعفافٌ ... في اقتدارٍ ، وسطوةٌ في حياءِ
وجمالٌ مُسَنْطَقٌ بجلالٍ ... وكمالٌ مُتَوَّجٌ بهاءِ
وإذا ما الملوكُ خافت سهامَ الـ ... ـذمِّ زرّتْ عليكَ دِرْعَ الثناءِ
عجبَ الناسُ منكَ أنّكَ في الحرْ ... بِ شِهابُ الكتيبةِ الشَّهْباءِ (٤)

ويبين ابن القيسراني مدى اعجابه بخصال نور الدين ورفعة شأنه ، فهو شهمٌ عفيفٌ شجاع وله هيبةٌ وجلال . وابن القيسراني يبدو صادقًا في إحساسه وعواطفه ، لقربه من البطل ، ولمعرفته الشخصية به .

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٢٢٧ - ٢٢٨ .
(٢) ديوان ابن منير/ ٢٠٦ ، وشعر ابن منير/ ١٥٧ ، وكتاب الروضتين/ ١٢٨ .
(٣) ديوان ابن منير/ ٢٠٥ ، وشعر ابن منير/ ١٤٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٣١ .
(٤) كتاب الروضتين / ٤٥ - ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول فيه في احدى قصائده :

فَسِرْ واستوعب الدُّنيا فتوحـــــاً فلا هَضْبٌ هناك ولا وِهـــادُ

ومنها قوله :

وَأذْعَنَت الممالِكُ واستجابـــتْ ملبيةً لدعوتك العبـــادُ (١)

فنورُ الدين الشجاعُ يفتح البلاد ،وتُذعن له الممالك ،ويطيعه أهلها .

وقال ابن القيسراني أيضًا :

بِدَوْلتك الغَرّاءِ أصْبَحَ ضِدُّهـــا بهيمًا ،ولولا الحسنُ ما عُرف القبحُ

سَخا بِكَ هذا الدّهْرُ جوداً على الورى على أنّه ما زال فـي طبعِهِ شُحُّ

بكَ ابتهجَ الألبابُ وانْتَهَج الحجـا وأثمرت الآدابُ واطّـرَدَ المـــدْحُ

ولاذتْ بك التقوى وعاذتْ بك المُـلا ودانت لك الدُّنيا وعزَّ بك السـرحُ (٢)

وقليل هم أمثال نور الدين ممن يتصفون بصفاته ،ويسخو بهم الدهرُ وتدينُ لهم الدُّنيا .

وصلة ابن القيسراني الوثيقة بنور الدين ،جعلته يعطينا تصوُّراً واضحًا لمعالم شخصيته .

* * *

ومن الشعراء الذين لهم صلة بالأُسرة الزَنْكية ،أبو المجد مُسلم بن قسيم الحموي (٣) . كان أول لقاء للشاعر مع الأسرة الزنكية ،بعد عودة عماد الدين منتصرًا على ملك الروم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ،حيث كان هذا الملك قد حاصر شيزر ،وقد استطاع عمادُ الدين أنْ يفك الحصار ، فتغنى ابنُ قسيم بهذا الانتصار في قصيدة ، يقول منها :

بِعَزْمِكَ أيُّها الملِكُ العظيـــمُ تَذِلُّ لك الصِّعابُ وتَسْتَقيمُ

أَلَمْ تَرَ أنَّ كَلْبَ الرّوم لمّـــا تَبَيَّنَ أنّكَ الملِكُ الرَّحيـمُ

كَأنّكَ في العَجاجِ شِهابُ نُـورٍ تَوَقَّدَ وَهْوَ شَيْطانٌ رَجيـمُ

أرادَ بَقاءَ مُهْجَتِهِ فَوَلّـــى وَلَيْسَ سِوَى الحِمامِ لَهُ حميمُ (٤)

ثم اتصل ابن قسيم الحموي بنور الدين بعد استشهاد والده ، ووجد في نور الدين صورًا مشرقة للبطولة أشاد بها ،غير أن الموت لم يمهله طويلا ،فتوفي بعد استشهاد عماد الدين بفترة وجيزة . وقد مدح ابن قسيم نور الدين في قصيدته التي قالها بعد أن تم لنور الدين القضاء على عصيان الرها ، وهنأه

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٤٧ . (٢) نفسه / ١٨٠ .

(٣) ابن قسيم الحموي : مسلم بن الخضر بن مسلم بن قسيم ،أبو المجد التنوخي الحموي من شعراء نورالدين ،قال فيه العماد : "مجيد للشعر ،وحيد للدهر ، وأسلوبه مهذّب ،وكان ثالث القيسراني وابن منير في زمانهما ،وسبقهما في ميدانهما ، توفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (انظر ترجمته في :الخريدة قسم الشام ١/ ٤٣٣-٤٣٤ ، ووفيات الأعيان ٤/ ١٣٤) .

(٤) كتاب الروضتين ١/ ٨٢-٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهذا الفتح ، وأثنى عليه معجبا ببطولته ،ومنها :

تبدو الشَّجاعَةُ مِنْ طَلاقَةِ وَجْهِهِ ... كالرُّمْحِ دَلَّ عَلَى القَساوَةِ لِينُهُ
وَوَراءَ يَقْظَتِهِ أَناةُ مُجَرِّبٍ ... للّهِ سَطوَةُ بَأْسِهِ وَسَكُونُهُ
هذا الذي في اللّهِ صَحَّ جِهادُهُ ... هذا الذي باللّهِ صَحَّ يقينُهُ
هذا الذي بَخِلَ الزمانُ بِمِثْلِهِ ... والمشمخرُّ إلى العُلا عِرْنينُهُ
مَلِكُ الورى مَلِكٌ أَغَرُّ مُتَوَّجٌ ... لا غَدْرُهُ يُخْشى ولا تَلْوِينُهُ
إنْ حَلَّ فالشَّرَفُ التليدُ أنيسُهُ ... أوْ سارَ فالظَّفَرُ الطَّريفُ قرينُهُ
والدِّينُ يَشْهَدُ إنَّهُ لمعزُّهُ ... والشِّرْكُ يَعْلَمُ أنَّهُ لَمُهينُهُ
فتح الرُّها بالأمسِ فانْفَتَحَتْ لَهُ ... أبوابُ مُلْكٍ لا يزالُ مَصُونُهُ (١)

* * *

وذكر أبو شامة أديبين من أشهر أدباء عصرهما ممن اتصلوا بنور الدين ومدحوه وكتبوا له ،وهما : ابن أسعد الموصلي (٢) ، والعماد الأصفهاني(٣) .

يقول أبو شامة : " ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي الا ابن اسعد الموصلي . . . الى أن قدم العماد الكاتب الشام في سنة اثنتين وستين وخمسمائة ،فتسلم هذا الأمر، وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات ،وأتمّها نظمًا

---

(١) كتاب الروضتين / ٥٧ - ٥٨ .

(٢) ابن أسعد الموصلي : أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى ابن علي ،المعروف بابن الدهان الموصلي ،ويعرف بالحمصي ايضا ، وهو من أهل الموصل ،وكان مدرسًا بحمص ،وقد كان فقيهًا فاضلاً ،أديبًا شاعرًا ،لطيف الشعر ،مليح السبك ،وقد غلب عليه الشعر واشتهر به ، وله ديوان شعر مطبوع ،توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . (انظر ترجمته في : الخريدة ،قسم الشام ٢/ ٢٧٩ - ٢٩٤ ،والروضتين ١/ ٣٣٢ ، ووفيات الأعيان ٣/ ٥٧) .

(٣) العماد الأصفهاني : محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله بن علي ، ابو عبد الله المعروف بالعماد الكاتب ،ولد بأصفهان سنة تسع عشرة وخمسمائة ، ونشأ بها ،وقدم بغداد شابًا ،وانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية ،فتفقه بها .

وصل إلى دمشق سنة اثنتين وستين وخمسمائة ،فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية التي عرفت فيما بعد بالعمادية نسبة إلى العماد ،وكان له معرفة بنجم الدين أيوب والد صلاح الدين ،عرفه بتكريت حينما كان نجم الدين واليا عليها ،ونال منزلة عظيمة عند نور الدين ،واعتمد عليه السلطان =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونشـرا"(١) .

أما ابنُ أسعد الموصلي ،فقد كان مدرسًا بحمص ،واجتمع به العماد عندما كان بصحبة الملك العادل نور الدين سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وأثنى عليه في الخريدة اذ قال : " فلما وصلت الى حمص أول ما صحبت الملك العادل نور الدين بن زنكي ،منتصف صفر سنة ثلاث وستين ،جمعت بيني وبينه المدرسة ،وحصلت لأحدنا بالآخر الأنسة ،وشفيتُ بالريِّ من رؤيته الغلة . . . إلى أن يقول : ورايتُهُ في الشعر منصورة ،ومأثرته في الأدب مأثـورة "(٢) .

ومن أشهر قصائد ابن أسعد ،تلك القصيدة التي قالها الشاعر في نور الدين سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ،حين أغار الصليبيون على معسكره ومخيمه بالبقيعة تحت حصن الأكراد (٣) ،وكانت نوبة عظيمة على المسلمين ،وأصيبوا بهلاك عميم ،صمد له نور الدين وثلة من جنوده (٤) ، فسجل الشاعر هذه الموقعة بقصيدة منها :

ظُبىَ المواضي وأطراف القنا الذُّبُل ضوامنٌ لك ما حازوه منْ نَفَل
وكافلٌ لكَ كافٍ ما تُحاولُـهُ عزٌّ وعزمٌ وبأسٌ غيرُ منتحـلِ
وما يعيبُكَ ما حازوهُ مِنْ سَلَـبٍ بالخَتْل (٥) قد تُؤسَر الآسادُ بالحِيَلِ
وإنَّما أخلَدُوا جُبْنًا إلى خِـدَعٍ إنْ لَمْ يكُنْ لَهُمُ بالجيش مِنْ قِبَـلِ

وبعد أن يذكِّر الأعداءَ بأنَّ انتصارَهم في هذه الموقعة هو نوع من المكر والخداع ، يتوعدهم بالثأر ، فالمسلمون لهم من المآثر ما يشهد على بطولاتهم . يقـول :

= نور الدين وصلاح الدين ، وولياه المناصب ،ومن أبرزها كاتب الإنشاء في دولتيهما . وكان مبرّزًا في النظم والنثر ،عارفًا بالأدب ،حافظًا لدواوين العرب . ومن مؤلفاته : خريدة القصر وجريدة العصر ،والبرق الشامي ،والفتح القسي في الفتح القدسي ،والسيل على الذيل ،ورسالة عتبى الزمان ،ونحلة الرحلة ،وديوان رسائل في مجلدات ،وكتب رسمية ، وديوان شعر مطبوع ،وديوان دوبيت صغير ،وكانت وفاته سنة سبع وتسعين وخمسمائة . (انظر ترجمته في : الخريدة ،قسم الشام ١/ ١٢ ، ومعجم الادباء ١٩/ ١١-٢٨ ،وذيل الروضتين / ٢٧ ،ووفيات الأعيان ١/ ١٣٢-١٣٣) .

(١) كتاب الروضتين ١/ ٢٣٥ .
(٢) الخريدة ،قسم الشام ٢/ ٢٧٩-٢٨٠ .
(٣) حصن الاكراد : تقدم التعريف به .
(٤) انظر قصة المعركة في الروضتين ١/ ٣١٨-٣٢٠ .
(٥) الختل : الخداع (لسان العرب : مادة ختل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَهُمْ بيومِ حُنينٍ أُسْوَةٌ وَهُمُ خَيْرُ الأنامِ وفيهم خاتَمُ الرُّسُلِ
سَيَقْتَضيكُمْ بِضَرْبٍ عِنْدَ أهْوَنِهِ البيضُ كالبيضِ والأذْرَاعُ كالحُلَلِ
فالسُّمْرُ ما أصْبَحَتْ والشَّمْسُ ما أفَلَتْ والسَّيفُ ما فُلَّ والأطوادُ لم تَزُلِ

ثم ينقل لنا صورة نور الدين وقد صمد في المعركة :

وَسْطَ النَّدى وَحْدَهُ ثَبْتُ الجنانِ وقَدْ
طارت قلوبٌ على بُعْدٍ من الوَجَلِ
يزدادُ قُدْمًا إليهم من تيقُّنِهِ أنَّ التأخُّرَ لا يحمي من الأجَلِ
ثباتُهُ في صدورِ الخَيْلِ أنقذكم لا تحسبوا وَثَباتِ الضُّمَّرِ الذُّلُلِ
ما كلُّ حينٍ تُصابُ الأُسْدُ غافلةً
ولا يُصيبُ الشَّديدَ البَطْشِ ذو الشَّلَلِ
واللّهُ عونُكَ فيما أنْتَ مُزْمِعُهُ كما أعانَكَ في أيّامِكَ الأُوَلِ
كم قَدْ مَلكتَ لهُمْ مُلْكًا بلا عِوَضٍ وحُزْتَ مِنْ بَلَدٍ منها بِلا بَدَلِ (١)

قال أبو شامة : " حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله :

غَيْري بأكثرِ هذا الناسُ يَنْخَدِعُ
إنْ قاتَلوا جَبُنوا أو حدَّثوا شَجُعوا

فإنّ كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ، ومدحهم وهم المنهزمون ، وقد أحسنا معا ، عفا الله عنهما "(٢) .

وقال العماد الأصفهاني : " وهذا أحسنُ ما سمعته في مدح من كسر وعذر ، ولقد وافق العذر ما ذكر ، وانتصف بعد ذلك ، وانتصر ونال الظفر . . . . "(٣) .

وابن أسعد الموصلي بذلك يمثّل الشاعر الذي يقف إلى جانب البطل حتى عندما تلحقه الهزيمة ، مما يؤكد انتماء الشاعر لقضايا أمته ، ووقوفه في صف المدافعين عنها . ونراه في هذه القصيدة التي يذكر فيها انكسار بطله واعتذاره من هذا الانكسار يستغني عن وصف الهزيمة ، ويكتفي بسالاعتراف بها ، ثم ينذر المنتصرين من الأعداء ، ويذكرهم بالهزائم التي لحقت بهم ، ويتنبأ لهم بما سيصيبهم من نور الدين ، وهو لا يرى في الهزيمة إلاّ امتحانًا للمسلمين ، وهو يعترف بأن الصليبيين أسروا جماعة من المسلمين ، ولكنهم لم يأخذوا أحدًا ذا بأسٍ أو شأن ، فهم لم يأسروا إلاّ الأصاغرَ والأتباع وما إلى ذلك .

* * *

---

(١) انظر القصيدة في : ديوان ابن الدهان / ٧٠-٧٧ ، والخريدة ، قسم الشام ٢ / ٢٨٨-٢٩٢ ، وكتاب الروضتين ١ / ٣٢٠-٣٢٢ .
(٢) كتاب الروضتين ١ / ٣٢٢ .
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢ / ٢٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أكثر الأدباء ارتباطاً بنور الدين وملازمة له ، العماد الأصفهاني .

وقد سد العماد الفراغ الذي أحدثه موت ابن القيسراني وابن منير ، بعد أن انضوى تحت لواء نور الدين الذي أولاه مكانة سامية ، وذلك سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، عندما قدم العماد الشام ، ودخل في خدمة نورالدين ، بعد أن قربه القاضي كمال الدين الشهرزوري من نور الدين وعرفه إليه ، وذكر تقدّمه في العلم . ويقول العماد في ذلك : " عرفني إليه القاضي كمال الدين الشهرزوري ، ورغبه في استثباتي ، وقرّر لديه من حساب آمالي ما لم يكنْ في حسابي ، وقال : لا بأس بأن تكتب إليه أبياتا ، ونحن نرجو لك في دولته ثباتاً ، وفي روضته نباتاً " (١) .

وقد مدح العماد نور الدين بقصيدة عرضها عليه القاضي كمال الدين ، وأولها :

لو حَفِظَتْ يومَ النّوى عُهودَها ما مَطَلَتْ بوَصْلِكمْ وُعودَها
ماذا جَنَتْ قلوبُنا حتى غدا في النار من شَوْقِكمْ خُلودُها (٢)

قال العماد : فلما تأمّلها ، وراقهُ حُسْنُ خَطِّها ، قبلَها ، وسأل عني فوُصِفْتُ له ، فاستدعاني وولاني عمله " (٣) .

وسجّل العمادُ انتصاراتِ نور الدين في مصر والشام ، ومدحه في كثير من قصائده . قال أبو شامة : " فقد نَظَم أوصاف نور الدّين الجليلة بأحسن لفظٍ وأرقّه " (٤) . وقال العماد مبيّناً مدى إعجاب نور الدين بشعره : " وكان يُحلّني في الذُّرى ، ويُجلّني على الورى ، ويُكبرُني عن الشعر ، ويشتري مدحي بغالي السّعر " (٥) .

فنور الدين كان ينشرحُ بلقاء العماد ، ويطربُ لسماع شعره . ومما مدح به عمادُ الدين نورَ الدين قوله :

جلا ظلامَ الظلْمِ نورُ الدين عَنْ أرضِ الشآم فلَهُ تَحْميدُها
إنّ الرعايا منْهُ في رعايةٍ ونِعْمَةٍ مُسْتَوْجِبٌ مَزيدُها
لِنَوْمِها يَسْهَرُ بَلْ لأمْنِها يَخافُ بَلْ يُخْصِبُها بِجُودِها
بالدّين والمُلْكِ لَهُ قيامُهُ وللمُلوكِ عَنْهُما قُعودُها (٦)

وقال فيه من أخرى ، عندما أقامَ بقلعة الرُّها :

أدْرَكْتَ من أمرِ الزمان المُشْتَهى وَبَلَغْتَ مِنْ نَيْلِ الأماني المنتهى

---

(١) سنا البرق الشامي ١/٦٦-٦٧ .
(٢) انظر القصيدة في : ديوان العماد /١٤٣-١٤٦ ، وسنا البرق الشامي ١/٦٦-٦٧ ، والروضتين ٢/٣٧٧-٣٧٨ .
(٣) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ١/١١ .
(٤) كتاب الروضتين ٢/٣٨٢ .
(٥) الخريدة ، قسم الشام ١/٤١-٤٢ .
(٦) ديوان العماد ١٤٣-١٤٦ ، وكتاب الروضتين ٢/٣٧٧-٣٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا زلتَ نورُ الدين في فَلَك الهُـــدى
ذا غرَّةٍ للعالمين بهـا البَهـا (١)
يا مُحيِيَ العَدْلِ الذي في ظلِّـــه
مِنْ عَدْلِهِ رَعَت الأُسودُ مع المهـا
مَوْلى الورى ،مُولي الندى ،مُعلي الهدى
مُرْدي العدا ،مُسْدي الجدا ،مُعطي اللُّهـا (٢)
آراؤُه بِصَوابِها مَقْرونَـــةٌ وبِمُقْتضاها دائرٌ فَلَكُ النُّهـى
مُتلبِّسٌ بحصافةٍ وحَصانـــةٍ مُتقدِّسٌ عن شَوْبِ مَكْرٍ أوْ دَهـا
يا مَنْ أطاعَ اللّهَ في خَلَواتِـــهِ مُتأوِّباً مِنْ خَوْفِهِ متأوِّهـــا
ما صِينَ عنك الصِّينُ لو حاولتهـا والمشرقانِ فكيفَ مَنْبِجُ والرُّهـا (٣)

وأنشد نورَ الدين بقلعة جعبر قصيدة أوّلها :

اسلم لبكرِ الفُتوحِ مُفْتَرِعـــــاً ودُمْ لمُلْكِ البِلادِ مُنْتَزِعـــــا

وفيهـــا :

فإنَّ أوْلى الوَرى بها مَلِـــكٌ غدا بعبءِ الخُطوبِ مُضْطَلِعا
يا مُحْيِيَ العَدْلِ بَعْدَ ميتَتِـهِ ورافعَ الحقِّ بَعْدَما اتَّضَعـــا
ونورُ دينِ الهُدى الذي قَمَعَ الشـ ـرْكَ ،وَعَفَّى الضَّلالَ والبِدَعـــا
وكل ما في الملوك مفتـــرق من المعالي لملكك اجتمعـــا (٤)

وكان العماد من أشهر الكتاب في عهد نور الدين ،ومن أقربهم إليـــه ، و" وجد منه الإعزاز والتمكين "(٥) ،وكان نور الدين يستحسن رسائله ،ويبين العماد في النص التالي مدى إعجاب نور الدين بكتابته ورأيه فيها ، يقول : "لا يُراعي الا بِيَراعي ،ولا يَذْرَعُ إلاّ بذراعي ،ولا يُقْلِعُ إلاّ في شراعـــي ، ولا يَتَّبِعُ إلاّ أوْضاعي ، لاسيّما في المكاتبات ،فانه جعل الأجوبة إلـــى رأيي ،ورضي في مبادئها وغاياتها بإنشائي ، فإذا تأملها ،وأعارها منه طرفاً ، لم يغير منها حرفا ،وقال : رميت عن قوسي ،وأعربت عما في نفسي ،فلله دَرُّك ودُرُّك ،وكيف وافق سرّي سِرُّك ،ويقول : ما في خط فلان خطأ ،ولا في قولـــه خطل ،وما في داخلِهِ دَخَل ،ولا في خلاله خَلل "(٦) .

وثقافة العماد الواسعة ،وتمكّنه من الكتابة ،جعلا نور الدين يعجـــب بمكاتباته ، وقد أجادَ العماد في الكتابة " حتى زاحم القاضي الفاضل ، وكان ينشئ الرسائل بالفارسية أيضا فيجيد فيها إجادته بالعربية "(٧) .

---

(١) البها : الأنس (لسان العرب ،مادة : بهأ) .
(٢) اللُّها : بالضم ،الأموال والعطايا ،(لسان العرب ،مادة : لها) .
(٣) كتاب الروضتين ١ / ٣٨١ ،ولم يذكر في الديوان سوى المطلع، انظر ديوان العماد / ٤٤٦ .
(٤) ديوان العماد / ٢٨٥-٢٨٦ ،وكتاب الروضتين ١ / ٣٨٧-٣٨٨ .
(٥) كتاب الروضتين ١ / ٣٧٨ .
(٦) الخريدة ،قسم الشام ١ / ٤١ - ٤٢ .
(٧) معجم الأدباء ٧ / ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان نور الدين يعتمد على العماد في مكاتباته ،ويكلفه كتابة الرسائل المهمة ،وذلك لثقته به واطمئنانه اليه . يقول العماد : " واذا أراد أن يكتب الى أحد في مهم ، يقول : اكتب اليه من عندك "(١) .

وكان نورُ الدين قد رتّب العماد منشئًا في ديوان الإنشاء . يقول العماد : " فرتبني في ديوانه منشئًا ،وذلك لاستقبال سنة ثلاثٍ وستين "(٢) .

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة ، فوّض نورُ الدّين إشرافَ ديوانه إليه (٣) .

* * *

ومن الادباء والشعراء الفرسان الذين كانت تربطهم بنور الدين صلة وثيقة ،الشاعر الفارس الشجاع ،أسامة بن منقذ (٤) ، الذى اتصل بخدمة الملك العادل نور الدين (٥) ، بعد أن أقام في مصر مع أهله مدة ،وكان بينه وبين الملك الصالح طلائع بن رزيك (٦) صداقة ومودة .

---

(١) سنا البرق الشامي ١/ ١٣٢ .

(٢) سنا البرق الشامي ١/ ٦٧ ،ووفيات الأعيان ٥/ ١٤٨ ،ومعجم الأدباء ٧/ ٨٢-٨٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٨ .

(٣) سنا البرق الشامي ١/ ١٢٠ ،ووفيات الأعيان ٥/ ١٤٩ .

(٤) أسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤ هـ) : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري ، الملقب مؤيد الدولة مجد الدين ،من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم له تصانيف عديدة في فنون الأدب منها : لباب الآداب ،والبديع،والمنازل والديار ،والنوم والاحلام ،والقلاع والحصون ،وأخبار النساء،والعصا ،وكتب سيرته في جزء سماه الاعتبار ، ترجم إلى الفرنسية والألمانية ،وله ديوان شعر مطبوع .
قدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ،وذهب إلى مصر ،ومكث إلى ايام الصالح بن رزيك ،ثم قدم الشام وسكن دمشق ،ثم أقام في حصن كيفا ،توفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة ،ودفن بجبل قاسيون .
(انظر ترجمته في : الاعتبار ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٤٩٨-٤٩٩ ، ووفيات الاعيان ١/ ١٩٥-١٩٦ ،ومعجم الادباء ٥/ ٢٠٤ والاعلام ١/ ٢٨٢) .

(٥) الاعتبار / ٣٤ .

(٦) طلائع بن رزيك : أبو الغارات طلائع بن رزيك ،الملقب بالملك الصالح وزير مصر ،كان واليا بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر ، دخل الى القاهرة ،وتولى الوزارة في أيام الفائز ، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة ،وكانت ولايته سنة تسع وأربعين وخمسمائة ،وكان فاضلا سمحا في العطاء ،سهلا في اللقاء ،محبا لأهل الفضائل ،جيد الشعر، =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصل ابن منقذ من مصر الى دمشق ،وكان نور الدين قد استولى عليها سنة تسع وأربعين وخمسمائة (١) .

وكاتب أسامة الملك الصالح يوصيه بأهله ،يقول : " قد أنفذت أهلي وأولادي اليك ،وأنت وليّ ما تراه فيهم " ، فأنزلهم طلائع في دار ،وأحسن إليهم غاية الإحسان (٢) . وكان أسامة يكاتبه في تسييرهم إلى الشام فردّ عليه واعتذر بأنه يخاف عليهم من الافرنج (٣) . وكتب إلى أسامة يقول - " ترجع إلى مصر ،وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وان كنت ستوحشا من أهل القصر ،فتصل إلى مكة ،وأنفذ لك كتابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة ،فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسيّر اليك أهلك وأولادك " . يقول أسامة : فغاوضت الملك العادل ، واستطلعت أمره ،فقال : " يا فلان ،ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنتها ، تعود اليها العمر أقصر من ذلك ،أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الافرنج ، واسير من يحضرهم " ،فأنفذ - رحمه الله - أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر" (٤) .

ويظهر من ذلك مدى حرص نور الدين على استبقاء أسامة إلى جانبه ، وقوة العلاقة التي تربط بينهما ، حيث آثر نور الدين بقاء أسامة في الشام ، وأخذ لأهله عهد الأمان من الفرنج .

أما طلائع ، فقد أرسل أهل أسامة من مصر ،ولكن الفرنج تعرّضوا لهم ،وكسروا المراكب ونهبوا ما فيها ،ولم يصل أهله إلى دمشق الا بأنفسهم دون متاعهم . وعز على أسامة ما حصل لأهله وما واجههم من صعاب ، وعز عليه ما ذهب له من الكتب ،يقول : " فانها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ،فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت "(٥) .

وقد قال معبرا عن حزنه وهمه لفراق أهله وضياع كتبه :

إلى اللّهِ أشْكُو فُرْقةً دَمِيَتْ لها جفوني ،وأذْكتْ بالهموم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى وطارت بها الأشواق كلّ مَطيرِ
فلما قضى اللّهُ اللقاءَ تعرّضَتْ مساءَةُ دَهْري في طريقِ سُروري (٦)

ووقف أسامة مع نور الدين يجاهد بلسانه وبسيفه ،فكان شعره صادرًا عن تجربة واقعية ،وأشاد الشاعر ببطولة نور الدين ،ووصف معاركه ، وتحدث عن جهاد المسلمين ضد الأعداء . فمما قاله في مدح نور الدين :

= له ديوان شعر مطبوع ،وكانت وفاته سنة ست وخمسين وخمسمائة ،(وهو الذي بنى الجامع الذي على باب زويلة بظاهر القاهرة) (انظر ترجمته في الخريدة ،قسم مصر ١/ ١٧٣ ،ووفيات الأعيان ٢/ ٥٢٦-٥٢٨) .

(١) كتاب الروضتين ١/ ٢٣٩ .
(٢) انظر الاعتبار / ٢٦-٢٧ .
(٣) المصدر نفسه / ٣٤-٣٥ .
(٤) انظر الخبر في المصدر نفسه / ٣٤-٣٥ ، والروضتين ١/ ٢٤٧-٢٤٨ .
(٥) المصدر نفسه / ٣٥ .
(٦) ديوان أسامة / ٧٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَلِكٌ ،عادِلٌ ،أنارَ بِهِ الدِّيـ ـــن فعم الاسلامَ منه الشُّروقُ
ما لهُ عن جهاده الكُفْرَ والمدْ ل وفعل الخيرات شُغْلٌ يعوقُ
هو مثل الحسام : صدرٌ صقيلٌ لينٌ مَسُّهُ ،وحدٌّ زَليـــقُ
ذو أناةٍ يخالُها الفِرَّ إِهْما لاً وفيها حتفُ الأعادي المُحيقُ (١)

ومما قاله في ذكر بعض الفتوحات ،وما فعله نور الدين والمسلمون بالفرنج

قولـه :

بنا أُيِّدَ الاسلامُ وازدادَ عـــزةً وَذَلَّ لنا مِنْ بعدِ عِزَّتِهِ الكُفْرُ
قَتَلْنا البرنسَ(٢) حينَ سارَ بجَهْلِـهِ تَحُفُّ بِهِ الفُرسانُ والعَسْكَرُ المجرُ
وفي سِجننا ابْنُ الفُنْش(٣) خيرُ ملوكِهِمْ وإِنْ لم يَكُنْ خيرٌ لديْهِمْ ولا بَـرُّ
وَنَحْنُ أَسَرْنا الجوسلين (٤) ولم يَكُـنْ لِيَخْشى من الأيّام نائبةً تعْـرُو

ومنهـا :

ونحنُ كَسَرْنا البَغْدَوين (٥) وما لِمَـنْ كَسَرْناهُ إِبلالٌ يُرَجّى ولا جَبْـرُ
وَنَرْتَجِعُ القُدْسَ المُطَهَّرَ منهُـمُ ويُتلى بإذنِ اللّهِ في الصَّخرةِ الذِّكرُ
بنا اسْترجَعَ اللّهُ البلادَ وأَمَّنَ الـ ـعِبادَ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا قَهْرُ
فتحنا الرُّها حينَ اسْتَباحَ عِداتُنـا حماها ،وسَنّى مُلْكَها لَهُمُ الخَتْرُ(٦)
وَنَحْنُ فتحْنا تل باشِرَ بَعْدَهـا وَقَدْ عَجزَتْ عنهُ الأكاسِرةُ الغُـرُّ
وتلّ عزازٍ صَبَّحَتْهُ جيوشُنـا فلمْ تحمِ عنا الرجالُ ولا الجُـدْرُ

ويستمر الشاعر في ذكر فتوحات نور الدين ،إلى أن يقول :

فَقُلْ لملوكِ الأرْضِ: ما الفخرُ في الذي تعدُّونَهُ مِنْ فِعْلِكُمْ ،بَلْ كذا الفَخْـرُ (٧)

وكانت هذه الأبيات من قصيدة أرسلها أسامة بن منقذ إلى طلائع بن رزيك ، بناء على طلب نور الدين ،وردّاً على رسالة شعرية ،كان قد أرسلها طلائع

---

(١) ديوان أسامة/ ١٨٩
(٢) prince (انظر نور الدين (البيسيف) / ٤٠٧) .
(٣) Alphonse (انظر نور الدين (البيسيف) / ٤١٦ .
(٤) Joscelin (انظر نور الدين (البيسيف) / ٤٥٣ .
(٥) Baudouin III (انظر نور الدين (البيسيف) / ٥٥٥ .
(٦) الختر: الغدر والخديعة (انظر لسان العرب ،مادة : ختر) .
(٧) ديوان أسامة/ ٢٠٢-٢٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن رزيك ، إلى أسامة بن منقذ ،ومطلعها :

أبى اللهُ إلاّ أنّ يدين لنا الدّهرُ وَيَخْدِمُنا في ملكنا العزُّ والنَصْرُ (١)

وكان أبو الغارات طلائع بن رزيك ،الوزير الفاطمي الذى استولى على أمر صاحب القصر ،وأصبح سلطان مصر (٢) فارسًا شجاعًا ،قارع الصليبيين وأبلى بلاءً حسنا في جهاده إياهم ،وقد كان داعية وحدة ووئام مع نور الدين ، واتصل به عن طريق أسامة بن منقذ ،وظهرت هذه الرغبة الطحة في الوحدة ، وقتال الصليبيين من خلال " القصائد الشعرية الكثيرة المستحسنة ،التي أنفذها الى الشام ،وذكر فيها قيامه بنصر الاسلام" (٣) .

وقد كان طلائع بن رزيك يرسل رسائله الشعرية إلى أسامة بن منقذ ، ويطلب منه إبلاغها لنور الدين (٤) .

ومن أشهر قصائده التي صور فيها بسالته وبسالة جنوده ،وفتكه بالأعداء وتغنى فيها بانتصاراته ،ودعا فيها إلى الوحدة مع نور الدين ، تلك القصيدة التي بعثها إلى أسامة بن منقذ وقال منها :

ألا هكذا في الله تمضي العزائمُ
وتُنْتضَى لدى الحَرْب السيوفُ الصوارمُ
ويُسْتَنْزَلُ الأعداءُ مِنْ طَوْدِ عزّهِمْ
وليس سوى سُمْرِ الرِّماح سَلالمُ
وتغزى جيوشُ الكُفْرِ في عُقْرِ دارها
ويوطا حِماها والأنوفُ رواغمُ
نَذرنا مسيرَ الْجَيْشِ في صَفَرٍ فما
مضى نِصْفُهُ حتى انثنى وَهْوَ غانمُ
بعثناهُ مِنْ مِصْرٍ إلى الشّام قاطعًا
مَفاوِزَ وَخْدُ العيسِ فيهِنّ دائمُ

ويواصل وصف الجيش وما فعله بالاعداء ، إلى أن يقول :

فقولوا لنور الدين لا فُلَّ حدُّهُ ولا حَكَمَتْ فيه الليالي الفواشمُ
تَجَهّزْ إلى أرضِ العدوِّ ولا تَهِنْ
وتُظْهِرْ فُتورًا إنْ مَضَتْ منك حارمُ (٥)

وقد ظلّ ابن رزيك يبعث برسائله الشعرية إلى أسامة ،ويلح في طلب التعاون مع نور الدين في جبهة واحدة ، فما قاله أيضا :

---

(١) ديوان طلائع/ ٨١ ،وديوان أسامة/ ٢٠١ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٢٩٨ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) انظر هذه الرسائل في ديوان طلائع/ ٨٤-١٠٣ ،وديوان أسامة ١٦٦-٢٢٤ ، والروضتين ١/ ٢٨٩-٢٩٨ .
(٥) ديوان طلائع/ ١٣٥-١٤٢ ،وديوان أسامة/ ٢٢٠-٢٢٤ ، وكتاب الروضتين ٢٨٩-٢٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan, - Center of Thesis Deposit

يا سيّدًا يسمو بهمّته إلى الرُّتَب العَليّة
أنْت الصديقُ وإنْ بعدْ تَ ،وصاحب الشِّيم الرَّضيّة
يُهْنيك أنَّ جيوشَنا فَعَلتْ فعال الجاهلية
سارتْ إلى الأعداءِ منْ أبطالها مائتا سَريّة
فتفيرُ هذى بُكرةً وتعاودُ الأخرى عشيَّة
فالويلُ منها للفرنْ ج فقدْ لَقوا جَهْد البَليّة

الى أن يقول :

فانهضْ فقد أنبيتَ مَجْـ د الدّين بالحال الجَليّة
ألمِمْ بنور الدّين واعْـ لمْهُ بها تيك القضية
فَهُوَ الذي مازال يُخـ لصُ منه أفعالٌ ونيّة
ويبيدُ جَمْع الكفر بالـ بيض الرِّقاق الشّرفية
فعساه ينهضُ نهضةً يفني بها تلك البْقية
اما لنصرة دينِه أوْ تُملكه أو للحَميّة (١)

* * *

وقد شارك طلائع امنيته في التعاون مع نور الدين ،شاعر مصرى آخر هو المهذب بن الزبير (٢) ، وقد خص ابن الزبير الصالح بن رزيك بمدحه الكثيرة ، وأبرز شجاعته وبسالته في قتال الصليبيين ،وأمل الشاعر في أن يتعاون طلائع بن رزيك ونور الدين في مواجهة العدو المشترك . يقول ابن الزبير من قصيدة له في مدح الصالح بن رزيك :

أعلمتَ حينَ تجاور الحيّان أنَّ القلوبَ مواقدُ النيران
يا كاسرَ الأصنام قُمْ فانهض بنا حتى تصيرَ مكسّرَ الصُّلْبان

ومنها في وصف كتائبه :

ولَقَدْ بَعَثْتَ إلى الفرنج كتائبًا كالأُسْدِ حينَ تصولُ في خفّان
وثللتَ في يوم العريش عروشَهُمْ بِشَبا ضِراب صادقٍ وطِعان
ألْجأتَهُمْ للبحرِ لما أنْ جرى مِنْهُ ومِنْ دَمِهِمْ معًا بحران

---

(١) ديوان طلائع /١٧٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٩٠-٢٩١ .
(٢) المهذّب بن الزبير : أبو محمد الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير ، يلقب بالقاضي المهذب ،قال العماد : " هو أخو الرشيد ،محكم الشعر ، كالبناء المشيّد ،وهو أشعر من أخيه وأعرف بصناعته ،واحكام معانيه ، ولم يكن في زمانه أشعر منه أحد ،وله شعر كثير ومحل في الفضل أثير " . =

All Rights Reserved - Library of University of Jordan, - Center of Thesis Deposit

ولقد أتى الأسطولُ حين غزا بما
لم يأت في حينٍ من الأحيان

ثم يمدح نور الدين ،ويدعو ابن رزيك إلى التعاون معه ، يقول :

وأعدْتَ رسْلَ ابن القسيم إليه في
شعبانَ كي يتلاءَم الشعبانِ
والفالُ يشْهَدُ في اسْمِهِ إنْ سوْفَ يفْـ
ـدُو الشامُ وَهْوَ عليكما قسمانِ
وأراكَ مِنْ بعد الشَّهيدِ أباً لـه
وجعلْتَهُ مِنْ أقْرَبِ الإخوانِ
وَهُوَ الذي مازال يفعَلُ في العدا
ما لمْ يَكُنْ ليُعَدّ في الإمكانِ
قتل البُرنسَ ومَنْ عساهُ أعانَهُ لما عتا في البُغي والعُدْوان
وأرى البرية حينَ عادَ برأسِهِ مُرَّ الجنى يبدو على المُرّانِ
وتعجبوا مِنْ زرقةٍ في طرْفِـه
وكأنَّ فوق الرُّمحِ نصلاً ثانـي (١)

* * *

أما الشاعر عرقلة الكلبي (٢) ، فإنني لم أعثر له على شعر في نور الدين سوى أبياتٍ قالها في المدرسة العادلية التي أنشأها نور الدين (٣) .

= وهو كاتب مليح الخط ،جيّد العبارة ،اختص بمدح الصالح بن رزيك ، وصنف كتاب الأنساب ،وهو كتاب كبير أكثر من عشرين مجلداً ، كل مجلد عشرون كراساً ، توفي سنة إحدى وستين وخمسمائة . (انظر ترجمته في : الخريدة ،قسم مصر ١/ ٢١٤ ،ومعجم الأدباء ٩/ ٤٧-٤٨ ، والروضتين ١/ ٣٧٥ ، وفوات الوفيات / ٣٣٧) .

(١) انظر القصيدة في الخريدة ،قسم مصر ١/ ٢٠٩-٢١٢ ،والروضتين ٢/ ٣٧٥-٣٧٦ .

(٢) عرقلة الكلبي : حسان بن نمير ،أبو الندى الكلبي ،الدمشقي المعروف بعرقلة ،كان من أهل دمشق ، وكانت وفاته سنة سبع وستين وخمسمائة ، وقد قارب الثمانين (انظر الخريدة ،قسم الشام ١/ ١٧٨ ،وفوات الوفيات ١/ ٣١٣) .

(٣) تقدم ذكر الأبيات في التمهيد من هذه الدراسة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما صلاح الدين قائد نور الدين ،فقد مدحه العرقلة في كثير من قصائده ، وكان صلاح الدين يجزل له العطاء(١) . ومما قاله في صلاح الدين عندما تولى أمر دمشق في الأيام النورية :

رويدَكُمُ يا لصوصَ الشآمِ فانّي لكُمْ ناصحٌ في المقالِ
وإياكُمُ من سميِّ النبيِّ يوسُف ربِّ الحِجا والحجالِ
فذاكَ مقطّعُ أيدي النساءِ وهذا مقطّعُ أيدي الرجالِ(٢)

وقال قصيدة مدح فيها صلاح الدين ،وحثه على المسير إلى مصر ، يقول في مطلعها :

إلامَ ألامُ فيك وكم أُعادى وأمرضُ من جفاكَ ولمْ أُعادا

ومنها :

لَئِنْ أعطاهُ نورُ الدين حِصْناً فانَّ اللّه أعطاهُ البلادا
إلى كم ذا التواني في دمشق وقد جاءَتكُمُ مِصْرٌ تُهادَى
عروسٌ بَعْلُها أسدٌ هَصُورٌ يَصيدُ المعتدين ولَنْ يُصادا
ألا يا معشرَ الأجنادِ سيروا وراءَ لوائه تلقَوْا رشادا(٣)

ويضرع العرقلة إلى الله سائلا اياه أن يمن على المسلمين بالنصر ،والتمكن من مصر ،حتى تلتئم وحدة الامة ،ليسهل ضرب الاعداء ، وذلك عندما استعد المسلمون للحملة الثانية سنة اثنتين وستين وخمسمائة يقول :

أقولُ والأتراكُ قد أزمعتْ مصرَ إلى حرب الأعاريب
ربِّ كما ملكْتَها يوسُفَ الصِّـ ـديق من أولادِ يعقوب
يملكها في عصرنا يوسف الصّـ ـادق من أولادِ أيوب
من لم يزل ضرّاب هام العدا حقّاً وضراب العراقيب(٤)

وللحافظ ابن عساكر(٥) قصيدة ـ لم أعثر على غيرها في نور الدين ـ حرضه فيها على استرداد القدس من قبضة الصليبيين ،فقد كانت هذه أمنية عزيزة رددها أغلب الشعراء ،يقول منها :

وإن بذلت لفتح القدس محتسبا للأجر جوزيت أجرا غير محتسب
والأجرِ في ذاك عند الله مرتقبٌ فيما يثيب عليه خير مرتقَب
ولستَ تُعذَرُ في تَرْكِ الجهاد وقدْ أصْبحتَ تملكُ من مصرَ إلى حلبِ

إلى أن يقول :

فطهّر المسجدَ الأقصى وحوزَتَه من النجاسات والاشراك والصُلُبِ

---

(١) انظر القصائد في ديوان عرقلة الكلبي .
(٢) ديوان عرقلة الكلبي / ٨٧ وفي الروضتين / ٣٩٤ ورد :عروس بعلها أسد هزبر . . .الخ .
(٣) المصدر نفسه / ٣٠-٣٢ .
(٤) نفسه / ١٣ .
(٥) الحافظ ابن عساكر : ابو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله أبي الحسن بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر ،الدمشقي الملقب ثقة الدين ،كان محدث الشام في وقته ،ومن أعيان الفقهاء الشافعية ،=

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنـًا وفي القيامة تلقى خيرَ مُنقلبِ(١)

* * *

وممن اتصل بنور الدين أيضا ، علم الدين الشاتاني (٢) ، وقد بيـــن العماد مدى تلك الصلة ، وذلك أن الشاتاني أنس بنور الدين ، وتقرب منـــه ، ووجد عنده الرعاية والتكريم ، ووجد شعره وعلمه كل التقدير من نور الديـــن ، فاتخذ من دمشق دارًا لهجرته . يقول العماد : " فلما سار آنس من نورالدين نارًا بل نورًا ، واتخذ دمشقَ دار هجرتهِ ،وغار أسرته ،وَمبْرَكَ مبرَّتِهِ ، وَمسْرَحَ مَسَرَّته ، وموسم سُننه وفروضه ، وَمرْج مرحه ،وبُرْج فرحه ، وبيت قصيدته ،فأشـــرق عند النُّور نورُه ، وانتظمت بأمره أموره ،ودرّت أنواءُ إدراره"(٣) .

فمما مدح به نور الدين قوله من قصيدة له فيه ، وقد تقدم ذكر بعـــض أبياتها ، ومنها :

ما نال شأوكَ في المعالي سنجـــرُ(٤) كلّا ولا كسرى ولا الاسكندرُ
يا خيرَ من ركب الجيادَ وخاض في لُجَج المنايا والأسنّةُ تقطُرُ

إلى أن يقول :

أوَما أبوكَ بسيفه فتح الرُّهـــا والأُسْدُ تَقْتنصُ الكماةَ وتزأرُ
هابت ملوكُ الأرض بأسَ كُماتهـا فتقاعدوا عن قَصْدها وتأخروا
وإذا عددنا للأنام مناقبـــًا فعليك قبل الكلّ يُثني الخنصرُ
في الرأي قيسٌ ،في السماحة حاتمٌ في النطق قسٌّ ،في البسالة حَيْدَرُ
دانت لك الدُّنيا وأنّتَ تعافهـا وسواك في آماله يتعثـــرُ
من ذا يصون الضّينَ عَنْك وأنتَ مَنْ أسد الشرى مِنْه تَخافُ وتحـــذَرُ(٥)

* * *

= صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة ،وذكر العماد أنه كـــان يتردد إليه ، وهو بدمشق ، وسمع منه بعض تاريخه ،غزير العلم ،كثيـــر الفضل ، حافظا متقنا ،رحل في طلب الحديث ،زار بغداد وخراسان ، توفي سنة احدى وسبعيـــن وخمسمائة بدمشق . (انظر ترجمته في : الخريدة ،قسم الشام ١/ ٢٧٤-٢٧٦ ،ووفيات الأعيان ٣/ ٣٠٩) .

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٠٥ .

(٢) علم الدين الشاتاني : أبو علي الحسن بن سعيد بن عبدالله بن بندار بن ابراهيم الشاتاني ،الملقب علم الدين ،كان فقيها غلب عليه الشعـــر ، وأجاد فيهواشتهر به ،وكان قد ترك بلده ،ونزل الموصل واستوطنها ،وكان يتردد منها إلى بغداد ،ثم سار إلى دمشق ،واتخذها دار هجرته ،وهو ذو علم غزير ،وفضل كثير ،وله المحفوظ الوافر من كل فن ،هاجر إلى مصر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ،والعماد فيها ،وأنعم عليه الملك الناصـــر وشرفه وأكرمه ، وتوفي بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة . وشاتان : بلد من نواحي ديار بكر . (انظر ترجمته في الخريدة ،قسم الشام ٢/ ٣٦١-٣٨٣) .

(٣) انظر الخريدة قسم الشام ٢/ ٣٦٣-٣٦٤ .

(٤) سنجر : تقدم التعريف به .

(٥) الخريدة ،قسم الشام ٢/ ٣٧٧-٣٧٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ٤٤٥-٤٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن اتصل بنور الدين من الشعراء ،محمد الآلوسي (١) ، قال العماد : " هاجر إلى الملك العادل نور الدين ، وأقام في خيمتي بالعسكر سنة أربع وستين وخمسمائة ، وكنا في صرخد (٢) ، وله ما أنشدنيه لنفسه وكان نور الدين ،رحمه الله ،سامه أن يتوجه الى مصر مع العساكر الذين جهزهم اليها "(٣) .

وكتب الالوسي الى الملك العادل يمدحه ،ويطلب البقاء معه ،ويدعو الله أن يثبت ملكه ،يقول :

أيُّها العادِلُ الذي مَلأَ الأَرْ ... ضَ عَطاءً غَمْرًا ،وأَمْنًا ،وعَدْلا
لَمْ أَسِرْ طالبًا سِوى فَضْلِكَ الضَّا ... فِي وَحاشايَ لا أُصادِفُ ظِلا
لستُ أرضى من بعدَ ظِلِّ إمامِ الـ ... ـحَقِّ ظِلَّ الدَّعِيِّ حاشا وكلا
فاجْبُرِ اليَوْمَ منعِمًا قلبَ عَبْـ ... ـدٍ مُقْبِلِ العُمرِ ،حَظُّه قَدْ تَولَّى
هُوَ في العَسْكرِ المظفرِ يفني الدَّ ... دَّمْعَ شَرْبًا ،ولَحْمَ كَفَّيْهِ أَكْلا
لا استرد الإلهُ منكَ الذي أعـ ... ـطى ،ولا ذُقْتَ بَعْدَ أَمْنِكَ عَزْلا (٤)

* * *

وأما ابن القلانسي (٥) ، فقد نظم مقطوعة شعرية بعد شفاء نور الدين من مرض أصابه سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ،وانتشار البشائر في الأقطار بعافيته ،واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد ،يقول ابن القلانسي : ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى ،ومنها :

لقدْ حَسُنَتْ صفاتُك يا زماني ... وَفُزْتُ بما رجوتُ من الأَماني
فكم أصبحتُ مرعوبًا مخوفًا ... فَبَدَّلْتَ المخافةَ بالأَمان
وجاءتنا أراجيفٌ بِمَلْكٍ ... عظيم الشأنِ ، مسعودِ الزمانِ

---

(١) محمد بن المؤيد الآلوسي ،شاعر عراقي ،له شعر حسن ،يقول العماد : ولو عاش فضل والده نظما وذكاء ،مرض والمسلمون على صرخد ،وأرسلوه إلى دمشق ، فتوفي في الطريق بضيعة يقال لها رشيدة ، سنة أربع وستين وخمسمائة . (انظر الخريدة ،القسم العراقي ٢/ ١٨١ .
(٢) صرخد : تقدم التعريف بها .
(٣) الخريدة ،القسم العراقي ٢/ ١٨١ .
(٤) المصدر نفسه ٢/ ١٨١-١٨٢ .
(٥) ابن القلانسي : حمزة بن أسد بن علي بن محمد ،أبو يعلى المعروف بابن القلانسي التميمي ،الأديب الشاعر ،المؤرخ ،كان من أعيان دمشق ، ومن أفاضلها المبرزين ،وبها توفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة ،وله تاريخ للحوادث وكانت له عناية بالحديث ،وله كتب عليها سماعه (انظر ترجمته في : معجم الأدباء ١٠/ ٢٧٨) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثارت فتنة يُخشى أذاها على الإسلام في قاصٍ ودان
ووافى بعد ذاك بشيرُ صدقٍ بعافية الطيكِ مع التهاني (١)

* * *

ومن أشهر الأدباء المعاصرين لنور الدين ،الذين ساهموا في كتابة الرسائل ،وارسالها إليه من مصر ، القاضي الفاضل (٢) ، الذي كان مقربًا من صلاح الدين ،عندما كان نائبا لنور الدين في مصر .

وكان صلاح الدين يعتمد عليه في إنشاء رسائله ،وأصبح فيما بعد "وزيراً له ،وتمكن منه غاية التمكن ،وبرز في صناعة الإنشاء ،وفاق المتقدمين ، وله فيه الغرائب مع الإكثار "(٣) .

وقد أثنى العماد الأصفهاني على القاضي الفاضل ،ومما وصفه به قوله : "صاحب القران العديم الأقران ،وواحد الزمان العظيم الشان ،ورب القلم والبيان ،واللسنُ واللسان ،والقريحة الوقّادة ،والبصيرة النقّادة ، والبديهة المُعْجِزة ، والبديعة المطرزة ،والفضل الذي ما سمع في الاوائل بمن لو عاش في زمانه ، ..... يخترع الأفكار ،ويفترع الأبكار... الخ"(٤) .

وذكر العماد أن له فيه مدائح منظومة ومنثورة(٥) .

وقال صاحب بدائع الزهور في حق الفاضل : "وكان القاضي الفاضل عالما فاضلا ،قد برع في الشعر وصنعة الانشاء ،حتى قيل إن مسودات رسائله لو جمعت بلغت مائة مجلد"(٦) .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق / ٣٥٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٧٥-٢٧٦ .

(٢) القاضي الفاضل الأسعد ،أبو علي عبدالرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن بن احمد بن الفرج بن أحمد اللخمي العسقلاني المولد ، المصري الدار ،المعروف بالقاضي الفاضل ،الملقب مجير الدين .كانت ولادته بمدينة عسقلان سنة تسع وعشرين وخمسمائة ،وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان ،فلهذا نسبوا اليها ،وتوفي بالقاهرة سنة ست وتسعين وخمسمائة ،وبنى بالقاهرة مدرسة بدرب ملوخية سنة ثمانين وخمسمائة وكان من محاسن الدهر وهيهات أن يخلف الزمان مثله . (أنظر ترجمته في : الخريدة ،قسم مصر ٢/ ٣٥-٤٤ ،ووفيات الأعيان ٣/ ١٥٩-١٦٢ ،ونهاية الأرب ٨/ ١-٢).

(٣) وفيات الأعيان ٣/ ١٥٩ .

(٤) الخريدة ،قسم مصر ٢/ ٣٥ .

(٥) نفسه ٢/ ٤٤ .

(٦) بدائع الزهور ١/ ٢٣٨-٢٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأثنى عليه أيضاً ، النويريّ وقال : "إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رَويتْ ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت بها نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ،ورافع علم البيان لا محاله ،والفاضل بغير اطالة ، وقد أنصف بعض الكتاب فيه ،ونطق من تفضيله بملء فيه ، حيث قال : "كل فاضل بعد الفاضل فضلة ،وكل قد عرف له فضله "(١) .

ويبدو من هذه المقتطفات تميز القاضي الفاضل ،وريادته في مجال الكتابة الأدبية .

أما صلة الفاضل بنور الدين ،فتتمثل بالدور المهم الذي اضطلع به في توجيه السياسة بين مصر والشام ،وفي تنمية العلاقات السياسية بين صلاح الدين ونور الدين ، وذلك من خلال الكتب التي كان يبعث بها إلى الملك العادل ،ومن ذلك : ما كتبه القاضي الفاضل عندما نزل صلاح الدين على الكرك والشوبك (٢) ، وما كتبه إليه ، يشرح قضية المصلّبين (٣) ، وكتب إليه أيضا ، يدعو إلى التعاون والتنسيق بينه وبين صلاح الدين لمحاربة الأعداء في مصر والشام (٤) ، وعندما توفي نور الدين كتب القاضي الفاضل كتب التعازي بوفاته عن صلاح الدين ،وبعث بها إلى الملك الصالح وأمراء الشام (٥) .

* * *

ومن الأدباء الذين اعتمد عليهم نور الدين ،وقلدهم الوزارة ،موفق الدين خالد بن القيسراني (٦) ،الذي تفوق في الكتابة ،وتقدّم عند نور الدين تقدما زائداً ، بحيث فوض أموره إليه (٧) .

وقد تحدث العماد عن علاقة ابن القيسراني بنور الدين ،ومكانته عنده ،وتحدث ايضا عن علاقته بابن القيسراني ،عندما كان الأيوبيان في بلاط نور الدين فقال : "ولما وصلت إلى الشام ،والتبست بالخدمة النورية ،وجدت موفق الدين خالداً ابن القيسراني صدر مناصبها ،وبدر مراتبها ،ونجم كواكبها بل شمس مواكبها ،وجمعتْ بيني وبينه الصُّحبة ،وضمتني اليه الرتبة ،وتمهدت

---

(١) نهاية الأرب ٨/ ١-٢ .

(٢) انظر الكتاب في الحديث عن نور الدين السياسي ،**الباب** الثاني من هذه الدراسة .

(٣) انظر الكتاب في الحديث عن نور الدين السياسي ، **الباب** الثاني من هذه الدراسة .

(٤) انظر الكتاب في الحديث عن نور الدين الساعي للوحدة الاسلامية ، **الباب** الثاني من هذه الدراسة .

(٥) انظر الكتب في الحديث عن سيرة نور الدين ،**الباب** الاول من هذه الدراسة .

(٦) خالد بن القيسراني : خالد بن محمد بن نصر بن القيسراني - ابن الشاعر المشهور - كان وزيراً لنور الدين ، ومستوفيا لمملكته . (انظر ترجمته في : الخريدة ،قسم الشام ١/ ١٢٥-١٢٦ وعيون التواريخ ١٢/ ٤٦١) .

(٧) عيون التواريخ ١٢/ ٤٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحبة ،وكان مستوفي (١) المملكة ،وأنا منشيها تارة ،ثم مشرفها ، ثم لما سيره نور الدين إلى مصر قمت بعده بجميع الأمر ،وكان نور الدين رفعه ، واصطنعه ،وبلغ منه مبلغا من الأمر ،كأنه أشركه في الملك معه ، ولقد كان لبيقا بذلك ،حقيقا به ،وما زلنا سفرًا وحضرًا نتناشد ونتذاكر ،ونتجاذب أطراف الحديث ونتحاور "(٢) .

ويبدو من حديث العماد كفاية ابن القيسراني ،ومنزلته الخاصة عند نور الدين ، وربما كان الوفاء بحق والده من أسباب تقريبه .

ولتواضع نور الدين "كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر ، حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه ، ويصونه عن الكذب ،وعما هو مخالف لحاله"(٣) .

ومما كان يطلبه نور الدين من ابن القيسراني أيضا ،الكتابة باطلاق المؤن والمكوس والأعشار . ولذلك قصة أوردها أبو شامة في الروضتين ،وهي أن "موفق الدين خالدًا ،رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها ، فقص منامه على نور الدين ،فتمعّر وجه نور الدين ،فخجل موفق الدين ، وبقي أياما على غاية من الخجل ،فاستدعاه يوما نور الدين وقال : تعال ، قد آن لك أن تغسل ثيابي ،اقعد واكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار ،واكتب للمسلمين : "إنني قد رفعت عنكم ما رفعه الله عنكم ،وأثبت عليكم ما أثبته الله عليكم" ، فكتب موفق الدين توقيعًا"(٤) .

فنور الدين يثق بابن القيسراني ويقربه ويجلس معه ،فهو وزيره وكاتبه ،والأمين على أسرار الدولة .

وقد أعجب ابن رواحة الحموي (٥) ،بطبيعة العلاقة بين نور الدين وخالد بن القيسراني ،من خلال مدحه لابن القيسراني ،وذكر أن نور الدين تفاءل خيرًا باسم الموفق خالد . يقول الحموي :

---

(١) المستوفي : الذي يضبط الديوان (انظر ،صبح الاعشى ٥/٤٦٦) ولسان العرب : مادة وفي) .

(٢) انظر : الخريدة ،قسم الشام ٢/١٢٥-١٢٦ .

(٣) انظر الروضتين ١/٣٠ .

(٤) نفسه / ٣٧-٣٨ .

(٥) الفقيه أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة ،يقول العماد : "لقيته كهلا ،لكل فضيلة أهلاً ،وهو مقيم بحماة للاحتساب ، واقرأ فقه الشافعي والآداب ،شعره حسن ،لا يتكلف صنعة ،ولا يتعسف صيغة ،رأيته في سني صحبتي لنور الدين ،يتردد اليه في كل سنة ويمدحه ،وهو بتشريفه وجائزته يمنحه ،وكان ينشده القصائد فيما يتفق من الوقائع ،وينشد لديه مقاصدا بما يتسق له في تلك الصنائع ، وقد جعل له نور الدين من انعامه إدرارًا يكفيه ،وكان يقبله ،ويقبل عليه . (انظر ترجمته في : الخريدة ،قسم الشام ١/٤٨١-٤٨٣) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دَعوتُكَ مشتاقًا لنيل صنيعةٍ فكُنْتَ إلى بَذْلِ الصنائع أَشْوَقا
وكمْ عُقَدٍ حُلَّتْ بعزمِكَ لم تكنْ تُحَلُّ بعزمٍ من سواك ولا رُقَى
تفاءَل نورُ الدين باسمك مثلما حوى بك نَقَّتًا في الأمور مُحقّقا
فأصبح في المُلْك المخلّد خالدًا كما كان في الرّأي السّعيد مُوفّقا (١)

**** *** ****

وترجم العماد الأصفهاني في الخريدة لبعض الأدباء الذين كتبوا لنور الدين ، ولكني لم أعثر لهؤلاء الكتاب على نصوص من كتابتهم النثرية .

ومنهم ابنُ الزعلية الكاتب (٢) ، وهو من أهل دمشق ، "كان يكتب كل سنة مصحفًا لنور الدين ، وخطه - كما يقول العماد - كالروض الأُنُف ، والوشي المُفوَّف" (٣) .

وأورد له العمادُ أبياتًا من قصيدة هنأ فيها ببرءِ نور الدين ، يقول منها :

بُرِئْتَ أَبَرَّ على إرواء باكرةٍ من السحائب ظمآنِ الثرى جَدِبا
شفى به اللهُ مجْدًا قد ألمَّ على شفًا وأحيا حَيًا أَبْلَلْتَ فانسكبا

ومنها :

يا أفْصَحَ العَرَبِ العَرْباء قاطبةً وإنْ غدا لملوك الترك مُنْتَسِبا
ما جالَ طرْفُ الكرى في جَفْنِ مأثُرةٍ حتى تصرَّم عنْكَ الدّاءُ وانجذبا
عفّت عوافيك آثارَ الهموم فما أبْقَتْ لها في فيافي فِكْرةٍ أَرَبا
ورَدّ دونك نورَ الدين قاصرةً أيْدي المُلِمّ أيادٍ تُخْجِل السُّحُبا (٤)

ويقول العماد أيضا ، وأنشدني من قصيدة في نور الدين محمود ، وكان قد أهدى له مصحفًا بخطّه :

يا جُنّةً إنْ رماني سهمُ حادثةٍ وجَنّةً ليَ إنْ خُوِّفْتُ بالنارِ
وفي القناعة ليْ عزٌّ أصولُ به لكنّ عائلتي يَهْوَوْنَ إيساري
إذا ذَكَرْتُ لهم فضلَ القناعةِ لم يُسْمِعْنَ وعظي ولم يَقْبلْنَ أعذاري
وليس ليْ شافعٌ أرجو النجاةَ به سوى كتاب عظيم المُلْكِ جبّارِ
لو أنّ حظّي كخطّي كنْتُ أكسبُ مِنْ دونِ الوَرى كلَّ يوم ألفَ دينارِ
ظلمت حظّي كخطّي في ملاحَتِهِ وليتَ رزْقي كآدابي وأشعاري (٥)

---

(١) الخريدة ، قسم الشام ١/ ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٢) زين الكتاب ابو الحسن علي بن جعفر بن أسد بن علي المعروف بابن الزعلية ، نقل العماد عنه قوله : " جدي جوهري وأبي صائغ فلا جرم ورثتهما في الصناعة والصياغة ، والخط والبلاغة ، فانا فيهما مبالغ" قال العماد : رأيته وقد نيف على السبعين ، وتوفي بدمشق في شهر رمضان سنة احدى وسبعين وخمسمائة . (انظر ترجمته في : الخريدة ، قسم الشام ١/ ٣١٧) .

(٣) المصدر نفسه . (٤) المصدر نفسه ١/ ٣٢٣ . (٥) المصدر نفسه ١/ ٣٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنهم ابنُ النَقّار الكاتب الدمشقي (١) ،الذي "كان مليح الخط حلوه فصيح الكلام صفوه ،تولى كتابة الإنشاء بدمشق لملوكها ،إلى أن تملكهـــا نور الدين محمودبن زنكي ،وكتب له أيضًا مدة يسيرة ،وله نظم مقبول"(٢) .

وأبو اليسر شاكر بن عبد الله (٣) ، كان كاتبًا للإنشاء في ديـــوان الملك العادل نور الدين ،وكان أديبًا فاضلاً ،وعندما استعفى من الخدمة في ديوان الإنشاء وقعد في بيته ،تولى العماد الإنشاء بعده . يقـــول العماد : " تولى ديوان الإنشاء بالشام سنين كثيرة ، وله مقاصد حسنـــة في الكتب ،وهو حميد السيرة ،جميل السريرة" (٤) .

* * *

ومما يدل على تشجيع نور الدين للأدباء ،واهتمامه بالأدب ، أنـــه كان يقربهم ويصحبهم . فقد ذكر أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أنـــه كان يشهد الصّيد مع الملك العادل نور الدين . يقول : " وشهـــدت الصيد مع الملك العادل نور الدين رحمه الله ،فحضرته ونحنُ بأرض حماة"(٥) ، ثم يروي قصصًا عن الصيد ،ومشاركة نور الدين فيه (٦) .

وأما العماد الأصفهاني ،فقد كانت منزلته عالية عند نور الدين ، وكان يصحبه ويعتمد عليه حتى "صار صاحب سرّه "(٧) .

وكان العماد يشعر بالسعادة في خدمته للملك العادل لشـــدة إعجابه به . ففي أخبار سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، يقول العماد : " ورحل الملك العادل نور الدين رحمه الله ،وأقام بحمص أيامًا ،ورتّب بها أسبابـًا واحكامًا ، وخرجت معه وراءه ، ورحلت معه إلى حماة ،وأنزلني أسد الدين شيركوه في حماة ،وضرب لي خيمة بقربه ،وأنا أمضي كل يوم إلى الديـــوان مبكرًا "(٨) .

---

(١) يقول العماد : أدركت حياته بدمشق ،وكان شيخا قد أناف علـــى التسعين ،وقيل على المائة ، وتوفي سنة ثمان أو تسع وستيـــن وخمسمائة (الخريدة ،قسم الشام ١/ ٣١٦) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابو اليسر شاكر بن عبدالله بن محمد ابي المجد بن عبدالله بـــن محمد بن عبدالله بن سليمان ،التنوخي المعرى الدمشقي ،ولد سنة ست وتسعين واربعمائة ، قرأ الأدب على جدّه القاضي أبي المجـــد محمد بن عبدالله بحماة ، وسمع من أبي عبدالله الحسين بـــن العجمي ، وحدّث ، وسمع منه الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، وتوفـي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . (انظر ترجمته في: الخريدة ، قســم الشام ٢/ ٣٥-٣٧ ، والروضتين ١/ ٣٧٨ ، و فوات الوفيات ٢/ ٩٦) .

(٤) انظر المصادر نفسها .

(٥) الاعتبار / ١٩٧ .

(٦) انظر هذه القصص في الاعتبار / ١٩٧ - ١٩٨ .

(٧) معجم الأدباء ٧/ ٨٣ .

(٨) سنا البرق الشامي ١/ ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتحدث العماد عن مدى علاقته بنور الدين ومكانته عنده وقوة هذه العلاقة ، فنور الدين كان يقربه ويحبه ،وكان عماد الدين يحظى عنده بالوجاهة والكرامة . يقول العماد : " وزاد نور الدين دنوّي نورًا ، وملأت صُبْح دولته ووجه مملكته بما أمليته إسفارًا وسُفورًا ،وتأكدتْ رغبتُه، وتمهّدتْ محبّتُه ، وتكرّرتْ موهبَتُه "(١) .

وكان نور الدين يصطحب العماد في غزواته . ففي ذكر غزوة نور الدّين على الكرك يقول العماد : " ثم توجهنا إلى بلاد الكرك نستهل شعبان ، ونزلنا أيامًا بالبلقاء على عمان "(٢) .

وكان نور الدين يطلب من العماد أنْ يسايره ويسامره . يقول العماد في أخبار تسع وستين وخمسمائة في ذكر عود نور الدين إلى دمشق : " وتأخر نور الدين جريدة(٣) ، مع عدة من مماليكه وأمرائه ، وتقدم إلي أن أسايره وأسامره في طريقه "(٤) .

وقال العماد أيضًا " حضرتُ عند الملك العادل نور الدين والحديث يجرى في طيب دمشق ورقّة هوائها ، وبهجة بهائها ، وأزهار رياضها ، وكل منا يمدحها ويطريها . فقال نور الدين : " إنما حبُّ الجهادِ يُسَلّيني عنها فما أرغبُ فيها " ، قال : فارتجلتُ في هذا المعنى ، فقلت :

ليسَ في الدنيا جَميعًا ... بَلْدَةٌ مثلَ دِمَشْقِ
ويُسلّيني عَنْها ... في سَبيلِ اللّهِ عِشْقي
والتُّقَى الأصْلُ وَمَنْ يَتْـ ... ـرُكْهُ يَشْقَى وَيُشْقي
كَمْ رَشيقٍ شاغِلٍ عَنْـ ... ـهُ بِسَهْمِ الغَزْوِ رَشْقي
وَٱمْتِشاقُ البيضِ يُغْني ... عَنْهُ بالأقْلامِ مَشْقي(٥)

وقال العماد أيضًا في الحديث عن علاقته بنور الدين : " وما زلت معه من الله في زيادة ونمو ، وسعادة وسمو ، إلى أن حجّ إلى كعبة الخلد ، وزج في تربة اللحد ، وطار من عش العيش ، إلى فناء الفناء "(٦) .

* * *

ومن مظاهر عناية نور الدين بالأدباء ، تقليدهم المناصب المهمة ، واعتماده عليهم في المهام الحربية . يقول العماد : " وقد مال إلي ، وعول في مناصبه علي ، وطالعته كل يوم بمرافق عطي ومنافع شغلي ، فما أتحف

---

(١) سنا البرق الشامي ١/ ٦٨ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٩٠ .
(٣) جريدة : فرقة من العساكر الخيالة ، لا راجل فيها (لسان العرب : مادة جرد) . وانظر: Dozy, Supp. Dict. Arb. Tome I, P. 184
(٤) سنا البرق الشامي ١/ ١٣٩ .
(٥) ديوان العماد / ٣١٤ ،والخريدة قسم الشام ١/ ١٧-١٨ ، وسنا البرق الشامي ١٢٦-١٢٧ .
(٦) الخريدة ، قسم الشام ١/ ١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بتحفة ، ولا أُخص من أحد بعطية ، إلاّ اطالعه به ، واطْلعه على سببه ، فكان يعجبه مني تلك الشيمة ويقول : "تصرّف فيه تصرُّفكَ في مالك" ، وكانت مواد عنايته لي وافرة ، وعن وجوه رعايته سافرة ثم اعتمد علي اعتماداً كليا وجعلني له نجيّا "(١) .

وفوّض نور الدين أمر المدرسة النورية للعماد ، ورتبه فيها مدرّساً وناظراً ، وعول عليه للنظر في أوقافها " (٢) ، وولاه استيفاء ملكته ، يقول العماد : " ولما ودّع الموفق خالد ستوفي المملكة النورية ، أراد أن يستنيب أحد أخوته ، ومن يثق بكفايته ، فقال له نور الدين : " يقوم العماد بهذا الشغل " ، فجمعت الانشاء والاشراف والاستيفاء ، ووجدت الخدم الثلاث بكفالتي وكفايتي " الوفاء " (٣) .

اما المنتخب (٤) أبو سالم بن عبد الرحمن الحلبي (٥) ، فقد كان متولياً لكتابة الجيش ، وعرض الأجناد في ديوان الملك العادل نور الدين (٦) .

وكان ابن أبي جرادة الحلبي (٧) أميناً على خزائن مال نور الدين ، وقد كان كاتبا بليغا ، حسن البلاغة نظما ونثرا (٨) .

واما أسامة بن منقذ ، فقد كان نور الدين معجبا بشجاعته وفروسيته ويعتمد عليه في القيام ببعض المهام الحربية . فقد تقدم الوزير الفاطمي الملك العادل ابن السلار (٩) الى اسامة بن منقذ بالتجهز للمسير الى الملك العادل نور الدين واعطاه مالا ، وقال له : " تمضي إليه لينازل طبرية ويشغل الافرنج عنا ، لنخرج من ها هنا نخرب غزة" .

---

(١) سنا البرق الشامي ١/ ١٣٢ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ١٢٠ ، معجم الادباء ٧/ ٨٣ .
(٣) المصدر نفسه ١/ ١٣١ .
(٤) المنتخب : من القاب التجار ، وهو المختار (صبح الاعشى ٦/ ٣١) .
(٥) لم أجد له ترجمة في المصادر الميسورة لي ، غير ما ذكر .
(٦) ذيل تاريخ دمشق / ٣٥٣ .
(٧) مخلص الدين ابو البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جرادة الحلبي مستحسن الفنون من تذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الاصول القديمة المستظرفة ، مع صفاء الذهن وتوقد الفطنة ، والذكاء (الخريدة ، قسم الشام ٢/ ٢١٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٨٦).
(٨) كتاب الروضتين ١/ ٢٨٦ .
(٩) الملك العادل (ابن السلار) : أبو الحسن علي بن السلار ، الملقب بالملك العادل سيف الدين ، وزير الظافر العبيدي ، صاحب مصر ، تقلبت به الاحوال في الولايات في الصعيد وغيره ، إلى أن تولى الوزارة للظافر في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة ، (وفيات الأعيان ٣/ ٤١٦) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الافرنج قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان "(١) .

يقول أسامة : "ووصلنا في طريقنا إلى بصرى ، فوجدنا الملك العادل نور الدين على دمشق ، وقد وصل الى بصرى الامير اسد الدين شيركوه ، فسرت معه الى العسكر ، فوصلته ليلة الاثنين ، واصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به "(٢) .

ثم يستأذن أسامة نور الدين بأن يأخذ معه رجالاً من أصحابه ، ويغير على الافرنج (٣) .

ثم يتحدث أسامة عن الوقعات التي حدثت بينه وبين الافرنج وغاراته عليهم ، بمن معه من المسلمين (٤) .

وكان بعض الأدباء يقومون بأعمال السفارة للملك العادل نور الدين فقد أرسل نور الدين ابن منير رسولا من جانبه إلى دمشق قبل استيلائه عليها وتملكه لها (٥) .

وأرسل الموفق خالداً بن القيسراني ، وزيره وكاتبه إلي صلاح الدين ليقيم حساب الديار المصرية ، وكان مقصوده أن يقرر على الديار المصرية خراجا يحمل اليه في كل سنة "(٦) ،

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة ، أرسل نور الدين العماد رسولاً إلى خلاط (٧) .

يقول العماد : " كنت رسولاً بخلاط عن نور الدين ، وخرجت من دمشق ضحوة نهار الأربعاء تاسع عشر ذي الحجة ... الخ "(٨) .

---

(١) الاعتبار / ١٠ .
(٢) المصدر نفسه / ١٤ .
(٣) انظر الاعتبار / ١٤ - ١٥ ، وانظر الحديث عن عناصر وتشكيلات الجيش النوري ، في الباب الثاني من هذه الدراسة .
(٤) انظر المصدر نفسه / ١٥ - ١٧ .
(٥) انظر الخريدة ، قسم الشام ١/ ٧٨ .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ٥٢٥ .
(٧) خلاط : بكسر أوله ، وآخره طاء مهملة ، البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة ، لها بحيرة ، وهي قصبة أرمينية الوسطى (معجم البلدان ٢/ ٣٨٠ - ٣٨١) .
(٨) سنا البرق الشامي ١/ ٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي سنة ست وستين وخمسمائة ، أرسل نور الدين العماد إلى الخليفة ليأخذ له إذنا بدخول الموصل . قال العماد : " واستدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة ، وقال : قد أنست بك وأمنت إليك ، وأنا غير مختار للفرقة ، لكن المهم الذى عرض لا يبلغ فيه غيرك الغرض ، فتمضي إلى الديوان جريدة ، وتؤدي عني رسالة سديدة سعيدة وتنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي ومغنى طريفي وتالدي ، فامض وخذ لي اذنا في ذلك " (١) .

وأما أسامة بن منقذ ، فقد قام بدور السفير بين مصر والشام ، فبلغ نور الدين رسائل صديقه طلائع بن رزيك ، التي تتضمن وصف المعارك والتحريض على الجهاد ، والدعوة من أجل الوحدة الاسلامية ، للوقوف في وجه العدو الواحد ، وكان أسامة يجيب عن رسائل طلائع بن رزيك نزولاً عند رغبة نور الدين لتوثيق عرى التعاون بين الجبهتين الشامية والمصرية (٢) .

* * *

وكان نور الدين يتذوق الشعر ، ويستحسنه ، ويستمع للشعراء ، ويطلب منهم إنشاده . ومن الأمثلة على ذلك ، ما ذكره العماد في الخريدة وهو أنه كتب الى صديق له بدمشق ، وكان سافرا عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المشمش ، يقول :

كتابي فَدَيْتُكَ مِنْ مَرْعَشٍ ... وخوفُ نَوائِبِها مُرْعِشي
وما مَرَّ في طُرُقِها مُبْصِرٌ ... صَحيحُ النَّواظِرِ إلاَّ عَشِي
وما حَلَّ في أرْضِها آمِنٌ ... مِنَ الضَّيْمِ والضُّرِّ إلاَّ خَشِي
تُزَنِّجُنِي نَشَواتُ الغَرَام ... كأنِّيَ مِنْ كأسِهِ مُنْتَشِي
أسِرُّ وأُعْلِنُ بَرْحَ الجَوى ... فَقَلْبي يُسِرُّ وَدَمْعي يشي
بذلتُ لكمْ مُهْجَتي رَشْوةً ... فحاكمُ حبِّكُمُ مُرْتَشي
وكيف إلى وصلكمْ أهتدي ... وخطْبُ فراقِكُمُ مُدْهِشي
بِمَرْعَشَ أبغي وبلوَطِها ... مضاهاة جِلَّق والمِشْمِشِ

قال العماد فسارت هذه القطعة ، ونمي حديثها الى نور الدين ، فاستنشدنيها ونحن سائرون في واد كثير الأشجار أثيثها ، فقلت له : إنما قلتها في مدحك شكرا لصحبتك لا شكاية ، وأنشدتها مع بيتين بدهت بهما في الحال وهما :

---

(١) سنا البرق الشامي ١/ ٩٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ٤٤٨ .
(٢) سبقت الاشارة الى بعض هذه الرسائل ، انظر الحديث عن نور الدين والأدباء : الباب الثالث من هذه الدراسة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالملك العادل استأنست نجاحاً منى كل مستوحش
وما في الانام كريم سواه فإن كنت تنكر ذا فتش

يقول العماد : وعرفته أن وحشة الغربة بخدمته آنس(١) .

وقال العماد أيضًا ، وسألني - قدس الله روحه - أن أعمل على لسانه دوبيتات في الغزو والجهاد ، كما تقدم(٢) ، وهذا يدل على ادراك نور الدين لأثر الشعر في بعث الحماس في نفوس جنود المسلمين .

وقد طلب نور الدين أيضًا ، من العماد أن يصف حالهم مع الافرنج عند لقائهم . يقول العماد : " وكنت عند مسيرنا إلى اللقاء بنور الدين مسايرًا وله محاورًا ، وهو يقول : كيف تصف نهوضنا إلى الجهاد، وسواد وجوههم بدخولهم في السواد ؟ "(٣) .

فنظم العماد قصيدة ، بدأها بمدح نور الدين ، يقول منها :

عُقدتْ بنَصْرك رايةُ الإيمان وبدتْ لعصرك آيةُ الإحسان
يا غالبَ الغُلْبِ الملوكِ وصائدَ الصّـ ـيد اللّيوث ، وفارس الفرسان
يا سالبَ التيجانِ مِنْ أربابها حزْتَ الفخارَ على ذوي التيجان
محمودُ المحمودُ ما بين الورى في كلّ إقليم بكل لسان

ثم يصف ما فعله نور الدين بالافرنج ، يقول :

كمْ بكْرِ فتحٍ ولّدتْهُ ظُباك مِنْ حَرْبٍ لِقَمْعِ المشركين عَوان
كمْ وقعةٍ لك في الفرنج حديثها قد سار في الآفاق والبلدان
قمّصتَ قُمْصَهُمُ رداءً من ردى وقَرنْتَ رأسَ بِرنْسِهمْ بسنان
وملكت رِقَّ ملوكهمْ وتركتهمْ بالذّلّ في الأقيادِ والأشجان
وجعلتَ في أعناقِهمْ أغلالَهمْ وسَحبْتَهمْ هُوناً على الأذقان

ومنها :

يا خيبةَ الإفرنج حينَ تجمعوا في حيرةٍ وأتوا إلى حَوران
وجلوت نور الدين ظُلمةَ كُفرهمْ لمّا صَدَعْتَ بواضح البُرهان
وهزمتَهمْ بالرأي قبلَ لقائهمْ والرّأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجعان

وفي القصيدة ذكر لمن حضر من أمراء المسلمين ، ومدح لهم ، وفيها أيضًا ذكر لمن حضر من قادة الصليبيين (٤) .

وكان نور الدين يقف على الرسائل الشعرية التي تأتي من الملك الصالح طلائع بن رزيك ، ويطلب من أسامة بن منقذ الإجابة عنها . ومن ذلك قصيدة لطلائع أولها :

أبى اللهُ إلا أنْ يدينَ لنا الدّهرُ ويَخدِمَنا في مُلْكِنا العِزُّ والنّصْرُ (٥)

---

(١) انظر ديوان العماد/٢٤٦، والخريدة ،قسم الشام ٦٣/١ - ٦٥ ، والروضتين ٥٤٣/١ .

(٢) انظر هذه الدوبيتات في الحديث عن الجهاد ضد العدو، في الباب الثاني من هذه الدراسة .

(٣) الخريدة ، قسم الشام ٥٤/١، وسنا البرق الشامي١٢٧/١ ،وكتاب الروضتين ٥٢٨/١، والسواد: منطقة مجاورة لبحيرة طبرية ، فيها قرية يقال لها المهيد، ذكروا أن ابراهيم عليه السلام ولد بها . (انظر الأعلاق الخطيرة/ ٢٧٥).

(٤) ديوان العماد/٤١٠-٤١٣ ،والخريدة ،قسم الشام٥٤/١-٦٢، وسنا البرق الشامي ١٢٧/١-١٢٩.

(٥) ديوان طلائع /٨١، وديوان أسامة /٢٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الرابع

الدراسة الفنية

الفصل الأول

(الشعر)

- شكل القصيدة .
- الأسلوب .
- الأثر الاسلامي .
- النزعة الاتباعية .
- الصورة الشعرية .
- الفنون البديعية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــل الأول

(الشعـــــــر)

عنيت بدراسة الشعر الذي قيل في نور الدين ،ومجّد بطولته وسجل انتصاراته وفضائله ، وحتى تكون صورة هذا الشعر واضحة المعالم رأيـــــت أنّ أعقد فصلاً للحديث عن أبرز سماته الفنية ، ومنها :

شكـل القصيـــــدة :

تتمثل أهم عناصر الشكل الفني للقصيدة في : مطلع القصيدة ، ومقدمة القصيدة ،وحسن التخلص (الخروج) ،وحسن الختام (الانتهاء) .

مطلـع القصيدة :

اهتم النقاد بمطلع القصيدة ،فوجهوا أنظار الشعراء إلى أن يبذلـــوا جهدهم للإجادة فيه . والمطلع الجميل يكون داعية إلى الاستماع لمـــا يجيء بعده من الكلام ، ويكون له أثر كبير في نفس السامع ،إذا كان حسنا بديعا ولبيحا رشيقا . ورأى النقاد أن حسنَ الافتتاح داعية الإنشـــراح ومطية النجاح (١) .

ويذهب الأدباء والنقاد إلى أنه ينبغي أن يكون مطلع الكلام دالاً علـــى المعنى المقصود من ذلك الكلام ، ان كان فتحا ففتحا ، وان كان هنـــاء فهناء ، أو عزاء فعزاء ، وفائدته أن يعرف من مبـــدأ الكلام ما المـــراد بـــه (٢) .

ويرى ابن الأثير أنه ينبغي على الشاعر أن يحسن اختيار المطلع،لأنـــه أول ما يطرق السمع من الكلام (٣) .

وقد قبل النقاد من المطالع ما كان بَيِّناً واضحًا ، بحيث لا يداخله لبس أو غموض ، واشترط بعضهم في المطلع عذوبةَ اللفظ ، وسهولة السبك ، وصحة المعاني ، وتجنب ما يفحش لفظه (٤) .

---

(١) انظر الصناعتين / ٤٣٧ ، وانظر العمدة ١/ ١٩١ .
(٢) المثل السائر ٢/ ٢٣٦ .
(٣) نفسه ٢/ ٢٣٧ .
(٤) انظر اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين / ١٦٦ - ١٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد في قصائد الشعراء الذين قالوا شعرا في نور الدين أمثلة عديدة للمطالع الجيدة الموفقة :

قال ابن القيسراني قصيدة في نور الدين استهلها بذكر الأسلحة :

تغني بضمانها البيضُ الحدادُ وتقضي دَيْنها السُّمْرُ الصِّعادُ (١)

وأنشده قصيدة أخرى افتتحها بالحديث عن العزيمة والقوة ،ويدل ذلك على الإيمان بالنصر :

هذي العزائمُ لا ما تدّعي القُضُبُ

وذي المكارمُ لا ما قالت الكُتُبُ (٢)

ونلاحظ جودة المطلعين السابقين ، وذلك لشدّة الملاءمة بين المطلع والموضوع الذي أنشئت القصيدة لأجله ، فالمطلع فيه فخامة وقوة وهو ما يناسب شعر الحماسة . وبما أن المطلع يعتبر مفتاح القصيدة ، فقد دلّ على المعنى المقصود من كلام الشاعر . وتميز المطلعان بالجزالة والمتانة والوضوح ،لذا كان ابن القيسراني موفقاً فيهما .

ومن المطالع التي تنسجم وموضوع القصيدة ما قاله ابن منير في نور الدين عندما استرد الرها سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وبدأها بذكر الفتح :

مَلِكٌ ما أذلّ بالفتح أرضاً قَطُّ إلاّ أعزّها إعْلاقُهْ (٣)

ومنها ما قاله في قصيدة مدح فيها نور الدين ، وذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمل رأسه إلى حلب وقد استهلها بالمقابلة بين حال الصليبيين وحال المسلمين :

أقوى الضَّلالُ وأقْفَرَتْ عَرَصَاتُهُ وعلا الهُدى وتَبَلَّجَتْ قَسَماتُهُ (٤)

ومما يزيد الإعجاب بهذا المطلع إضافة إلى وضوحه وانسجامه مع غرض القصيدة ما فيه من مقابلة وتصريع .

ومن المطالع الحسنة الواضحة ،المتينة التركيب ،والجزلة القوية ، الملائمة للموضوع قول ابن أسعد الموصلي في نور الدين وأصحابه عندما مدحهم وهم المنهزمون :

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٤٦ .

(٢) الكامل ١١/ ١٤٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٥٢ .

(٣) ديوان ابن منير / ٢٠٤ ، وشعر ابن منير/ ٥١ ، والباهر/ ١٠٠ .

(٤) ديوان ابن منير/ ٢٠٨ ،وشعر ابن منير/ ١٤٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظُبا المواضي وأطرافُ القنا الذُّبُلِ ضوامنٌ لك ما حازوه مِنْ نَفَلِ (١)

وقد بدأ القصيدة بذكر السلاح لما له من أثر فعّال في ردّ الاعتبار وحسم المعركة لصالح المسلمين بعد هزيمتهم بسبب مباغتتهم من قبل الفرنج .

ومن أمثلة المطالع الجيدة للعماد الأصفهاني ما قاله في مدح نور الدين عندما طلب منه نور الدين وصف حالهم مع الفرنج ،وقد بدأها بذكر النصر وقرنه بالإيمان :

عُقِدَتْ بنصرك رايةُ الإيمانِ وَبَدَتْ لعصْرِكَ آيةُ الإحسانِ (٢)

فكل هذه المطالع قد تحقق فيها ما شرطه النقاد من جودة وبراعة ، ومن استعراضنا لها ، نلاحظ أنها مناسبة للمواقف التي قيلت فيها ، ومرتبطة بموضوع القصيدة أشدّ الارتباط ،فذكر السلاح في مطالع القصائد ، وذكر الفتح وملك البلاد ،والتهنئة والاستبشار بالنصر ،وربط النصر بالعزم والدين والإيمان ،وكل هذه المعاني تكون بمثابة مفاتيح للقصائد يتعرف السامع من خلالها إلى موضوع القصيدة .

ونلاحظ أيضًا ،تكثيف الموسيقى في المطلع عن طريق التصريع(٣) ،ومع أن التصريع ليس أمراً جديدا في الشعر العربي إلا أن اهتمام الشعراء به في مطالع قصائدهم بشكل لافت للنظر ، يدل على تأنق الشعراء في اختيار هذه المطالع . ونجد أن مطلع القصيدة صادق التعبير عن نفسية الشاعر وانفعالاته .

ومن الجدير بالإشارة أن شعراء نور الدين تأثروا بالمطالع الحماسية القوية للشعراء السابقين .

ومن الابتداءات الحسنة ،الابتداء بأدوات النداء والتنبيه ،وأسماء الإشارة ،وهذا من شأنه أن يوقظ السامعين للإصغاء ، ويشدهم للقصيدة ، ومن أمثلة ذلك ، مطلع قصيدة لابن منير في مدح نور الدين ، يقول :

أيا سيفًا أعز الدين منْـه الـ ـفِرارُ الغَضْبُ والنَّوْمُ الفِرارُ (٤)

---

(١) ديوان ابن الدهّان/ ٧٠ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٢٠ .

(٢) ديوان العماد / ٤١٠ ،والخريدة ،قسم الشام١/ ٥٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٩ .

(٣) وهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه : تنقص بنقصه ،وتزيد بزيادته (انظر العمدة ١/ ١٤٩) .

(٤) ديوان ابن منير/ ٢٥١ ،وشعر ابن منير/ ٨٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا مطلع لابن القيسراني يقول :

هذا الذي وُلِدَتْ له الأفكارُ وتمخّضَتْ فألاً به الأشعارُ (١)

وقال ابن منير قصيدة في نور الدين ، استهلها بذكر صفة بارزة من صفاته وهي العدل :

يا محيَ العدْل ويا مُنْشِرَه من بين أطباق البِلى وَقَدْ هَمَدْ (٢)

ونجد في الشعر الذي قيل في نور الدين مطالع غزلية ،وهي تعتبر مدخلاً إلى المقصد الذي يسعى إليه الشاعر . ولكننا إذا استعرضنا هذا الشعر وجدنا القصائد التي تبدأ بهذه المطالع أقل بكثير من القصائد التي تحررت منها .

ومن أمثلة المطالع الغزلية مطلع قصيدة لابن القيسراني قالها في مدح نور الدين :

يا ليتَ أنَّ الصدَّ مَصْدودُ أوْ لا فليتَ النومَ مَرْدودُ (٣)

ومطلع قصيدة للعماد الأصفهاني سيّرت إلى بغداد على لسان نور الدين يقول :

أطاع دمعي وصبري في الغرام عصى
والقلبُ جُرِّعَ من كأسِ الهوى غُصَصا (٤)

وشاعر نور الدين يترخص في الابتداء بالغزل ،فهو بعيد عن جو المعركة ، وهو مرتبط نفسيًا بالممدوح لإعجابه به ،ويجب أن يفتتح مدحه بكلام لطيف يكون بمثابة المفتاح الذي يدخل بوساطته إلى غرضه الأساسي .

وكما يقول الدكتور نصرت عبدالرحمن : " إن الابتداء بالغزل لم يكن دائما لمجرد التقليد للقدماء ،بل كثيرًا ما يرتبط ارتباطا عاطفيا وفكريا بموضوع القصيدة"(٥) .

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٧٤ .
(٢) ديوان ابن منير/ ١٨٧ ،وشعر ابن منير/ ٧٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٠ .
(٣) الباهر / ٩٢ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٤٥ .
(٤) ديوان العماد / ٢٤٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٥٦ .
(٥) انظر شعر الصراع مع الروم / ١٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمة القصيدة :

حاول ابن الأثير ان يربط بين مقدمة القصيدة وموضوعها " ورفض أن يكون البدء بالغزل ، إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث ،كهزيمة جيش أو فتح معقل ، وإن فعل ذلك دلّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية ، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه "(١) .

أمّا إنْ كان القصيد مديحًا صرفًا لا يختص بحادثة من الحوادث ،فالشاعر " مخير بين أن يفتتح القصيدة بالغزل أولا يفتتحها به ، بل يجوز للشاعر أن يهجم على غرضه مباشرة ، فيرتجل المديح من أول القصيدة "(٢) .

ومن خلال دراستنا للشعر الذى قيل في نور الدين نجد نوعين من القصائد : فمنها ما يبدأ بمقدمة غزلية ، ومنها ما لم يبدأ بمقدمة غزلية ، بل يهجم الشاعر على الموضوع مباشرة .

فبعض قصائد المدح العادية ظلّتْ تحتفظ بالمقدمة الغزلية ، وهي قصائد معدودة .

أمّا القصائد الجهادية الحربية التي تصف احداثًا ، فهي كثيرة " وتبدأ بدايات حاسمة موحية بطبيعة الموضوع "(٣) ، ومقدماتها حماسية لا تقليدية ،وألفاظها جزلة ، وهي تتسم بطابع القوة . والشاعر في هذه القصائد لا يشعر بالحاجة إلى المقدمات الغزلية ،لأن هذه المقدمات تضيع حرارة الانفعال بجو الأحداث ،وتطفيء الحماس،فابتعد الشعراء عنها متأثرين بأبي الطيب المتنبي وأبي تمام في هذا المجال .

ومن أمثلة النوع الأول ،وهو القصائد التي تبدأ بمقدمات غزلية قصيدة لابن القيسراني مدح فيها نور الدين ، يقول في مقدمتها :

أمّا وخيالٌ زارَ مِنْ أُحِبُّه ... لقد هاجَ مِنْ ذكراهُ ما لا أَغِبُّهُ (٤)
إذا ما صبا قلبُ المُحِبِّ إلى الصّبا ... ذكرتُ نسيمًا بالثغور سهبُّهُ
فيا نفحات الشام رفقًا بمهجةٍ ... يحامي عليها مدنف القلب صَبُّهُ
فلا تسألنَّ الصبَّ اين فؤاده ... فإن فؤاد المرء مع من يحبُّهُ

---

(١) انظر المثل السائر ٢/٢٣٦ .
(٢) انظر اتجاهات النقد / ١٧٢ - ١٧٣ .
(٣) انظر صدى الغزو الصليبي / ١٨٠ .
(٤) أغِبُّهُ : غب فلان وأغب : بات ، وغب الرجل اذا جاء زائرا يوما بعد يوم . (لسان العرب : غبب) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي شُعَبِ الأكوارِ من هو عالمٌ غـداةَ استطارَ البرقُ مَنْ طارَ لُبُّهُ

ثم يخرج بحذق ومهارة إلى مدح نور الدين ،فيقول :

يشيم ثغور المُزْنِ تهمي كأنّها سَنا بِشْرِ نور الدين تَنْهلُّ سُحْبُهُ
إذا ما سما في مُبْهَمِ الخَطْبِ وجْهُهُ تمزّقَ عن بَدْرِ الدُّجنّةِ حُجْبُهُ
تولّد بين الغيث والليث والتّقى منافسةً أيُّ الثلاثةِ تِرْبُهُ (١)

وعلى الرغم من الابتداء بالمقدمة الغزلية ،إلا أن هذه المقدمة ترتبط بموضوع القصيدة ،وتصور العلاقة التي تربط الشاعر بنور الدين ، وتكشف عن مدى إعجابه به ، أكثر مما يعبر الشاعر فيها عن واقع الحب . ولعل إمعان النظر في بيت (التخلص) وربطه بالأبيات السابقة والأبيات اللاحقة يؤكد ما نذهب إليه .

وافتتاح بعض الشعراء قصائد المديح بالمقدّمات الغزلية ،مظهر من مظاهر التقليد الموروثة عن العصر الجاهلي ،غير أن هذا الغزل لم يتضمن الوقوف على الأطلال أو بكاء الديار ،إنما هي أبيات غزلية تفتتح بها القصيدة ،لينتقل الشاعر بعدها إلى تَعداد مآثر ممدوحه ، وتمجيده كعادة القدماء ، أمثال أبي تمام والبحتريّ وغيرهما (٢) .

والعماد الأصفهاني من الشعراء الذين افتتحوا بعض قصائدهم بمقدمات تقليدية ،يقول من إحدى قصائده التي نظمها في مدح نور الدين ،وقد هنأه فيها بانتصار جيوشه في مصر :

أطاع دمعي وصبري في الغرام عصى والقلب جُرِّعَ من كأسِ الهوى غُصَصا
وإنّ صفو حياتي ما يُكَدِّرُهُ إلا اشتياقي إلى أحبابيَ الخُلَصا
ما أطيبَ العيشَ بالأحباب لو وَصَلوا وأسعدَ القلبَ من بلواهُ لو خَلَصا

ثم يخلص إلى المدح فيقول :

من ذا الذي سار سيرى في ولائِكُمُ غداة قال العِدا : لا سيرَ عندَ عصا
قد نالَ عبدُك محمودٌ بها ظَفَرًا ما زال يرقُبُهُ من قبلُ مُرْتَصِدا (٣)

فالمقدمات الغزلية في شعر الشعراء الذين مدحوا نور الدين تشير إلى محافظة بعض قصائد المديح على شكلها التقليدي ،من الابتداء بها ثم التخلص إلى المديح .

---

(١) انظر القصيدة في الروضتين ١/ ١٨٨-١٨٩ .
(٢) انظر معارك نور الدين / ٢٦٧ .
(٣) انظر القصيدة في ديوان العماد / ٢٤٩ ، والروضتين ١/ ٥٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمثلة النوع الثاني وهو القصائد التي تحررت من المقدمات الغزلية كثيرة ـ كما قلنا ـ ولا مجال هنا لاستقصائها وحصرها ، وأورد على سبيل المثال مقدمة قصيدة لابن منير قالها في نور الدين يذكر وقعة الجولان وغيرها من الوقائع ، ومقدمة قصيدة لابن القيسراني قالها في نورالدين يهنئه بانتصاره على الفرنج بعد حصار حصن إنّب سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

قال ابن منير في أول قصيدته :

ما بَرقَتْ بيضُكَ في غَمامِها ... إلّا وغيثَ الدّينُ لابتسامِها
لمْكُ أزالَ الرّومَ عن صُلبانِها ... دُفاعُهُ وكبَّ من أصْنامِها
جال على الجولانِ أمسِ جولةً ... صَفَّرَت الأُدْحِيَّ من نَعامِها

فالشاعر بدأ قصيدته بذكر عدة القتال ، وربطها بنصرة الدّين ، فعدة نور الدين من الوسائل التي تساعده على إغاثة الدين ونصرته . وكما نرى فقد تحرر الشاعر من البداية بالغزل ، ودخل في جو الحرب مباشرة ، ثم انتقل إلى مدح البطل الذي قاد المسلمين في المعركة ، وحطم الاعداء وأصنامهم ، وذكر الوقعة التي قال القصيدة بمناسبتها وهي وقعة الجولان .

وبعد ذلك ربط هذه الوقعة بوقائع أخرى سبقتها ، وهذا نهج سار عليه شعراء الجهاد الذين وصفوا المعارك وسجلوا أحداثها في معظم قصائدهم ، يقول :

وفي الرها صابَتْ له سحابةٌ ... صاروا جُفاءً خَفَّ في التطامها (١)

ونجد الشاعر يركز على صورة البطل وبطولته ، ويرصد لذلك الصفات العديدة التي يتصف بها البطل وتدلل على بطولته ، ولم يخض الشاعر في تفصيلات دقيقة عن التحام الجيشين وأحداث المعركة .

وافتتح ابن القيسراني قصيدته بقوله :

هذي العزائمُ لا ما تَدّعي القُضُبُ ... وذي المكارمُ لا ما قالت الكُتُبُ
وهذه الهمم اللاتي متى خُطبتْ ... تعثّرتْ خلفها الأشعارُ والخُطَبُ
صافحْتَ يا ابنَ عماد الدين ذروتها ... براحة للمساعي دونها تَعَبُ (٢)

وكما يبدو فقد بدأ الشاعر قصيدته بذكر العزيمة والقوة ، وهو ما يتناسب وطبيعة الموضوع ، ثم انتقل إلى مدح نور الدين ، وعدد صفاته وفضائله العسكرية ، ثم تحدث عن وقعة (إنّب) ، وذكر ما فعله نور الدين بالأعداء ، ووصف تضعضع قوة الفرنج ، وذكر كثيرا من أنواع الاسلحة .

والقصيدة حماسية من بدايتها إلى نهايتها ، وهي تذكّرنا بقصيدة أبي تمام التي قالها في (فتح عمورية) .

---

(١) ديوان ابن منير / ٢٣٤ ، وشعر ابن منير / ١٧٨ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٢) انظر القصيدة في الروضتين ١/ ١٥٢ - ١٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التخلّـص (الخـروج) :

وهو أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني ، فبينا هو فيه أخذ في معنى آخر غيره ، وجعل الأول سببا اليه من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ افراغا ، وذلك مما يدل على حذق الشاعر وقوة تصرّفه (١) .

ويرى الأدباء والنقّاد أن براعة التخليص هو أن يكون التشبيبُ أو النسيبُ ممزوجًا بما بعده من مدح وغيره ،غير منفصل عنه ،وأن لطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح (٢) .

فحقيقة التخلّص أنه الانتقال من كلام إلى آخر ،أو من غرض إلى غرض آخر بلطافة ، بحيث يلائم الشاعر بين الغرضُ الذي انتقل منه والغرض الذي انتقل اليه .

وقد يقع التخلص في بيت أو شطر بيت أو في بيتين (٣) .

ومن التخلص الحسن ما ورد في قصيدة لابن القيسراني مدح بها نور الدين وقد بدأها بالغزل ، يقول :

يا ليْتَ أنَّ الصَدَّ مَصْدودُ أوْ لا ظليتَ النَوْمَ مردودُ

ثم يتخلص الى المدح فيقول :

وكيف لا نثني على عيشنا الـ محمودِ والسُّلطانُ محمودُ(٤)

ومن التخلص أيضًا ما ورد في قصيدة للعماد الأصفهاني مدح فيها نورالدين وبدأها بالغزل ، يقول منها بعد مقدمة غزلية طويلة :

حيذا ساكنوا فؤادي وعهدي بِهِمُ يسكنون سَفْحَ الوادي

وخرج بعد ذلك إلى ذكر الجهاد ، ومدح نور الدين قائلا :

ما اعتياضي عن حبّهمْ يعلَمُ اللـ ـهُ تعالى إلّا بحبّ الجهاد
واشتغالي بخدمة الملك العا دلِ محمودِ الكريم الجوادِ

وفي القصيدة نفسها يتخلص العماد أيضا من مدح نور الدين الى ذكر الفرنج وفعل الزلازل بهم ، يقول في نور الدين :

باذلٌ في مصالح الدين طوعا ما حواه من طارف وتلاد
وتراه صَعْبَ المقالةِ في الشـ ـرِّ ولكن في الخير سهلَ القيادِ

ثم يخرج قائلا :

---

(١) انظر المثل السائر ٢/ ٢٥٩ .
(٢) انظر نهاية الارب ٧/ ١٣٥ ،والعمدة ١/ ١٩١ .
(٣) اتجاهات النقد / ١٧٦ .
(٤) الباهر/ ٩٢ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جَلَّ رُزْءُ الفرنجِ فاستبدلوا منْـ ـهُ بلبْسِ الحديدِ لبْسَ الحدادِ
فرَقَ الرُّعْبَ مِنْهُ في أنفُسِ الكُفْـ ـفارِ بَيْنَ الأرواحِ والأجسادِ
سطوةٌ زلزلت بسكانهـا الأرْ ضَ وهدّت قواعدَ الأطوادِ (١)

والتخلص من المواقف التي يجتهد الشاعر الحاذق في تحسينها، فهو "من المواقف التي تستعطف أسماعَ الحضورِ وتستميلهم إلى الإصغاء" (٢) .

الخاتمة (الانتهاء) :

اهتم النقاد بنهايات القصائد ، فخاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق في النفس ، لقرب العهد بها ، فان حسنت حسن وان قبحت قبح (٣) .

ولأهمية الخاتمة عني بها النقاد عناية كبيرة ، ورأى بعضهم أن يكون ما في آخر القصيدة أحسن مما اندرج في حشوها ، وأن لا يقطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفرللنفس ، وأن يكون الختام مناسبًا للغرض الذي سيقت له القصيدة ، وأن يتضمّن الختامُ معنىً تامًا يؤْذِنُ بالنّهاية (٤) .

ومن أحسن ما قيل في ذلك قول ابن منير في ختام قصيدة مدح بها نور الدين وهو محاصر دمشق :

دِمَشْقُ دِمَشْقُ إنّما القُدْسُ سَرْحَةٌ ومركزُها صَرْحٌ عليها مُمَرَّدُ
متى أنا راءٍ طائرَ الفتحِ صادحًا يُرفرفُ في أرجائها وَيُغَرِّدُ (٥)

فهذه الخاتمة متعلقة بالجو العام للأبيات ومناسبة للغرض ، فالشاعر يبين أهمية دمشق وفتحها ، فهي بمثابة الطريق لفتح القدس ، ويتطلع بشوق لذلك اليوم الذي يرى فيه طائر الفتح يرفرف في أرجاء القدس .

والبيت الأخير يؤذن بنهاية القصيدة ويلخص أمنية الشاعر التي هي أمنية المسلمين جميعا .

وهذه خاتمة قصيدة لابن القيسراني قالها في مدح نور الدين ، فبعد أن مدحه وعدّد مآثره قال :

هذا وكمْ من سُنَّةٍ بِدْعَةٍ أعْدَمْتَها مِنْ بَعْدِ إيجادِها
مآثرٌ لو عُدِمَتْ راويًا تكفّل النّظْمُ بإسنادِها (٦)

ومن استعراضنا لقصائد الشعراء نرى أن الخاتمة غالبا ما تتضمن الثناء على الممدوح أو البطل والدعاء له ، ومن ذلك خاتمة قصيدة لابن أسعد الموصلي قالها في نور الدين :

---

(١) انظر القصيدة في ديوان العماد / ١٢٣-١٢٧ ، والخريدة ، قسم شعراء الشام ١/ ٤٦-٤٩ .
(٢) انظر الوساطة بين المتنبي وخصومه / ٤٧ .
(٣) العمدة / ١/ ١٩١ .
(٤) انظر اتجاهات النقد / ١٨٠ .
(٥) ديوان ابن منير / ٢٣٣ ، وشعر ابن منير / ٦٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٩٩ .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ٢٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كَمْ قَدْ مَلَكْتَ لَهُمْ مُلْكًا بلا عِوَضٍ وَحُزْتَ مِنْ بَلَدٍ مِنْها بِلا بَدَلِ
وَكَمْ سَقَيْتَ العوالي من طُلى مَلِكٍ وكم قَرَيْتَ العَوافي مِنْ قِرى بَطَلِ
لا تَكْتَبَتْ سَهْمَكَ الأقدارُ عن غرضٍ ولا ثَنَتْ يَدَكَ الأيامُ عن أَمَلِ (١)

فالخاتمة فيها دعاء لنور الدين بأن ينصره الله ويحقق أمله ،وهذا يتفق وموضوع القصيدة ، فالشاعر قال القصيدة معتذرًا عن نور الدين وأصحابه بسبب هزيمتهم أمام الفرنج .

وهذه خاتمة قصيدة لأسامة بن منقذ قالها في الردّ على طلائع ابن رزيك ، وتحدث فيها عن فعل نور الدين بالفرنج ، وذكر بعض فتوحاته ، ثم قال في نهايتها :

فقل لملوك الأرض ما الفخر في الذى
تعدّونه من فعلكم بل كذا الفخر (٢)

وقال العماد الاصفهاني في ختام قصيدة له في نور الدين :

خَلَّدْتَ في الآفاق ذكراً باقيًا أبد الزمان بِبذْل مالٍ فانِ (٣)

فالخاتمة كما نرى تكون مناسبة لغرض الابيات التي تسبقها ، ومرتبطة بها ارتباطا قويا ، مما يجعل بناء القصيدة أكثر تماسكا .

المطولات والمقطعات الشعرية :

أشار أبو شامة الى طول نفس الشاعر عندما تحدث عن قصائد ابن منير فقال : " وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ،ونفسه فيها طويل "(٤)

وعندما توفي نور الدين رثاه العماد الأصفهاني رثاء حزينا في قصائد عديدة ، وقد ذكر واحدة منها فقال : " ولي في رثائه قصيدة أخرى طويلة تقارب مائة وعشرة أبيات ، أولها :

الدّينُ في ظُلَمٍ لِفَقْدِ نُورِهِ والدَّهْرُ في غُمَمٍ لِفَقْدِ أميرِهِ

وفي إيرادها تطويل وما لي على الإطالة تعويل "(٥) .

والقصيدة المطولة تدور حول موضوعات متعددة ، والشاعر يتناول هذه الموضوعات ، ويربط بينها فيشكل القصيدة ، إضافة إلى أنها أطول من المقطعة .

ومن استقصائنا القصائد المطولة نجدُ أنَّ أغلبها قصائد جهادية ، وموضوعاتها متشابهة إلى حد كبير ، فهي تمجّد البطل وانتصاراته ، وتذكر صفاته ، وتتحدث عن دوره في الدفاع عن الدين وقتال الاعداء ، وتشيد بالنصر ،وتقرر حقيقة أن النصر من الله ، وتصف تضعضع قوة الأعداء ،

---

(١) ديوان ابن الدهان / ٧٦-٧٧ ،وكتاب الروضتين ١ / ٣٢٢ .
(٢) ديوان أسامة / ٢٠٦ .
(٣) ديوان العماد / ٤١٨ ،والخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٦٢ .
(٤) انظر الروضتين ٨ / ٢٣٥ .
(٥) انظر الخريدة ،بداية قسم شعراء الشام ١ / ٧٢ ، وانظر القصيدة في ديوان العماد / ٢١٢-٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتصوّر هزائمهم وقتلاهم وأسراهم بصور هزلية فيها تهكم وسخرية ، وتتحدث عن الفتوحات الاسلامية ، وتصور كتائب الجيش وأسلحته .

فالقصائد المطولة التي وصلتنا معظمها حماسية ،وهي كثيرة ولا مجال لحصرها هنا ، لذا سأتناول اثنتين منها على سبيل المثال لا الحصر :

الأولى قصيدة أحمد بن منير ، التي مدح بها نور الدين وذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ،وحمل رأسه الى حلب ،وعدد أبياتها اثنان وستون بيتا (١) ،مطلعها :

أقوى الضَّلالُ وأقْفَرَتْ عَرَصَاتُـــهُ وعلا الهُدى وَتبلَّجَتْ قَسَماتُـــهُ

بعد أن قابل الشاعر بين حال الصليبيين وحال المسلمين ، صور دور نور الدين في الدفاع عن الاسلام بقوله :

وانتاش دينَ محمدٍ محمـــودُه من بعد ما عُلَّتْ دَمًا عَبَراتُهُ
رَدَّتْ على الإسلام عِضْرَ شبابِـهِ وَثَباتُهُ مِنْ دونه وَثَباتُـــهُ

وأشاد بالنَّصر الكبير الذي تنعم السماء به فخرًا ويختال الاسلام به فرحا، يقول :

فَتَحٌ تَعَمَّمَتِ السَّماءُ بِفَخْـــرِهِ وَهَفَتْ على أغصانِها عَذَباتُـهُ
سبغتْ على الإسلام بيضُ حُجولِهِ واختالَ في أوضاحِها جَبَهاتُهُ

ووصف تضعضع قوة الصليبيين بعد مقتل قائدهم :

حطَّ القوائمَ فيه بعدَ قِماصِهـا ضربٌ يُصَلْصِلُ في الطُّلى(٢) صَعَقاتُهُ
نبذوا السِّلاحَ لضيْغَمٍ عاداتُـهُ فَرْسُ الفوارسِ والقنا غاباتُـــهُ

ونصر المسلمين هو جزاء غدر البرنس ونكثه العهود :

صدم الصليبَ على صَلابَةِ عِـــوده فتفرقت أيدي سبا خَشَباتُـــهُ
وسقى البِرنْسَ وقد تبرْنَسَ ذِلَّـــةً بالروح مُقْفَرَ ما جَنَتْ غَدَراتُـــهُ

وصور مقتل البرنس بصورة مؤثرة وركّز على أهم عضو وهو الرأس :

تمشي القناةُ برأسِهِ وَهُوَ الذي نَظَمَتْ مدارَ النَّيِّرَيْـن قَناتُـــهُ

ثم صور صليبيا آخر وقد استاقه نور الدين أسيرا ،واستولى على حصونه :

وَلَّى وقد شَرِبَتْ ظُباكَ كُماتَـــهُ تحت العجاجِ وأسْلَمَتْهُ حُماتُـــهُ
تَرَكَ الكنائسَ والكِناسَ لناهـــبٍ بالبيض يَنْهَبُ ما حواه عُفاتُـــهُ

---

(١) انظر القصيدة في ديوان ابن منير / ٢٠٨-٢١٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٥٦-١٥٩ .

(٢) الطُّلى : جمع طُلْية أو طُلاةٌ : الأعناق ،(انظر لسان العرب : طلا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدع في رسم صورة أخرى لمقتل البرنس ، فهو ملقى على الأرض طعاما لوحوش الفلاة وجوارح الطير :

للوحشِ مُلْقىً بالعرا يَقْتاتُـــهُ ما كانَ قبلُ بصيدِهِ يِقْتاتُـــهُ

وفي نهاية القصيدة يثني على نور الدين قائلاً :

أنت الذي تُحْيي الحياةَ حياتُـهُ وتُهبُّ أرواحُ القصيد هِباتُـهُ

وفي كل موقـف من المواقف التي يعرض فيها الشاعر موضوعات القصيدة نجده يمجد بطولة نور الدين ويذكر فضائله العسكرية .

والقصيدة الثانية قالها العماد الأصفهاني يصف حال المسلمين مـع الفرنج عندما كان مرافقاً نور الدين ،وقالها ملبيًا رغبته ،وعدد أبياتها خمسة وسبعون بيتا (١) . افتتح العماد قصيدته بذكر النصر وقرنه بالإيمان ، فالإيمان من الاسباب المهمة لاحراز النصر ، يقول :

عُقِدَتْ بِنَصْرِك رايةُ الإيمـانِ وبدتْ لِمصرك آيةُ الاحسـانِ

ويمدح نور الدين ،ويمجد بطولته ،ويبرز الدور الذي قام به :

يا سالبَ التِّيجانِ من أربابهـا حُزْتَ الفَخارَ على ذوي التيجانِ
محمودَ المحمودُ ما بينَ الـورى في كلِّ إقليمٍ بكلِّ لسـانِ
يا واحداً في الفَضْلِ غيرَ مُشارَكٍ أقسَمْتُ ما لكَ في البسيطةِ ثـانِ
أحلى امانيك الجهادُ وإنَّـه لَكَ مؤْذِنٌ أبداً بكل أمـانِ

ويتحدّث عن فتوحاته وانتصاراته ،ويستخدم كم التكثيرية فيقول :

كم بِكْرِ فَتْحٍ ولَّدَتْهُ ظُباكَ مِـنْ حَرْبٍ لِقمْعِ المشركين عـوانِ
كم وقعةٍ لك في الفِرَنْجِ حديثُهـا قد سارَ في الآفاقِ والبلـدانِ

ثم يرسم بكلماته صورة ساخرة لمقتل أمير الفرنج ورأسه على سنان الرمح :

قَمَّصْتَ قُمْصَهُمُ رِداءً مِنْ رَدى وَقَرَنْتَ رأسَ برِنْسِهِمْ بِسِنـانِ

ويصور ملوك الفرنج وقد وقعوا في الأسر واستاقهم نور الدين ، بصورة يغلّفها الذلّ والازدراء ، معتمداً على ثقافته القرآنية :

وملكْتَ رِقَّ ملوكِهِمْ وتركْتَهُـمْ بالذُّلِّ في الأقيادِ والأسْجانِ
وجعلْتَ في أعناقِهِمْ أغلالَهُـمْ وسَحَبْتَهُمْ هُوناً على الأذقانِ

ويصف الخوف الذي سرى في نفوس وقلوب الفرنج :

وظنونُهُمْ وقلوبُهُمْ قد أيْقَنَـتْ للرُّعْبِ بالإخفاقِ والخَفَقانِ
راحوا فباتوا تحتَ كلِّ مذلـةٍ وضربْتَ منهمْ فوقَ كلِّ بنانِ

ويمجد العماد بطولة الجيش النوري ، ويذكر بعض عناصره ، وفعلها بالاعداء :

---

(١) انظر القصيدة في ديوان العماد / ٤١٠-٤١٨ ،والخريدة ، قسم الشام ١/ ٥٤-٦٢ ، وسنا البرق الشامي / ١٢٧-١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبسيف جُرديكَ المُجَرَّدِ غُـودِروا ... بدماءِ أهْلِ الغَدْرِ في غُـدْران
وبعين دولتكَ الذي قَدَّمْتَـهُ ... فُقِئَتْ عيونُ الكُفْرِ والكُفْـران
لم يتركِ الأتراكُ فيهمْ غايـةً ... بالفَتْكِ والإرهاقِ والإثْخـان

ويذكر القاضي بعض من حضر من الفرنج ، يقول :

طلب الغُريريُّ الغرارَ بطُلْبـه ... مُتباعِدًا مِنْ هُلْكِهِ المُتدانـي
باروا فَبارُونيَّـهُمْ بِغنائِـه ... مُودٍ وسَيْرُهُمُ أسيرُ عانـي

ووصف ما فعله نور الدين من الحركات العسكرية ، حيث أنفذ سرية إلى بلاد الفرنج " فأحرقت ونهبت وكبست أهلها وكسبت "(١) ، يقول :

أخْلَوْا بلادَهُمُ فحَـلَّ بأهْلِهـا ... منكَ الفَداةَ طوارِقُ الحَدَثـان
أنهَضْتَ حينَ خَلَتْ إليها عسكرًا ... أخلى قواعِدَها من البنيـان
وشَغَلْتَ جأشَهُمُ بجيشٍ هَدَّهُـمْ ... فجنى ثمارَ النُّصرةِ الجيشـان

وأورد العماد معنى يتردد كثيرا في شعر الجهاد وهو أن النصر من الله :

لم تَلْقَهُمْ ثقةً بقُوَّةِ شَوْكَـةٍ ... لكنْ وَثِقْتَ بِنُصْرَةِ الرَّحمـن

وذكر البلاد الخاضعة لنور الدين ، يقول :

فَمِنَ العراقِ إلى الشام إلى ذُرى ... مصرٍ إلى قوصٍ إلى أُسْـوان

ثم يجمل بعض صفات نور الدين وفضائله ، ويثني على عظيم أفعاله :

إعزازُكَ الدِّينَ الحنيفَ وحِزْبَـهُ ... قَدْ خَصَّ أهْلَ الشِّرْكِ بالإهوان
أنت الذي دون الملوك وجدْتُـهُ ... ملكًا من عُرْفٍ ومِنْ عِرفـان
عمرانُ عَدْلُك للبلادِ كأنَّمَـا ... قَدْ عاشَ في أيّامِك العُمَـران
خَلَّدْتَ في الآفاقِ ذِكْرًا باقيًـا ... أبَدَ الزَّمانِ بِبَذْلِ مالٍ فـانِ

والعماد في هذه القصيدة استطاع أن يربط بمهارة بين موضوعاتها المتعددة وألبسها ثوبًا ملحميا ، ولكن أحداثها من الواقع وبطلها حقيقي ، وجعلنا نعيش هذه الأحداث ، فهو شاهد عيان ينقل بدقة كل ما يرى ويسمع .

المقطّعات الشعرية :

أما المقطّعات الشعرية التي وصلتنا فقد تراوحت في طولها بين أربعة إلى عشرة أبيات من الشعر في الغالب ، وهي أقصر من القصائد .

وكل مقطّعة تدور حول موضوع واحد ، وقيلت المقطعات في موضوعات عامة منها : المدح ، والوصف ، والرثاء ، والحث على الجهاد ، والتهاني ، وفي السعي من أجل الصلح بين الأطراف المتنازعة ، ووصل إلينا كثيرٌ

---

(١) انظر الخريدة ، قسم الشام ١ / ٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منهـــا (١) .

ومن أمثلتها ،ما قالـه أسامة في مدح نور الدين :

في كلّ عام لِلبَرِيّة لَيْلَـــــــةٌ ... فيهـا تَشُبُّ النّارُ بالإيقـــــاد
لكنّ لنور الدين من دون الورَى ... نارانِ : نارُ قِرىً ،ونارُ جهـــــاد
أبدًا يصرّفُها نداهُ وبأسُـــــهُ ... فالعامُ أجْمَعُ ليلَـةُ الميـــــلادِ
مَلِكٌ له في كلّ جيدٍ مِنّـــــــةٌ ... أبْهى مِنَ الأطْواقِ في الأجيـادِ
أعلى الملوكِ يَدًا وأمْنَحُهُمْ حِسىً ... وأمَدُّهُمْ كَفّاً بِبَذْلِ تِـــــلادِ
يعطي الجزيلَ من النّوالِ تَبَرُّعًا ... مِنْ غير مسألةٍ ولا مِيعـــــادِ
لا زال في سَعْدٍ ومُلْكٍ دائـــــمٍ ... ما دامتَ الدُّنيا بغيرِ نَفَـــــادِ (٢)

ومن خلال استعراضنا للمقطعات المختلفة ،نلاحظ أنها تتميز بالسهولة والوضوح وهي ومضات سريعة تحمل قوة الانفعال وسرعة العرض .

فهي كالخاطرة في سرعتها وإيجازها واثارتها ، ومثل آخر للمقطّعـــة الشعرية كتبه الحافظ ابن عساكر مهنئا نور الدين باستيلاء جيشه على مصـــر ، فقد انفعل الشاعر لدى سماعه الخبر وسر بذلك ،ولكن هذا السرور لم ينسه أن يحث نور الدين على الجهاد ويحرضه على فتح القدس وتطهير المسجد الاقصى ، بل جعل التحريض موضوعا دارت حوله مقطعته الشعرية ، يقول :

لمّا سَمَحْتَ لأهلِ الشام بالخَشَـــبِ ... عُوِّضْتَ مصرَ بما فيها من النَّشَـــبِ
وإنْ بَذَلْتَ لفتح القُدْسِ مُحْتَسِبـــًا ... للأجْرِ جُوزيتَ أجرًا غيرَ مُحْتَسَـــبِ
والأجرُ في ذاك عند اللهِ مرتَقَـــبٌ ... فيما يُثيبُ عليه خيرُ مُرْتَقَـــبِ
والذِّكْرُ بالخير بين الناسِ تكْسِبُـــهُ ... خيرٌ مِنَ الفضّةِ البيضاءِ والذّهَـــبِ
ولستَ تُعذَرُ في ترك الجهادِ وقـــد ... أصْبحتَ تملكُ مِنْ مِصْرٍ إلى حَلَـــبِ
وصاحبُ الموصلِ الفيحاءِ ممتثِـــلٌ ... لما تريد فبادِرْ فجأةَ النَّـــوَبِ
فأحْزَمُ النّاسِ مَنْ قوّى عزيمَتَـــهُ ... حتى يَنالَ بها العالي مِنَ الرُّتَبِ
فالجَدُّ والجِدُّ مقرونان في قَـــرَنٍ ... والحَزْمُ في العَزْمِ والإدْراكُ بالطَّلَبِ
فَطهِّرِ المسجدَ الأقصى وحوزَتَـــهُ ... مِنَ النَّجاساتِ والإشراكِ والصُّلُـــبِ
عساكَ تَظْفَرُ في الدُّنيا بِحُسْنِ ثنـــًا ... وفي القيامةِ تلقى خيرَ مُنْقَلَـــبِ (٣)

ونخلص إلى أنّ الفرق بين القصيدة المطولة والمقطعة الشعرية ليس فرقـــا في الطول وحسب ، وإنما فرق في الجوهر أيضا .

---

(١) انظر الخريدة ، والروضتين ، ودواوين الشعراء .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٥٨٥ ،والابيات غير مذكورة في ديوان أسامة .
(٣) انظر الروضتين ١/ ٤٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدوبيـــــــت :

الدوبيت : لفظ فارسي معناه (البيتان) ، وهو قالب شعري ظهر في المشرق مثل ظهور الموشح في الأندلس والمغرب (١) .

ومن شعراء الدوبيت في عصر نور الدين ،ابن قسيم الحموي ، وعرقلة الكلبي ، والعماد الأصفهاني (٢) .

وما يعنينا من الأشعار ،هي أشعار العماد الاصفهاني التي قالها على لسان نور الدين في معنى الجهاد ، " وكان نور الدين قد سأله أن يعمل دوبيتات على لسانه في هذا المعنى "(٣) . ومنها هذه الدوبيتات، وقد تقدم ذكر بعضها ، يقولُ العماد :

للغزو نشاطي وإليه طربي ما لي في العيش غيرُهُ من أربِ
بالجِدِّ وبالجهاد نُجْحُ الطَلَبِ والراحةُ مستودعةٌ في التَعَبِ

وقال ايضا :

لا راحةَ في العيش سوى أنْ أغزو سيفي طَرَباً إلى الطُّلى يَهْتَزُّ
في ذلكَ ذوي الكُفْرِ يكونُ العِزُّ والقدرةُ في غيرِ جهادٍ عَجْزُ

وقال :

أقسمتُ سوى الجهادِ ما لي أربُ والراحةُ في سواهُ عندي تَعَبُ
إلاّ بالجِدِّ لا يُنال الطَّلَبُ والعيشُ بلا جِدِّ جهادٍ لَعِبُ(٤)

فالشاعر قد جعل كل وحدة شعرية ذات أربعة مصاريع ،وقافيتها واحدة وكأنَّ كلَّ رباعية منها عمل فني مستقل على شكل قصيدة مصغرة .

وعلى شاعر الدوبيت بشكل عام أن يراعي في الأول والثالث والرابع على الاقل قافية واحدة(٥) .

وما نلاحظه على الوحدة الشعرية او الرباعية ،هو أنها تتضمن موضوعا واحدا ،

وقد وفق الشاعر في اختيار الألفاظ التي تدل على المعنى الذى يريد التعبير عنه ، فهناك انسجام تام بين اللفظ والمعنى ،وبين اللفظ والموسيقى .

ورباعيات العماد هذه حماسية متفقة ومعنى الجهاد .

---

(١) ديوان اسامة / ٢٠٦ .
(٢) ديوان العماد / ٤١٨ ، والخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٦٢ .
(٣) انظر ديوان الدوبيت في الشعر العربي / ١٨ .
(٤) انظر ديوان العماد / ٧٦، ٧٧، ٢٢٣ ،وديوان الدوبيت/ ١٨٧ ، والروضتين ١ / ٥٢٨ .
(٥) ديوان الدوبيت / ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسلـــــوب :

عرض بعض النقاد إلى الصلة بين الأسلوب وأغراض الشعر ، وتحدثوا عن تباين أساليب التعبير عن هذه الاغراض ، يقول الجرجاني : " ولا آمرك باجراء انواع الشعر كله مجرى واحدا ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك أن تُقَسِّم الالفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مديحك كوعيدك .... بل ترتب كلاً مرتبته وتوفيه حقه ، فتلطُفُ إذا تغزلت وتفخُمُ إذا افتخرت ، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه ، فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمُدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه " (١) .

ويرى ابن رشيق أنه ينبغي على الشاعر إذا مدح ملكا أن يسلك طريقة الإيضاح والاشادة بذكره للممدوح وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية (٢) .

ويرى أيضا أنه ينبغي عليه اذا تغزل أن يكون نسيبه حلو الألفاظ رسْلَها ، قريب المعاني سهلَها ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الإيشار (٣) .

ونجد هذا التباين في أساليب شعراء نور الدين ، ونتناول،على سبيل التمثيل ، أبياتاً لابن القيسراني في المدح واخرى في الغزل ، لندرك مدى ذلك التباين :

يقول ابن القيسراني في مدح نور الدين من احدى قصائده :

لله عَزْمُكَ أيُّ سَيْفٍ وَغَى ... طُبِعَتْ مَضارِبُه على القَهْرِ

ومنها :

مَلِكٌ مهابَتُه طليعةُ ... أبداً أمامَ جيوشِهِ تَسْري
كم فلَّ كيدَهُمَ بصاعقةٍ ... شَغَلَتْ قلوبَهُمُ عن الفكرِ
عدلٌ حقيقٌ مَنْ تأمَّلَهُ ... أنْ يُحيِيَ العُمَرين بالذِّكرِ
وشهامةٌ في الله خالصةٌ ... عَقَدَتْ عليه تمائمَ الأجْرِ
وندى يدٍ ما ضرَّ واردَها ... ألاّ يبيتَ مُجاوِرَ البَحْرِ
هذا المخيَّمُ في ذرى حَلَبٍ ... وثناؤه أبداً على ظَهْرِ (٤)

وكما نرى فإن هذه الأبيات تتسم بالسهولة والوضوح والجزالة ومتانة التراكيب ، والفاظها تتناسب مع منزلة الممدوح .

وكما نلحظ من خلال الأبيات فقد أشاد الشاعر بفضائل الممدوح وذكر

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه/ ٢٣ .
(٢) العمدة ٢/ ١٢٢ .
(٣) نفسه ٢/ ١١٠ .
(٤) انظر الروضتين ١/ ٤٦-٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شجاعته وعدله وشهامته وكرمه ونجدته ، وهي فضائل تتفق مع آراء النقاد في هذا المجال ، فقد رأوا أن " أفضل ما مدح به القائد الجود والشجاعة وما تفرع منهما نحو التخرق في الهيئات ،والافراط في النجدة وسرعة البطش وما شاكل ذلك(١) ، وبذلك يكون ابن القيسراني موفقا في أسلوبه في المدح .

وأما أبياته في الغزل ، فقد قال في مقدمة قصيدة مدح فيها نور الدين :

يا ليتَ أنَّ الصدَّ مصدودُ ... أوْ لا فليتَ النَّومَ مردودُ
إلى متى تُعرِضُ عن مُغرَم ... في خدِّه للدَّمعِ أُخدودُ
قالوا عيونُ البيضِ بيضُ الظّبا ... قلتُ ولكنّ هذه سودُ
يخاف منها وَهْي في جفنها ... والسّيف يخشى وَهْو مغمود(٢)

فهذه الأبيات بما فيها من الفاظ ومعاني الغزل مثل : الصد والهجران ، والاعراض ، والغرام ، والدموع ، والخدود ، والعيون والجفون ، وما اتسمت به هذه الألفاظ من رقة وعذوبة ، وما احتوته الأبيات من معاني الشوق والألم واللوعة ، وما اتسم به أسلوبها من سهولة ومعانيها من وضوح ، كل ذلك يُظهِرُ بشكل جليّ الفرق بين أسلوبي الشاعر في المدح والغزل .

والعماد الأصفهاني عندما وصف المعركة في إحدى قصائده قائلاً :

والبارُقيّةُ أرْقَتْهُمْ في الدُّجى ... بسهامٍ كلُّ حَنِيّةٍ مِرّنانِ
ولطالما مَهَرَتْ على نَصْرِ الهدى ... أنصارُكَ الأبطالَ مَن مَهْرانَ
لم يترك الأتراكُ فيهم غايةً ... بالفَتْكِ والإرهاقِ والإثخانِ
من كلِّ رامٍ سَهْمُهُ مِنْ وَهْمِهِ ... أهدى إلى إنسانِ عينِ الرّاني(٣)

اتسمت أبياته بالقوة والفخامة والجزالة ، وهذا ما يتناسب مع جو المعركة وعندما كتب إلى اصدقائه متشوقا اليهم ، ورثى نور الدين قال :

بغيري شُغِلُوا عنّي ... وعندي بِهِمُ شُغُلُ
وكانوا لا يَملّون ... فما بالُهُمُ مَلّوا ؟
ورَاموا سلوةَ الغُمْـ ... ـرِ والمغرم لا يَسْلو

ومنها في رثاء نور الدين :

لفقدِ المَلِكِ العادِ ... لِ يبكي المُلْكُ والعَدْلُ
وقد أظلَمَتِ الآفا ... قُ لا شمسٌ ولا ظِلُّ
ولمّا غابَ نورُ الدّيـ ... ـنِ عنّا أظلَمَ الحَفْلُ(٤)

---

(١) انظر العمدة ٢/ ١٢٨ ،ونقد الشعر / ٩٣ .
(٢) انظر الروضتين ١/ ١٤٥ .
(٣) انظر القصيدة في ديوان العماد / ٤١٠-٤١٨ ،والخريدة ، قسم الشام ١/ ٥٧-٥٨ .
(٤) انظر القصيدة في ديوان العماد / ٣٣٤-٣٣٨ ، والخريدة ، قسم الشام ١/ ٦٨ - ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اتسم اسلوبه في هذه الأبيات بالسهولة والوضوح ، والفاظه بالرقة ، والعذوبة ، ونجد موسيقاه حزينه ، وقد اختار لأبياته وزنا خفيفا يتناسب مع غرضي الحنين والرثاء ، وعبر في هذه الابيات عن معاني الشوق والألم والحزن والحسرة ، وهذه المعاني يناسبها الأسلوب السلس والكلام الليـن .

أما طرق التعبير عن العناصر التي تشكل القصيدة لتكوين الوحدة الموضوعية فقد ظلت في إطار الطرق التقليدية ، وقلّ فيها التجديد .

وقد أجاد الشعراء في طرق التعبير ، وغالبا ما توفرت فيها مقاييس الاسلوب الجيد وهي : الوضوح ، والقوة ، والجمال (١) .

ولا سيما في شعرهم الذي صور جهاد نور الدين .

ومن أهم أساليب التعبير عند هؤلاء الشعراء : استخدام صيغة المخاطب ، فالشعراء يخاطبون نور الدين في كثير من قصائدهم ، ولا تخلو قصيدة في المدح أو الجهاد من صيغة المخاطب ، ومن أمثلة ذلك قول ابن منير مخاطبا نور الدين في مطلع قصيدة له فيه :

فَدَتْكَ القلوبُ بألبابِها وساحُ الملوكِ بأرْبابِها

ومنها :

وأصْلَتَّ رأيكَ قَبْلَ الحُسام فخَمَّدَ جَمْرَةَ أجْلابِها (٢)

وقال من قصيدة اخرى :

أبوكَ أبٌ لو كان للناس كلِّهِمْ أباً وَرَضُوا وطءَ النُّجوم لَفَنَّدُوا (٣)

وقال ايضا :

وأنْتَ السيفُ لم تَسْتَسْقِهُ نارٌ ولا شَحَذَتْ مضارِبَهُ القُيون (٤)

وقال ابن القيسراني مخاطباً نور الدين :

قد فَضَحْتَ الملوك بالعدل لمّا سِرْتَ في الناس سيرةَ الخلفاء
فاسمًا ما ملكت في النّاس حتى لَقَسَمْتَ التُّقى على الأتقياء
أنْتَ حينًا تُقاسُ بالأسَدِ الوَرْ دِ وحينًا تعدُّ في الأولياء (٥)

وقال أيضا :

صافحت يا ابن عماد الدين زُرْوتها براحة للمساعي دونها تعب
مازال جِدُّكَ بيني كلَّ شاهِقَةٍ حتى ابتنى قبةً أوتادُها الشُّهُب

---

(١) أصول النقد الادبي / ٢٥٩ .
(٢) ديوان ابن منير / ٥٢١-٥٢٢ .
(٣) نفسه / ٢٣٠ .
(٤) نفسه / ٢٣٦ .
(٥) كتاب الروضتين ١ / ٤٥-٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها :

غَضِبْتَ للدِّين حتى لم يَفُتْكَ رضىً وكان دينُ الهُدى مرضاتُه الغَضَبُ
طَهَّرْتَ أرضَ الأعادي من دمائِهِمُ طهارةً كلُّ سيفٍ عندها جُنُبُ (١)

وقال العماد الاصفهاني :

إعزازك الدينَ الحنيف وحزبه قد خَصَّ أهلَ الشِّرك بالإهوان (٢)

وقال ابن أسعد الموصلي :

واللّهُ عونُك فيما أنت مزمعُه كما أعانَكَ في أيامِكَ الأُول (٣)

وكما نرى من خلال الامثلة المذكورة وغيرها ، فان صيغة المخاطب تكسب الشعر قوة ووضوحا .

ويستخدم الشعراء (كم الخبرية) لإفادة التكثير والتفخيم في كثير من قصائدهم ،ومن الأمثلة على ذلك ،قول ابن منير :

وكم حمىً للشرك لا يهتدي الـ ـوَهْمُ له غادَرْتَهُ مَجْزَرا (٤)

وقوله :

وكم عبر الصليبُ بهم صليبًا فردَّتْهُ قناك وفيه لينُ (٥)

وقال ابن أسعد الموصلي من قصيدة له في نور الدين :

كم قد تَجَلَّتْ بنور الدين من ظُلَمٍ للظُّلْمِ وانجاب للاضْلالِ من ظُلَلِ

ومنها :

كم قد ملكت لهم مُلْكا بلا عِوَضٍ وحزتَ من بلد منها بلا بدل (٦)

وقال العماد الاصفهاني :

كم ظهرِ شِرْكٍ قَصَمْنا وعِطْفِ عِزٍّ هَزَزْنا
وكم مراكزَ ملكٍ فيها الرماح ركزنا
وكم عدوٍّ سلبنا هُ مُلْكَهُ وابتززنا (٧)

وقال من قصيدة أخرى :

كم بكرِ فتحٍ ولَدَتْهُ ظُباك من حربٍ لقمع المشركين عوان
كم وقعةٍ لك في الفرنج حديثُها قد سار في الآفاق والبلدان (٨)

---

(١) كتاب الروضتين ١ / ١٥٢-١٥٣ .
(٢) ديوان العماد / ٤١٧ ،والخريدة قسم الشام ١ / ٦١ .
(٣) ديوان ابن الدهان / ٧٧ ،وكتاب الروضتين ١ / ٣٢٢ .
(٤) ديوان ابن منير / ٢٠٧ .
(٥) نفسه / ٢٣٧ .
(٦) ديوان ابن الدهان / ٧٧ ،وكتاب الروضتين ١ / ٣٢٢ .
(٧) ديوان العماد / ٤٠٦-٤٠٧ ،والخريدة ،قسم الشام ١ / ٥٢ .
(٨) ديوان العماد / ٤١١ ،والخريدة ،قسم الشام ١ / ٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعمد الشعراء في أساليبهم الى التهكم والسخرية عند وصف العدو ، وذلك لازدرائه وتصغير شأنه ، ومن الامثلة على ذلك قول ابن القيسراني وقد وصف مقتل أحد الصليبيين :

أتى رأسهُ ركْضًا وعُودِرَ شِلْوُهُ ... وليس سوى عافي النّسور له قبْرُ (١)

وقال ابن منير ساخرا من البرنس الذي لبس لباس الذل ، ودقت عنقه جزاء غدره :

وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة ... بالروح مقر ما جنت غدراته
فانقاد في خطم المنية أنفه ... يوم الخطيم وأقصرت نزواته (٢)

وقال الصالح بن رزيك في إحدى رسائله الشعرية التي بعث بها إلى أسامة ابن منقذ ، يحث فيها نور الدين على الجهاد :

فالويلُ منها للفرنْـ ... ـج فقد لَقُوا جَهْدَ البليّة
جاءت رؤوسُهُمُ تلو ... حُ على رؤوس السمهريّة (٣)

وقال ابن أسعد الموصلي :

بني الأصافر ما نلتُمْ بمكْرِكُمُ ... والمكرُ في كلِّ انسانٍ أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم ... غير الأراذل والأتباع والسفل (٤)

وقال العماد الأصفهاني يسخر من أسرى الفرنج ويصف جبن الفارّين منهم :

وملكت رقَّ ملوكهم وتركتهم ... بالذل في الاقياد والاسجان
وجعلت في اعناقهم اغلالهم ... وسحبتهم هونا على الاذقان
ولوّا وقلبُ شجاعهم في صدره ... كالسّيفِ يُرْعِدُ في يمينِ جبان (٥)

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٨٦ .
(٢) ديوان ابن منير/ ٢١٢ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٥٨ .
(٣) ديوان طلائع / ١٧٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٩١ .
(٤) ديوان ابن الدهان / ٧٢-٧٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٢١ .
(٥) ديوان العماد / ٤١١-٤١٣ ، والخريدة ، قسم الشام ١/ ٥٥-٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثيرا ما يغلب على اساليب الشعر الطابع الإنشائي من أمر ونهي واستفهام ونداء ،وغير ذلك .

وهو ما أطلق عليه الدكتور نصرت عبد الرحمن " الأسلوب الانفعالي " ، وعلل ذلك بأن " الجمل الانشائية تدل على حدة الانفعال "(١) ، ونجد في الشعر كثيرا من الأمثلة على ذلك ، ومنها : استخدام الشعراء للأمر ، كقول ابن القيسراني مخاطبا نور الدين :

فاحسم عناد ذوى العناد بجحفلٍ كالليل فيه من الصفيح نهار(٢)

وقال ابن منير مخاطبا نور الدين ، ايضا :

ألقِ العصا فيمن أطاع ومن عصى منهم ودمِّر أرضهمْ تدميرا (٣)

ومما كتبه ابن رزيك مخاطبًا نور الدين قوله :

تجهز الى أرض العدوّ ولا تَهُنْ وتُظْهِر فتورًا إنْ مضت منك حارم(٤)

وخاطب العماد الاصفهاني نور الدين قائلا :

فانْهد إلى البيت المقدس غازيًا وعلى طرابُلُسٍ ونابُلُسٍ عُجِ (٥)

وكما نلاحظ من الأمثلة السابقة ،فقد أتى الأمر في المواقف الحاسمة التي تحتاج إلى حزم من المخاطب .

واستخدم ابن منير في الأبيات التالية ، إضافة إلى الأمر ،النداء والنهي والاستفهام ، وكتب هذه الابيات إلى نور الدين ،وذم فيها مجير الدين ، وخاطب اهل دمشق ، يقول منها :

فيا راكبا اما عرضت فبلّغنْ بيوتًا على جيرونَ بالذلّ تُعْمَدُ
وقل لمبير الدين وهْو مجيرُهُ بزعمٍ له وجهُ الحقيقة أربَدُ
وهل يستوى سارٍ تأسَّد طاويًا (٦) ونشوان (٧) يعلى معصما ويؤيد

ومنها :

وفروا إلى مولاكُمُ والّذي لَهُ عَلَيْكُمْ أَيَادٍ وَسْمُهَا لَيْسَ يُجْحَدُ
ولا تَكْفُرُوهُ إنَّمَا أَنْتُمُ لَهُ وَمِنْهُ وَيَوْمٌ عِنْدَ حورانَ يُشْهَدُ (٨)

---

(١) شعر الصراع مع الروم/ ٣١٤ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ١٧٦ .
(٣) ديوان ابن منير/ ٢٤٦ ،وشعر ابن منير/ ٩٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢١٧ .
(٤) ديوان طلائع بن رزيك/ ١٤١ ،وديوان أسامة/ ٢٢٣ .
(٥) ديوان العماد/ ١٠٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٨٠ .
(٦) طاويا : ضامر البطن (لسان العرب: طوى) .
(٧) نشوان : بَيِّن النشوة وهي الرائحة (لسان العرب: نشا) .
(٨) ديوان ابن منير/ ٢٣١ ،وشعر ابن منير/ ٦٢-٦٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٩٧-١٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخاطب العماد نور الدين مادحا ، وقد استخدم النداء في خطابه ، يقول :

يا غالبَ الغُلْب الملوك وصائد الصُـ ـصِيد اللـيوث وفارس الفرسـان
يا سالبَ التيجان مِنْ أربابهـا حزت الفخار على ذوى التيجان
يا واحدا في الفضل غير مشـارك أقسمت : ما لك في البسيطة ثاني
قل أين مثلك في الملوك مجاهـد لله في سر وفي اعـلان (١)

واستخدم علم الدين الشاتاني ايضًا النداء والاستفهام في خطابه لنور الدين ، يقول من قصيدة مدحه فيها ، وقد بدأها بالنفي والردع :

ما نال شأوك في المعالي سنجـر كلا ولا كسرى ولا الاسكنـدُر
يا خير من ركب الجياد وخاض فـي لجج المنايا والأسِنَّة تقطـرُ
هل جاز غيرك ملك مصر وصار مـن أتباعه من جدّه المستنصـرُ

ومنها قوله :

من ذا يصون الصين عنك وأنت من أسد الشرى (٢) منه تخاف وتحذر (٣)

ومع ارتفاع صوت الشاعر تبرز سمات أسلوب القصائد من جهارة في العبارة ونبـرة في الإيقاع ، وضرب للأمثال ،كقول ابن القيسراني :

صدعتَهُمُ صَدْعَ الزجاجة لا يـدٌ لجابرها ما كل كسر له جبر (٤)

وقول العماد :

وهزمتهم بالرأى قبل لقائهم والرأي قبل شجاعة الشجعان (٥)

ومن السمات الأخرى التأثر بالقرآن الكريم (٦) ،وتكرار الألفاظ والمعاني ، كما ورد في شعر ابن منير ،حيث يقول :

يا نورَ دين الله وابنَ عمـادِه والكوثرَ ابنُ الكوثرِ ابنِ الكوثرِ (٧)

ويقول ايضا :

ورجا البرنسُ وقد تبرنَسَ نِلَّـةً حَرَماً بحارم والمُصادُ مُصـادُ (٨)

ونجد ألفاظ الشعراء ومعانيهم متشابهة إلى حد كبير ،ولا تختلف القصائـد بعضها عن بعض الا في الصياغة وجودة الأسلوب ،وذلك لأن الشعراء يعانون أزمة واحدة ،ويواجهون عدوًا واحدًا .

---

(١) انظر القصيدة في ديوان العماد / ٤١٠-٤١٨ ،وكتاب الروضتين ١/٥٢٨-٥٣٠ .
(٢) أسد الشّرى : موضع تنسب إليه الأسد ،وقيل هو شرى الفرات وناحية وبه غياض وآجام ومأسدة (لسان العرب : شري) .
(٣) كتاب الروضتين / ٤٤٥-٤٤٦ .
(٤) نفسه ١/ ١٨٦ .
(٥) ديوان العماد / ٤١٣ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٥٦ ،وكتاب الروضتين ١/٥٢٩.
(٦) سنورد أمثلة على ذلك عند الحديث عن الأثر الاسلامي .
(٧) ديوان ابن منير/ ٢٢٩ ،وشعر ابن منير/ ١٠٦ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٩٦ .
(٨) ديوان ابن منير/ ٢٦٣ ،وشعر ابن منير/ ٧١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصدر الشعراء عن ثقافة لغوية وشعرية واسعة ،وقد نجد في شعرهم اشارات لبعض القواعد النحوية كما في قول ابن منير :

اذا ما الفعل علّ تلاه حذفٌ يُتاحُ لمنتهاهُ أوسكون (١)

وقد أحسن الشعراء اختيار الالفاظ الملائمة للمعاني ،ولا سيما في القصائد التي وصفوا فيها المعارك ،ومدحوا نور الدين وحرضوه على الجهاد . ومن الامثلة على ذلك قول ابن القيسراني :

ضحكت تباشير الصباح كأنها قَسَماتُ نور الدين خير الناس
المشترى العقبى بأنفس قيمةٍ والبائع الدنيا بغير مكاسِ (٢)

وقول العماد :

بطلك مصر أُهنّي مالك الأمم فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم (٣)

والشعر الجيد ما كان واضحا وتلاءمت الفاظه ومعانيه ،وكانت ألفاظه فصحى بعيدة عن العامية المبتذلة ، ويرى النقاد ان الشعر كلام منسوج ولفظ منظوم ، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف ،وحسن لفظه ولم يهجن ،ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام ،فيكون جِلْفا بغيضا ،ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلا دونا . ويروا أن سبيل الشاعر اذا مدح ملكا أن يسلك طريقة الإيضاح ، وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة (٤) .

واستخدم الشعراء الالفاظ الفخمة والايحاءات المعبرة عن احتدام الصراع بين المسلمين والصليبيين ،كما يبدو من قول ابن القيسراني :

تفي بضمانها البيض الحداد وتقضي دينها السمر الصعاد
وتدرك ثأرَها من كل باغٍ فوارسُ من عزائمها الجلاد (٥)

ومع أن الشعراء اختاروا الالفاظ الفصحى ،والمعاني الواضحة الملائمة لها ، الا أن بعضهم لجأ أحيانا الى التكلف بدافع الحرص على المحسنات البديعية ، فوجدنا التعقيد اللفظي في بعض الأبيات ، ومن الأمثلة على ذلك ،قول ابن منير من قصيدة مدح فيها نور الدين وذكر ظفره بالبرنس وأصحابه :

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢٣٧ ،وشعر ابن منير/ ١٨٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٠٦ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٤٨ .
(٣) ديوان العماد/ ٣٨٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ٤٤٣ .
(٤) انظر الصناعتين/ ٦٠ ،والعمدة ٢/ ١٢٢ .
(٥) كتاب الروضتين ١/ ١٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ردّت على الإسلام عصر شبابه وثباته من دونه وثباتُه
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعًا إصلاتُه وصلاتُه وصلاتُه (١)

ويبدو التكلف على أشده في البيتين وخاصة في الشطر الثاني من البيت الثاني ، فالمجانسات أثقلت البيت ولم تكشف المعنى بوضوح .

وقوله عند ما ذكر استيلاء نور الدين على قلاع جوسلين :

مشاهدُ مشهورةٌ نُمنِمَتْ على صفحة الدّهر أسطارُها
يلذُّ الأغاني ترجيعُها وتستسفر (٢) السَّفْرُ (٣) أسفارها (٤)

فنجد التعقيد اللفظي في الشطر الثاني من البيت الثاني وذلك لتوالي حروف السين والفاء والراء وتكرارها .

وقوله أيضًا :

وفي شجراء حارم (٥) شاجَرَتْهُمُ سواهمُ (٦) كالسّهام بكالسّهام (٧)

ويظهر التعقيد اللفظي أيضًا ، في قول العماد عند ما وصف الحال مع الفرنج :

وأزارها الشلالة (٨) الشَّلُّ (٩) الذي أهدى لهم شللاً إلى الإيمان (١٠)

وكما يبدو من الأمثلة المذكورة فإنّ التعقيد اللفظي يجهد ذهن القارىء ، قبل أن يصل إلى فهم المعاني .

وقد رأى أحد النقاد أنه لا خير في المعاني إذا استكرهت قهرًا ، والألفاظ إذا اجتثرت قَسْرًا ، وعنده أن أجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً (١١) .

وقد كان للأحداث الجسام التي تعرضت لها البلاد الإسلامية في فترة الحروب الصليبية أثر كبير في الألفاظ الشعرية ، ولا سيما الألفاظ المستقاة من جو المعارك ، فقد اختار الشعراء الألفاظ الجزلة الملائمة لجو الحرب .

---

(١) انظر ديوان ابن منير/ ٢٠٨ ، والروضتين ١/ ١٥٦ .
(٢) تستسفر : من استسفر البعير قوى على السفر (لسان العرب : سفر) .
(٣) السفر : المسافرون (لسان العرب : سفر) .
(٤) ديوان ابن منير/ ٢٢٨ ، وشعر ابن منير / ١٢٧ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٩٤ .
(٥) وأسفارها : سفار : زمام أو حبل يشد طرفه على خطام البعير (لسان العرب : سفر) .
(٥) شجراء حارم : كثيرة الشجر (لسان العرب : شجر) .
(٦) سواهم : جمع ساهمة ، وهي الناقة الضامرة (لسان العرب : سهم) .
(٧) ديوان ابن منير/ ٢٦٥ ، وشعر ابن منير/ ١٧٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٥٧ .
(٨) الشلالة : موقع في ديار الشام نزل فيه الفرنج لمحاربة نور الدين ، (كتاب الروضتين ١/ ٥٢٨) .
(٩) الشلّ : الطرد (لسان العرب : شلل) .
(١٠) ديوان العماد / ٤١٣ ، والخريدة ، قسم الشام ١/ ٥٧ .
(١١) انظر الصناعتين / ٦٠ ، ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولدى استقصائنا للقصائد الشعرية وجدنا ذخيرة لفظية متنوعة فمنها : اسماء المدن والقلاع والحصون والمعارك ، ويوجد الكثير من النماذج الشعرية الممثلة لذلك ،ومنها على سبيل المثال لا الحصر : ما كتبه أسامة بن منقذ في رسالة جوابية بعث بها إلى طلائع بن رزيك ،ومنها :

فتحنا الرُّها حينَ استَباحَ عُداتُنا ... حِماها ،وسنّى ملكَها لهم الخترُ
ونحن فتحنا تلَّ باشرَ بعدها ... وقد عَجِزَتْ عنه الأكاسِرَةُ الفُـرُ
وتلُّ عزاز صبحته جيوشنا ... فلم تحمه عنا الرجال ولا الجدرُ
وَمِلْنا إلى بُرْج الرصاص وإنَّه ... لكالسَّدِّ لكنَّ الرَّصاصَ لَهُ قِطْرُ(١)
وما مِثْلُ راوَنْدانَ حِصْنٌ وإنَّه ... لَمُمْتَنِعٌ لَوْ لَمْ يُسَهِّلْ لَهُ العسْرُ(٢)

ووردت أسماء الأدوات الحربية ،ومن ذلك ما أورده ابن القيسراني في إحدى قصائده وقد ذكر منها : السيف والرمح ،والكبش(٣) ،والبيض(٤) ، والبلب ، والنبل ،والظبى ، والأسنة ،والقنا ، والقسي ،والطوارق(٥) ،وبين فعل هذه الأسلحة بالاعداء ، يقول :

أغرْتَ سيوفُكَ بالإفرنج راجفةٌ ... فُؤادُ رومِيَّةَ الكبرى لها يَجِبُ
ضربت كبشَهُمُ منها بقاصِمَةٍ ... أودى بها الصُّلْبُ وانحطت بها الصُّلُبُ
والنقعُ فوقَ صِقالِ البيضِ منعقِدٌ ... كما استَقَلَّ دخانٌ تحتَهُ لَهَبُ
والسيفُ هامٌ على هامٍ بمَعْرَكَةٍ ... لا البيضُ ذو ذِمَّةٍ فيها ولا اليَلَبُ
والنبل كالوَبْلِ هَطّالٌ وليْسَ لَهُ ... سوى القِسيِّ وأيْدٍ فوقَها سُحُبُ
وللظُّبى ظَفَرٌ حلوٌ مذاقتُهُ ... كأنّما الضرب فيما بينهم ضرب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديَهُمْ ... فاستسلموا وهْيَ لا نبع ولا غرْبُ
كذاك من لم يُوقِّ الله مهجتَه ... لاقى العدى والقنا في كفِّهِ قَضَبُ
حتى الطوارق كانت من طوارقهمْ ... ثارت عليهم بها من تحتها النوبُ(٦)

---

(١) القِطْر : النحاس(لسان العرب : قطر) .
(٢) ديوان أسامة/ ٢٠٤-٢٠٥ ،(عرف بأسماء البلدان الواردة في الشعر في مواضع مختلفة من الدراسة) .
(٣) الكبش : آلة حربية تستخدم في الحصار لهدم الأسوار. انظر (لسان العرب : كبش) . وحجر تحصن وتوثّق به الأسوار، انظر :
Dozy,Supp.Dict.Ar.TomeII,P.440 .
(٤) البيض : جمع بيضة ،والبيضة : الخوذة (لسان العرب : بيض) .
(٥) الطوارق : جمع طارقة ، وهو يطلق على نوعين من السلاح ، الأول: نوع من الترس يحمله الجندي لحماية نفسه في أثناء القتال ، والثاني : آلة حربية مكونة من جملة من الألواح الخشبية تستخدم كمتراس. انظر : النوادر السلطانية /١٢٨ ، و Dozy,Supp.Dict.Ar.TomeII,P.411 .
(٦) انظر الروضتين ١/١٥٣ - ١٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر الشعراء الخيل ،فقال ابن منير :

هِيَ الخَيلُ خَيرُ عتادِ الكريـــ ـمِ يَحْضُرُ للهَمِّ إحضارها (١)

وقال ابن أسعد الموصلي :

هل آخِذُ الخيل قد أَرَدى فوارِسَها مثالُ آخِذِها في الشَّكْلِ والطِّولِ (٢)

ومن الألفاظ الافرنجية التي وردت في الشعر أسماء وألقاب من أسر أو قتل من ملوك وقادة الفرنج ،ومنها - على سبيل المثال - لفظة (البرنس) (٣) ،يقول المهذب بن الزبير وقد ذكر قتل نور الدين البرنس :

قتَلَ (البرنسَ) ومن عساه أعانَه لما عتا في البغْيِ والعُدوان (٤)

ومنها لفظة (القُمص) (٥) ،يقول ابن القيسراني :

وأرى صياح القُمْص كان خديعةً فطغى وجار وليس ثم وجارُ (٦)

ومن أسماء الصليبيين الواردة في الشعر : (جوسلين) ،و (ابن الفنش) و (بغدوين) (٧) ، قال ابن منير :

طلعت عليك بجوسلين ذريعة لا سَحْلَ أنشاها ولا إمْرارُ (٨)

وقال أسامة بن منقذ :

وفي سجننا (ابن الفنش) خير ملوكهم وإن لم يكن خيرٌ لديهم ولا برُّ

ونحن كسرنا (البغدوين) وما لمـــن كسرناه إبلالٌ يُرَجّى ولا جَبْرُ (٩)

ووردت في الشعر الفاظ دينية لها ارتباط بالعقيدة الإسلامية ، والفاظ صليبية لها ارتباط بعقائد الصليبيين ،وسنذكر أمثلة لها فيما بعد (١٠). ووردت أسماء للأنبياء والخلفاء والصحابة (١١) .

وكما يبدو من الأمثلة المتقدمة ،فإن انتقاء الشعراء للألفاظ وكثرتها في قصائدهم " يكسب هذه القصائد قوة وعنفوانا ، علاوة على التناسق الموسيقي "(١٢) .

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢٢٦ ،وشعر ابن منير/ ١٢٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٩٣ .

(٢) ديوان ابن الدهان/ ٧٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٢١ .

(٣) "Prince" .

(٤) الخريدة ،قسم الشام ٣/ ٢١٢ .

(٥) القمص : تعريب وفي اللاتينية (Comes) أي الامير ومعناها الرفيق انظر (مفرج الكروب ١/ ٧٣) .

(٦) كتاب الروضتين ١/ ١٧٦ ،والوجار: الطعن (لسان العرب: وجر) .

(٧) "Baudouin III" و "Alphonse" و "Joscelin" على الترتيب .

(٨) ديوان ابن منير/ ٢٢٤ ،وشعر ابن منير/ ٨٧،والباهر/ ١٠٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٩٠ .

(٩) ديوان أسامة بن منقذ/ ٢٠٢-٢٠٣ .

(١٠) انظر الحديث عن الأثر الإسلامي في الباب الرابع من هذه الدراسة.

(١١) انظر الحديث عن المقتدى بالسلف الصالح في الباب الثاني من هذه الدراسة.

(١٢) انظر شعر الصراع مع الروم / ٣٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأثـــــر الاسلامـــــي

برز الأثر الاسلامي بشكل واضح في قصائد الشعراء ،ولم نألفه بهـــــذا الوضوح إلّا في شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام .

ويجد قارئ الشعر الذي قيل في نور الدين أن الشعراء كانـــــوا متأثرين بالروح الاسلاميـــة .

ولقد خاض المسلمون الحرب ضد عدو أراد القضاء على وجودهم وعلـــى سائر أماكنهم الدينية التي ترتبط ارتباطاً وثيقا بالعقيدة الاسلامية ، وازاء هذا الاحتلال الأجنبي كان لابدّ للمسلم من أن يثور ،ولابد للمسلميـــن من أن يستمدوا قوتهـــم من خلال الرجوع إلى أحضان الاسلام نظاما وتربية وثقافة ، حتى يستطيعوا الوقوف أمام المعتدين ، كما كان لتشجيع حكـــام المسلمين وعلى رأسهم نور الدين أثر فعال في الاهتمام بالعلوم الاسلاميـــة بفروعها المختلفة ، اضافة إلى ثقافة الشعراء الاسلامية الواسعة .

كـــل هذه العوامل لابدّ من أن تنعكس على الشعر ،فقد أضفى الشعراء الطابع الديني على قصائدهم ، وتغنوا بأمجاد الاسلام ،وأسبغوا على ممدوحهم صفات اسلامية أظهرته بمظهر البطل المسلم .

من ذلك تشبيه العماد انتصارات نور الدين وقادته بانتصارات الرسول - عليه السلام - ويبدو متأثرًا بحديث الرّسول (صلى الله عليه وسلم) : " نُصـــرتُ بالرُّعـــب "(١).

وأنت من وقعتٌ في الكفر هيبته ... وفي ذويه وقوعَ النّار في الحَطَب
وحين سِرْتَ إلى الكفار فانهزموا ... نُصرْتَ نَصْرَ رسولِ الله بالرّعـــبِ(٢)

ويشبه العماد نقض شاور للعهد الذي قطعه مع نور الدين وأسد الديـــن بنقض قريظة والنضير للعهد الذي عاهدتا عليه المسلمين ،يقول :

شارك المشركين بغيًا وقد ســـا ... شاركتها قريظةُ والنضيـــر(٣)

ومن الجدير بالقول أنّ الشاعر يشير إلى الأحداث التاريخية ويستلهم منها ما يناسب الموضوع الذي يتحدث عنه ، وهنا شبه نقض شاور عهده مع نور الديـــن بنقض قريظة والنضير عهدهما مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وبرز الأثر الاسلامي بشكل واضح في مدائح الشعراء لنور الدين ،فهو يزيل الظلم ،ويغضب للاسلام ويعزه ،ويحمي الدين ،ويهين الشرك ،ويحيـــي الشريعة ،وينشر الحق ، ويطيع الله ويشكره ،ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ...وما إلى ذلك . ومن الأمثلة على ذلك ما قاله ابن منير حين وصفه بأنـــه

---

(١) صحيح البخاري١/١١٣ .
(٢) ديوان العماد/٨١ ، كتاب الروضتين ١/٤٠٤ .
(٣) ديوان العماد/١٨١، وكتاب الروضتين ١/٣٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يزيل الظلم ويغضب للاسلام :

ومحا المظالمَ مِنْكَ نظرةُ راحمٍ للّه في خطراته أسرارُ
غضبانُ للإسلام مال عمودُهُ فلنوزه مما عراه نُوار (١)

وذكر ابن منير أيضًا أن نور الدين يعزز دين الله ،ويحيي شريعته ، فقال :

ألبست دين محمدٍ يا نوره عزًا له فوق السماء إساد (٢)

وقال :

محيي شريعته من بعد ما انهدمت
واستعجمت بعد إفصاح معانيها (٣)

وإضافة إلى إعزاز نور الدينِ الدينَ فانه يهين الشرك ، يقول ابن قسيم الحموي :

والدين يشهد إنّه لمعزّه والشرك يعلم أنّه لمهينه (٤)

وهو عند ابن القيسراني زاهد ،تقي ،ناسك ،شجاع ،يحمي الدين ،ويحارب البدع ،ويستخدم الشاعر في تصويره بعض المصطلحات الصوفية ،يقول :

يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التّقى أزهد زُهّادها
فأنت نسكًا غيث أبدالها وأنت فتكًا ليث آسادها
في أمةٍ أنت حمى دينها حينًا وحينًا شمس عبّادها
يطوي بك العمرُ إلى غايةٍ حسبُك تقوى الله من زادها
هذا وكم من سنّةٍ بِدْعةٍ أعدْمتها من بعد إيجادها (٥)

وعند العماد الأصفهاني يحفظ الشريعة الاسلامية الغراء ويدافع عنها ، يقول :

والملّة الغرّاء خالٍ بالها عال سناها بك حالٍ جيدها
مغترة ثغورها ممنوعة ثغورها محفوظة حدودها (٦)

وفي قصائد الشعراء نجد الكثير من المعاني والألفاظ التي تتصل بالعقيدة الإسلامية وترتبط بها ارتباطاً وثيقًا ،ومنها : ذكر العبادة والخضوع ، وشكر الله والاستغفار وطاعة الله ،والصلاة والدّعاء وما إلى ذلك .

ومن الأمثلة على ذلك :قول ابن منير في مدح نور الدين :

إذا ما خدمت فمولى كريمًا وإما عبدت فعبدًا شكورا
امام المحاريب برًّا حصورًا (٧) وتحت الحروب هزبرًا هصورا (٨)

---

(١) ديوان ابن منير/ ١٩١ ،وشعر ابن منير/ ٨٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٤ .
(٢) ديوان ابن منير/ ٢٦٢ ، وشعر ابن منير/ ٧٠،والباهر/ ١٠٩ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٥٤ .
(٣) ديوان ابن منير/ ٢٥٤ ،وشعر ابن منير/ ٢٠٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٣١ .
(٤) كتاب الروضتين ١/ ٥٨ .
(٥) كتاب الروضتين ١/ ٢٠٩ .
(٦) ديوان العماد/ ١٤٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٧ .
(٧) حصورا : الحصر المسك والمنع ،والحصور المحبوس الذي يحبس نفسه في المسكن والذي لا إربة له بالنساء ، (لسان العرب: حصر) .
(٨) ديوان ابن منير/ ١٩٣ ،وشعر ابن منير/ ١٠٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٥ .
هصورا : يكسر ويميل ،والهصر الكسر (لسان العرب : هصر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذكر العماد الأصفهاني طاعة الله والاذعان له ، وعمل الخير عندما يمدح نور الدين قائلا :

يا من أطاع الله في خلواته متأوباً من خوفه متأوها
أبداً تقدم في المعاش لوجهه عملاً يبيّض في المعاد الأوجها (١)

وقال من قصيدة اخرى :

أذعنت لله المهيمن إذْ عَنَتْ لك أوجه الأملاك بالإذعان (٢)

وبرزت المعاني الدينية لطبيعة الصراع الذى استلزم أن يحشد الشعراء كثيراً من هذه المعاني ،لذا نجد الروح الاسلامية صفة بارزة في شعر الشعراء ويتولد في أشعارهم شعور الانتماء إلى الأمة الاسلامية .

ونجد الشعر يصدر في أفكاره وعواطفه عما ورثه المسلمون من التقاليد والمبادىء الاسلامية .

فمن المعاني الاسلامية في شعر المديح : الإيمان الراسخ بأنّ الله ينصر اولياءه المؤمنين ويؤيّدهم بقوة من عنده ، والنصر من الله معنى نجده يتردد منذ صدر الاسلام . قال ابن أسعد الموصلي في مدح نور الدين :

والله عونك فيما أنت مزمعُهُ كما أعانك في أيّامك الأول (٣)

وقال العماد الأصفهاني :

مؤيد أموره بعزمة من السموات العلا تأييدها
قد جاءكم نور من الله فمن به اهتدى فانه رشيدها (٤)

وقال من قصيدة اخرى :

لم تلقهم ثقةً بقوّة شَوْكةٍ لكنّ وَثِقْتَ بنُصرة الرّحمن (٥)

وقال طلائع بن رزيك في الصلح بين نور الدين وقليج أرسلان :

تعالَوا لعلَّ اللهَ ينْصُرُ دينَهُ إذا ما نصرنا الدينَ نحنُ وأنتُمُ (٦)

وفي أبيات العماد وطلائع بن رزيك إشارة لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم) (٧) .

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٣٨١ ،والأبيات غير مذكورة في ديوان العماد ، وغير مذكورة في الخريدة .
(٢) ديوان العماد / ٤١٧ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٩ .
(٣) ديوان ابن الدهان/ ٧٦ ،وكتاب الروضتين/ ١/ ٣٢٢ .
(٤) ديوان العماد / ١٤٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٧ .
(٥) ديوان العماد / ٤١٧ ،والخريدة ،قسم شعراء الشام ١/ ٦١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٩ .
(٦) ديوان طلائع بن رزيك / ١٣٣ .
(٧) سورة محمد آية: ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمسلم يغضب لدين الله طلبا لمرضاته ،والله سبحانه يثيبه على عمله الخالص لوجهه الكريم ،قال العماد :

وما غضبتَ لدين الله منتقمًا إلا لنيل رضا الرّحمن بالغَضَبِ
لما سعيْت لوجه الله مرتقبا ثوابه نلت عفوًا كل مرتقب (١)

ومن المبادئ الإسلامية ،الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعماد الأصفهاني وصف نور الدين بأنه يأمر بما أمر به الله وينهى عما نهى عنه ، فيقول :

وبما به أمر الإله أمرتهم من طاعة ونهيتهم عمّا نهى (٢)

وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى : (الذين إنْ مكّناهُم في الأرض أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاة ،وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، ولله عاقبةُ الأمور) (٣) ، وإلى قوله تعالى : (ولتكنْ منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ،وأولئك هُمُ المفلحون) (٤) .

ومن المعاني الدينية أيضًا ، الإيمان بقضاء الله وقدره ،والتسليم لحكم الله تعالى ، والتوكل عليه .

قال ابن أسعد الموصلي من قصيدة له مدح فيها نور الدين ،واعتذر عن هزيمة المسلمين :

واستيقظوا وأراد الله غفْلتَكُمْ لينفُذَ القَدَرُ المحتومُ في الأزل

ومنها أيضا :

يزداد قُدمًا إليهم من تيقنه أن التأخر لا يحمي من الأجل (٥)

وقال الملك الصالح طلائع بن رزيك من رسالة شعرية بعث بها إلى أسامة بن منقذ يحث فيها نور الدين على التجهز لقتال الفرنج :

وإذا أبى إلاّ اطرا حًا للنصيحة واعتزالا
عدنا بتسليم الأمو ر لحُكم خالقنا تعالى (٦)

ونجد في بعض الأبيات المعاني القرآنية واضحة ، مما يدل على صدور الشعراء عن ثقافة قرآنية ، فالشعراء يلجأون إلى تضمين قصائدهم الآيات القرآنية ، وقد يكون هذا التضمين كليًا : وهو ذكر الآية بجملتها ، وقد يكون جزئيًا :

---

(١) ديوان العماد / ٨١ ،وكتاب الروضتين ١ / ٤٠٤ .
(٢) نفسه ١ / ٣٨٢ ،والبيت غير مذكور في ديوان العماد والخريدة .
(٣) سورة الحج ،آية : ٤١ .
(٤) سورة آل عمران ،آية : ١٠٤ .
(٥) انظر ديوان ابن الدهان / ٧١-٧٦ ،والروضتين ١ / ٣٢٠-٣٢١ .
(٦) ديوان طلائع بن رزيك / ١٢٦ ، وديوان أسامة / ٢١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو أن يدرج الشاعر بعض الآية في ضمن الكلام ، فيكون جزءًا منه "(١) .

والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها قول ابن القيسراني :

كأنّي بهذا العزم لا فلّ حدّه وأقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر (٢)

لعل الشاعر يبدو في هذا البيت متأثرًا بقوله تعالى : (وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضي الامر ، وهم في غفلةٍ وهم لا يؤمنون) (٣) وبقوله تعالى : (وقيل: يا أرض ، ابلعي ماءك ،ويا سماء أقلعي ،وغيض الماء ، وقضي الأمر ،واستوت على الجودي ،وقيل بُعدًا للقوم الظالمين) (٤) .

وقال ابن منير :

تصبّ عصاكَ على من عصا كَ يومًا عبوسًا بها قَمْطَريرا (٥)

والشاعر ضمّن شعره جزءًا من قوله تعالى : (إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قَمْطَريرا "(٦) .

وتأثر العماد الأصفهاني في قوله :

فصبوا على الافرنج سوط عذابها بأن تَقْسموا ما بينها القتلَ والأسرا(٧)

بالآية الكريمة : (فصبَّ عليهم ربُّك سوط عذاب) (٨) .

وقال العماد أيضا :

فاشكر الله حين أولاك نصرًا فهو نعم المولى ونعم النصير(٩)

ونلاحظ هنا أن الشاعر أخذ الشطر الثاني من بيته من الآية الكريمة : (واعتصموا بالله مولاكم ،فنعم المولى ونعم النصير) (١٠) .

ويتضح من ذلك تمثّل الشعراء للقرآن الكريم وصدورهم عنه في كثير من الفاظهم وتعبيراتهم .

---

(١) المثل السائر ٢/ ٣٤١ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ١٨٧ .
(٣) مريم : ٣٩ .
(٤) هود : ٤٤ .
(٥) ديوان ابن منير / ١٩٢ ،وشعر ابن منير/ ١٠٢ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٥ .
(٦) الدهر : ١٠ . قمطريرا : شديد العبوس ،انظر المعجم الوسيط: قمطر وانظر : (Dozy,Supp.Dict.Tome II,P.406 .
(٧) ديوان العماد / ١٦١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٤٥٤ .
(٨) الفجر : ١٣ .
(٩) ديوان العماد / ١٨٢ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٣ .
(١٠) الحج : ٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقارئ للشعر الذي قيل في نور الدين يجد فيه حشداً من الألفاظ الدينية الواردة في معظم القصائد ، فمنها ما يرتبط بالعقيدة والتعاليم الاسلامية - وقد تقدم ذكر بعضها أثناء الحديث عن تأثر الشعراء بالقرآن الكريم وتمثلهم له - ولهذه الألفاظ دلالة دينية ،وهي الارتباط بالعقيدة الاسلامية والاعتزاز بالاسلام ،وهي توحي بالصراع العقدي بين المسلمين والصليبيين ، وهي مظهر من مظاهر اعتزاز الشاعر بدينه .

واكثار الشاعر من ذكر الألفاظ الاسلامية ،لاسيّما في شعر الجهاد يكسب هذا الشعر قوة ، ويولد عند المسلمين الغيرة على حرماتهم ومقدساتهم ، وينفث في نفوسهم روح الحماس للدفاع عنها والمحافظة عليها .

ونسوق بعضاً من هذه الألفاظ على سبيل التمثيل - فمن الألفاظ الاسلامية إضافة إلى ما تقدم ،لفظة المحراب ،ونجدها في قول ابن منير :

أمام المحاريب بَرّاً حصوراً وتحت الحروب هِزَبْراً هَصُورا (١)

وورد لفظتا المنبر والمصحف في قول ابن القيسراني :

ولا منبرٌ إلاّ ترنّح عودُه ولا مصحف الا أنار مداده (٢)

وورد في شعر ابن منير الألفاظ : هلل وكبر ،والجنة والكوثر ، يقول :

فأصبح الشادي إذا ثوّب الدّ اعي (٣)له هللأو كبرا
كأنما ساحته جنة أجرت بها راحته كوثرا (٤)

وورد لفظة الكعبة في قوله :

بنيت لوفد المنى كعبة تجير المعلّق أستارُها (٥)

ولفظة القبة في قوله :

وطالت قبّةُ الإسلام حتى اس ـتوت بين الفوارس والنعام (٦)

وورد الفاظ الرحمن والثقلان والمهيمن ، والوحي وسور وقرآن ، في قول العماد الأصفهاني من قصيدة له في نور الدين :

لم تلقهم ثقة بقوة شوكة لكن وثقت بنصرة الرحمن
مازال عزمك مستقلا بالذي لا يستقل بثقله الثقلان
أذعنت لله المهيمن إذْ عَنَتْ لك أوجه الأملاك بالإذعان
سيّر لو انّ الوحي ينزل أنزلت في شأنها سورٌ من القرآن (٧)

---

(١) ديوان ابن منير/ ١٩٣ ،وشعر ابن منير/ ١٠٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٥ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٩٨ .
(٣) ثوّب الداعي له تثويبا : إذا عاد مرة بعد أخرى (لسان العرب :ثوب) .
(٤) ديوان ابن منير/ ٢٠٧ ،وشعر ابن منير/ ٩٦ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٤٨ .
(٥) ديوان ابن منير/ ٢٢٨ ، وشعر ابن منير/ ١٢٧ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٩٤ .
(٦) ديوان ابن منير/ ٢٦٥ ،وشعر ابن منير/ ١٧٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٥٧ .
(٧) ديوان العماد / ٤١٧-٤١٨ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٦١-٦٢ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٩-٥٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووردت في شعر أسامة الفاظ : القدس المطهر ، ويطى باذن الله ، والصخرة ، والذكر ، حين يقول :

ونرتجع القدس المطهّر منهـُـمُ ويُطى بإذن اللّه في الصخرة الذكرُ (١)

ومن الألفاظ ما يتعلق بالصليبيين وعباداتهم وعقائدهم ويتفق والتوجيهات الإسلامية . وغالبا ما يأتي الشاعر بالألفاظ الصليبية التي لها ارتباط بمعتقداتهم ، فيسخر منهم ومن معتقداتهم ، ويبين عدم صحتها ، ويصفهم بالشرك والكفر ، ويثير بذلك حفيظة المسلمين ،وتوحي هذه الألفاظ أيضا ، بالصراع العقدي بين المسلمين والصليبيين ، ومن أمثلتها :

لفظة الصليب ، وهذه تكررت في كثير من القصائد ،ومنها ما قاله ابن منير :

وهوى الصليب وحزبه وتبختر الـ إسلام من بعد التساقف أعيدا (٢)

وعبر الشعراء عن الصليبيين أو الفرنج ،بأهل الشرك والكفر ،قال ابن القيسراني :

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا من الملوك فنور الدين محتَسِب (٣)

ويقول ابن منير :

واعجبًا لعُصب الشّرك التي لم يعصب الرشد على أحلامها (٤)

ويقول العماد أيضًا :

في ذلّ ذوي الكفر يكون العزُّ والقدرةُ في غير جهادٍ عجزُ (٥)

وقال أيضا في نور الدّين :

سرت لتقطع ما للكفر من سببٍ واهٍ ،وتوصل ما للدين من رحم (٦)

ووردت لفظتا الصليب والناقوس في شعر ابن منير ،حيث يقول :

وكم عبر الصليب بهم صليبًا فردّته قناك وفين ليمن

وما خطرت بدار الشرك الا هوى الناقوس وارتفع الأذين (٧)

وفي شعره أيضًا ،وردت لفظة الكنائس ، حين يقول :

ردّ الكنائس كُشّا للهُدى فَخَبتْ نارُ الضّلال ووارتها أثافيها (٨)

وذكر الملك الصالح طلائع بن رزيك بعض الالفاظ التي لها علاقة بالصليبيين في رسالة شعرية بعث بها إلى أسامة بن منقذ منها: الخنازير ، والخمر والناقوس ،والصليب ، والمسيح ،والاله المصلوب ،يقول في حديثه عن بيت المقدس :

---

(١) ديوان أسامة/ ٢٠٤ .
(٢) ديوان ابن منير/ ١٩١ ،وشعر ابن منير/ ٧٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٣ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ١٥٤ .
(٤) ديوان ابن منير/ ٢٣٥ ،وشعر ابن منير/ ١٧٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٠٤ .
(٥) ديوان العماد / ٢٢٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٨ .
(٦) ديوان العماد / ٣٨١ ،وكتاب الروضتين ١/ ٤٤٤ .
(٧) ديوان ابن منير/ ٢٣٧ ،وشعر ابن منير/ ١٨٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٠٦ .
(٨) ديوان ابن منير/ ٢٥٤،وشعر ابن منير/ ٢٠٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَزَلَتْ وسطه الخنازيرُ والخمـ ... ـرُ وبارى الناقوسَ فيها الصليبُ
لو رآه المسيحُ لم يرض فعلاً ... ذكروا أنه له منسوب
أبعد الناس عن عبادة ربّ النّـ ... ـاس قومٌ إليهم مصلوبُ (١)

والفكرة السائدة في الصراع بين المسلمين والصليبيين هي الفكرة الدينية ، فالخطر يتمثل في أن الدين انتهكت حرماته ، وأن الاذان سيحل محله الناقوس ، والقرآن سيحل محله الانجيل ، وبهذا صدرت معاني الشعراء (٢) .

والعدو استهدف الاماكن المقدسة،واضطهد المسلمين ، لهذا جاء الشعر رد فعل للاضطهاد الديني .

وكما يبدو من خلال القصائد،فقد زاد الصراع العقدي من روح الحماس والإثارة .

وحاول الشعراء استغلال هذا الصراع لاثارة الحماس في نفوس المقاتلين المسلمين لقتال أعداء الدين ، وكان للكلمة دورها الجهادي .

ومن استقصائنا للقصائد ، نلاحظ أن العاطفة الدينية تبرز في الشعر الذي يصور الصراع بين المسلمين والصليبيين بشكل واضح ، وهذه العواطف تكسب القصائد مزيدًا من الاثارة ، .

وتتميّز هذه العواطف بصدقها لأن الشاعر ينقل لنا تفاعله مع الأحداث ، ويجعلنا نعيش معه في جو هذه الأحداث ،وتعلق الإنسان المسلم بدينه يبث في نفسه الاعتزاز والافتخار بهذا الدين ، فيشعر بالقوة والعزة ، ويعبر الشعراء في قصائدهم عما يختلج في نفوسهم من بغض للأعداء ، ورغبة ملحة في طردهم من بلاد المسلمين .

ويعبر الشعراء أيضا عن إعجابهم بالقائد ، ويضعون أملهم فيه لطرد العدو ، ويعبر الشعراء عن عواطف الفرح والسرور عند النصر ، وتشتد العواطف وتكون قوية متدفقة في مواقف التحدي والتحريض على الجهاد للقضاء على الغزاة .

---

(١) ديوان أسامة ١/ ١٦٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٦٧ .
(٢) انظر معارك نور الدين / ٢٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النزعة الاتباعية

لقد أشار النقاد إلى أنه لا غنى للاحق من الشعراء عن اتباع السابق والتأثر به ، ومن هؤلاء أبو هلال العسكري ، حيث يقول : " ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني من تقدمهم والصبّ على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حليتها الأولى ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها .

وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه بلفظه كله أو اخذه فأفسده وقصر فيه عمّن تقدمه "(١) .

ويرى أن قبح الأخذ يكون بأن تعمد الى المعنى فتتناوله بلفظه كله أو اكثره (٢) .

وحسن الاتباع يكون بأن يأتي المتكلم إلى معنى قد اخترعه غيره فيتبعه فيه اتباعا يوجب له استحقاقه ، إما باختصار لفظه ، أو قصر وزنه ، أو عذوبة نظمه ، أو سهولة سبكه ، أو إيضاح معناه ، أو تتميم نقصه ، أو تحليته بما توجبه الصناعة ، أو بغير ذلك من وجوه الاستحقاقات (٣) .

ولعل النزعة الاتباعية من الظواهر التي تستحق التأمل ، فقد اتصل الشعراء بتراث الأمة الشعري الحافل بالروائع الخالدة ، فرأوا أنّ محاكاة الشعر القديم أصالة في إيمانهم ، ودلالة ذات قيمة على التصاق عميق بالروح الاسلامية (٤) .

واتخذ تيار التأثر والتقليد سبلاً متشعبة ، فمن الشعراء من حذا حذو القدماء في الأساليب والمعاني ،وبعضهم جارى الشعراء السابقين في مذاهبهم في الصنعة والبديع،وآخرون عارضوهم في قصائدهم فاختاروا بحر القصيدة وقافيتها ونظموا على منوالها .

---

(١) كتاب الصناعتين / ١٩٦-١٩٧ ، وصبح الأعشى ٢ / ٢٨٨ .
(٢) الصناعتين / ٢٢٩ .
(٣) نهاية الأرب ٧ / ١٦٦ .
(٤) انظر معارك نور الدين / ٢٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتأثر شعراؤنا بالشعراء السابقين ولا سيما شعراء العصر العباسي ممن قالوا في المعارك والحماسة ، واشهرهم : المتنبي وابو تمام والبحتري وغيرهم ، واتخذوهم مثلاً أعلى خاصة في شعر المدح وشعر الحرب ، مع الاحتفاظ بذاتيتهم الخاصة في بعض الصور الفنية .

ويذهب الدكتور محمود إبراهيم - في معرض حديثه عن ظاهرة تأثر ابن القيسراني بالشعر الحماسي ، ولا سيما شعر أبي الطيب المتنبي وشعر ابي تمام - إلى أن النزعة الاتباعية هي مفتاح تعرُّف خصائص هذا الشعر الفنية ، ويرى أن هذه التبعية " لم تكن تبعية عفوية نتجت عن إلفة طويلة للشاعر بهذا الشعر الحماسي الموروث ، بل كانت تبعية واعية مقصودة ، وهي لم تقتصر على التأثر بالجو العام لقصائد المتنبي ، بل تجاوزت ذلك إلى تفصيلات توحي باقتباس متعمد مدروس للصور والأخيلة والتراكيب والألفاظ والموسيقى "(١) .

وبعد أن تناول هذه الظاهرة بشيء من التفصيل ، خلص إلى " ان " النزعة الاتباعية سمة واضحة من سمات شعر هذه الفترة ، بل لعلّها أخص سماته "(٢) .

تأثر شعراء نور الدين بمن سبقهم من الشعراء في مجال الصنعة والبديع ، ولا سيّما تأثرهم بأبي تمام - وان لم يذهبوا إلى مثل ما ذهب إليه من ابهام وتعقيد - وسنتحدث عن هذه الظاهرة - فيما بعد - عند حديثنا عن الفنون البديعية .

أما الظاهرة الأخرى فهي ان ينسج الشعراء بعض قصائدهم على منوال قصائد سابقة ، فيقلدوا من سبقهم في موضوع القصيدة ووزنها ، وذلك لتشابه الأحوال والظروف . فحروب المسلمين مع الصليبيين تشبه إلى حدٍّ كبير حروبهم مع الروم ، إضافة إلى قرب العهد بالعصر العباسي ، ولكون المتنبي وابي تمام قد وصفا حروب المسلمين مع الروم ، واعجب الشعراء بقصائدهما وتأثروا بها .

وعلى سبيل المثال ، فقد تأثر ابن أسعد الموصلي في قوله :

ظبى المواضي واطراف القنا الذُّبُل
ضوامنٌ لك ما حازوه من نَغَل (٣)

بالمتنبي في قوله :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدعُ إنْ قاتلوا جَبُنوا او حدّثوا شَجُعوا(٤)

فقد مدح ابن أسعد الموصلي نور الدين وأصحابه واعتذر عنهم بعد هزيمتهم في حادثة (تحت حصن الأكراد) سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة .

---

(١) انظر صدى الغزو الصليبي / ١٧٢ وما بعدها .
(٢) نفسه / ١٨٨ .
(٣) انظر القصيدة في ديوان ابن الدهان / ٧٠ ، والروضتين ١ / ٣٢٠-٣٢٢ .
(٤) انظر القصيدة في شرح ديوان المتنبي ٢ / ٣٣٠-٣٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومدح المتنبي سيف الدولة وذكر الوقعة التي نكب فيها المسلمون سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة. وقد اشار أبو شامة إلى أن ابن أسعد الموصلي حاول في قصيدته ما حاوله المتنبي في قصيدته ، فإن كلّ واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون ،وقد أحسنا معًا (١) .

ومن مظاهر تأثر ابن أسعد بالمتنبي إضافة إلى تقليده في الموضوع، تقليده في الوزن : فقد نسج المتنبي قصيدته على وزن البحر البسيط ، ونظم ابن أسعد قصيدته في نفس الوزن . وأسقط المتنبي المقدمة الغزلية من قصيدته وافتتحها بمقدمة موحية بطبيعة الموضوع ،وفعل ابن اسعد مثل ذلك .

وقد استغنى المتنبي عن وصف الهزيمة واكتفى بالاعتراف بها في شيء من الاجمال ، يقول :

قل للدمستق إن المسلمين لكمْ خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا
وجدتموهم نيامًا في دمائكم كأن قتلاكم إياهم فجعوا
ضعفى تعف الأيادي عن مثالهم من الأعادي وإن همُوا بهم فزعوا

واعترف ابن أسعد الموصلي بنتيجة المعركة المماثلة ولم يفصل فيها ،واكتفى بالإشارة إلى الهزيمة التي كانت بسبب غفلة المسلمين وخداع الصليبيين ومكرهم ، يقول :

وما يعيبك ما حازوه من سلب بالختل قد توسر الآساد بالحيل
وإنما اخلدوا جُبْنًا إلى خدع إذْ لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأرادَ الله غفلتكم لينفذ القدر المحتوم في الأزل

ويعترف المتنبي بأن الروم قد أسروا جماعة من المسلمين ، ولكنهم لم يأسروا أحدًا ذا بأس ، وأسروا جماعة من الموتى وأشباه الموتى من ضعاف النفوس ، والروم كالضباع التي لا تنعم الا بأكل الموتى ، يقول :

لا تحسبوا مَنْ أسرتم كان ذا رمقٍ فليس يأكل الا الميّتَ الضَّبُعُ

ويعترف ابن أسعد بأن الصليبيين أسروا جماعة من المسلمين ، ولكنهم من الاتباع وأراذل الناس ، فهم لم يأسروا احدا ذا بأس ، يقول :

وما رجعتم بأسرى خاب سَعْيُكُمُ غير الأراذل والأتباع والسَّفَلِ

ومدح المتنبي بطله وذكر فضائله ، يقول :

يعسي الكرام على آثار غيرهم وأنت تخلق ما يأتي وتبتدع

ومدح ابن اسعد نور الدين وذكر بعض فضائله وصفاته ومنها :

ملك بعيدٌ من الأدناس ذو كلف بالصّدق في القول والإخلاص في العمل

---

(١) انظر الروضتين ١/ ٣٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلى جانب اعتذار المتنبي عن الهزيمة نجده يهدد الأعداء ويتوعدهم بقوله :

الدهر معتذرٌ والسيف منتظرٌ وأرضهمْ لك مصطافٌ ومرتبعُ

ونجد ابن أسعد الموصلي يعتذر عن هزيمة نور الدين وأصحابه ويهدد الأعداء بقوله :

جيش اصابتهم عين الكمال وما يخلو من العين الا غير مكتمل
سيقتضيكم بضربٍ عند أهونه البيض كالبيض والأدراع كالحلل

ويضاف إلى ما تقدم تأثر ابن أسعد الموصلي بالمتنبي في قصيدته من حيث الصور والاخيلة ، والتراكيب ، والألفاظ .

ومن مظاهر التأثر عند الشعراء ، تقليد من سبقهم في افتتاح بعض قصائد المدح بالمقدمات الغزلية ، وفي الابتعاد عن هذه المقدمات في معظم قصائدهم في الجهاد ،وقد قدمنا الحديث في ذلك عندما تحدثنا عن مقدمة القصيدة .

وكان تأثر شعرائنا بالشعراء السابقين من حيث الصور والتشبيهات والمعاني تأثرا مباشرًا ،ولو أردت استعراض الصور التي وردت في شعر شعراء نور الدين ومقارنتها بالصور المعروفة عند الشعراء السابقين لطال بي المقام ، ولكنني سأورد بعضًا منها على سبيل المثال :

فقد عرض ابن القيسراني صورة نور الدين القائد العسكري العظيم الذي يكون بمثابة الجيش الكامل من نفسه عند مسيره إلى الاعداء ، فيقول :

إذا سار نور الدين في عزماته فقولا لليل الافك قد طلع الفجرُ
ولو لم يسرْ في عسكرٍ من جنوده لكان له من نفسه عسكرٌ مجرُ (١)

وهذه الصورة قديمة الفيناها تعند ابي تمام في قوله ، مادحا المعتصم :

لو لم يقدْ جحفلاً يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفلٍ لجبِ (٢)

---

(١) كتاب الروضتين ١ / ١٨٧ .
(٢) ديوان ابي تمام / ١ / ٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعرض الشعراء لصورة الجيش حين يزحف نحو الأعداء ، فإذا بالغبار الذي تثيره حوافر الخيول يرتفع فوق الرؤوس ويحجب عن الجند الضوء ، فتنوب عنه الأسلحة اللامعة ، فيكون لمعانها كالبرق في جوانب الظلام ، يقول ابن القيسراني :

في عسكر يخفي كواكب ليله نقعاً فيطلعها القنا الخطّار (١)

ويقول أيضا :

والنقعُ فوق صقال البيض منعقدٌ كما استقلّ دخانٌ تحته لَهَبُ (٢)

وقال العماد الاصفهاني :

وكأن بين النقع لمعُ حديدها نارٌ تألّق من خلال دخان (٣)

وهذه ايضا ، صورة مألوفة ساقها بشار ابن برد في قوله :

كأن مُثار النقع فوق رؤوسهم واسيافُنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ (٤)

وعرض ابن القيسراني لصورة الجنود وانقضاضهم على الأعداء في قصيدة مدح فيها نور الدين ، يقول :

وجندٌ كالصُّقور على صقورٍ إذا انقضّوا على الأبطال صادوا (٥)

وهذه الصورة مألوفة ، فهي عند البحتري في قوله من قصيدة له مدح بها المعتز بالله :

كأنّ النّسور الواقعات عشيّةً على نَقَدٍ ، حول الجمار مُذَبَّح (٦)

وهي ايضا عند المتنبي ، وقد قالها في جيش سيف الدولة :

فكانوا الأُسد ليس لها مصالٌ على طيرٍ وليس لها مطارُ (٧)

وعرض أسامة بن منقذ للصورة التي يخرج فيها المسلمون لمحاربة الأعداء ، وقد اظلتهم الطيور ، ثقة بما ستنال من لحوم الاعداء ، وعلامة من علامات النصر ، في قوله :

نسير إلى الأعداء والطير فوقنا لها القوت من أعدائنا ولنا النصر (٨)

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٧٤ .

(٢) نفسه ١/ ١٥٣ .

(٣) ديوان العماد / ٤١٢ ، والخريدة ، قسم الشام ١/ ٥٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٩ .

(٤) ديوان بشار بن برد ١/ ٣٣٥ .

(٥) كتاب الروضتين ١/ ١٤٦ .

(٦) ديوان البحتري ٢/ ٢٦٠ ، ونقد : صغار الغنم (انظر لسان العرب : نقد) .

(٧) شرح ديوان المتنبي ٢/ ٢١٠ ، ومصال : من صالت تصول .

(٨) ديوان أسامة / ٢٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الصورة مألوفة منذ الجاهلية ،فهي عند النابغة في قوله مادحًا عمرو بن الحارث :

إذا ما غزَوا بالجيش حلّق فوقهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائب
يصانعنهمْ حتى يُغرْنَ مُغارهمْ من الضارياتِ بالدِّماءِ الدوارِبِ(١)

ومن مظاهر شغف هؤلاء الشعراء بالقديم معارضتهم بعض القصائد وتأثرهم بروحها ، وبإطارها العام ، ونسجهم على منوالها ، على الرغم من اختلاف الألفاظ والمعاني .

ومن أكثر القصائد التي عارضها شعراء هذه الفترة ، بائية أبي تمام في مدح المعتصم وفتح عمورية ، التي مطلعها :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدِّ واللعب(٢)

فقد عارضها ابن القيسراني بمبائيته التي مطلعها :

هذي العزائم لا ما تدّعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب(٣)

وعارضها العماد ببائيته التي مطلعها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جُنيت من دوحة التعب(٤)

وعارض طلائع بن رزيك في قصيدته التي مطلعها :

الا هكذا في الله تمضي العزائم وتُنضى لدى الحرب السيوف الصوارم(٥)

المتنبي في قصيدته التي قالها يمدح سيف الدولة ومطلعها :

على قدْر أهل العزم تأتي العزائمُ
وتأتي على قدْر الكرام المكارمُ(٦)

---

(١) ديوان النابغة / ٤٦ .
(٢) ديوان أبي تمام ١/ ٤٥ .
(٣) الكامل ١١/ ١٤٥ ، وكتاب الروضتين ١/ ١٥٢ .
(٤) ديوان العماد / ٧٩ ، وكتاب الروضتين ٢/ ٤٠٣ .
(٥) ديوان ابن رزيك / ١٣٥ .
(٦) ديوان المتنبي ٤/ ٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذهب الشعراء إلى أكثر من ذلك في تأثرهم ، حيث انهم ضمّنوا أقوالهم بعض معاني القدماء كما فعل العماد في قوله :

وهزمتهمْ بالرّأي قبل لقائهمْ والرأيُ قبل شجاعة الشجعان (١)

مضمنا بذلك قول المتنبي :

الرأي قبل شجاعةِ الشّجعان هو أوّلٌ وهيَ المحلُّ الثاني (٢)

وتأثر شعراء نور الدين بالشعراء السابقين ، فيه محافظة على شخصية الشعر العربي وفيه ربط للحاضر بالماضي، وبعث للنماذج الشعرية السالفة ، وتخليدها في قوالب جديدة .

ومع تأثر شعراء نور الدين بالشعراء السابقين إلا أنه كانت لهم شخصيتهم وابداعهم في بعض الصور الشعرية ، واذا كان الإبداع كما يقول ابن رشيق : " إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف ،والذي لم تجر العادة بمثله "(٣) ،

فقد وجدت في شعر هؤلاء الشعراء تعبيرات مشرقة مستظرفة ، تنبض بالحياة ، ومنها ما قاله ابن القيسراني من قصيدة مدح فيها نور الدين ، وذكر مقتل البرنس وأسر جوسلين ،حيث أتى بمعنى طريف عندما صور خيل نور الدين :

فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى
وأصدرتها والبيضُ من عَلَقٍ (٤) حُمْرُ
وجلّلتها نقعًا أضاع شياتها
فلا شهبها شهب ولا شقرها شقر (٥)

رسم لنا الشاعر بكلماته صورة جميلة لخيول النصر ، بعد انتهاء المعركة واستخدم في رسم الصورة مزيجا من الألوان ،فعندما دخلت الخيل المعركة كان فيها الأشقر والأشهب ، وكانت خوذ فرسانها بيضاء ،وعندما انتهت المعركة اصبحت خوذ الفرسان حمراء لكثرة القتلى في صفوف الأعداء ،وأسدل غبار المعركة الكثيف ستارا على الوان الخيل فأضاعها فلا يعرف الأشهب من الأشقر .

ومن إبداع شعراء نور الدين شغفهم بالصورة المغزعة لرأس البرنس على الرمح ، وترددت هذه الصورة عند ابن القيسراني إذ يقول من إحدى قصائده :

عجبت للصّعدة السمراء مثمرة برأسه ،إن إثمار القنا عجب

---

(١) ديوان العماد / ٤١٣ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٥٦ ،وكتاب الروضتين ٢/ ٥٢٩ .

(٢) ديوان المتنبي ٤/ ٢٦٢ .

(٣) العمدة ١/ ٢٣٥ .

(٤) علق : دم (لسان العرب : علق) .

(٥) كتاب الروضتين ١/ ١٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها قوله :

إذا القناةُ ابتغت في رأسه نفقاً ... بدا لثعلبها من نحْره سَرَبُ(١)

وقوله من قصيدة اخرى :

وللإبرنس فوق الرّمح رأسٌ ... توسّدُ والسّنان له وسادُ
ترجل للسّلام فغرّسوه ... وليس سوى القناة له جوادُ
غضيض المقلتين ولا نعاسٌ ... وغائرها وليس به سُهادُ(٢)

وقال العماد الأصفهاني وقد صور مقتله بصورة فنية بديعة :

قمّصْتَ قُمْصَهُمُ رداءً من ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان (٣)

وأبدع المهذب بن الزبير عندما رسم لنا الصورة ذاتها وأضاف إليها اللون الأزرق وهو لون عيون الصليبي ، يقول ، وقد وصف قتل البرنس :

قتل البرْنسَ ومن عساه أعانه ... لما عتا في البغي والعدوان
وأرى البرّيّة حين عاد برأسه ... مُرَّ الجنى بيد وعلى المرّان
وتعجبوا من زرقةٍ في طرفه ... وكأن فوق الرّمح نصلاً ثاني (٤)

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٥٤ .
(٢) نفسه ١/ ١٤٦ - ١٤٧ .
(٣) ديوان العماد / ٤١١ ، والخريدة ، قسم الشام ١/ ٥٥ .
(٤) الخريدة ، قسم الشام ٣/ ٢١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصـــورة الشعريـــــة

أدّت الصورة الشعرية دورًا مهمًا في التعبير ، وهي صادرة عن خيال الشاعر ، وأداته في نقل أفكاره وأحاسيسه بشكل مؤثر .

والصورة الشعرية تحيي النص الشعري ،وتجلب انتباه القـــارئ ، وتنبع أهميتها من طريقتها الخاصة في تقديم المعنى وتأثيرها فـــي المتلقي (١) ، فهي تجسم المعاني وتنقلها الى درجة أرقى لتزداد قوة وجمالا (٢) .

وقد أبرز الشعراء صورة مثلى لنور الدين الحاكم المسلم والبطـــل الشجاع ، وتغنوا بانتصاراته ومجدوا بطولته ، ورسموا لوحات فنيـــة لمعاركه ، وصوروا أعداءه بصور فنية محسوسة ملموسة .

واعتمدوا فـي تصويرهم على التشخيص والتجسيم ، والوصف ، وضـروب علم البيان مثل : التشبيه والاستعارة .

فالشاعر في تشخيصه للمواد الجامدة والظواهر الطبيعية ، وأدوات الحرب والمدن ، يخلع عليها الحياة وينطقها ، والأمثلة على ذلـك كثيرة ومنها : تصوير ابن القيسراني عزاز وهي تناجي تل باشـــر ، وهو بذلك يخلع صفة المناجاة على المكانين ، وهذه الصفة خاصـــة بالأحياء ، حيث يقول :

تناجي عزاز باسمه تلَّ باشـــرٍ فيلعنه لعنُ الصّريخِ وسبُّـــهُ (٣)

وصور الثغور وكأنها حيوانات تجمح وتروض ، يقول :

ولشمرت عنها الثغور وأصبحت فيها العواصم وهي غير عواصـم
تلك التي جمحت على من راضها ودعوت فانقادت بغير شكائـم (٤)

وخلع ابن القيسراني أيضًا ، صفة الجنابة على السيف في قوله :

طهّرت أرض الاعادى من دمائهـمُ طهارةً كلُّ سيفٍ عندها جُنُبُ (٥)

وصوّر دمشق وكأنها فتاة حصان ذات دلال ،تتمنّع على من يطلبها :

وهل هي إلاّ كالحصان تَمَنَّعَـــتْ دلالاً وإنْ عزّ الحيا وغلا المهرُ (٦)

---

(١) انظر الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب/ ٣٢٨ .
(٢) انظر أصول النقد الادبي /٣٣ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ١٨٩ .
(٤) نفسه ١/ ٤٩ .
(٥) نفسه ١/ ١٥٣ .
(٦) نفسه ١/ ١٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الدنيا فهي عنده إنسان يفي بوعده ، يقول :

وفت لك الدّنيا بميعادها باذلةً أفلاذ أكبادها (١)

والسيوفُ رجال يؤدون ما عليهم من فروض ويوفون بعهودهم ونذورهم ، يقول :

وقد أدّت البيضُ الحدادُ فروضها فلا عهدةٌ في عُنْق سيفٍ ولا نَذْر (٢)

أما ابن منير فقد شبّه الأيام بانسان يسر ويضحك ،في قوله :

ضحكت لك الأيام واكتأب المدا قلقا فجئت مبشّراً ونذيرا (٣)

واعتمد الشعراء في تصويرهم على الوصف ، وهو : رسم الصورة بطريقة مباشرة مع الاحتفاظ بقدر ما من الإيحاء يمنح الحرفية المحتطة فيه (٤) .

ومن الأمثلة على ذلك وصفهم لمقتل البرنس بصور طريفة ،وقد تقدم الحديث عن هذه الصور وإبداع الشعراء فيها (٥) ، ومن أمثلتها الأخرى ما قاله ابن القيسراني في وصف مقتل برنس أنطاكية ، وقد رسم صورة جديدة لرأسه ، اعتمد فيها على الحركة السريعة ، يقول :

أتى رأسُهُ ركضًا وغودر شِلْوُهُ وليس سوى عافي النّسور له قبر (٦)

واستطاع العماد الأصفهاني ببراعة وصفه أن ينقل لنا صورةً حيةً من صور المعركة ،عندما وصف حال المسلمين مع الفرنج ، فقد سخر من الأعداء وقادتهم ،فطوكهم مكبلون بالقيود ،والخوذ الحربية ملونة بدمائهم ، وصور ما في جو المعركة من غبار ،وما يتخلل هذا الغبار من لمعان السيوف والرماح ،والصوت الصادر عن تصادم الأسلحة ، حيث يقول :

وملكت رقَّ ملوكهمْ وتركتهمْ بالذلّ في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهمْ أغلالهمْ وسحبتهم هونًا على الأذقان
إذْ في السّوابغ(٧) تحطم السُّمرُ القنا
والبيض تُخْضَبُ بالنجيع(٨) القاني

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٢٠٨ .
(٢) نفسه ١/ ١٨٧ .
(٣) ديوان ابن منير/ ٢٤٦ ،وشعر ابن منير/ ٩٩ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢١٧ .
(٤) الصورة الفنية في شعر ابي تمام/ ١٦٢ .
(٥) انظر الحديث عن النزعة الاتباعية في الباب الرابع من هذه الدراسة .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ١٨٦ .
(٧) السوابغ : مفردها سابغة وهي الدرع الواسعة (لسان العرب : سبغ) .
(٨) النجيع: الدم المصبوب (لسان العرب : نجع) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى غناء المشرفية في الطُّلى والهام رقْص عوامل المُـــرّان
وكأنّ بين النَّقْع لمعَ حديدِهـا نارٌ تألّقُ من خلال دُخـــان
غطى العجاجُ به نجومَ سمائِهِ لتنوب عنْها أنْجُم الخِرْصـــان (١)

فالشاعر رسم لنا بكلماته لوحة فنية جميلة نابضة بالحياة ، وجعلنـــا نعيش جو الأبيات ، فقد ارتبطت الصورة بما قبلها وما بعدها مـــن الصور برباط حيوي ، حتى أصبحت الأبيات بمثابة مجموعة من الصـــور الجزئية المترابطة التي كونت في مجموعها مشهدا متحركا .

واستخدم في تصوير المشهد : اللون ، والصوت ، والحركة ، فاللـــون في قوله : (تخضب بالنجيع القانـي) ، والصوت في قوله (تحطـــم السمر القنا) وفي قوله : (على غناء المشرفية) ، والحركة فـــي قوله : (وسحبتهم هُونًا على الأذقان)وفي قوله : (رقص عوامـــل المران) .

واستطاع الشاعر أن يبرز لنا بصوره الشعرية روعة المعاني ، ويصـــوغ الأفكار صياغة دقيقة .

واضافة إلى اعتماد الشعراء في تصويرهم على التشخيص والوصف ، فقد اعتمدوا بكثرة على ألوان البيان ومنها : التشبيه والاستعارة ، فالتشبيه يزيد المعنى وضوحًا ويكسبه فائدة (٢) ، والاستعارة تفعل في نفـــس السامع ما لا تفعل الحقيقة (٣) .

ومصادر الصور الشعرية التي تعتمد على التشبيه والاستعارة متعـــددة : فمنها ما هو مستمد من الطبيعة وعناصرها ، ومن الأمثلة على ذلك قول ابـــن منير مخاطبًا نور الدين :

تحرّقُ مَنْ عصاكَ وأنتَ ماءٌ وتُغرِقُ مَنْ رَجاكَ وأنْتَ نارُ (٤)

---

(١) ديوان العماد / ٤١١ - ٤١٢ ، والخريدة ، قسم الشام ١ / ٥٥ .
(٢) انظر الصناعتين / ٢٤٣ ، والعمدة ١ / ٢٥٦ ، ونهاية الأرب ٧ / ٣٨ .
(٣) انظر الصناعتين / ٢٦٨ - ٢٦٩ .
(٤) ديوان ابن منير / ٢٥١ ، وشعر ابن منير / ٨٩ ، وكتـــاب الروضتين ١ / ٢٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله :

يا شمسُ لا كَسْفٌ ولا تَكدار ولا خَلَتْ من نورك الأنوار (١)

ومن الصور ما هو مستقى من أجواء المعركة كقول ابن القيسراني :

وما كان كفُّ العزم إلا إشارة إلى الحزم لو لم يغضَب السيفُ والرّمحُ (٢)

وقوله :

لله عزمُك أيُّ سيفٍ وغى طُبعت مضاربُه على القَهرِ (٣)

وقول ابن منير يمدح نور الدين :

وأنت السيفُ لم تَمْسَسْهُ نارٌ ولا شحذت مضاربَه القيونُ (٤)

ومنها ما هو منتزع من حياة الناس ، كقول ابن القيسراني :

ضحكت تباشير الصباح كأنّها قسماتُ نور الدين خير الناس (٥)

وقال ابن منير :

إذا قطّب البأس كانت ردى وان ضحك العفوُ عادت نشورا (٦)

وقال العماد الأصفهاني في رثائه لنور الدين :

لفقد الملك العـــاد ل يبكي الملكُ والعدلُ (٧)

ومن الصور المنتزعة من من عالم الجنـــس ، تشبيه المدن والحصون بالنساء المتمنعات ، يقول ابن القيسراني في مدح نور الدين :

في كل يوم ينثني سيفُهُ ببلدةٍ بِكْرٍ وأخرى عوانْ (٨)

ويقول من قصيدة أخرى :

ما رُفّتْ الحربُ العوانُ بـــه إلّا انجلتْ عن مَعْقِلٍ بِكْرِ (٩)

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢٦٦ ،وشعر ابن منير/ ٩٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٧٦ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ١٨٠ .
(٣) نفسه / ٤٦ .
(٤) ديوان ابن منير/ ٢٣٦ ،وشعر ابن منير/ ١٨٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢٠٥ .
(٥) كتاب الروضتين ١/ ٤٨ .
(٦) ديوان ابن منير/ ١٩٣ ،وشعر ابن منير/ ١٠٤ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥٥ .
(٧) ديوان العماد / ٣٣٦ ،والخريدة ،قسم الشام ١/ ٧٠ ، وكتـــاب الروضتين ١/ ٥٨٨ .
(٨) كتاب الروضتين ١/ ٥٠ .
(٩) نفسه / ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الصور الشعرية ما هو مستمد من عالم الحيوان ، كقول ابن منير في مدح نور الدين ، وقد شبهه بالأسد وبالغ في التشبيه ، فأضاف صفات استمدها من جو الحرب :

أَسَدٌ فرائسُهُ الفوارسُ والظبا أظفارُه والسمهريّةُ غابُهُ
طبع الحديد فكان منه جِنانُهُ وسِنانُهُ وإهابُهُ وثيابُهُ (١)

وقال ابن منير أيضا وقد شبه الصليبيين الفارّين أمام نور الدين بالنعام الشارد :

زَبَنْتَهُمُ أمسِ عن صَرْخَدٍ فقضّوا كأن نعامًا شرد (٢)

وقال ابن القيسراني في مدح نور الدين :

راض الخطوب الصمَّ بعد جماحها
وألان من قلب الزمان القاسي (٣)

وكما نرى فقد شبه الشاعر الخطوب بحيوانات تروض بعد جماحها .

ومن الصور ما استمده الشعراء من الحياة الدينية ومن القرآن الكريم ، ومن أمثلة ذلك ، قول ابن منير مخاطبًا نور الدين :

إن ألموا عقرًا فإنك صالحٌ أو ألموا غدْرا فإنّك هودُ (٤)

وقول ابن القيسراني في مدْحِ نور الدين من إحدى قصائده :

المشتري العقبى بأنفس قيمةٍ والبائع الدنيا بفير مكاسِ (٥)

ومنها :

وأعاد نورَ الحقِّ في مشكاتِهِ وأقام وزنَ العَدْلِ بالقِسْطاس (٦)

والصورة في قوله : وأعاد نور الحق في مشكاته ، وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى : (مَثَلُ نورِهِ كمشكاةٍ فيها مصباح) (٧)

---

(١) ديوان ابن منير/ ٢٤٧ ،وشعر ابن منير/ ٤٣ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢١٨ .
(٢) ديوان ابن منير/ ١٨٨ ،وشعر ابن منير/ ٨٠ ،وكتاب الروضتين ١/ ٥١ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٤٨ .
(٤) ديوان ابن منير/ ٢٤٢ ،وشعر ابن منير/ ٦٧ ،وكتاب الروضتين ١/ ٢١٣ .
(٥) المكاس: الضريبة (ما يأخذه العشار) ، (لسان العرب : مكس) .
(٦) كتاب الروضتين ١/ ٤٨-٤٩ .
(٧) النور : ٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفنـــون البديعيـــة

اهتم شعراء نور الدين بالبديع ، وسعوا إلى تحلية شعرهم بصوره وألوانه ، فعلم البديع يعرف به وجوه تحسين الكلام (١) .

وقد بقي مقياس البديع في هذه الفترة من المقاييس التي تعبر عن ذوق العصر كما كان عليه في القرن الخامس الهجرى (٢) .

واختلفت درجة اهتمام هؤلاء الشعراء بالبديع ، فمنهم من مال إلى السهولة والانسجام والوضوح ، وأتى البديع في شعرهم عفويا ، غير متكلف مثل : ابن أسعد الموصلي وأسامة بن منقذ وطلائع بن رزيك ، ومنهم من أولع به لدرجة المغالاة والتكلف مثل : ابن منير الطرابلسي ، والعماد الاصفهاني ، ومنهم من أتى البديع في شعره على تفاوت، فكان مطبوعا تارة ومتصنعا تارة أخرى مثل : ابن القيسراني .

ومن أكثر ألوان البديع شيوعا في شعر شعراء نور الدين التجنيس والطباق ، والتجنيس يحركه رسم اللفظة ، والطباق يحركه معنى اللفظة (٣) .

ومن أمثلة التجنيس والطباق ما ورد في شعر ابن أسعد الموصلي ، يقول :

طلبتُمُ السهل تبغون النجاة ولو ... لذتم بَجَبلِكُمُ لذتُمْ إلى الجبل
ما كان أقربَهُمْ من أسرِ أبعدِكُمْ ... لو أنّهم لم يكونوا عنه في شُغُل
ثباتُه في صدور الخيل أنقذكم ... لا تحسبوا وَثَبات الضُّمَّرِ الذُّلُلِ (٤)

فنجد الطباق في البيت الأول بين " السهل والجبل " وفي البيت الثاني بين " أقربهم وأبعدكم " ،ونجد التجنيس في البيت الثالث بين " ثباته ووثبات " ، وكما نلاحظ فقد أتى البديع طبيعيا في الأبيات ولم يؤثر على الصور الشعرية . وورد الطباق في قول ابن القلانسي من مقطعة شعرية هنأ فيها نور الدين بشفائه من المرض :

فكم أصبحت مرعوبا مخوفا ... فبدلت المخافة بالامان
فكم من وحشةٍ وافت وزالت ... وهدّمَت الرفيع من المباني
فروعت القلوبَ من البرايا ... وصار شجاعُها مثلَ الجبان (٥)

ونجد الطباق في الأبيات بين " المخافة والأمان " وبين " وافت وزالت " وبين " الشجاع والجبان " .

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة / ٣٤٧ .
(٢) انظر الحياة الادبية في الشام / ٤١١ .
(٣) صدى الغزو الصليبي / ٢٠٤ .
(٤) ديوان ابن الدهان / ٧٥ - ٧٦ .
(٥) ذيل تاريخ دمشق / ٣٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكما نرى فان الطباق لم يؤثر على سهولة الأبيات ووضوحها وبساطتها .

وعرف عن ابن منير ولعه بألوان البديع ، وتكلفه في استخدامه ، ومن أمثلة استخدامه الطباق والتجنيس قصيدة مدح فيها نور الدين ، يقول منها :

أيا نورَ دين خبا نـــورُهُ ... وَمُذْ شاع عَدْلُك فيه اتقد
رآك الصليبُّ صليبَ القنـاةِ ... أمينَ المِنار متين العَمَدْ
ويوم المُرَيْمة أقبلْتَهُـــمْ ... كُماةً يشعلب منه الأسـدْ
حبست مليكَهُمُ في الصّفـاد ... وعفوك عنه أعمّ الصفـدْ (١)

فنجد التجنيس في البيت الثاني بين " صليب وصليب " وفي البيت الثالث بين " المريمة ، وعرام " ، وفي البيت الرابع بين " الصفاد ، والصفد " ، ونجد الطباق في البيت الأول بين " خبا ، واتقد " .

ولم يتوقف ابن منير عند هذا الحدّ من المغالاة في صناعته للشعر ، فقد لجأ إلى التجنيس بالاشتقاق ، فكان يشتق من الأسماء الافرنجية وأسماء البلدان أفعالا بهدف المجانسة والتجديد في استخدام فنون البديع ، ومن الأمثلة على الاشتقاق من اسماء البلدان قوله :

" وفي تلّ باشرَ باشرْتَهُـــمْ ... بزَحفٍ تَسَوّرَ أسوارهـــا
وان دالَكْتَهُمْ دُلُوك فقـــدْ ... شَدَدْتَ فصدّقتَ أخبارَهـا (٢)

فنجد التجنيس بالاشتقاق بين " تل باشر ، وباشرتهم " في البيت الأول وبين " دالكتهم ، ودلوك " في البيت الثاني .

ومن الأمثلة على التجنيس بالاشتقاق من الاسماء الافرنجية ، قول ابن منير :(٣)

فبرْنَسْتَ البِرنِسَ لفاعَ خَسْـفٍ (٤) ... وجُرِّعَ مُرَّ جَوْسِكَ (٥) جوسَلين (٦)

ونجد التجنيس بين " برنست ، والبرنس " وبين " جوسك ، وجوسلين " .

---

(١)ديوان ابن منير/١٨٨،وشعر ابن منير/٨٠،وكتاب الروضتين١/٥١ - ٥٢ .
والصفاد : الوثاق ، والصفد : العطاء .

(٢)ديوان ابن منير /٢٢٨،وشعر ابن منير/١٢٧، وكتاب الروضتين ١/١٩٣،
ودالك : صابر وماطل .

(٣)البرنس : ثوب رأسه منه أو قلنسوة طويلة ،وتبرنس الرجل اذا لبسه :
انظر (لسان العرب : برنس) ، وانظر : Dozy,Supp.Dict.Tome I,P.77

(٤)لفاع خسف: شمله الخسف ، من لفع الشيب رأسه أي شمله ،ولفاع: غطاء
(لسان العرب : لفع).

(٥)جوسك : بمعنى وطئك ودوسك، (لسان العرب : جوس).

(٦)ديوان ابن منير/٢٣٧،وشعر ابن منير/١٨٤،وكتاب الروضتين ١/٢٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يخفى ما يؤديه التكلف والتصنع من ضعف في التأليف وتعتيم على المعاني وإطفاء حرارة الانفعال .

وهنأ العماد الأصفهاني نورَ الدين بالعيد وبظهور ابنه بقصيدة اكثر فيها من الطباق والتجنيس ، يقول منها :

وفي العطيّة حلـــو ... وفي الحميّة مـــرّ
وساهرًا حين ناموا ... وقائمًا حين قـــرّوا
أصبحت بالغزو صبًّا ... وعنه ما لك صبـــرُ
لكسر كل يتيـــم ... اسعاف برّك جبـــرُ
هذا الظهور ظهـــورٌ ... على الزمـــان وأمـــرُ
وذا الختان ختـــامٌ ... بمسكه طاب نشـــرُ (١)

فنجد الطباق في البيت الأول بين " حلو ، ومر " ، وفي البيت الثاني بين " ساهرا ، وناموا " ، وبين " قائما ، وقروا " ، وفي البيت الرابع بين " كسر ،وجبر " .

ونجد التجنيس في البيت الثالث بين " صبا ، وصبر " ، وفي البيت الخامس بين " الظهور ، وظهور " ، وفي البيت السادس بين " الختان ، والختام " .

والطباق والتجنيس من أكثر الفنون البديعية استخداماً عند ابن القيسراني ، يقول من قصيدة مدح بها نور الدين :

وهل أنت إلاّ السيفُ في كلّ حالةٍ ... فطورًا له حدٌّ وطورًا له صفـــحُ
بدولتك الغراء أصبح ضدُّهـــا ... بهيمًا ولولا الحُسْنُ ما عُرِفَ القُبْحُ
سخا بك هذا الدَّهْرُ جودًا على الورى ... على أنه ما زالَ في طَبْعِهِ شُـــحُّ
وقد كان يمحو رسمَ كلّ فضيلـــةٍ ... ونحن نراه اليومَ يُثبتُ ما يمحـــو
بك ابتهج الألباب وانتهج الحجى ... وأثمرت الآداب واطّـــردَ المـــدح
ولاذتْ بك التقوى وعاذتْ بك العلا ... ودانت لك الدُّنيا وعزَّ بك السّـــرحُ (٢)

---

(١) ديوان العماد / ١٧٥ - ١٧٦ ، والخريدة ،قسم الشام ١/ ٦٦ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥٧٧ - ٥٧٩ .

(٢) كتاب الروضتين ١/ ١٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالطباق : في البيت الأول بين " حد ، وصفح " ، وفي البيت الثاني بين " الحسن ، والقبح " ،وفي البيت الثالث بين " جود ، وشح " ،وفي البيت الرابع بين " يمحو ، ويثبت " .

والتجنيس : في البيت الخامس بين " ابتهج ، وانتهج " ، وفي البيت السادس بين " لاذت ، وعاذت " .

ومن استقرائنا للنماذج الشعرية المتقدمة ، يتبين لنا مدى ولع الشعراء في هذه الفترة بالطباق والتجنيس .

ولجأ الشعراء إلى تهويل الانتصارات،وتعظيم الممدوح والارتفاع به إلى أعلى مما هو عليه في الواقع ، فوجدنا سمة بارزة في الشعر ،وفنا من فنون البديع وهو المبالغة .

والمبالغة - في رأى النقاد - أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله وأقرب مراتبه (١) .

فوجدنا نور الدين يتخطى ما قبله من القادة والأبطال ، بما يملكه من عناصر البطولة القتالية والشهامة والقيم العقلية ، وما يتصف به من صفات أخرى .

فابن القيسراني في قوله :

أنت إلّا تكنْ نبيّاً فما فا تكَ إلّا خلائقُ الأنبياء

وفي قوله :

أنت حينا تقامُ بالأسَد الوَرْ دِ وحينا تُعدُّ في الأولياء (٢)

يرتفع بنور الدين إلى مرتبة الأولياء ، ويكاد أن يضعه في مرتبة النبوة ، وهو عنده أيضا مالك للدنيا :

يا مالكَ الدّنيا ولكنها دنيا لها في الدّين آثار (٣)

وهو عند ابن منير خير الملوك دنيا ودينا ، وأسد الأنام أقوالا وأفعالا ، وهو بذلك يتخطى كل الملوك ، يقول :

عَقَل الحقُّ ألسُنَ المُدّعينا أنتَ خيرُ الملوك دنيا ودينا
وأسَدُّ الأنام قولاً وأفعا لاً ونفسًا ونيةً وبقينا (٤)

---

(١) انظر الصناعتين/ ٣٦٥ ، ونقد الشعر/ ١٦٠-١٦١ ، والعمدة ٢/ ٥٢ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٤٥-٤٦ .
(٣) نفسه ١/ ٤٧ .
(٤) ديوان ابن منير/ ١٩٣ ، وشعر ابن منير / ١٨٦ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونور الدين عند ابن قسيم الحموي هو المنقذ المنتظر الذى بخل الزمان بمثله ، يقول :

هذا الذي بخل الزمان بمثلـــه والمشمخرُّ إلى العُلا عِرْنينُهُ (١)

وهو عند العماد الاصفهاني ، واحد في الفضل ، ولا يشاركه أحد ، وليس له في البسيطة ثانٍ ، يقول :

يا واحدًا في الفضل غير مشـــارك أقسمت: ما لك في البسيطة ثان (٢)

ويقول أسامة بن منقذ إنه أكرم الملوك ، وأمنعهم حمىً :

أعطى الملوك يدًا وأمنعهم حمىً وأمَدُّهم كَفًّا ببذل تـــلاد (٣)

فالشعراء مالوا إلى المبالغة في تجسيم دور نور الدين وتعظيمه ، لأن المسلمين وجدوا فيه منقذا ومخلصا لدينهم .

وعندما تستثار حمية المسلمين تجاه الدين والوطن ، ويجد المسلمون من يذود عن هذا الدين ، وهذا الوطن فانهم يحبونه ، ويعتبرونـــه مثلهم الأعلى ، والشعراء يبالغون إعجابا بالبطل واظهاراً للبطولة .

وأما المقابلة فمن أوضح أمثلتها الواردة في الشعر ما قاله ابن منيـــر في مطلع قصيدة مدح فيها نور الدين :

أقوى الضّـــلال وأقفرت عَرَصَاته وعلا الهدى وتبلّجتْ قسَمَاتُه (٤)

فقد قابل الشاعر بين الشطر الاول في البيت والشطر الثاني ، وذلك حين أراد التعبير عن نتيجة محاربة نور الدين للضلال، ونصرته للهـــــدى والإيمان .

وقال العماد في مدح نور الدين :

وانّ حُبّـــك ديـــنٌ وانّ بُغْضَـك كُفْـــرُ
لنا بيمناكَ يُمْـــــنٌ كما بيسراك يســـرُ
وللموالين نفـــــع وللمعادين ضـــرُ (٥)

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٥٧ ، والمشمخر: العالي (لسان العرب: شمخر) ، وعرنينه : أنفه (لسان العرب : عرن) .

(٢) ديوان العماد / ٤١٠ ، والخريدة ، قسم الشام ١/ ٥٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥٢٩ .

(٣) كتاب الروضتين ١/ ٥٨٤ ، والبيت غير مذكور في ديوان أسامة .

(٤) ديوان ابن منير/ ٢٠٨ ، وشعر ابن منير / ٥١ ، وكتـــاب الروضتين ١/ ١٥٦ .

(٥) ديوان العماد / ١٧٤ ، وكتاب الروضتين ١/ ٥٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا قابل الشاعر بين المعاني الواردة في الشطر الأول من كل بيت والمعاني الواردة في الشطر الثاني منه .

ومن أمثلة الالتفات ، قول العماد عندما رثا أسد الدين شيركوه ، ومدح نور الدين :

تضعضع في هذا المصاب المباغتِ من الدّين ،لولا نورُهكلُّ ثابتِ (١)

ففي قول الشاعر " لولا نوره " التفات ، فهو يريد أن يقرر بأن أركان الدين تضعضعت بسبب وفاة أسد الدين ، ولكنه التفت لوجود نور الدين الذي يحميها ويثبتها .

ويقول ابن أسعد الموصلي :

وانما اخلدوا جبنا إلى خِدَعٍ اذ لم يكن لهم بالجيش من قبل (٢)

فالالتفات في قول الشاعر " جبنا " ، فقد أراد أن يقول : ان الفرنج مالوا الى الخدعة لعدم مقدرتهم على مواجهة الجيش ، ولكنه التفت وذكر أن الاعداء مالوا الى الخدعة بسبب جبنهم وخوفهم من مواجهة جيش المسلمين .

والتقسيم من فنون البديع التي عمد اليها الشعراء بكثرة ، وحسن التقسيم يسهم في الايقاع الموسيقي داخل الأبيات ، فيزيده جمالا ، وتطرب الأذن لدى سماعه .

ومن أمثلة التقسيم ، قول ابن منير :

ثلاثةٌ تُعْرِبُ عن ثلاثةٍ لمثلها يذكُرُ حمدًا مَنْ حَمَدْ
فتح مبينٌ وظلاب مدرك ودولةٌ ما تنتهي إلى أمدْ (٣)

وقال ابن القيسراني :

والتُّقى والندى ومعربة الخيـ ـلِ وبيضُ الظبا وسُمْرُ العوالي (٤)

---

(١) ديوان العماد / ٩٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٤١١ .
(٢) ديوان ابن الدهان / ٧٠ .
(٣) ديوان ابن منير / ٢٥٠ ، وشعر ابن منير / ٨٠ ، وكتاب الروضتين ١/ ٢٢١ .
(٤) كتاب الروضتين ١/ ٢٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال العماد يهنيء نور الدين :

عيدان فِطرٌ وطُهْـــرُ فَتْحٌ قريبٌ وَنَصْـــرُ (١)

وقال علم الدين الشاتاني في مدح نور الدين :

في الرأى قيسٌ ، في السماحة حاتمٌ في النطق قُسٌّ، في البسالة حَيْدَرُ (٢)

ومن فنون البديع الجميلة الأخرى التي تسهم في موسيقى الشعر ، التصريع، وأمثلته كثيرة ، ولاسيما في مطالع القصائد ، حيث إن الشاعر يجعـــل العروض مقفاة تقفية الضرب ، ومن ذلك قول ابن منير :

فَدَتْك القلوبُ بألبابهـــا وساحُ الملوك بأربابهـــا (٣)

وقوله ايضا :

أمام المحاريب بَرًّا حَصُـورا وتحت الحروب هِزَبْرا هصورا (٤)

وقال ابن القيسراني :

تفي بَضمانها البيضُ الحِـدادُ وتقضي دَيْنَها السُّمرُ الصِّعادُ (٥)

وقال المهذب بن الزبير :

أعلمتَ حين تجـاور الحيّان أنَّ القلوبَ مواقدُ النيران (٦)

وقال العماد الأصفهاني :

لو حفظتْ يومَ النّوى عهودَها ما مطلتْ بوصلكُمْ وعودَها (٧)

وهكذا نرى أن أغلب الشعراء تأثروا بمقاييس العصر الأدبية ، فاستخدموا فنون البديع المختلفة ، وأضفى الشعراء على العديد من قصائدهم جمـــالاً وروعـة .

---

(١) ديوان العماد /١٧٣ ،والخريدة ،قسم الشام ١/٢٦٦ ، وكتـــاب
(٢) كتاب الروضتين ١/٤٤٦.
(٣) ديوان ابن منير / ٢٢١ ، وشعر ابن منير / ٤٧ ،وكتاب الروضتين ١/ ١٨١.
(٤) ديوان ابن منير/١٩٣ ، وشعر ابن منير /١٠٣ ، وكتـــاب الروضتين ١/ ٥٥ .
(٥) كتاب الروضتين ١/١٤٦ .
(٦) نفسه ١/ ٣٧٥ .
(٧) ديوان العماد /١٤٣ ، وكتاب الروضتين ١/ ٣٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الجدير بالاشارة أن بعض هؤلاء الشعراء تخفّف من أثقال الصنعة في الشعر الحماسي ، ولكنه لم يتخلص كليا من البديع ، والآخر تكلف البديع حتى أصبح شعره وكأنه معرض لألوان البديع .

والشعر الذي تكثر فيه ألوان البديع يسميه بعض النقاد " المصنوع " ، لأنه نُمّق بالتصنيع ووشح بأنواع البديع(١) .

ولقيت الصنعة البديعية استحسانا عند كثير من النقاد حتى ان بعضهم وصف البديع قائلا : " اسم وافق مسمّاه ، ولفظ طابق معناه ، وكلام غض المكاسر أنيق الجواهر ، يكاد الهوى يشربه لطفا ، والأهواء تعشقه ظرفا (٢) .

ويرى ابن رشيق أن بيت الشعر إذا وقع مطبوعا في غاية الجودة ثم وقع في معناه بيت مصنوع في نهاية الحسن ، ولم يؤثر فيه التكلف ، كان المصنوع أفضلهما (٣) .

وبذلك لم يخرج الشعراء عما اعتاده معظم نقاد عصرهم من الاهتمام بالبديع . ومن الرواد في هذا المجال العماد الأصفهاني الذي طبع ذوقه على الإسراف في تناوله لألوان البديع ، وعلى استحسانه للصنعة البديعية ، فابن القيسراني عنده " صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس ، ملك القبول من القلوب ، والرغبة من النفوس "(٤) . وشعر ابن منير " أرق من الماء الزلال ، وأدقّ من السّحر الحلال ، وأطيب من نَيل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنيّة "(٥) ، وهما عنده كجرير والفرزدق ، يقول : " فكأنهما جرير العصر وفرزدقه "(٦) .

وقصائد ابن أسعد الموصلي عنده " مستحسنة ومقاصده حسنة "(٧) ، والمهذب بن الزبير " محكم الشعر "(٨) ، وأسامة بن منقذ

---

(١) احكام صنعة الكلام / ١١٤-١١٥ .
(٢) نفسه / ١٢٠ .
(٣) انظر العمدة ١/ ١١٠ - ١١١ .
(٤) الخريدة ، قسم الشام ٣/ ٩٦ .
(٥) نفسه / ٧٩ .
(٦) نفسه .
(٧) الخريدة ، قسم الشام ٢/ ٢٧٩ .
(٨) الخريدة ، قسم مصر ١/ ٢٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" كاسمه في قوة نثره ونظمه "(١) ،وابن قسيم الحموي " مجيد للشعر ،وحوكه رفيع ،وسبكه بديع "(٢) . فالعماد الاصفهاني يعجب بالأشعار التي توافق طبعه ، ولعل مختاراته الشعرية في " الخريدة " خير دليل على ذوقه وطبعه .

ولقيت صنعة شعراء نور الدين قبولا عند الأدباء والنقاد الآخرين ،فأشعار ابن منير وابن القيسراني - التي قيلت في نور الدين - في رأى أبي شامة مستحسنة فائقة (٣) .

ويرى أن العماد الأصفهاني " نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه "(٤) ، والمهذب بن الزبير " لم يكن في زمانه أشعر منه "(٥) وفي رأى ياقوت الحموى وابن خلكان أن ابن القيسراني " كان شاعرا مجيدا وأديبا متفننا "(٦) .

ويرى ابن خلكان أن ابن أسعد الموصلي كان "لطيف الشعر ، مليح السبك حسن المقاصد "(٧) . ويرى أن الصالح بن رزيك كان " جيد الشعر " (٨) .

وكان للصنعة البديعية أثر في الالفاظ والمعاني والصور والموسيقى ، فقد أدت الصنعة إلى تركيز الشعراء على اللفظة فزادت الألفاظ وتنوعت لاسيما عن طريق الطباق والتجنيس بالاشتقاق .

وانتقاء الالفاظ واختيارها الموفق له أثر في موسيقى الشعر، كما أن " شيوع بعض ألوان البديع مثل : الجناس والتصريع والتقسيم علامة من علامات الاهتمام بالموسيقى " (٩) .

واهتمام بعض الشعراء الزائد - بالالفاظ وتلاعبهم بها ، كان يؤدي أحيانا الى التعقيد اللفظي ، مما يؤدى بالتالي الى عدم وضوح المعاني .

والصنعة في بعض القصائد تأتي طبيعية ولا تؤثر على الصور ، أما في بعضها الآخر ، فقد يؤدي الاغراق فيها إلى التعتيم على الصور الشعرية ، كما يبدو في بعض قصائد ابن منير الطرابلسي والعماد الاصفهاني .

---

(١) الخريدة ،قسم الشام ١/ ٤٩٨ .
(٢) نفسه / ٤٣٣ .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٤٤ .
(٤) نفسه ١/ ٣٨٢ .
(٥) نفسه ١/ ٣٧٥ .
(٦) انظر معجم الادباء ٧/ ١١٢ ، ووفيات الأعيان ٤/ ٤٥٨ .
(٧) وفيات الأعيان ٣/ ٥٧ .
(٨) نفسه ٢/ ٥٢٦ .
(٩) شعر الصراع مع الروم / ٣١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شهد عهد نور الدين احداثاً سياسية وعسكرية كبرى ، ساهمت في نهضة النشر ، وخاصة النثر الديواني ، إضافة إلى وجود ديوان الإنشاء ،وعدد من الكتاب المشهورين .

فقد كانت فتوح نور الدين ، وانتصاراته على أعدائه تتوالى ، وكانت كتب البشرى والتهاني بهذه الانتصارات ، تحمل بوساطة سفرائه إلى جميع أنحاء البلاد .

وللوقوف في وجه العدو الصليبي ، كانت تكتب الكتب التي تحث على الجهاد ،وتطالب المسلمين جميعا بالاتحاد ، وتصف المعركة ، وتمجد البطل .

وكانت الرسائل وسيلة التخاطب بين نور الدين ونوابه وعماله ، في جميع البلاد الخاضعة له .

وسجل الكتاب ايضا ، المراسلات السياسية بين نور الدين والخليفة العباسي .

وبسبب رعاية نور الدين لشؤون المسلمين الاقتصادية والاجتماعية ، كان يصدر التوقيعات أو يأمر بكتابة المنشورات التي تتضمن اسقاط الضرائب والمكوس في جميع أنحاء دولته .

وكتبت العهود والتقاليد بالوزارة لنائبي نور الدين على مصر ، أسد الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وعندما توفي نور الدين تبادل صلاح الدين ، والملك الصالح اسماعيل ، وأمراء الشام كتب التعازي بوفاته .

ومن الملاحظ أن معظم النصوص النثرية التي وصلت إلينا من أدب هذه الفترة ذات طابع رسمي ، لذا فإننا نتعرف من خلالها إلى صورة نور الدين الحاكم المثالي .

ومن الملاحظ أيضاً ، أنّ بعض هذه النصوص التي وصلت الينا لم تصل كاملة وإنما هي عبارة عن نتف منتشرة في مصادر الدراسة ، وهي قليلة إذا ما قورنت بالشعر الذي وصلنا .

وبعضها يلتزم الزينة اللفظية ،وبعضها الآخر يتميز بالسهولة ، والوضوح ، وبساطة التعابير ، إلى درجة استعمال التعابير المحكية .

ويختلف أسلوب النص باختلاف كاتبه وموضوعه . وللوقوف على السمات الفنية للنثر في عهد نور الدين ، نتناول بالحديث أبرز هذه السمات :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الفصـــــل الثانـــــي)

النثـــــــــر

- بنـاء الرسالـــــــــــة .
- الاسلـــــــــــــوب .
- الأثـر الاسلامـــــــــــي .
- الصـــورة البيانيـــــــــة .
- الفنـــون البديعيـــــــــة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بنـــاء الرسالـــــة

تختلف بدايات الرسائل باختلاف كاتبيها وموضوعاتها ، فبعـــض هذه الرسائل يفتتحـــها الكاتب بآية قرآنية ، ثم يدعو للمرســـل اليه ، ومن أمثلة ذلك ، ما كتب به القاضي الفاضل عن الملـــك الناصر صلاح الدين إلى الملك الصالح اسماعيل معزيا بوفاة والـــده نور الدين ، يقول في أول الكتاب :

" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة "(١) أنزل الله الصبـــر وضاعف التأييـد والنصربالجناب العالي الملكي الصالحي ...."(٢) .

وبعضها يفتتحها الكاتب بالدعاء مباشرة ، ومن أمثلة ذلك ، ما كتب به نور الدين إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون ، وهو بحلـــب ليوليه قضاء مصر ، يقول :

" وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته ، وختم له بخير . غير خاف عن الشيخ ما أنا عليه وفيه ، وكل غرضي ومقصودي في مصالـــح المسلمين ، وما يقربني إلى الله ، والله ولي التوفيق ، والمطلع علـــى نيّتـــي "(٣) .

ومن أمثلتها ايضا ، ما كتب به العماد الأصفهاني عن نور الدين إلـــى الخليفة العاضد هنأه بنصر المسلمين في دمياط ، سنة خمس وستيـــن وخمسمائة ، ومنه :" أطال الله بقاء فلان ، ولا زالت عوادي نعمـــه محدقة بأوليائه ، احداق الاجفان بالأحداق ، وعوادي نقمـــه محرقة لأعدائه ، احراق النيران أهل الشقاق ...."(٤) . وكتـــب العماد أيضا ، كتابا عن الملك الصالح اسماعيل إلى الملك الناصـــر صلاح الدين ، يقول في اوله : " اطال الله بقاء مجلس سيدنا الملـــك الناصر ، السيد الأجل ، وأدام سموه ، وعظم أجرنا وأجره ...."(٥) ، فالكاتب يتحرى في الدعاء الألفاظ والمعاني ، ويتوخى منها ما يناسب الحال ويوافق المخاطب(٦) .

أما العهود والتقاليد ، فتبدأ بذكر اسم المقلَّد وألقابه ، واســـم المقلِّد وألقابه ، والدعاء له ، ثم بالسلام ، وحمد الله ، والصـــلاة والسلام على رسـول الله ، ثم بـ" أما بعد " ، ثم البدء بخطبة التقليد ، وهي حمد الله على إنعامه ، وهي مطولة ، لا تقل عن أقسام التقليـــد

---

(١) الأحزاب : ٢١ .
(٢) سنا البرق الشامي ١/١٥٦ .
(٣) كتاب الروضتين ١/٤٤٢ .
(٤) سنا البرق الشامي ١/٨٧ .
(٥) نفسه ١/١٥٤ .
(٦) انظر احكام صنعة الكلام /٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأخرى ، ومن ذلك ،عهد أسد الدين بالوزارة الذى كتبه القاضي الفاضل عن الخليفة العاضد الفاطمي ،أوله :
" من عبد الله ووليه ، عبد الله أبي محمد الامام العاضد لدين الله ،أمير المؤمنين ،إلى السيّد ،الأجلّ ،الملك ، المنصور ،سلطان الجيوش ، ولي الأمة ،فخر الدولة ، أسد الدين ،كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، أبي الحارث شيركوه العاضدي ،عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى كلمته .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا اله إلاّ هو ، ويسأله أن يصلي على سيدنا محمد خاتم النبيين ،وسيّد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ،الأئمة المهديين ، وسلم تسليما كثيرا ، أما بعد ،فالحمد لله القاهر فوق عباده الظاهر على من جاهر بعناده . . . "(١) .

وأما كتب المسامحات(٢) والإطلاقات ، في عهد نور الدين ، فمنها ما كان يفتتح بالبسملة ، ثم بـ" هذا ما تقرب به إلى الله تعالى صافحًا وأطلقه سامحا لمن علم ضعفه من الرعايا .
ومن أمثلتها هذا المنشور المفتتح بـ" بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقرب به إلى الله تعالى سبحانه صافحا ، وأطلقه سامحا لمن علم ضعفه من الرعايا رعاهم الله ، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار أبادهم الله "(٣) .

وقد يبين سبب المسامحة ،ثم يقول : وقد استخرنا الله وتقربنا إليه ، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه ،وتقدّمنا باسقاط كل مكس وضريبة ، في كلّ ولاية لنا بعيدة أو قريبة . . . "(٤) .

ومنها ما يفتتح بـ" أما بعد " ، ثم بـ" الحمد لله"، وذكر نعم الله سبحانه ،ثم ذكر المسامحة ، ومن أمثلة ذلك :
" أما بعد ، فانا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض . . . ، ثم يقول : " وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما بأبواب المكوس صادرها ووارداها . . . "(٥) .

---

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية / ٣٨٣ وما بعدها .
(٢) المسامحات : جمع مسامحة وهي (الجود والموافقة على ما أريد منه) ، (صبح الأعشى ١٣/ ٢٣) .
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٣٨- ٣٩ .
(٤) نفسه ١/ ٤٧٩-٤٨٠ .
(٥) نفسه ١/ ٥٢٢ - ٥٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الملاحظ أنّ الكاتب في عهد نور الدين ،يتحدث في رسالته عن موضوع واحد ،على الرغم من تعدد الأفكار في الرسالة الواحدة .

فالوحدة الموضوعية نجدها في الكتب والتواقيع والمنشورات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء ، ومنها - على سبيل التمثيل - المنشورات التي كانت تتضمن إبطال المظالم واسقاط المكوس والضرائب (١) ، والتوقيعات التي تتضمن رغبة نور الدين في تطبيق الشريعة الإسلامية ، والتمسك بالمبادئ والتعاليم الدينية (٢) . وكتاب البشرى الذي ارسله نور الدين مع ابن أبي عصرون الى بغداد ،وتحدث فيه عن موضوع واحد هو اقامة الدعوة العباسية في جميع البلاد ، وهذا يتطلب قمع أهل الكفر والرفض والالحاد (٣) .

وكتب التعازي التي تتضمن الحديث عن أثر المصيبة ، ووقعها على نفوس المسلمين ، وذكر مناقب المتوفى ، والعزم للسير على نهجه (٤).

أما نهايات الرسائل ،فأغلبها ينتهي بالدعاء للمرسل إليه ، ومن ذلك الكتاب الذي أنشأه العماد الأصفهاني عن نور الدين إلى الخليفة العاضد حيث ختمه بالدعاء للخليفة ، يقول : " فوفق الله فلانا ، وأيده الله بنصره ، وردّ كيد العدوّ والكافر في نحره "(٥) .

وكتاب التعزية الذي بعث به القاضي الفاضل عن صلاح الدين إلى الملك الصالح معزيًا بوفاة نور الدين ، وختمه أيضًا ،بالدعاء للملك الصالح ، يقول : " والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح ،ويصلح به وعلى يده ،ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه "، ويدعو أيضًا ، لصلاح الدين بقوله : " ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده ،ومضاعفة ملكه ومزيده ،وتيسير منال كل أمل صالح وتقريب بعيده "(٦) .

وقد يلي الدعاء ،الصلاة والسلام على سيدنا محمد ، ومن ذلك ، نهاية الرسالة التي بعث بها نور الدين إلى ابن أبي عصرون ليوليه قضاء مصر ،ودعا في نهايتها لصلاح الدين ، يقول : " جزاه الله خيرًا ،وأبقاه ، ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ، ومنفعة لأهل الاسلام ، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير ،وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد ،وآله وصحبه وسلم تسليما "(٧) .

---

(١) انظر بعض هذه المنشورات في الروضتين ١/ ٣٨ ، ٤٧٩ ، ٥٢٢ ، ٥٥٠ .
(٢) انظر الروضتين ١/ ٣٢ ، ٣٧ ، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٨٢ .
(٣) انظر الكتاب في الروضتين ١/ ٥٠٢ .
(٤) انظر سنا البرق الشامي ١/ ١٥٤- ١٥٩ .
(٥) نفسه ١/ ٨٨ .
(٦) نفسه ١/ ١٥٩ .
(٧) انظر الروضتين ١/ ٤٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما في كتابة التقليد ، فبعد الدعاء بالتوفيق للمقلّد ،يختم الكتاب بالقول : " فاعلم هذا من أمر أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل بموجبه وحكمه ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته "(١) .

الأسلوب :

اختلفت أساليب الكتابة النثرية في عهد نور الدين باختلاف الكتاب ومذاهبهم واختلاف موضوعات الكتابة ،فالمكاتبات التي أنشأها نور الدين ،سواء أكانت رسائل أم توقيعات اتسمت بالبساطة والوضوح ،فألفاظها سهلة ، ومعانيها بسيطة الى حد استعمال التعابير المحكية ،ولا نجد فيها أثرا للتكلف والصنعة اللفظية .

ومن أمثلة ذلك ، ما كتبه من رسالة أرسلها إلى شرف الدين بن أبي عصرون ليوليه قضاء مصر : " وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت ، ولا أقدر أولي أمورها ، ولا أقلدها إلّا لك ،حتى تبرأ ذمتي عند الله"(٢) .

وكتب أيضاً : " بموافقة صاحبي ، واتفاق منه صلاح الدين ،وفقه الله ،فأنا أشكره كثيرا كثيرا "(٣) . وأما التوقيعات فهي مما عدل فيها الكتاب عن التطويل والتكرار إلى الإيجاز والاختصار(٤) . ومن أمثلتها ما كتبه نور الدين في إبطال المكوس : " إنني قد رفعت عنكم ما رفعه الله عنكم ، وأثبت عليكم ما أثبته الله عليكم "(٥)

والتوقيعات تقرر حقائق ،ولها قيم اقتصادية ، وسياسية ،واجتماعية .

أما الرسائل التي كتبها العماد الأصفهاني ،فلغتها مسجوعة ،ويبدو فيها بصورة واضحة ، التلاعب بالألفاظ ، والتصنع والتكلف من أجل الزخرفة ، والزينة اللفظية ، ولا عجب في ذلك ،فهو من أبرز أعلام مدرسة القاضي الفاضل ، التي تذهب مذهب الصنعة والتكلف ، إضافة إلى تأثره بديوان الإنشاء .

وهو يقرر في رسالة بعث بها إلى القاضي الفاضل أنه تعمد التجنيس والتطبيق ، وغير ذلك ،يقول : " وهذه الرسالة ، قد وفّيتُها حقها من التجنيس والتطبيق ...الخ. "(٦) .

---

(١) صبح الاعشى ١٠/ ٩٠ ،ومجموعة الوثائق الفاطمية / ٣٩٧ .
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٤٤٢-٤٤٣ .
(٣) نفسه .
(٤) احكام صنعة الكلام/ ١٦٠ .
(٥) انظر الروضتين ١/ ٣٧-٣٨ .
(٦) الخريدة ،قسم الشام ، ١/ ٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يخفى أن كتابة العماد محكمة ،وصياغته دقيقة ،ومن أمثلة ذلك ، ما كتبه عن نور الدين إلى العاضد الفاطمي ، يقول منه : " الخادم يهنيء بما سناه الله من الظفر الذي أضحك سن الإيمان ، وحصل أهل الشرك في شرك الخذلان ، وأعاد جيش الكفر واهي الجأش ،وبيد الضلالة باديـة الارتعاش "(١) .

وأسلوب القاضي الفاضل كأسلوب العماد الأصفهاني في التزام السجع والطباق والجناس ، والتوسع في الخيال .

ويعمد القاضي الفاضل إلى تكرار المعاني والألفاظ ، ولذا جاءت جمله طويلة ، ومن الأمثلة على كثرة التحميدات وتكرارها ، قوله من التقليد الذي كتبه عن العاضد بوزارة أسد الدين شيركوه :

" فان أمير المؤمنين يحمد اليك الله الذي لا اله إلاّ هو " ، وقوله : " فالحمد لله القاهر فوق عباده " ،وقوله : " والحمد لله الذي خصّ جدنا محمداً بشرف الاصطفاء والاجتباء" ،وقوله ، " والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لأن يكون في أمته مقامه "(٢) . وتتميز رسائل الفاضل بطول النفس في الكتابة ، ومن أمثلة ذلك رسالته التي بعث بها إلى نور الدين وقد شرح فيها قضية المصلّبين(٣) . وهو موطن من مواطن الإسهاب التي يجب فيها على الكاتب أن يبدىء ويعيد ويحذر ويكرر(٤) .

الأثر الإسلامي :

يبدو الأثر الإسلامي بشكل جلي ، في الرسائل والمنشورات ، وجميع المكاتبات في عهد نور الدين ، وتصطبغ في عهده بالصبغة الاسلامية ، وذلك لأن نور الدين الحاكم المسلم المستنير ، يطبق في دولته تعاليم الاسلام ومبادئه ، ويصدر في حكمه عن الشريعة الاسلامية ، ولوجود الصراع الديني بين المسلمين والصليبيين ، ولأن الكتاب في عهده يصدرون عن ثقافة قرآنية ،وهم متأثرون بالقرآن في الأفكار والألفاظ وأساليب التعبير .

ويظهر الأثر الاسلامي في الرسائل من خلال تكرار الدعاء ،وذكر الله ، وكثرة التحميدات في بدايات الرسائل ونهاياتها ، وقد مثلنا على ذلك ،أثناء الحديث عن بناء الرسالة .

---

(١) سنا البرق الشامي ١/ ٨٧-٨٨ .
(٢) انظر التقليد في صبح الأعشى ١٠/ ٨٠-٩٠ ،ومجموعة الوثائق الفاطمية ٣٨٣-٣٩٧ .
(٣) انظر الروضتين ١/ ٥٦٢-٥٦٥ ،وانظر بعضا منها في الحديث عن نور الدين السياسي في الباب الثاني من هذه الدراسة .
(٤) انظر احكام صنعة الكلام / ٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبرز الأثر الاسلامي أيضا ، من خلال ذكر المعاني الدينية المختلفة ، والتمسك بها ، ومن أمثلة ذلك ما كتب به نور الدين إلى الشيخ عمر المُلاّ ، يقول : " إنّ الله تعالى خلَق الخَلْق ،وهو أعلم بما يصلحهم ، وإنّ مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه ، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى "(١) .

وما ورد في المنشور الذي أبطل بموجبه المكوس عندما دخل الموصل ، ومنه : " وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال ، فسحقا للسُّحت ، ومحقاً للحرام ، الحقيق بالمَقْت ، وبعداً لما يُبْعد من رضا الرب ، ويقصي من محل القرب ، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه ، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه " ، ومنه أيضا : " فلا يبقى في جميع ولايتنا جورُ جائرٍ جاريا ، ولا عمل لا يكون به الله راضيًا ، ايثاراً للثواب الآجل ،على الحطامِ العاجل "(٢) .

وورد في كتاب التهنئة الذى أرسله العماد عن نور الدين إلى العاضد قوله : " ما أعلنت راياتُ النصر للدين ، وتُليتْ آيات الذكر المبين "(٣) .

ومن المعاني والألفاظ الدينية أيضا ما ورد في كتاب من انشاء القاضي الفاضل أرسله عن صلاح الدين الى الملك الصالح معزيا بوفاة نور الدين ، ومنها قوله :

" إن الجماعة رحمة " ، وقوله : " حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ويعيد الخلق منها إليها "(٤) .

ويبدو التأثر بالقرآن الكريم واضحًا في نثر الكتاب من خلال تضمينهم للآيات الكريمة ، أو نثرهم لبعض الآيات ودمجها في كلامهم ، بحيث تبدو وكأنها منه لانسجامها مع تعابيره ، وقد تميّز القاضي الفاضل في رسائله بكثرة اعتماده على القرآن الكريم ، سواء أكان عن طريق التضمين أم حلّ الآيات الكريمة . ومن الملاحظ أن الكاتب يتحرى في الاقتباس من القرآن الكريم الآيات ، فيختار منها ما يتناسب وموضوع الكلام .

---

(١) انظر الروضتين ١ / ٣٢ ،والبداية والنهاية ١٢ / ٢٨٢-٢٨٣ .
(٢) انظر الروضتين ١ / ٤٧٩-٤٨٠ .
(٣) سنا البرق الشامي ١ / ٨٧ .
(٤) انظر الكتاب في سنا البرق الشامي ١ / ١٥٦-١٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أمثلة التضمين ما ورد في رسالة الفاضل التي كتبها عن صلاح الدين إلى الملك الصالح (١) ، ومن الآيات المضمنة ، قوله تعالى : "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" (٢) ، وقوله : "إنما هذه الحياة الدنيا متاع وانّ الآخرة هي دارُ القرار" (٣) ، وقوله : "إنا للّه وانّا إليه راجعون" (٤) .

ومن الآيات المضمنة الواردة في كتاب التقليد بالوزارة الذى كتبه الفاضل لأسد الدين عن الخليفة العاضد (٥) ، قوله تعالى : "لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم" (٦) ، وقوله تعالى : "ولولا دفْعُ الله الناسَ بعضَهم بِبَعض" (٧) ، وقوله عز وجل : "وكانوا أحقَّ بها وأهلها" (٨) ، وورد غيرها .

ومن أمثلة نثر الآيات الكريمة ، ودمجها اثناء الكلام ما ورد في كتاب التقليد نفسه ، يقول : "مؤتي المُلْكَ من يشاء مما أسلفه من ذخائر رشاده ، ونازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده" ، وقوله : "وانقذت الاسلام وهو على شفا جرف هار" ، وقوله : "ليقذف الله بالحق الذى نصرته على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق" (٩) .

الصور البيانية :

استخدم الكتاب في عهد نور الدين كسابقيهم مختلف الصور البيانية المعروفة من تشبيهات واستعارات وكنايات ، وعمدوا في رسائلهم إلى التجسيم والتشخيص ، وذلك للكشف عن معانيهم وأفكارهم ونقلها الى قرائهم وسامعيهم بشكل مؤثر ، فابن رشيق يرى أن مفهوم البيان هو الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس (١٠) .

---

(١) انظر سنا البرق الشامي ١/١٥٦-١٥٩.
(٢) الأحزاب : ٢١ .
(٣) غافر : ٣٩ .
(٤) البقرة : ١٥٦ .
(٥) انظر التقليد في صبح الأعشى ١٠/٨٠-٩٠ ، ومجموعة الوثائق الفاطمية /٣٨٣-٣٩٧ .
(٦) الأنفال : ٦٣ .
(٧) البقرة : ٢٥١ .
(٨) الفتح : ٢٦ .
(٩) انظر كتاب التقليد السابق في صبح الأعشى ١٠/٨٠-٩٠ ، ومجموعة الوثائق الفاطمية /٣٨٣-٣٩٧ .
(١٠) العمدة ١/٢٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفيما يلي عرض لبعض الصور البيانية ومصادرها :

تنوعت المصادر التي استقى منها الكتاب صورهم ، فقد انتزع الكتاب صورهم من خَلْق الناس ، ومن أمثلة ذلك ما أورده العماد الأصفهاني في رسالة التهنئة التي بعث بها إلى الخليفة العاضد ، يقول : " ولا زالت عوادي نعمه محدقةً بأوليائه إحداق الأجفان بالأحداق " ، وقوله : " ويد الضلالة بادية الارتعاش "(١) .

ومن المفاهيم الدينية ، كقوله : " الظَفَر الذي أضحك سن الإيمان " ، وقوله : " وحصل أهل الشرك في شرك الخذلان " ، وقوله : " وأعماد جيش الكفر واهي الجأش "(٢) . وثمة صورٌ أخرى من التعبيرات الاسلامية أوردها الفاضل في مكاتباته ، ومنها ما أورده في كتاب التعزية الذي أرسله إلى الملك الصالح عن صلاح الدين ، حيث يقول : " وتلك اليد التي ما أظلم الخطب البهيم ، إلاّ طلعت بيدٍ كيد الكليم "(٣) .

ومنها ما أورده في كتاب التقليد بالوزارة الذى كتبه عن العاضد لأسد الدين شيركوه ، يقول : " ورَفَعْتَ نواظرَ أهل الإيمان وهي مُطرِقة ، وعقصت أعنّة الطغيان وهي مطلقة . . . . ،وأجليت طاغية الكفر ، وسواك اجتذبه ، وصدَقْتَ اللهَ سبحانه ، حين داهنه من لا بصيرة له وكذبه ، وأقدمْتَ على الصّليب ، وجمراتُهُ متوقدة ، وقاتلتَ أولياءَ الشيطان وغمراتُهُ متمرِّدة "(٤) .

ومن أجواء الحرب ، كقول العماد : " وسيف الله في رقاب أعدائه مسلولاً "(٥).

وقول القاضي الفاضل : " والمصيبة التي رمت القلوب بالسهام ، المصيبة "(٦) .

وقوله أيضا من كتاب آخر : " ونفذت حين لا تنفذ السهام عن الأوتار " ، وقوله : " ان فُوِّقَ سهمُهُ أو أُشْرِع رمحُه " (٧) ، وقوله : " ويفتح على يديْكَ مُسْتَغلِق البلاد والمعاقل ،ويصيب بسهامك من الأعداء النحورَ والمقاتل "(٨) .

ومن التاريخ : كقول القاضي الفاضل : " يا له ناعيًا فُجع الإسلامُ باسكندره فُتوحًا وجنودا "(٩) ،وقوله : " وانتصر له بك انتصارَه لأهل البيت بسلمانه وعَمّاره "(١٠) .

---

(١) انظرالكتاب في سنا البرق الشامي ١ / ٨٧-٨٨ .
(٢) انظر سنا البرق الشامي ١ / ٨٧-٨٨ .
(٣) نفسه ١ / ١٥٧ .
(٤) انظر مجموعة الوثائق الفاطمية / ٣٨٨- ٣٨٩ .
(٥) سنا البرق الشامي ١ / ٨٨ .
(٦) نفسه ١ / ١٥٦ .
(٧) مجموعة الوثائق الفاطمية / ٣٨٩ .
(٨) نفسه ١ / ٣٨٧ .
(٩) سنا البرق الشامي ١ / ١٥٧ .
(١٠) مجموعة الوثائق الفاطمية / ٣٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الظواهر الطبيعية : كقول الفاضل : " ليوم سرت الحادثة فيه مسرى الزلزال هزّ أعطاف كلّ بلد "(١) .

ومن عالم الحيوان : كقوله أيضًا : " وازدرى بخنازيرهم انتظاراً لوصولك بأسود الإسلام " (٢) .

الفنون البديعية :

استخدام ألوان البديع المختلفة سمة بارزة من سمات الأدب في عهد نور الدين ،وقد برع الكتّاب في استعمال فنون البديع في مكاتباتهم وتفننوا فيها ، وكان منهم روّاد في هذا المجال ، ومن أشهرهم القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني .

ومن أبرز الفنون البديعية التي نجدها في كتاباتهم ،اضافة الى الاقتباس وحل الآيات الكريمة : السجع ،والجناس،والطباق .

وقد حرص الكتّابُ على السجع في رسائلهم ،وأسرفوا في استخدامه وتزيين كلامهم به . وهو التكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر (٣) .
ويرى بعض الأدباء والنقاد أن السجع إذا سلم من التكلف والتعسّف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه (٤) .

ويرى آخرُ أن كلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز ، موقوفا عليها ،لأن الغرض أن يجانس بين قرائن ، ويزاوج بينها ، ولا يتم ذلك إلا بالوقف(٥) .

وورد السجع في المكاتبات الصادرة عن نور الدين ،وكان طبيعيًا غير متكلف ، ومن أمثلته ما ورد في قوله : " من الولاة الجاهلين ، والظلمة الجائرين " ، وقوله : " لما يرجع إليه من عقل وسداد ، ودين وصحة اعتقاد "(٦) .

ومن أمثلته أيضا ما ورد في منشور أنشأه ، يبطل بموجبه المكوس والضرائب ، يقول : " ومحو كل سنة سيئة شنيعة ، ونفي كل مظلمة فظيعة" ، وقوله : " بل هي سنة استنناها ، ومحجّة واضحة بيناها وقاعدة محكمة مهّدناها ، وفائدة مغتنمة أفدْناها " (٧) .

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٥٦ .
(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية/ ٣٩١ .
(٣) انظر احكام صنعة الكلام/ ٢٣٥ .
(٤) انظر الصناعتين/ ٢٦١ ،واحكام صنعة الكلام/ ٢٣٥ .
(٥) انظر نهاية الأرب٧/١٠٣ .
(٦) انظر ذيل تاريخ دمشق/ ٣٥٥ ،وكتاب الروضتين ١/ ٣٠٥ .
(٧) انظر الروضتين ١/ ٤٧٩-٤٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل ،فهما يكتبان بلغة مسجوعة ، ومن أمثلة السجع في كتابة العماد ،ما ورد في أحد المنشورات التي وصف فيها الحمائم ،وكان نور الدين قد تقدم إليه بكتابة ذلك المنشور ،يقول : " وأنّها لميمونةُ المَطار ،مأمونة العِثار ، سالمةٌ على الأخْطار ،مهدّيةٌ في الأسْفار ، أمينةٌ على الأسْرار ، سابقة إلى الأوكار ، صادرة بالأوْطار ، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكفّار "(١) .

ومن أمثلة السجع في كتابة القاضي الفاضل ، ما ورد في كتاب التقليد الذي كتبه لأسد الدين عن الخليفة العاضد ،يقول :
" فالحمد لله القاهر فوق عباده ، الظاهر على من جاهر بعناده ، القادر الذي يَعْجَزُ الخلقُ عن دفع ما أودع ضمائر الغيوب من مراده "(٢) ، وقوله : " وجعله شهيدَ عصره ، وحجّةَ أمره ، وباب رزقه ، وسبيل حقه ، وشفيع أوليائه ، والمُسْتجارَ من الخطوب بلوائه "(٣) .

وكثر الجناس والطباق في أدب هذه الفترة ،وأصبح هذان اللونان من ألوان البديع الشائعة ، التي تميزت بها أساليب الكتاب ، وجنح بعض الكتاب الى تكلف الجناس والطباق في كتاباتهم ،ومن أبرز هؤلاء الكتاب القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني .

ومن أمثلة الجناس والطباق ما ورد في أحد المنشورات التي كتبها نور الدين (٤) ، يقول : " وتقدّمنا باسقاط كل مَكْس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة " ، وهنا طابق بين "بعيدة،وقريبة" و في قوله : " ايثارا للثواب الآجل على الحطام العاجل "، طابق وجانس بين " الآجل ، والعاجل".

وفي قول العماد من إحدى رسائله (٥) : " ولا زالت عوادي نعمه محدقة بأوليائه . . . . وعوادي نقمه محرقة لأعدائه ".

فقد جانس وطابق بين " نعمة ، ونقمه " ، وبين " مُحدِقَة ، ومحرقة" ، وطابق بين " أوليائه ، وأعدائه " .

وفي قوله : " الخادم يهنيء بما سناه الله من الظفر الذي أضحك سن الإيمان ، وحصل أهل الشّرك في شَرَك الخِذْلان " .

---

(١) انظر الروضتين ١/ ٥٢١ .
(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية/ ٣٨٣ .
(٣) نفسه / ٣٨٥ .
(٤) انظر المنشور في الروضتين / ٤٧٩-٤٨٠ .
(٥) انظر الرسالة في سنا البرق الشامي ١/ ٨٧-٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طابق بين " الشرك ،و الإيمان " ،وجانس بين " الشِّرك ،وشَرَك" .

ومن أمثلة الجناس والطباق في مكاتبات القاضي الفاضل ،ما ورد في احدى رسائل التعزية التي بعث بها من مصر الى الملك الصالح معزيا بوفاة نور الدين (١) .

فقد جانس الكاتب بين عدة ألفاظ في الرسالة ،ومنها : الجناس بين " سريره ، وسريرته " ، وبين " الوجوه ، والوجوم " ، وبين " مطوّة ، وممنوة " ، وبين " جار ، ومجار " ، وبين " جمعها ، وسمعها" وبين " وهب ، وذهب " ، وغيرها .

ونجد الطباق في الرسالة بين عدة ألفاظ ، منها : الطباق بين الوارد ، والصادر " ، وبين " صدع ، وجبر " ، وبين " أفل ، وطلع" وبين " طالع ،وغارب " ، وبين " ثلم جانب ، وسلم جانب " ،وبين" راحل ، ونازل " وبين " خرجبل ،وعلا جبل " ، وغيرها .

وفي كتاب التقليد بالوزارة الذي كتبه عن العاضد لأسد الدين (٢) نجد الجناس بين " عصره ، ونصره" ، وبين " التدريب ، والتجريب " ،وبين " العناد والعباد" وغيرها .

ونجد الطباق بين كل كلمتين متجاورتين في قوله : " وناط بك : العقد والحل ، والولاية والعزل ، والمنع والبذل ، والرفع والخفض ، والبسط والقبض ، والإبرام والنقض ،والتنبيه والغض ،والإنعام والانتقام . . .الخ"

وواضحٌ ما في النص من تكلّف وتصنّع ،إذ إنه يعجّ بالطباق .

ومن الجدير بالقول أن رسائل كل من القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني لها قيمة تاريخية اضافة الى القيمة الأدبية ، فكل منهما لسان الدولة الناطق باسمها ، ففي رسائلهما تسجيل للأحداث ،واذاعة للمنشورات ووصف للحصون والمعارك وتمجيد للأبطال . . . الخ .

وقد أسرف الكاتبان في الزينة اللفظية ـ كما أسلفنا ـ إلى درجة العبث بالألفاظ ، ومن ذلك أنّ العماد لقي القاضي يوما وهو راكب على فرس فقال له :" سر فلا كبا بك الفرس " ، فقال له الفاضل : " دام عُلا العماد " ، وكلا القولين يقرأ عكسا (٣) .

---

(١) انظرالرسالة في سنا البرق الشامي ١٥٦/١ – ١٥٩ .
(٢) انظر التقليد في مجموعة الوثائق الفاطمية /٣٨٣-٣٩٧ .
(٣) معجم الأدباء ١٩/ ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثمة تشابه إلى حدّ كبير بين الفاضل والعماد في السمات العامة لرسائلهما ، وقد أشاد بعض الأدباء والنقاد برسائل القاضي الفاضل وأجمعوا على تفوقه في مجال صناعة الإنشاء ،فقال ابنُ خلكان : " برز في صناعة الإنشاء وفاق المتقدمين ، وله فيه الغرائب مع الاكثار "(١) .

وأشاد القلقشندي بمعانيه فقال : " ومعاني القاضي الفاضل هي التي ترقص لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ، ويهجم قبولُها على النفوس من غير حاجب ولا بَوّاب "(٢) .

واشتهر العماد الأصفهاني في مجال كتابة الرسائل وكان رائداً من رواد مدرسة القاضي الفاضل ، قال ياقوت : " أجاد في الرسائل حتى زاحم القاضي الفاضل ، وكان ينشيء الرسائل بالفارسية فيجيد فيها إجادته بالعربية "(٣) .

وأشار كلّ من أبي شامة وصلاح الدين الصفدي الى طول نفسه : فقال أبو شامة : " طويل النفس في السجع والوصف "(٤) ، وقال الصفدي : " والعماد طويل النفس في قصائده ورسائله "(٥) .

---

(١) وفيات الأعيان ٣/١٥٨ .
(٢) صبح الأعشى ٢/١٨٩ .
(٣) معجم الأدباء ١٩/١٤ .
(٤) كتاب الروضتين ١/٨ .
(٥) الوافي بالوفيات ١/١٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتمـــــــة

تناولت في هذا البحث موضوع " نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية " ، ولا شك في أن شخصية هذا البطـــــل المسلم بجوانبها المختلفة ، وبما تجسد فيها من فضائل ومبادئ ومثـــل عليا جديرة بالاهتمام ، فنور الدين يمثل الحاكم المسلم الغيور على مصالح أمته ، إذ نذر نفسه لخدمتها ، والذود عن حماها ، وحماية دينهـــــا ومقدساتها .

ولعل أهم عنصر من العناصر التي استمد منها البطل قوته ،وأبرزته وجعلت أعماله تتوج بالنجاح هو انتماؤه للعقيدة الاسلامية ، واتخـــاذه القرآن دستورا يرجع إليه في حكمه .

وقد أبرز البحث دور نور الدين في تنشيط الحركة الأدبيـــــة والفكرية ، وأكد التفاف الأدباء والعلماء حوله ، وتشجيعه للعلـــــم وتقديره للعلماء ، واعتماده على الأدباء والعلماء في مهام مختلفـــــة ، وتقريبهم ومشاورتهم .

وبيّن البحث مدى اهتمام نور الدين بالنواحي العمرانية كبنـــاء المساجد والمدارس والأسوار والربط والزوايا والخوانق . . . الخ .

وأعطى صورة واضحة المعالم عن سيرة نور الدين وبيّن بعـــض التفصيلات عن حياته العامة والخاصة ، كما بين دور الأدباء فـــي إبراز الشمائل الرفيعة والصفات التي تحلى بها ، والفضائل التـــي تجسدت في شخصيته .

وظهرت من خلال النصوص الأدبية كفاية نور الدين الإداريـــة والسياسية والعسكرية .

وكشف البحث عن تركيز الأدباء على صورة البطل المسلم وإبرازه في قصائدهم ومكاتباتهم الجهادية ، وذلك لإيمانهم بدوره العظيم فـــي تحقيق أهداف الأمة ، إذ إنه يمثل أمل الأمة في النصر والتحرير .

وتبين من خلال الدراسة ملازمة نور الدين الجهاد ، وظهر الهدف الحقيقي لمعاركه وهو القتال من أجل رفع راية الاسلام وتحريـــــر المقدسات ، ولا يكون ذلك إلاّ بطرد الصليبيين من أرض المسلميـــن وتطهيرها منهم ، ولذا فقد أشاد الأدباء بانتصاراته ورفعوا مكانتـــه ، وصوروا عزمه وتصميمه على استرداد المقدسات الاسلامية ،فالمنبر الـــذي عمله في حلب برسم المسجد الأقصى قبل تحريره من قبل صلاح الديـــن بتسعة عشر عامًا من المؤشرات التي تدل على تطلّع نور الدين لإنقـــاذ المقدســات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصور الأدباء اقتداء نور الدين بالسلف الصالح والنهج الذي سار عليه في حياته من حيث انه يمثل مدرسة أخلاقية فاضلة .

وسجل البحث صورة مشرقة لسعي نور الدين من أجل توحيد البلاد الاسلامية ، وبذله الجهود لتحقيق هذا الهدف .

وتبيّن من الدراسة تذوق نور الدين الأدب واستحسانه كثيرًا من القصائد .

ولا يخفى على قارىء النصوص الشعرية والنثرية مدى إعجاب الأدباء بنور الدين القائد الفذّ ، مما شحذ قرائحهم ، كما أن شاعر نورالدين لم يظهر بمظهر المتكسب في شعره ، وهو ملتزم بقضايا أمته المصيرية .

وظهر تمسك الأدباء بدينهم وعقيدتهم وتراث أمتهم وأمجادها ، وعبر هؤلاء الأدباء في إنتاجهم تعبيرًا صادقا عن مشاعرهم ومشاعر المسلمين جميعًا بضرورة التحرك من أجل مجابهة العدو .

وتبين من خلال النصوص الأدبية حماسة الأدباء وحميتهم وغيرتهم على الوطن الاسلامي بعيدًا عن الإقليمية ، فكان لهم دور بارز في تصعيد حركة الجهاد .

وأظهرت الدراسة مواكبة الشعر والنثر لانتصارات نور الدين وتسجيلها . وظهر أن الأدباء يؤمنون بالنصر حتى في وقت الهزيمة ، مما يدل على إيمانهم الراسخ بنصر الله .

وسجل الأدباء هزائم الصليبيين وسخروا من أسراهم وقتلاهم ، ومجّدوا الدين الذي كان حافزًا في الصراع بين المسلمين والصليبيين .

وقدّمت الدراسة تعريفًا بعدد من الأدباء الذين كانت لهم علاقات بنور الدين ، وكشفت عن طبيعة هذه العلاقات .

كما قدمت موجزًا لأهم سمات الشعر والنثر وعرضًا لبعض المقاييس الأدبية في الفترة التي عاشها شعراء نور الدين وكتّابه ، فتبيّن من ذلك : اتباع شعراء نور الدين من سبقهم من الشعراء ولاسيما شعراء العصر العباسي في نهجهم من حيث : شكل القصيدة والأساليب والصور والتراكيب واللغة . ولم يبرز ابداعهم وتجديدهم إلاّ قليلا .

وظهر من خلال الدراسة نوعان من القصائد التي تمجد نور الدين : الأولى تفتتح بمقدمة غزلية وهذه القصائد قليلة ، والثانية يبتعد فيها الشاعر عن المقدمات الغزلية ويفتتحها بما يتناسب وموضوعها ، وغالبا ما تكون مقدماتها حماسية ، ولاسيما قصائد الشعراء في الجهاد ، وهي كثيرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووجدت في أثناء البحث قصائد مطولة ومقطعات شعرية ،كما أن بعض الشعراء نظموا على وزن الدوبيت (البيتان) كالعماد الأصفهاني .

وكان الاتجاه نحو البديع والالتزام بالمحسنات اللفظية والمعنوية من أهم المقاييس الأدبية في تلك الفترة ، فطغى الطباق والجناس على الشعر والنثر ، كما تميز النثر بالسجع .

ومن الملاحظ أن البديع لم يفسد الشعر والنثر الذى قيل في نور الدين وصور معاركه .

ومن الطبيعي أن يظهر بوضوح تأثر الأدباء بالقرآن الكريم ويبرز الأثر الاسلامي بشكل لافت للنظر ، وذلك لوجود الصراع الديني بين المسلمين والصليبيين ، ولارتداد الشعراء إلى تراثهم الاسلامي ليستمدوا منه القوة لمجابهة العدو ، وهذا واضح في النصوص الأدبية التي تتحدث عن الجهاد .

ومن أهم النتائج التي تمخض عنها البحث تصحيح بعض المفاهيم السائدة ،ومن ذلك : دحض مبالغات بعض المؤرخين والمؤلفين المعاصرين حول ما أسموه بالوحشة بين نور الدين وصلاح الدين .

وناقش البحث مفهوماً آخر وهو أن نور الدين " قليل الابتهاج بالشعر"، وأثبت عشق نور الدين الشعر وطلبه من الشعراء أن يقولوا أشعاراً في مناسبات عديدة عرضت في أثناء البحث .

ومن المفاهيم السائدة أن هذه الفترة ، فترة جمود وانحطاط ، وقد أثبت البحث عكس ذلك ، وذلك من خلال الاطلاع على الانتاج الأدبي الغزير الذي أفرزته الحروب الصليبية .

ومن أهم قيم الأدب الذي تحدث عن نور الدين، إضافة إلى القيمة الأدبية ، القيمة التاريخية المتمثلة في تسجيل الأدب للوقائع والأحداث الجسام ، من حيث أن الأدب سند للتاريخ ، وقيمة حماسية تتمثل في الاستشهاد في سبيل الله ، وما يعد للشهيد من حسن الثواب . وقيمة دينية ،تتمثل في الغيرة على الدين والمقدسات ، وقيمة جغرافية تتمثل في ذكر الأدباء المواقع المختلفة كالمدن والقلاع والحصون ، وتحديدهم بعض المسافات والاتجاهات . ونستشف من الأدب أيضاً قيمة سياسية تتمثل في فض الخصومات ، ومراسلات نور الدين وعلاقاته مع جيرانه من المسلمين ، وقيماً اقتصادية واجتماعية ، تتمثل في إسقاط نور الدين للضرائب والمكوس ، وفي نشره العدل ومحافظته على الاستقرار والأمن . ونجد في الأدب قيمة أخلاقية تتمثل فيما يتحلى به نور الدين من الفضائل والمثل والشمائل الكريمة .

وأخيراً ، أسأل الله أن أكون قد أصبت في بحثي ، فلا توفيق إلّا بالله ، وان جانبني الصواب ، فحسبي أني سعيت واجتهدت .

والله من وراء القصد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

١ - ابراهيم زكي خورشيد دائرة المعارف الاسلامية ، أصدرها أئمة المستشرقين في العالم ، النسخة العربية ، اعداد ابراهيم زكي خورشيد وآخرين ، المجلد الثالث ، دار الشعب القاهرة (دون تاريخ) .

٢ - ابن الأثير (ت : ٦٣٧هـ) :ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٩ .

٣ - ابن الأثير (عز الدين) ، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ت (٦٣٠ هـ) : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل) ، تحقيق عبد القادر احمد طليمات ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، ١٩٦٣ .

٤ - ابن الأثير (عز الدين) الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ج ١١ ، دار صادر - دار بيروت ، ١٩٦٦ .

٥ - أحمد أحمد بدوي الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة - القاهرة (دون تاريخ) .

٦ - أحمد الشايب أصول النقد الأدبي ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ .

٧ - أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

٨ - أسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) الاعتبار ، حرره فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ .

٩ - أسامة بن منقذ ، ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠- ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم (٦٦٨ هـ) :
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د ١٩٦٥ .

١١- ابن اياس الحنفي ، محمد بن أحمد ، :
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الطبعة الأولى تحقيق محمد مصطفى ، الجزء الأول القسم الأول ، دار النشر : فرانز شتاينر فيبادن ، ١٩٧٥ .

١٢- باركر ، آرنست باركر ،
الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية ، بيروت- لبنان (دون تاريخ) .

١٣- البحتري ، ديوان البحتري
ديوان البحتري ، المجلد الثاني ، دار صادر- دار بيروت ، ١٩٦٢ .

١٤- بشار بن برد ،
ديوان بشار بن برد ، الجزء الأول ، الشركة التونسية للتوزيع ، (دون تاريخ) .

١٥- البكري ، أبو عبيد البكري الأندلسي :
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب - بيروت (دون تاريخ) .

١٦- البنداري ، قوام الدين الفتح بن علي ، :
سنا البرق الشامي ، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧١ .

١٧- ابن تغري بردي ، جمال الدين بن تغري بردي الأتابكي (٨٧٤ هـ) :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . (دون تاريخ) .

١٨- أبو تمام
ديوان أبي تمام ، بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ١٩٦٤ .

١٩- جابر عصفور
الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، الطبعة الثانية ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٠- جب ، هاملتون جب
صلاح الدين الأيوبي (دراسات في التاريخ الإسلامي) ، حررها يوسف أبيش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ، ١٩٧٣ .

٢١- جب ، هاملتون جب ،
دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة إحسان عباس وآخرين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٤ .

٢٢- ابن جبير ، محمد بن أحمد بن جبير (٦١٤ هـ) :
رحلة ابن جبير ، طبعة جديدة منقحة بإشراف لجنة تحقيق التراث ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١ .

٢٣- الجرجاني ، القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن (٣٩٢هـ) :
الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٥ .

٢٤- جمال الدين الشيال
مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الأول ، جمعها وحققها وأعدها للنشر جمال الدين الشيال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٢٥- ابن الجوزي ، سبط بن الجوزي (٦٥٤ هـ) :
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، القسم الأول من الجزء الثامن ، ط ١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد - الهند ، ١٩٥١ .

٢٦- حسن عباس
أسامة بن منقذ - حياته وشعره ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

٢٧- حسن عباس ،
أسامة بن منقذ - الكاتب الناقد المؤرخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الاسكندرية ، ١٩٨١ .

٢٨- حسين مؤنس ،
نور الدين محمود (سيرة مجاهد صادق) ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٧ ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٢٩- الحميري ، محمد بن عبد المنعم الحميري (٩٠٠) هـ ، :
الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه احسان عباس ، مكتبة لبنان - بيروت ، طبع في دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٠- ابن خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي (٨٠٨)هـ ، :
تاريخ ابن خلدون المسمى - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٧١ .

٣١- ابن خلكان ، (٦٨١) هـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، حققه إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ١٩٧٧ .

٣٢- دريد عبدالقادر نوري سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ، بغداد ، مطبعة الرشاد ، ١٩٧٦ .

٣٣- ابن الدهان ، ابن أسعد الموصلي (٥٨١)هـ :
ديوان ابن الدهان ، حققه وأعد تكملته عبدالله الجبوري ، مطبعة المعارف ،بغداد ، ط ١ ، ١٩٦٨ .

٣٤- الذهبي ،(٧٤٨)هـ دول الإسلام ، ط ٢ ، جمعية دائرة المعارف العثمانية . (دون تاريخ) .

٣٥- الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبع في مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٦٣ .

٣٦- رشيد الجميلي ، دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ط ١ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٠ .

٣٧- ابن رشيق القيرواني (٤٦٣)هـ :
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

٣٨- رنسيمان ،ستيفنسن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية السيد الباز العريني ،دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٣٩- الزركلي ،خير الدين الزركلي: الأعلام ، الطبعة الثالثة ، (دون تاريخ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٠- زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨ .

٤١- الزمخشري ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر :
أساس البلاغة ، دار صادر - بيروت ، ١٩٧٩ .

٤٢- السمعاني ، الإمام أبو سعد عبد الكريم السمعاني (٥٦٢) هـ :
الأنساب ، حققه محمد عوامة ، الناشر محمد أمين دمج ، بيروت - لبنان ، مطبعة محمد هاشم الكتبي ، ط ١ ، ١٩٧٦ .

٤٣- السيد ادي شير ، معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، مكتبة لبنان ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٠ .

٤٤- السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط ١ : ١٩٦٤ ، ط ١ : ١٩٦٥ .

٤٥- شاكر أحمد أبو بدر الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢ .

٤٦- ابن شاكر الكتبي ، محمد بن شاكر الكتبي (٧٦٤) هـ :
فوات الوفيات ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة ، ١٩٥١ .

٤٧- ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم ١٩٧٧ .

٤٨- أبو شامة ، الحافظ المؤرخ شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي (٦٦٥) هـ :
تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين ، نشر عزت العطار الحسيني دار الجيل - بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٩- أبو شامة ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) ، تحقيق محمد حلمي مراجعة مصطفى زيادة ، الجزء الأول : القسم الأول والثاني ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٢ .

٥٠- ابن شداد ، (٦٣٢)هـ ، بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٥١- ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم ، : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة دمشق) عني بنشره وتحقيقه سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٢ .

٥٢- الصفدي ، صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات ، دار النشر : فرانز شتاينر ، ط ٢ ، ١٩٦٢ .

٥٣- صفي الدين البغدادي ، عبد المؤمن بن عبد الحق (٧٣٩)هـ : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، وهو مختصر معجم البلدان ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١ ، ١٩٥٤ .

٥٤- الطباخ الحلبي ، محمد راغب بن محمود بن هاشم : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، طبع في المطبعة العلمية في مدينة حلب ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٩٢٣ ، والجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٤ .

٥٥- طلائع بن رزيك (٥٥٦)هـ : ديوان طلائع بن رزيك ، جمعه وبوّبه وقدم له محمد هادي الأميني ، من منشورات المكتبة الأهلية ، ط١ ، ١٩٦٤ .

٥٦- عبد الجليل عبد المهدي : الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري ، مكتبة الأقصى - عمان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٧- عبد السلام هارون : المعجم الوسيط ،أشرف على طبعه عبد السلام هارون ، مجمع اللغة العربية ، مصر ،١٩٦١ .

٥٨- عبد القادر الرباعي : الصورة الفنية في شعر أبي تمام ،اربد الأردن ،نشر بدعم من جامعة اليرموك ، ط١ ، ١٩٨٠ .

٥٩- عبد اللطيف حمزة : أدب الحروب الصليبية ،ط ١ ،دار الفكر العربي ، مطبعة الاعتماد بمصر ، ١٩٤٩ ، والطبعة الثانية ، ١٩٨٤ .

٦٠- ابن العبري ،أبو الفرج غريغوري الططي : تاريخ مختصر الدول (دون تاريخ) .

٦١- أبو العتاهية : ديوان أبي العتاهية ،كرم البستاني ، دار صادر - بيروت ، ١٩٨٠ .

٦٢- ابن العديم ، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة ، كمال الدين العقيلي الحلبي ، المعروف بابن العديم (٦٦٠)هـ :
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان (دون تاريخ) .

٦٣- عرقلة الكلبي ، حسان بن نمير (٥٦٧)هـ :
ديوان عرقلة الكلبي ،تحقيق أحمد الجندي ، مطبعة دار الحياة ، دمشق ، ١٩٧٠ .

٦٤-ابن عساكر (٥٧١)هـ ، الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي :
تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الأولى ،تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق (دون تاريخ) .

٦٥- ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق ،هذّبه عبد القادر بدران ، دار المسيرة ، بيروت ،ط ٢ ، ١٩٧٩ .

٦٦- العماد الأصفهاني (٥٩٧)هـ :
تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الشيخ الإمام الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني ، ط٢ ، ١٩٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٧- العماد الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر: أ) قسم شعراء الشام ، تحقيق شكرى فيصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ب) وقسم شعراء مصر ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة (دون تاريخ) ، جـ) وقسم شعراء العراق ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٦٤ .

٦٨- العماد الأصفهاني ، ديوان العماد الأصفهاني ، تحقيق ناظم رشيد ، ١٩٨٣ .

٦٩- ابن العماد الحنبلي ، عبدالحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩)هـ: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عن نسخة المصنّف المحفوظة في دار الكتب المصرية ، دار المسيرة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩ .

٧٠- عمر موسى باشا ، أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ، دار الفكر الحديث ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٦٧ .

٧١- الغزي ، كامل بن حسين بن مصطفى الحلبي الشهير بالغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ، طبع في المطبعة المارونية بحلب ، (دون تاريخ) .

٧٢- ابو الفداء (٧٣٢)هـ ، الملك المؤيد اسماعيل (أبو الفداء) صاحب حماة ، المختصر في أخبار البشر ، المجلد الثاني ، دار الكتاب اللبناني - بيروت (دون تاريخ) .

٧٣- ابن قاضي شهبة (٨٧٤)هـ ، بدر الدين بن قاضي شهبة : الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي) ، تحقيق محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، ط١ ، بيروت - لبنان ، ١٩٧١ .

٧٤- قدامة بن جعفر (٣٣٧)هـ: نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، بغداد ، ط٢ ، ١٩٦٣ .

٧٥- القزويني (٧٣٩)هـ ، محمد بن عبدالرحمن القزويني الخطيب : التلخيص في علوم البلاغة ، شرح عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٦- ابن القلانسي ،أبو يعلى حمزة بن القلانسي (٥٥٥)هـ:
ذيل تاريخ دمشق ، طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعية ، ١٩٠٨ .

٧٧- القلقشندي ، الشيخ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (٨٢١)هـ :
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ،ج ٧ ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩١٥ ،والأجزاء : ١ ، ٢ ، ١١ ، دار الكتب المصرية ،١٩٢٢ ، ١٩١٣ ، ١٩١٧ على الترتيب .

٧٨- كامل مصطفى الشلبي ، ديوان الدوبيت في الشعر العربي ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٧٩- ابن كثير ، الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤)هـ :
البداية والنهاية في التاريخ ج ١٢ ، دار الفكر العربي (دون تاريخ) .

٨٠- الكلاعي (من أعلام القرن السادس) ذو الوزارتين أبو القاسم بن عبد الغفور الكلاعي .
: احكام صنعة الكلام ، تحقيق محمد رضوان الداية ، بيروت - دار الثقافة ، ١٩٦٦ .

٨١- المتنبي ، شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان ، ١٩٨٠ .

٨٢- المتنبي ، ديوان المتنبي ،بشرح أبي البقاء العكبري تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، ط٢ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٦ .

٨٣- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ،قدمه محمد بحر العلوم ، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف ، ١٩٦٨ .

٨٤- محمد عبد المطلب مصطفى اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٥- محمد علي الهرفي ، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ،الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٨٦- محمد العمروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، دار الغرب الاسلامي - بيروت ، ١٩٨٢ .

٨٧- محمد كرد علي ، خطط الشام ، المطبعة الحديثة بدمشق ١٩٢٥ .

٨٨- محمود ابراهيم صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، نشر المكتب الإسلامي - دمشق ، ومكتبة الأقصى - عمان ،ط١ ، ١٩٧١ .

٨٩- المقريزي ،أحمد بن علي المقريزي (٨٤٥)هـ:
السلوك لمعرفة دول الملوك ، صحّحه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة ، الجزء الأول - القسم الأول ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٩٠- المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،المعروف بالخطط المقريزية ،ج١ : مكتبة المثنى ،بغداد ، ج٢ + ج٣ ، تصدرهما دار التحرير للطبع والنشر عن طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ .

٩١- ابن منظور ،جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (٧١١)هـ :
لسان العرب ، دار صادر - بيروت (دون تاريخ) .

٩٢- ابن منير الطرابلسي(٥٤٨)هـ ديوان ابن منير ، جمعه وقدم له عمر عبد السلام تدمري ،دار الجيل ، بيروت - لبنان ،ط١ ، ١٩٨٦ .

٩٣- ابن منير الطرابلسي ، شعر ابن منير الطرابلسي
جمعه وحققه وقدم له سعود محمود عبد الجابر ، جامعة قطر ،ط١ ،دار القلم - الكويت، ١٩٨٢ .

٩٤- النابغة الذبياني ، ديوان النابغة الذبياني ،جمع وشرح الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، الشركة التونسية (دون تاريخ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩٥- نصرت عبد الرحمن ، شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ (العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع) مكتبة الأقصى ، عمان ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧ .

٩٦- النعيمي ، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (٩٢٧)هـ :
الدارس في تاريخ المدارس ،
نشر جعفر الحسيني ، مطبعة الترقي بدمشق
١٩٤٨ .

٩٧- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (٧٣٣)هـ:
نهاية الأرب في فنون الأدب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ،
(دون تاريخ) .

٩٨- هادي نهر ، معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، رقم ٩٠٣ ،
١٩٧٥ .

٩٩- ابو هلال العسكري (٣٩٥)هـ :
كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، تحقيق البجاوي - ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٩٥٢ .

١٠٠- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (٦٩٧)هـ :
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، الجزء الثاني (عصر صلاح الدين) ، نشره وحققه جمال الدين الشيال . المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٥٧ .

١٠١- الوهراني ، أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني (٥٧٥)هـ:
منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نفش ، مراجعة عبد العزيز الأهواني ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، فرع مصر ، ١٩٦٨ .

١٠٢- ياقوت الحموي (٦٢٦)هـ ، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، معجم البلدان ، دار صادر - بيروت ١٩٥٥ ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، والقاهرة - ١٩٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٣- ياقوت الحموي ، معجم الأدباء راجعته وزارة المعارف العمومية دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٣٨ .

الدوريـــــات :

١٠٤- مجلة المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث ، الدولة النورية (العمارة) .

١٠٥- مجلة المورد ، المجلد الثاني ، العدد الأول .

المراجع الأجنبيـــة :

١٠٦- Dozy, Reinhart Pieter Anne, Supple'ment aux dictionnaires, arabes, Beyrouth, Librairie du liban, 1968.

١٠٧ - Elisseeff, Nikita, Nur- Addin- Ungrand- Prince Musulman, Tome I,II,III-Damas 1967. (Institut Francais De Damas).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(أ)

ابن الأثير (ضياء الدين) ١٦٨ ، ١٧٢
ابن الأثير (عز الدين) ٢٥ ، ٤٠ ، ٧٤ ، ٧٥
ابن أبي جرادة ١٦٣
ابن أسعد الموصلي ٨١ ، ٩٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٩٣ ، ٢٠٤
ابن الفنش ٨٩ ، ١٥٠
ابن أوس ١٣٣
ابن جبير ١٢ ، ١٣ ، ١٧٠
ابن حمدان (سيف الدولة الحمداني) ١٣٣
ابن الحوراني (أبو البيان محمد) ٤
ابن خلكان ١٣٥ ، ٢٢٣
ابن رشيق القيرواني ٢٨٠
ابن رواحة الحموي ١٥٩
ابن الزغلية الكاتب ١٦٠
ابن أبي طي الحلبي ٧٥
ابن عساكر (الحافظ علي بن الحسن ابن هبة الله أبو القاسم بن عساكر) ٢ ، ٣ ، ٦ ، ١٠٠ ، ١٣٠ ، ١٥٤ ،
ابن قاضي شهبة ٢٣
ابن قسيم الحموي ٤٤ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ١٤٢ ، ١٩٥
ابن القلانسي ٢٤ ، ٢٨
ابن القيسراني ،(محمد بن نصر) ورد في معظم صفحات الرسالة ومنها : ٢٦ ، ٨٦
ابن المقدّم (شمس الدين) ٨٣
ابن النقاش (أبو الحسن علي) ٨
ابن أبي الوقار (أبو الفضل اسماعيل) ٨
أبو البركات (الخضر بن شبل بن عبد الحارثي) ٢ ، ١٦
أبو بكر (رضي الله عنه) ١٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي) ١٧٣ ، ١٧٤
أبو جعفر النحوي (محمد بن عبد الله الصقلي) ٣ ، ٧
ابو حنيفة ١ ، ١٦
أبو سعد السمعاني (تاج الاسلام عبد الكريم بن محمد) ٧
أبو شامة ٥ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٧٦ ، ١٣٧ ،
أبو غانم بن المنذر ٤٨
أحمد بن منير الطرابلسي ورد في معظم صفحات الرسالة ومنها : ٢١ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٨٩
أحمد (ابن نور الدين) ٢٥
أسامة بن منقذ ٧ ، ٢٧ ، ٦٨ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٢
أسد الدين شيركوه ١٢ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٣ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٠١ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٤٨
الاسكندر ١٣٤
اسماعيل (الملك الصالح) ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠

(ب)

البحتري ١٣٣ ، ١٧٣
برهان الدين (ابو الحسن علي بن الحسن البلخي الحنفي) ٢ ، ١٦
البغدويين ١٠٢ ، ١٥٠ ، ١٩٣

(ت)

توران شاه بن أيوب (شمس الدولة) ٧٩

(ج)

جرديك بن عبد الله النوري ٥٥ ، ١٠١
جرير ١٤٠
جلال الدولة ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان ٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جمال الدين بن الرحبي ٩
جوسلين ٨١، ٨٧، ٩٢، ٩٣، ١٥٠، ١٩٣، ٢١٦

حاتم (الطائي) ١٣٤
حسان بن ثابت ١٣٤
حيدر (علي بن أبي طالب) ١٣٤

(خ)

خاتون (عصمت الدين ، زوج نور الدين) ١٢، ١٨،
خالد بن القيسراني ١٥٨، ١٦٤، ٥٠٠، ١
داوود (عليه السلام) ١٣١، ١٣٢
الدستق ٢٠٤

(ر)

الرشيد (الخليفة العباسي) ١٣٣

(ز)

زكي الدين القرشي (أبو الحسن علي) ٥١
زين الأمناء بن عساكر ١٠
زين الدين بن نجا الواعظ ٣

(س)

سرخاك (والي بصرى) ٥٩
سعد الدين كشتكين ٥٥
السفاح (العباسي) ١٣٣
سكرة الحلبي ٨
سلمان (الفارسي) ١٣٣
سليمان بن داوود (عليه السلام) ١٣١، ١٣٢
سنجر ١٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السري (أبو الحسن بن أحمد بن السري الكندي) ١٣٣
سيف الدين غازي ٢١ ، ٢٥ ، ٦١ ، ٨٩
سيف الدين محمد بن أيوب ١٧

(ش)

شاكر بن عبد الله (القاضي أبو اليسر) ١٦١
شاور بن مجير السعدي ٥٣ ، ٦٩ ، ٧٠
شرف الدين ابن أبي عصرون ٣ ، ١٦ ، ١٩ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٧٣ ، ٧٨
شهاب الدين مالك بن علي العقيلي ٥٨
شعيب ابن أبي الحسن بن الحسين بن أحمد
(الشيخ شعيب الفقيه الأندلسي) ٢ ، ١٦
شمس الدين علي بن الداية ٨٢

(ص)

صالح (عليه السلام) ١٣٢
الصفدي ٢٣٦
صلاح الدين بن الياغيسياني ٢٣
صلاح الدين يوسف بن أيوب ورد في كثير من صفحات الرسالة ومنها :
١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٤ ، ٧٠ ،
٧٢ ، ١٣٩ ،

(ض)

ضرغام (الوزير الفاطمي أبو الأشبال) ٦٩ ، ٧١

(ط)

طلائع بن رزّيك (الملك الصالح) ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨

(ع)

العاضد (الخليفة الفاطمي) ٢٣٠ ،
عبد المؤمن بن شَوَرْوَة (شرف الدين) ٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عرقلة الكلبي ٥٣، ٥٤، ٧٠، ١٥٣،
عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ٢٠
العزيز ١٣٣
عطاء بن حفاظ السلمي (الخادم) ٦٤
علم الدين الشاتاني ١٠٤، ١١٧، ١٣٤، ١٨٩
علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ١٣١
علي بن السلار (الملك العادل أبوالحسن) ١٦٣
عماد الدين الأصفهاني ورد في معظم صفحات الرسالة ومنها ٧، ٣٩، ٤٥، ١٣٥
عماد الدين زنكي ٣، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٣٢، ٥٣، ٥٨
عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ٧، ١٣١
عمر بن عبد العزيز ٣٢، ١٣١، ١٣٧
عمر الملاّ ٤، ٣٤
عمرو بن الحارث ٢٠٧
عيسى ابن أبي بكر بن أيوب (الملك المعظم) ١٧

(ف)

فخر الدين بن الساعاتي (رضوان بن محمد) ٩
فخر الدين عبد المسيح ٦٧
الفرزدق ١٣٩،
القاضي الفاضل ٣١، ٤٨، ٧٦، ١٥٧، ١٥٨، ٢٢٨، ٢٢٩،

(ق)

قس بن ساعدة ١٣٤
قسيم الدولة آق سنقر ٢٠، ٢٢
قطب الدين مودود ٢١، ٢٥، ٢٦، ٦٦، ٩٨
قطب الدين النيسابوري (مسعود بن محمد الطريثيثي) . ٢، ٥، ١٢، ١٦
قطب الدين ينال بن حسان ٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قليج أرسلان بن مسعود ٥٩، ١٢٨، ١٩٦
القلقشندي ٢٣٦،

(ك)

كمال الدين الشهرزوري ٤، ١٠، ١٥، ٥١، ٧٩، ٨٢، ٨٣

(م)

المتنبي ٢٠٤
مجد الدين بن الدايـة ١٢، ١٨، ٤٠، ٥٥، ١٠١
مجير الديـن آبق ١٣، ٦٢، ٦٣، ٩٤
محمد بن المؤيد الالوسي ١٥٦
محمود ابراهيم ١٣٧، ١٣٩، ٢٠٣
المستضيء بالله (العباسي) ٧٤، /٧٩
المستنصر ١٣٣
المعز ١٣٣
معين الدين أنـر ٢٤، ٦٠، ٨٩
الملك الصالح اسماعيل ٨٣
الملك مري ٦٩
المنتجب (أبو عثمان بن أبي محمد البحترى الواسطـي) ٩
المنتخب (أبو سالم عبد الرحمن الحلبي) ١٦٣
المنصـور ١٣٣
المهـدي ١٣٣
المهذب بن الزبير ١٢٧، ١٥٢، ١٩٣
مهذب الدين بن النقاش ٨
مؤيد الدين أبو الفضل (محمد بن عبد الكريم) ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ن)

نجم الدين أيوب ٥٣

نصرة الدين أمير أميران ٢١، ٢٥، ٢٦، ٢٨

نصرت عبد الرحمن ١٧١، ١٨٨

نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ورد في معظم صفحات الرسالة

(هـ)

هود (عليه السلام) ١٣٢

(ى)

ياقوت الحموي ١٣٥، ٢٢٣

يحيى بن محمد الوهراني ١٣٩

اليسع (عليه السلام) ١٣٢

يعقوب (عليه السلام) ١٥٤

يوسف الصدّيق (عليه السلام) ١٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرست البلدان

(أ)

إربل ٩
أرتاح ٨٨
أرمينية ١٦٤
الاسكندرية ٧٣
اسوان ١٤٩
آسيا الصغرى ٩٤
اصبهان ٢
اصفهان ١٤٣
افامنيا ٩٠
آمد ٥٢
أم القسرى ٦٥
انب ١٧٤، ٩٠، ١٧٤٠
الأندلس ٢
أنطاكية ٢١١، ١٢٥
انطرطوس ٦٠
ايليا ٦٢

(ب)

باب بزاعة ٥٨
البارة ٨٨، ٩٢
بانياس ٢١، ٢٦، ٩٧، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٩٤٠
برج الرصاص ٩٢، ١٩٢
بسرفود ٨٨
بصرى ٨٨، ٨٩، ١٦٤
بعلبك ٣، ٥، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩٠
بغداد ٣، ٨، ٢٠، ١٣، ٧٩، ١٠١، ١٣٨، ١٤٣، ١٧١٠
البقيعة ٦٠، ١٤٤٠
البلقاء ١٦٢
بهسنا ٩٩
بيت المقدس ١٦، ١٨، ٦٢، ٦٥، ٦٩، ٨١، ١٢٢، ١٨٨٠
بيسان ١٥٧

(ت)

تكريت ١٤٣
تل باشر ٩١، ٩٣، ١٥٠، ١٩٢، ٢١٠، ٢١٦٠
تل خالد ٩٢
تل عزاز ١٥٠، ١٩٢، ٢١٠
تلمسان ١٣٨

(ج)

الجزيرة ٢٠، ٢٧، ٤١، ٤٧
جعبر (قلعة) ١٠، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ١٣٥، ١٤٧
الجولان ١٧٤
جيرون ١٨٨

(ح)

حارم ١٥١، ١٩١،
حبشة ١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حران ١٤
حصن الاكراد ٥، ١٤٤، ٢٠٣
حصن باره ٨٨
حصن العريمة ٦٠، ٦١، ٨٨
حصن كيفا ١٤٨
حصن المنيطرة ٩٧
حلب ذكرت في معظم الصفحات ومنها: ١٠، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٩، ١٣٥، ١٣٦
حماة ٢٣، ٢٧، ١٥٩، ١٦١
حمص ٥، ٢٧، ٢٨، ٣٦، ١٤٣، ١٤٤
حنين ١٣٣، ١٤٥
حوران ٨٨

(خ)

الخابور ٥٢
خراسان ٢، ٥
خلاط ١٦٤

(د)

داريا ١٣، ١٣٨
درب هارون ٣
الدروب ١٢٥
دلوك ٩٣، ٢١٦،
دمشق ذكرت في معظم صفحات الرسالة ومنها: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨،
دمياط ٩٨
دوسر (قلعة جعبر) ٢٠
ديار بكر ٥٢
ديار الجزيرة ٤٧، ٨١
ديار ربيعة ٤١، ٥٢

(ر)

الراوندان ١٩٢
الرحبة ٢٠
رشيدة ١٥٦
الرقة ٥٢
الرملة ٩٨
الرها ١٣٦، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٥،

(ز)

زنجان ٤

(س)

سبا ١٠٩
سروج ٥٨
سنجار ٣، ٢٩
السواد ١٦٦
سيح ٩٠

(ش)

شاتان ١٥٥
الشام وردت في كثير من صفحات الرسالة ومنها: ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٢٩، ٣٠
الشلالة ١٩١
شهرزور ١٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشوبك ١٥٨
شيزر ٤٦، ٤٨، ١٤٨

(ص)

صرخد ١٥٦، ٢١٤
صريفين ٣
صفد ٨٦، ٩٤
صفين ٢٠
الصين ١٤٧، ١٥٥، ١٨٩

(ط)

طبرية ٨١، ٩٤
طرابلس ٦٠، ١٣٥، ١٨٨

(ع)

العراق ٣، ٢٩، ١٢٦، ١٨٠
عرقة ٩٩
العريش ١٧، ١٢٥
العريمة ٦٠، ٦١، ٨٩، ٢١٦
عزاز ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣
عسقلان ٩٨، ٤٥٧
عكا ١٣٦
عمان ١٦٢
عمورية ١٧٤

(غ)

غزة ٩٨، ١٦٣، ١٦٤
الغوطة ١٣٨

(ق)

القاهرة ٤٩، ٢٢٦
القدس ١٥٤، ١٧٦، ١٨١، ٢٠٠
قطنا ١٢٦
قنسرين ١٤، ٦٨
قورس ٩٢، ٩٣
قوص ١٢٧
قونية ٩٤
قيسارية ١٣٦

(ك)

الكرك ١٥٨، ١٦٢
كفر لاشا ٨٨

(ل)

اللاذقية ٨٠

(م)

مرعش ٩٩، ١٦٥
مصر ذكرت في معظم الصفحات ومنها: ١٤٨، ١٥١، ١٥٧
المعرة ٨
المغرب ٢٠
الملاحة ٥٨، ٨١، ٩٤
منبج ٣، ١٤، ١٥، ٥٨، ١٢٥، ١٤٧
الموصل ١، ٣، ٤، ١٣، ٤٧، ٤٩، ٥٢، ٥٥، ٦٦، ٦٧، ٧٩، ٨١، ١٨١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ن)

نابلس ١٢١، ١٨٨
نصيبين ٥٢

(هـ)

هـاب ٨٨
همذان ١٢٧

(و)

وهـران ١٣٨

(ى)

يغـرا ٨٩
اليمن ٥٢، ٧٩، ٩٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرست الموضـــــوعات

الموضـــــوع	الصفحـة
مقدّمـــة	أ - ح
تمهيـد : الحياة الأدبية والفكرية في عهد نور الدين	١ - ١٩
الباب الأول : سيرة نور الدين مستقاة من الأدب في ضوء التاريخ	٢٠-٤٤
- حياتـــه	٢٠
- صفاتـــه	٣٢
الباب الثاني : نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصـــر الحروب الصليبيـــة	٤٥ - ١٣٤
الفصل الأول : الحاكم المسلم	٤٥ - ١٠٤
المبحث الأول : الإداري	٤٥
المبحث الثاني : السياسي	٥٦
المبحث الثالث : العسكري	٨٥
الفصل الثاني : صورة البطل المسلم	١٠٥ - ١٣٤
المبحث الأول : المجاهـد	١٠٥
أولاً : الجهاد ضدّ العـــدو	١٠٦
ثانيًا : الساعي لاسترداد المقدسات والأرض المحتلّة	١١٨
المبحث الثاني : الساعي للوحدة الاسلامية	١٢٤
المبحث الثالث : المقتدي بالسلف الصالح	١٣٠
الباب الثالث : نور الدين والأدباء	١٣٥-١٦٧
الباب الرابع : الدراسة الفنيّـــة	١٦٨-٢٣٦
الفصل الأول : الشعـــر	١٦٨
الفصل الثاني : النثـــر	٢٢٤
خاتمـة	٢٣٧
ثبت المصادر والمراجـــع	٢٤٠
فهرست الأعـــلام	٢٥٢
فهرست البلـــدان	٢٥٩
فهرست الموضوعـــات	٢٦٣
ملخّص باللغة الانجليزية	1 - 4

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

A B S T A C T

This thesis is a bout "Nur-Addin in Arabic literature During the crusades ".

The role of Nur-Addin as a major moslem leaders during the crusades has generally been overlooked by historians . Because of the glorious victories of the famous moslem leader, Saladin , Nur-Addin's achievements have unjustifiably been undermined . Only by understanding the conditions in which the moslems lived prior to Nur-Addin , can his significance be clarified .

Nur-Addin arrived on the scene to find the moslem nations in extremely deplorable conditions . Not only were they over powered by the crusaders , but were also in a state of disintegration; their integrity was lost, their loyalties were divided; they were becoming weaker and weaker .

The rise of Nur-Addin marks the beginning of a new era in the life of the moslems of that critical period in the Islamic history . Not only did he unite them , but also started launching successful attacks against the crusaders , thus paving the way for Saladin .

The character of this great moslem figure is worth studying . He was a truly moslem ruler , both as a man of principles who adhered to the teachings of Islam , and as aleader who devoted himself to defending the Islamic nations, religion , land and heritage . It is from the Koran and the Islamic tradition that he derived his political constitution .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Nur-Addin is also noted for his considerable influence on the literary movement in his time . Not only was he admired by historians , but by poets and prose writers as well .

Although the aim of this thesis is mainly to examine such an influence,other objectives connected with this aim are also involved . One such objective is to introduce the ideological and political history of this era . Notwithstanding the bitter conflicts that occurred during it , this era has not been sufficiently studied by scholars . Another objective is to throw light on the role that literature played in giving expression to the grieves and sufferings that the moslems passed through , and in evoking the spirit of Jihad in the hearts of the moslems.

A third is to do justice to Nur-Addin's role in attempting to liberate the moslem world and in defending it against the crusaders . Nur-Addin's significance has not been seriously considered by historians , who on account of Saladin's fame , took little notice of Nur-Addin . And finally , the writer of this thesis has observed the great similarity between the conditions in which the moslems of today live and the conditions in which the moslems of that era had lived on the eve of Nur-Addin's rise to power . History , as the writer has noted , is repeating itself . The moslems of today , he believes , can and should learn from the experiences of their ancestors .

3/...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit